

International Islamic
University
Pakistan - Islamabad
Faculty of *usuluddin*
Department of *Dawah* &
Islamic Culture



الجامعة الإسلامية العالمية
إسلام آباد - باكستان
كلية أصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

القيم بين الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية

في الهند

(دراسة وصفية تحليلية)

بحث تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

إشراف

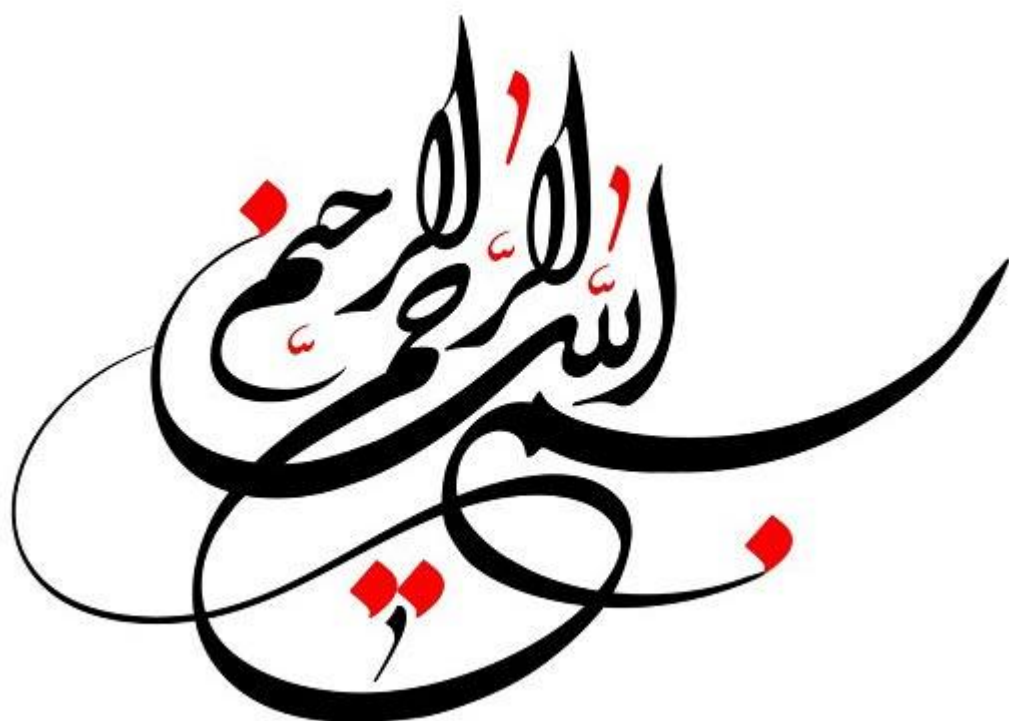
فضيلة الدكتور خليل الرحمن - حفظه الله -

إعداد الطالب

محمد معصوم عزيزي

٤٩٦-FU/PHDDIC/S٢١

العام الدراسي: ٢٠٢٥ م



الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع

إلى

والدي الكريم - رحمه الله - الذي لم يأل جهداً في تنشئتي وتربيتي

إلى

والدتي - حفظها الله - التي رعتني وأكرمتني بجزيل دعائها

إلى

جميع دعاة الإسلام، وعلماء المسلمين

إلى

جميع أساتذتي الذين أخذت العلم على أيديهم

ووصلت بجهودهم إلى هذه المرحلة.

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر إلى الله -تعالى- الذي يسر لي إتمام هذا البحث، فالفضل والشكر كله لله أولاً وآخراً. ثم أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى فضيلة الأستاذ المشرف الدكتور خليل الرحمن -حفظه الله ورعاه- الذي ما من بشيء من التوجيه، والمتابعة، والنصح، والإرشاد خلال إشرافه، رغم مشاغله الكثيرة، وظروفه الصحية أحياناً، فجزاه الله عني كل خير، وبارك فيه، وفي عمره، وصحته، ونفع به الأمة جمعاء.

وأقدم بالشكر الجزيل إلى مشايخي أساتذتي الكرام في قسم الدعوة الثقافية الإسلامية وكلية أصول الدين والدراسات الإسلامية، وإلى الجامعة الإسلامية العالمية التي أتاحت لي فرصة التعلم بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية.

كما أشكر كل من كان له فضل علي في إتمام هذا البحث، فجزى الله الجميع كل خير، وبارك فيهم، ووفقهم لما يحبه ويرضاه، ونفع بهم الأمة.

الباحث محمد معصوم (عزیزی)

المقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على عبده ورسوله النبي الأُمي، الذي أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وصحابته الطاهرين، ومن اقتفى أثرهم، وسار على هديهم إلى يوم الدين.

أما بعد، إن من أهم الميزات التي ميز الله بها هذه الأمة، أنها أمة خير ودعوة، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^١. فالدعوة إلى الله تعالى من أهم صفات هذه الأمة، وخصائصها.

التعريف بالموضوع:

لا شك أن القيم السامية ركن ركين، وجزء أصيل من الحضارة الإسلامية، حيث إنها لا تنبني على المادية البحتة، والمظاهر الحضارية الآلية، ولا على العقيدة فحسب، بل لا بد في تكوينها من القيم الأخلاقية، والإنسانية.

هذا الأمر يميز الحضارة الإسلامية عن كثير من الحضارات التي ألقت بجذورها على البسيطة، حيث إن معظمها تبنى على المادية البحتة، والمنافع الزائلة، أما القيم والعقيدة فلا تكاد تشرق إلا بعض جوانبها، أو ينطمس نور وجودها، فإدراك هذا الجانب العظيم مهم جدا لفهم ماذا خسر العالم باخطا المسلمين؟

ثم إنه يظهر هذا الأمر جليا بالبحث عن الدول التي حكمت فيها المسلمون فترة، وغير المسلمين فترة أخرى، ثم المقارنة بين القيم التي سادت تلك البلاد والمناطق في كلتا الدولتين، وبهذا يظهر جليا علو القيم الإسلامية ورفعتها على القيم غير الإسلامية.

وخير مثال في هذا الجانب المقارنة بين القيم التي سادت بلاد الهند فترة الحكومة التي أسسها أباطرة المغول على الإسلام والإيمان، وبين القيم التي سادت تلك البلاد زمن الاحتلال البريطاني، فالدولة الأولى دولة إسلامية، والسلطين كانت من المسلمين، والدولة الثانية دولة غير إسلامية، غزت تلك البلاد وحكمت فيها فترة غير قصيرة.

^١ - آل عمران: ١١٠.

فلازم علينا أن نقوم بدراسة ما خلفت كلتا الدولتين من الآثار والقيم، حتى نضع الخريطة والصورة أمام الناس جميعاً، ونبين البون الشاسع بين دولة تريد الخير، والفلاح، والسعادة للشعب، ودولة تريد غزو البلاد، وتخطيط الحدود، وإراقة دماء الأبرياء لكي يدر بالمنافع والأموال من وراء هذه المحاولات السيئة.

أهمية الموضوع:

تتضح أهمية موضوع "القيم بين الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية في الهند" فيما يلي:

١. دراسة القيم التي سادت بلاد الهند فترة هاتين الدولتين، والمقارنة بينهما توضح الفرق بين الجهاد وفتح البلاد لنشر الإسلام، والاستعمار الذي قام به كثير من البلاد غير الإسلامية للحصول على ثروات البلاد وخيراتها.

٢. إن هذه الدراسة توضح بشكل تفصيلي جزءاً مهماً من تاريخ المسلمين توضيحاً يرفع الستار عن كثير من الجوانب الغامضة، ويزيل الزوابع المملوءة بالغبار.

٣. هذه الدراسة تعد تحفيزاً لإقامة الدول الإسلامية العادلة والعيش في ظلها، حيث إنها تأمن خير الدنيا والآخرة، ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين يلجأون إلى البلاد الغربية لأجل الظلم الذي يمارسه بعض الحكومات الإسلامية على البسيطة.

٤. هذه الدراسة تبعث الأمل في قلوب المسلمين بامتلاكهم تاريخاً مشرقاً، وتراثاً مضيئاً قيماً، وهذا من أسباب تعزيز القيم، وتفعيل دورها في المجتمعات، وإزالة الأوساخ التي تعلقت بسمعة المسلمين.

أسباب اختيار الموضوع :

هناك عدة أسباب دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع، ويمكن لي أن أخصها فيما يلي:

١. قلة اعتناء الدارسين بمقارنة القيم التي كانت تسود الحكومات الإسلامية وغيرها، وهذا أدى إلى طعن كثير من المنافيين والعلمانيين في التاريخ الإسلامي، وتفضيل تراث غير المسلمين على تراث المسلمين.

٢. إبراز جانب من الظلم والاستبداد الذي مارسه الراج البريطاني على سكان بلاد الهند، لا سيما على المسلمين، حتى يتضح وجه الاستعمار المظلم، وأنه كيف ابتلع بلاد المسلمين.

٣. إبراز دور الحكومات المسلمة في ترسيخ المفاهيم الإسلامية، وتبديد دور برامج العدو وخططه، وهذا مما ييث الأمل في قلوب الذين يعملون في المجالات الدعوية.

الدراسات السابقة:

إن موضوع «القيم بين الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية في الهند» موضوع رائع ممتع للذين يريدون نشر هذا الدين إلى العالم كله، ورفع رايات الإسلام في أكناف الأرض، وإن أهم المراجع و الدراسات التي اطلعت عليها هي:

- ١- كتاب "تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند" للدكتور جمال الدين الشيال، نشر في ١٩٢ صفحة من قبل مكتبة الثقافة الدينية، سنة ٢٠٠١ م. وهذا الكتاب يناقش تاريخ حكم أباطرة المغول المسلمين في الهند وتأثيرهم السياسي والثقافي.
- ٢- كتاب "الاستعمار البريطاني في الهند" للشيخ إبراهيم عبد المجيد، نشر في ٧٤ صفحة من قبل مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٩٠ م. ويتناول هذا الكتاب مظاهر الاستعمار البريطاني في الهند وآثاره على المجتمع الهندي.
- ٣- كتاب "التغلغل البريطاني في الهند" للشيخ جاسم محمد هادي القيسي، نشر في ٢٠٦ صفحة من قبل دار الكتب الوثائق العراقية، سنة ٢٠٠١ م. ويشرح هذا الكتاب مراحل التغلغل البريطاني في الهند وأساليبه في السيطرة التدريجية.
- ٤- كتاب "المسلمون في الهند" للشيخ نظام الدين أحمد بن محمد مقيم، نشر في ٤٩٩ صفحة من قبل الهيئة المصرية، سنة ١٩٩٥ م. مستعرضاً أوضاع المسلمين في الهند من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية.
- ٥- كتاب "ظلم بريطانيا في الهند" المساهم: الحزب الوطني الهندي، نشر في ٩٤ صفحة من قبل الحزب الوطني الهندي، سنة ١٩١٧ م. وهذا الكتاب يفصح ممارسات بريطانيا الظالمة في الهند من منظور وطني هندي.
- ٦- كتاب "القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة" للدكتور مانع بن محمد بن علي المانع نشر في ٤١٦ صفحة من قبل دار الفضيلة، سنة ١٤٢٣ هـ. وهذا الكتاب يناقش الفروق الجوهرية بين المنظومة القيم الإسلامية والغربية، ويعتمد على منهج تأصيلي مقارن في تحليل المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية.

٧- كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" لعللي عزت بيغوفيتش، نشر في ٤٠٧ صفحة من قبل مؤسسة بافاريا، سنة: ١٩٩٧م. وهذا الكتاب من أشهر الكتب التي تتناول التفاعل الفلسفي بين الإسلام والحضارة الغربية، ويعرض رؤية متوازنة بين الروحانية الإسلامية والمادية الغربية.

٨- كتاب "الغرب والإسلام: أين الخطأ؟ وأين الصواب؟" للدكتور محمد عمارة، نشر في ٢٧١ صفحة من قبل مكتبة الشروق الدولية، سنة ٢٠٠٤م. يناقش الكتاب التصورات الخاطئة المتبادلة بين الغرب والإسلام، ويحلل القيم المشتركة والمختلفة بين الحضارتين.

الفرق بين دراستي والدراسات السابقة

معظم الدراسات السابقة عبارة عن كتب وليست رسائل علمية، كما أنه بعد استعراض تلك الدراسات ومن خلال مراجعتها، يلاحظ غياب دراسة أكاديمية منهجية، تقارن بين الأنظمة القيمية التي سادت بلاد الهند تحت حكم الإمبراطوريتين وتبرز أثر هذه القيم على الدعوة والثقافة الإسلامية، وأما دراستي فقد ركزت فيها على القيم والأخلاقيات التي كانت تسود بلاد الهند في كلتا الفترتين.

مشكلة البحث:

تتكون مشكلة البحث من سؤال رئيسي وهو: إلى أي مدى اختلفت القيم التي سادت بلاد الهند بين فترتي الحكم الإسلامي المغولي وفترة الاستعمار البريطاني، وما أثر هذا الاختلاف على المجتمع الهندي في المجالات الدينية والاجتماعية والثقافية؟ ويتفرع من هذا السؤال عدة أسئلة فرعية كما يلي:

- ١- ما القيم التي سادت بلاد الهند فترة سلطة الإمبراطورية المغولية الإسلامية في الهند؟
- ٢- ما القيم التي سادت بلاد الهند فترة سلطة الاستعمار البريطاني في الهند؟
- ٣- ما هي ميزات القيم التي سادت فترة الحكم الإسلامي على التي سادت فترة الحكم الجاهلي؟
- ٤- ما هي القيم والأخلاقيات التي ورث الناس في بلاد الهند من كلتا الدولتين؟
- ٥- ما هي الإيجابيات والسلبيات التي يجب تطبيقها، أو تفاديها في نشر الدعوة والثقافة الإسلامية؟

أهداف البحث

انطلاقاً من التعريف بالموضوع، وأهمية الدراسة، وأسباب اختيارها، ومشكلة البحث، يمكن صياغة أهداف هذا البحث على النحو التالي:

١. توضيح كيف ساهمت هذه القيم في بناء مجتمع متماسك يقوم على العدل، والتسامح، والتعايش بين مختلف الطوائف.
٢. الكشف عن مظاهر الاستغلال، والتمييز، والظلم الاجتماعي والسياسي الذي عانى منه السكان، خاصة المسلمون.
٣. بيان الفروق الجوهرية بين قيم الجهاد وفتح البلاد لنشر الإسلام، وبين قيم الاستعمار القائمة على استغلال الثروات والسيطرة.
٤. دراسة ما خلفته الإمبراطورية المغولية من تراث حضاري وقيمي في الهند.

منهج البحث:

المنهج العلمي الذي سأتبع في دراستي لهذا الموضوع هو المنهج الوصفي التحليلي، حيث يقوم الباحث بوصف الأحوال والظروف التي جرت في الهند خلال فترة أباطرة المغول، والإمبراطورية البريطانية في الهند، ثم بتحليلها، ومقارنة قيم كلتا الدولتين، وبيان ميزات القيم الإسلامية على القيم غير الإسلامية.

حدود البحث:

يتمحور حدود الدراسة على الفترة التي حكمت الإمبراطورية المغولية الإسلامية بلاد الهند من عام: ١٥٢٦م حتى ١٨٥٨م، والفترة التي احتلت الاستعمار الإمبراطورية البريطانية بلاد الهند من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين.

خطوات البحث:

سلكت في هذه الدراسة الخطوات التالية:

١. ذكرت أرقام الآيات وأسماء السور.
٢. اتبعت في تخريج الأحاديث المنهج الآتي:
- أحلت على مصدر الحديث بذكر الباب، ثم بذكر الجزء والصفحة، ورقم الحديث، إن كان مذكوراً في المصدر.
- إن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما.
- إن لم يكن في أي منهما، قمت بتخريجه من المصادر الأخرى المعتمدة، وذكرت حكمه.
٣. ترجمت للأعلام غير المشهورين.
٤. شرحت الكلمات الغريبة من كتب الغريب.
٥. عزوت الأقوال والآراء إلى أصحابها في مصادرها.

خطة البحث

تشتمل على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وقائمة بالفهارس، والمصادر، والمراجع بالترتيب الآتي:

المقدمة: تشتمل على التعريف بالموضوع، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، ومنهج البحث، وخطوات البحث، وحدود البحث، وخطة البحث.

التمهيد: يحتوي على أمور:

- الأمر الأول: القيم، تعريفها وخصائصها
- الأمر الثاني: التعريف بـ "الإمبراطورية"
- الأمر الثالث: التعريف بـ "المغول"
- الأمر الرابع: جغرافية الهند وموقعها في العالم
- الأمر الخامس: نبذة عن تاريخ دخول الإسلام بلاد الهند
- الأمر السادس: التعريف المختصر لأبرز السلاطين المغولية

الباب الأول

الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها، وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الفردية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الإنسانية.

المبحث الثاني: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الفكرية.

المبحث الثالث: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها العلمية.

الفصل الثاني: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الاجتماعية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الأخلاقية.

المبحث الثاني: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها السياسية.

المبحث الثالث: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الحضارية.

الباب الثاني

الإمبراطورية البريطانية، وقيمها، وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإمبراطورية البريطانية وقيمها الديمقراطية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الحرية.

المبحث الثاني: مراعاة حقوق الأقليات والطبقات الضعيفة.

المبحث الثالث: المساهمة في الحكم والأمن.

الفصل الثاني: الإمبراطورية البريطانية وقيمها التنموية ، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تحسين الاقتصاد

المبحث الثاني: الاهتمام بالتعليم

المبحث الثالث: العناية بالصحة

الباب الثالث

المقارنة بين قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية وتراثهما في الأجيال

اللاحقة،

وفيه فصلان:

الفصل الأول: المقارنة بين قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية، وفيه

مبحثان:

المبحث الأول : تلبية شهوة المال وآثارها السيئة

المبحث الثاني: تلبية شهوة الجاه والسلطة وآثارها السيئة

الفصل الثاني: تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية ودفع الشبهات،

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية

المبحث الثاني: دفع الشبهات عن قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية

الخاتمة : وتشتمل على:

أولاً : أهم النتائج.

ثانياً : التوصيات.

الفهارس :

١. فهرس الآيات القرآنية الكريمة.

٢. فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

٣. فهرس الأماكن والبلدان.

٤. فهرس المصادر والمراجع.

٥. فهرس الموضوعات.

التمهيد

وفيه ستة أمور:

- الأمر الأول: القيم، تعريفها وخصائصها
- الأمر الثاني: التعريف بـ «الإمبراطورية»
- الأمر الثالث: التعريف بالمغول
- الأمر الرابع: جغرافية الهند وموقعها في العالم
- الأمر الخامس: نبذة عن تاريخ دخول الإسلام بلاد الهند
- الأمر السادس: التعريف المختصر لأبرز السلاطين المغولية

الأمر الأول

القيم، تعريفها وخصائصها

قبل الخوض في غمار القيم بين الإمبراطورية المغولية الإسلامية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية لا بد أن نتعرف على تعريف القيم وبيان خصائصها، سواء في الرؤية الإسلامية أو الرؤية الغربية، حتى يتيسر لدى القارئ تحليل النصوص التي سيواجهها أثناء مراجعة الرسالة، فأراد الباحث أن يتطرق أولاً إلى ذكر تعريف القيم، ثم ذكر خصائص القيم الإسلامية والقيم الغربية، وأبرز الفروق بينهما.

المطلب الأول: التعريف بالقيم

أ: القيم لغة

القيم، جمع قيمة وتطلق هذه الكلمة في اللغة العربية على ما يلي:

١. قيمة الشيء وثمنه، قال ابن منظور^١ في اللسان: "والقيمة: واحدة القيم، وأصله الواو، لأنه يقوم مقام الشيء. والقيمة: ثمن الشيء بالتقويم. تقول: تقاوموه فيما بينهم"^٢.
٢. الثبات والاستمرار، قال الفيروزآبادي^٣: "والقيمة، بالكسر: واحدة القيم. وما له قيمة: إذا لم يدم على شيء"^٤.
٣. نظام الأمر وعماده، قال الراغب^٥: "والقيام والقوام: اسم لما يقوم به الشيء. أي: يثبت، كالعماد والسناد: لما يعمد ويسند به"^٦.

١ - محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي، صاحب (لسان العرب) : الإمام اللغوي الحجة. من نسل رويغ بن ثابت الأنصاري. ولد بمصر (وقيل: في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة. وعمل في آخر عمره. توفي سنة: ٧١١ هـ. (الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، (١٠٨/٧).

٢ - ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، (٥٠٠/١٢).

٣ - محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي: من أئمة اللغة والأدب. ولد بكارزين (بكسر الراء وتفتح) من أعمال شيراز. وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. توفي سنة: ٨١٧ هـ. (الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، (١٤٦/٧).

٤ - انظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م. (١١٥٢).

٥ - الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. توفي سنة: ٥٠٢ هـ. (الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، (٢٥٥/٢).

٤. الاستقامة والاعتدال، قال الفيروزآبادي: "وقومت السلعة واستقمته: ثمنته. واستقام: اعتدل. وقومته: عدلته، فهو قويم ومستقيم"^٢.

ولعل أقرب ما ذكرنا من المعاني اللغوية إلى موضوع البحث هو المعنى الثاني أعني الثبات والاستمرار على الشيء؛ لأن الإنسان يحافظ على الأمر الثابت ويداوم على مراعاته في جميع شؤونه.

ب: مفهوم القيم اصطلاحاً

تعددت تعريفات القيم من الناحية الاصطلاحية بين علماء المسلمين والغربيين المعاصرين بحسب اختلافهم في التفكير والاعتقاد والسلوك، ثم اختلف كل فريق منهما فيما بينهم ، فعرفوه بعدة تعريفات: أولاً: المفهوم الاصطلاحي للقيم في الإسلام

١. "مجموعة من القواعد التي تقوم عليها الحياة الإنسانية ، وتختلف بها عن الحياة الحيوانية"^٣.
٢. القيم عبارة عن "مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه و نقيس به و نحدد على أساسه المرغوب فيه و المرغوب عنه "^٤.

٣. "حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتدياً بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محمداً المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك"^٥.

من خلال هذه التعريفات للقيم يمكن لنا أن نستنتج هذه الأمور:

- ١- منبع القيم في الإسلام هي الشريعة الإسلامية.
- ٢- القيم هي التي تحدد تفكير المسلم في حياته العقدية والاجتماعية والسلوكية.
- ٣- إنها المعيار الذي تعرف به قيمة الأشياء وقدرها سواء كانت مادية أم معنوية.
- ٤- إنها الميزان الذي توزن به شؤون الحياة الفردية والاجتماعية ويتحدد من خلالها جميع الأعمال البشرية؛ فيتميز بها المجتمع الإسلامي عن غيره.

١ - انظر: الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، المفردات في غريب القرآن المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ، (٦٩٠).

٢ - انظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، (١١٥٢).

٣ - أ.د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي «وآخرون» ، الثقافة الإسلامية: تخصصاً - ومادة - وقسماً علمياً ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ، ص: ١٤٤.

٤ - د. صالح بن حميد «وآخرون» ، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، الناشر : دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة : الرابعة، (١ / ٢٨٦).

٥ - د. حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، الناشر: عالم الكتب، الطبعة الخامسة: ١٩٨٤م، (١٣٢).

ثانياً: مفهوم الاصطلاحي للقيم في الفكر الغربي

اختلفت آراء المفكرين الغربيين في تعريف القيم اختلافاً كبيراً، وبعضهم يخبر عن غموض هذا المفهوم عندهم. قال رالف بارتون بيرري^١: "والحقيقة أنه لا يوجد للقيمة معنى ثابت عام"^٢.

ولا شك أن هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف المدارس والمذاهب والتخصصات، فكل من انتمى إلى مذهب أو مدرسة علمية أو تخصص ، اختار تعريفاً خاصاً من وجهة نظره، فنحن نعرض أشهر هذه التعريفات ثم نختار من بينها ما هو الراجح منها:

١- القيم في المجال الاقتصادي: "قيمة التبادل؛ والقيمة بهذا المعنى يقصد بها السعر المقدر للسلعة. ومع ذلك يميز بين القيمة والسعر على أساس أن القيمة حقيقية، بينما السعر اعتباري (conventional) بحسب التراضي بين المتبادلين للسلعة، ولهذا قد تكون أكبر أو أقل من السعر"^٣.

٢- تعريف القيم في المجال السياسي: هي "المقاييس أو المبادئ التي يمكن الاختيار من خلالها بين البدائل في مجرى العقل ، بمعنى آخر: إنها العامل المعياري في تحديد الفعل"^٤.

٣- القيم في مجال علم الاجتماع والتربية: "محطات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف الفردية والجماعية من حيث حسناتها وقيمتها والرغبة بها ، أو من حيث سوءها وعدم قيمتها وكرهيتها ، أو في منزلة معينة ما بين هذين الحدين"^٥.

التعريف المختار للقيم: وبعد دراسة هذه التعريفات والتعمق فيها، يتضح لنا أن في أكثرها تحبط واختلاف شديد وتباين وغموض ولكن مع ذلك يمكن أن نختار هذا التعريف الثالث ونعده من أجود ما قيل في تعريف القيم عند المفكرين الغربيين لأنه أشمل وأعم من سائر التعاريف.

^١ - رالف بارتون بيرري (مواليد ٣ يوليو ١٨٧٦، بولتي، فيرمونت، الولايات المتحدة - توفي ٢٢ يناير ١٩٥٧، كامبريدج، ماساتشوستس) كان مربيًا وفيلسوفًا أمريكيًا مشهوراً بكونه مؤسس مدرسة الواقعية الجديدة في الفلسفة البراغماتية الأمريكية. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١٨, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/biography/Ralph-Barton-Perry>)

^٢ - راف بارتون بيرري ، آفاق القيمة -دراسة نقدية للحضارة الإنسانية، ترجمة/ عبد المحسن عاطف سلام، مراجعة / محمد علي العريان، تقديم / زكي نجيب محمود، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، (١٢).

^٣ - د. عبد الرحمن بدوي ، الأخلاق النظرية، الناشر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ٢٠٢٠م، (٨٩).

^٤ - د. محمد أحمد بيومي ، علم اجتماع القيم، دار المعرفة، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م، (٧٧).

^٥ - د. ماجد عرسان الكيلاني ، فلسفة التربية الإسلامية، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى: ١٩٩٨م، (٣٣٨).

المطلب الثاني: خصائص القيم الإسلامية والقيم غير الإسلامية

أ: أبرز خصائص القيم الإسلامية

للقيم الإسلامية خصائص كثيرة لا مجال لبيان جميعها بالتفصيل في تمهيد هذه الرسالة، فنكتفي بذكر أبرزها وأهمها.

١. العدل

الإسلام يدعو إلى العدل وينهى عن الظلم والجور. والشرعية الإسلامية بكل ما تشمل من قيم ومبادئ تتصف بالعدل والانصاف والكمال، وتخلو من الظلم والنقص؛ والعدل في الإسلام يشمل كل جوانب الحياة البشرية من الأقوال والأعمال، ولا فرق في الإسلام بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى، والإسلام يأمر جميع المسلمين بالعدل والقسطاس وينهاهم عن الظلم والهوى، قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^١. وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^٢.

وعن أبي ذر، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في ما يحكي عن ربه - تبارك وتعالى -: «يَا عِبَادِي إِيَّيَّ حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»^٣.

٢. قدسية القيم

للقيم الإسلامية صلة بذات الفرد، لأنها تنبع عن اعتقاده وإيمانه فكلما ازداد إيمانه ورسخ اعتقاده، ازداد تمسكه بقيمه وكملت أخلاقه؛ فتمسك المسلم بالقيم الدينية دليل قوي على إيمانه، ولذا فإن التزام المسلم بالقيم الشرعية والاستمسك بها مظهر من مظاهر التعبد وما دام المؤمن في عمل يرتضيه الله - تعالى - فهو في عبادة. أما القوانين الوضعية فليس لها مثل هذا الطاعة التي توجد في القيم الإسلامية.

٣. خلود القيم ووضوحها

مما لا ريب فيه أن الإسلام هو الدين المحفوظ أصله من التحريف والتبديل، وذلك لأن الله - تبارك وتعالى - قد تكفل بحفظ مصادر الشريعة وأصولها من الكتاب والسنة على ممر الأزمان والدهور، فلم

١ - النساء: ٥٨.

٢ - النساء: ١٣٥.

٣ - القشيري، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، الناشر: دار إحياء التراث العربي، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٤ / ١٩٩٤)، رقم الحديث: ٢٥٧٧.

يتسرب التغيير والتحريف إلى ألفاظهما ومبانيهما ، كما قال - سبحانه وتعالى - { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }^١.

إن القرآن الكريم يدعو إلى التمسك بالقيم، وكذلك نصوص السنة النبوية واضحة في الدعوة إلى القيم، كما روى أبوهريفة رضي الله عنه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^٢. ولهذه الخاصية نتائج ملموسة في قوة هذه القيم وثباتها ولها آثار واضحة على المجتمعات الإسلامية.

٤. القيم الإسلامية مرتبطة بالجزاء الديني والأخروي

يترتب على الالتزام بالقيم الإسلامية المثوبة والأجر ورضى الرب - سبحانه وتعالى - في الدنيا والآخرة ، كما أن الإعراض عنها وانتهاكها يفضي إلى غضبه وعذابه الديني والأخروي، وهذا بخلاف الجزاء في القوانين الوضعية، فهو دنيوي فقط.

٥. الشمول والعموم

إن القيم الإسلامية قد احتوت جوانب الحياة الإنسانية بجميع مجالاتها الروحية والجسمية، والفردية والاجتماعية، والدينية والدينية؛ فلكل جانب من الجوانب الإنسانية سواء كانت داخلية أم خارجية قيم. فعلى سبيل المثال: لكل واحد من الفكر والاعتقاد والقلب والنفوس والسلوك قيم. فمن قيم الفكر تحري الحقيقة بإنصاف وتجرد، والصبر على التفكير ، والبحث عن كل ما هو نافع ومفيد من الأفكار والمعارف ، وترك النقائص والذائل التي يجب على الإنسان أن يجتنبها لتمييز بالارتقاء في سلم القيم الإسلامية العالية.

ومن قيم الاعتقاد أن لا يسمح الإنسان لنفسه باتباع الأوهام والظنون الضعيفة ليجعلها في معتقداته الثابتة الراسخة.

ومن قيم القلب حب الحق وحب الخير ، وكرهية الباطل والشر وعدم حمل الأحقاد والضغائن. ومن قيم النفس الصبر والعفة ، ومجانبة الحسد ، وعلو الهمة ، وجود النفس وتسامحها وعفوها عن إساءة المسيء.

^١ - الحجر: ٩.

^٢ - الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، الناشر: دار التأصيل، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - رقم الحديث (٤٢٧٣) ، قال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرَجْهُ " ، ووافق عليه الذهبي.

وقيمة السلوك كثيرة وهي تعبير عما في داخل الإنسان من قيم ، ويقابلها نقائص ورذائل يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها، وبهذا يتبين شمول القيم لكل الجوانب الإنسانية المختلفة^١.

وكما أن القيم الإسلامية شاملة لجميع جوانب الحياة البشرية، كذلك عامة تشمل جميع أفراد الأمة من عربي وأعجمي وأسود وأبيض في جميع الأوضاع والأحوال، وفي مختلف الأمكنة والعصور بغير تفرق. والقيم الإسلامية تنظر إلى كل الناس نظرة عدل ومساواة، ولا يفرق بين المسلم وغيره، فبناء على ذلك العدل واجب على المسلم وغير المسلم، والعدوان والظلم والسرقة حرام على المسلمين وغيرهم، قال الله - تبارك وتعالى - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى»^٢.

٦. الملاءمة للفطرة

القيم في الإسلام ملاءمة للفطرة والطبيعة البشرية؛ لأنها تقوم على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية وهما ملائمان للفطرة البشرية، قال - سبحانه وتعالى - : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^٣.

٧. الإيجابية

والمقصود بالإيجابية النصح وإيصال الخير والفلاح إلى الآخرين فالمسلم الذي هو حامل للقيم الإسلامية لا يكفي بأن يكون صالحا، بل يسعى أن يكون صالحا لنفسه ومصلحا للآخرين وناشرا للخير في المجتمع ، وهذه الإيجابية تنبعث من إيجابية الإسلام نفسه ، لأنه يدعو المسلمين للتفاعل مع المجتمع الإنساني وينهى عن العزلة وحجر النفس عن واقع الحياة.

ومن الإيجابية أن يكون المسلم عاملا في المجتمع ، نافعا للأمة كما وصاه بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث قال: «كُلُّ سَلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ» قَالَ: «تَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ» قَالَ: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^٤.

٨. القيم الإسلامية جامعة للثبات والمرونة

١ - انظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حنيفة، الأخلاق وأسسها، الناشر: دار القلم، الطبعة الخامسة: ١٩٩٩م، (١/٥٥-٥٦).

٢ - المائدة: ٨.

٣ - الروم: ٣٠.

٤ - القشيري، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢/٦٩٩)، رقم الحديث: ١٠٠٩.

تنقسم القيم في الإسلام إلى قسمين:

القيم العليا: وهي ثابتة لا تقبل التغير والتبديل، وهي الأساس كالقيم العقدية وما يتعلق بالله -تعالى- من توحيده وإثبات أسمائه وصفاته وإفراده بالألوهية والربوبية ، وقيم العبادات والمعاملات ، وقيم مكارم الأخلاق ، وقيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغيرها من أصول الإسلام ، ومقاصد الشريعة التي تتمثل في حفظ ضرورات الخمس ، أي الدين ، والنفس ، والعقل ، والمال ، والعرض.

والقيم الأخرى التي تقبل المرونة والتغير: وهي التي تعتمد على النص الظني ويجوز فيها الاجتهاد. والتغير يأتي من جهتين: جهة المنظور إليه وجهة الناظر، وفي ذلك قال العلماء: "إن الفتوى تتغير بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد"^١.

قال ابن القيم^٢ في "إغاثة اللهفان في مصاديد الشيطان" الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة، ولا الأمكنة، ولا اجتهد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك. فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهد يخالف ما وُضع عليه. والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً، كمقادير التعزيرات، وأجناسها، وصفاتها؛ فإن الشارع يُنَوِّعُ فيها بحسب المصلحة"^٣.

وبهذا تبين أن القيم الإسلامية جامعة بين الثبات والتغير في أصول وقواعد مقررة حيث توضع كل واحد من الثبات والمرونة في موضعه الصحيح ، الثابت فيما يجب أن يخلد ، والمرونة فيما يصلح أن يتطور.

٩. التوازن في القيم الإسلامية

القيم في الإسلام تجمع بين حق الجسم وحق الروح فلا تحرم الجسم من النعم بتعذيبها كما في البرهمية الهندية ، والرهبانية المسيحية وغيرها ، ولا تغفل عن أمر الروح كما هو في اليهودية إلى حد كبير وفي المذاهب المادية التي لم تعترف للروح بوجود.

^١ - ابن القيم الجوزي، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ، (٤١/١).

^٢ - محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعِيّ الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه... وألّف تصانيف كثيرة. توفي سنة: ٧٥١ هـ. (الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، (٥٦/٦).

^٣ - ابن القيم الجوزي، محمد بن أبي بكر، إغاثة اللهفان من مصاديد الشيطان ، المحقق: محمد حامد الفقي ، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، (٣٣١/١).

وكذلك القيم الإسلامية توازن بين الدنيا والآخرة ، بخلاف اليهودية التي تجعل هذا العالم المادي أكبر همها وغاية حياتها ، وبخلاف النصرانية التي تحصر جل توجيهها إلى العالم العقبى ، ولكن الإسلام يجمع ويمزج بين الحياتين الدنيوية والأخروية.

ومن ذلك: التوازن بين الحقوق والواجبات فلكل واحد من أفراد المجتمع حقوق معلومة وواجبات معينة ، فلا مجال لإطلاق العنان باسم الحرية - كما هو المشاهد في الفكر الغربي - ولا لإرهاقه بكثرة الواجبات.

١٠. القيم الإسلامية والواقعية

القيم في الإسلام تتصف بالواقعية، فهي ليست من قبيل الخيال المحض حتى لا يمكن تحقيقها في ميدان الحياة البشرية، وإنما هي حقيقة تتوافق مع الواقع وتلائم طبيعة الإنسان، فالقيم في الإسلام مرغوب فيها تشمل على صفات مثل المروءة والحياء والإيثار والتواضع وغيرها من الصفات التي يميل الإنسان بطبعه إليها ، فبناء على ما ذكرنا فإن القيم الإسلامية واقعية ممكنة التطبيق في الحياة الإنسانية في كل الأمكنة والأزمنة.

ب: أبرز خصائص القيم غير الإسلامية:

القيم غير الإسلامية لم تتصف بالخصائص والمقومات التي تجعلها واضحة منضبطة متميزة ولكنها تركز على حصول اللذة والمنفعة الدنيوية وتلبية الحاجات المادية والمصالح الفردية؛ لأن أصحاب هذه القيم يرون أن المجتمع هو الذي يصنع القيم وليس العكس، أى: أن القيم هي التي تصنع المجتمع. وهذا الذي سنذكره إنما ذكره أبرزه قادة الفكر الجاهلي المعاصر، مع أنها في الحقيقة عيوب ونقائص لحقت بالقيم الجاهلية وسنذكر أبرز هذه الخصائص بالتفصيل في ما يأتي:

١. تحقيق اللذة

يرى الكثير من الغربيين أن تحقيق اللذة خاصية تميزت بها القيم، فقد كانت اللذة فردية ثم تحولت بعد ذلك إلى تحقيق اللذة لأكثر عدد ممكن من الناس وهو ما يسمى بالمنفعة.

ثم إن مذهب اللذة على نوعين: مذهب اللذة الأناني ، الذي يرى أن على الفرد أن يبحث عن أقصى قدر من اللذة لنفسه وأن يبتعد ما أمكنه عن الألم. ومذهب اللذة العام ، وهو ما يعرف بمذهب المنفعة الذي يستهدف تحقيق اللذة لا للفرد وإنما لأكثر عدد من الناس. وأما مذهب اللذة الأخلاقي الأناني ، فهو يرى أن الفعل يكون صائباً إذا ما حقق لفاعله أكبر قدر من اللذة ، ولا يهم ما قد يحدثه

من ألم للآخرين ، ومن ثم فالواجب على كل إنسان تحقيق أقصى قدر من اللذة لنفسه من هذه الحياة ، وأن يكون هذا الواجب هو الواجب الوحيد^١.

٢. إشباع الرغبة

يعتبر إشباع الرغبة من خصائص القيم الجاهلي كما صرح به غير واحد من مفكريهم. يقول سبينوزا^٢: "إن الإنسان يتبع شهواته ، وهذه الشهوة هي ما تنزع الكائن إلى البقاء في الوجود ، ولهذا فإنه يعمل ويبحث عما يلائمه ابتغاء النافع ، وبحسب أنه حر ويرى أن الخير هو كل ما يسهم في حفظ جسمه وأن الشر هو كل ما يضاد ذلك. ولهذا فإن الإنسان يحكم بأن هذا الأمر خير؛ لأنه يتطلع إليه ويريده ويشتيه ويرغب فيه"^٣.

فالخير هو ما يلي رغبة الإنسان وشهواته والشر هو ما يخالف ذلك، فلا معيار عند هذا الفيلسوف ولا ميزان للخير والشر إلا الرغبة والشهوة والميل، ولا شك أن هذا المعيار أوهن من بيت العنكوت لقوم يعقلون، وقد أثبت التجارب المتواترة والملاحظات المتكررة أن الإنسان يحب شيئاً وهو شر له، ويكره شيئاً وهو خير له.

٣. تلبية الحاجات المادية

يركز الفكر الجاهلي على المادة، ويفسر النشاط الإنساني بأنه تابع من الجسد ولا اعتناء لها بجوانب الخلقية والروحية، فعنده التجريب هو القاعدة والأساس، وبناء على أن الصفات العليا البشرية لم يكتشفها المعمل فهي إذن لا وجود لها، فتلبية الحاجات المادية ، تعد خاصية من خواص القيم الجاهلية، فالدين والأخلاق، لا وجود لهما في الإنسان ، لهذا يسعون إلى متعة الجسد المادية وينكرون الجوانب الروحية والخلقية.

١ - انظر: وليام ليلي ، المدخل إلى علم الأخلاق ، ترجمة وتقديم وتعليق: د. علي عبد المعطى محمد، الناشر: دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، الطبعة الأولى: ١٩٩١ م، (٢٦٨-٢٧٠).

٢ - باروخ سبينوزا (ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢، أمستردام - توفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧، لاهاي) كان فيلسوفاً يهودياً هولندياً، وهو واحد من أبرز ممثلي العقلانية في القرن السابع عشر وواحد من الشخصيات المؤثرة والبارزة في عصر التنوير. عمله الرئيسي هو المعالجة "الأخلاق" (١٦٧٧). (Britannica, Written by Richard H. Popkin Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١٨, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Benedict-de-Spinoza>)

٣ - انظر: رمون روبه، فلسفة القيم ، الترجمة: عادل العوا ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٠، ص: ١٣٣.

أصبحت المادية هي المعيار والمقياس الوحيد الذى يقيم بها كل شيء بما ذلك الإنسان نفسه وما يتعلق به من أمور حياته، وبذلك انحلت القيم وانتشرت عبادة المادة فى الغرب ، وتبع ذلك كثرة الانتحار والقتل والسرقة والشذوذ الجنسى^١ ونحوه^٢.

ولا مراء أن المادية التى سلكها الغربيون وجعلوها سمة للقيم جرّت على الإنسان الويلات والنكبات وجعلته فى مجتمع موحش. لقد انهارت القيم فى المجتمع الغربي عند ما انفصلت القيم عن الدين وأصبح الخطورة تزداد يوماً بعد يوم ، وهذا الانفصال شامل فقد خرجت السياسة عن القيم ثم خرج الاقتصاد عن القيم ثم خرج الجنس عن القيم ولم يبق رصيد من الفضائل ، كل ذلك بسبب الانغماس فى المادة والجري ورائها فى الجاهلية الحديثة^٣.

وهذا بخلاف القيم الإسلامية حيث تراعى العدل فى كلا الجانبين، فلا تميل إلى المادية كل الميل حتى تنسى القيم الروحية، ولا إلى الروح والنفس حتى تنسى المادة والجسم، بل الأمر فى الشريعة الإسلامية تؤول إلى مراعاة العدل بينهما لمن تأمل وفكر.

المطلب الثالث: الفرق بين القيم الإسلامية والقيم غير الإسلامية

ومما يجب أن يعلم أنه لا فرق بين الجاهلية الأولى التى كانت قبل ظهور دين الإسلام ، والجاهلية المعاصرة إلا فى الأشكال والصور، وأما فى الحقيقة فكلتاها واحدة.

إن تاريخ البشر كله على الأرض لا يخرج عن أحد هذين الوضعين: الهدى أو الضلال^٤.

هناك فرق واضح بين قيم الإسلامية و بين قيم غير الإسلامية، نلخصها فى ما يلي:

١. إن المفهوم الإسلامى للقيم ينطلق من منطلق الشريعة الإسلامية، ومستمد من كتاب الله والسنة النبوية الصحيحة وليس بميزان الفكر الإنسانى القاصر، ولا بميزان التفاعل البشرى.

٢. للقيم الإسلامية، مفهوم واضح، جلي، بعيد عن الغموض والإبهام والتخبط، بخلاف القيم غير الإسلامية فإنها تتميز بالغموض والتخبط الواضح فى كثير من عناصرها كما اعترف به كثير من الباحثين

١ - الشذوذ الجنسي، هو اشتهاى جنسي يديه الفرد نحو أفراد جنسه الخاص مما يعدّ خروجاً عن المألوف فى العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. (أديب اللجمي-شهادة الخوري - البشير بن سلامة-عبد اللطيف - نبيلة الرزاز، المعجم المحيط، المراجعة والتنسيق: أديب اللجمي-نبيلة الرزاز(٧٨١/١)).

٢ - انظر: محمد نجاح شبيب، الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط، الناشر: دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى: ١٩٩٦م، ص: (١٣٧-١٣٦).

٣ - انظر: محمد بن قطب بن إبراهيم ، جاهلية القرن العشرين ، الناشر: دار الشروق، الطبعة: ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م، (١٦٧).

٤ - انظر: محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، (١٧) .

الغربين أنفسهم.

٣. النظرة الإسلامية للقيم تستمد من الشرع القويم الذي يربط المسلم بالخالق والمخلوق ويأمره بعمارة الأرض معنويا - بعبادة الله - سبحانه وتعالى - وماديا حسب ما سنه الله في ذلك، فالنظرة الإسلامية للقيم قد جمعت بين المعنوية والمادية ، وبين الدنيا والآخرة. بخلاف النظرة الجاهلية للقيم ، فإنها تنظر إليها نظرة مادية بحتة.

٤. القيم الإسلامية، كاملة وشاملة وعامة من حيث طبيعتها ومعيارها ومصدريتها ، فهي تشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية من القيم العليا، والقيم الحضارية ، والقيم الخلقية ، أما النظرة الجاهلية للقيم فليست بهذه الدرجة من الكمال والعموم والشمول، فهي قاصرة عن جوانب المعنوية كالقيم العليا والقيم الخلقية.

٥. الغاية من القيم الإسلامية هي سعادة الإنسان في حياته الدنيوية ، وفوزه ونجاته في حياته الأخروية ، فهذه القيم تربط بين الحياتين ربطا وثيقا بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . أما الفكر الجاهلي فنظريته مادية ، دنيوية بحتة، تهدف إلى تحقيق الرغبات ونيل الملذات، والمعرفة والسعادة المادية والمنفعة الدنيوية^١.

٧. إن القيم الإسلامية تتصف بالخلود وتتسم بالوضوح، بخلاف القيم الجاهلية الأولى والمعاصرة فقد فقدت تلك الصفة ، فهي فلسفات بشرية ونظريات غامضة قد تنتهي بموت صاحبها وقد تستمر زمنا بعده ثم تضمحل.

٨- القيم الإسلامية ملائمة للفطرة، لأنها تقوم على مبنى الكتاب والسنة ، وهذا المبنى ملائم للفطرة الإنسانية ، بخلاف القيم غير الإسلامية فإنها ترتكز على أيديولوجيات أو فلسفات منحرفة مخالفة للفطرة ، فهي بعيدة عن الفطرة السليمة.

١٠. إن القيم في الإسلام ، تتصف بالواقعية ولا تعيش في ضرب من الخيال ، فهي عبارة عن ممارسات واقعية يمكن تطبيقها في عالم الواقع بدون أي حرج، بخلاف القيم غير الإسلامية فإن أكثرها خيالية يصعب أن تطبق في واقع الناس إلا من جهة طائفة قليلة من الناس^٢.

١ - انظر: د: مانع بن محمد بن علي المانع ، القيم بين الإسلام والغرب ، الناشر: دار الفضيلة، الرياض - السعودية ، ، الطبعة: ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥ م، (٦٨).

٢ - انظر: د: مانع بن محمد بن علي المانع ، القيم بين الإسلام والغرب، (١٧٥).

الأمر الثاني

التعريف بـ «الإمبراطورية»

عرف العلماء «الإمبراطور» و«الإمبراطورية» بتعريفات متنوعة نذكر هنا طرفاً من تلك التعريفات: إمبراطورية: نظام من أنظمة الحكم القديمة، قائم على أساس التحكم في أقاليم واسعة وشعوب مختلفة. والإمبراطور، وجمعه أباطرة: لقب خاص بكل حاكم يحكم إمبراطورية، وقد يطلق اعتباراً ولو مع عدم وجود إمبراطورية^١.

وقد ذكر بعض علماء اللغة للإمبراطورية معنيين، وهما: نوع من الحكم الذي يسيطر على عدد من الشعوب والأقاليم، ودولة كبيرة المساحة، كثيرة العدد، عظيمة القوة تشمل على أمم وشعوب من أجناس وثقافات مختلفة وتتكوّن بالغزو^٢.

وبعد عرض معاني الإمبراطور والإمبراطورية يمكن لنا أن نستنتج هذه الأمور التالية:

- ١ - يطلق كلمة «الإمبراطور» للمذكر ولفظ «الإمبراطورية» للمؤنث، وكلاهما مفردان وجمعهما «أباطرة».
- ٢ - «الإمبراطورية» مصدر صناعي مأخوذة من الإمبراطور، تشير إلى الدول التي تتمتع بالخصائص التالية:

أولاً: من حيث الإقليم والسكان، تشمل عدة أمم أو شعوب أو أقاليم كبيرة ذات أعراق أو ثقافات مختلفة تم تحقيقها من خلال غزو قبيلة أو أمة أكثر قوة على القبائل أو الشعوب الأخرى، هذا هو الأصل للإمبراطور ولكن قد يطلق بدون أي سبب ومبرر هذا اللقب على حاكم من غير أن يكون مصداقاً لهذا الاسم، مثل: إمبراطور اليابان.

ثانياً: من حيث البنية السياسية، هي نظام من أنظمة الحكم القديمة قائم على أساس التحكم ولا تعترف بالانتخابات والمراجعة إلى آراء الشعوب، فالسلطة تكون في يد شخص مثل الإمبراطور، ويجب أن تستمد جميع السلطات المحلية من صلاحياته وتحافظ الإمبراطورية على هيكلها السياسي مع قدر من الأغراء على الأقل.

١ - انظر: عبد الغني أبو العزم، معجم الغني الزاهر، الطبعة الأولى. الناشر: مؤسسة الغني للنشر، تاريخ الإصدار: ٢٠١٣م، (١٨٠٠).
٢ - انظر: د د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، الرقم: ٢٦٣، (١١٦/١).

ثالثاً: وجود نظرية شاملة تحت عنوان الدين أو الأيديولوجية أو القانون العام توفر بنية سياسية وأخلاقية وتدعي أن هذه البنية ستحقق في النهاية السلام والوئام (الوفاق). وتحافظ الإمبراطورية على هيكلها السياسي مع قدر من الأغراء على الأقل .

٣- يتم إنشاء معظم الإمبراطوريات عادة عندما تستولي دولة أو أمة، بدافع توسيع أراضيها أو زيادة قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، على أراض أخرى وتهيمن على شعب تلك المنطقة.

الأمر الثالث

التعريف بـ "المغول"

لقد كثر استعمال كلمة المغول عند حديث العلماء عن الحكومات الإسلامية، فيجدر للباحث أن يشير سريعاً إلى نسبهم وموطنهم، وتاريخ بدء ظهور المغول، والنسبة بين التتار والمغول، وغيرها من المباحث التي تعين على تحليل صفات هذا القوم، ومعرفة أصولهم وتقاليدهم العريقة.

أولاً: نسبهم وموطنهم الأصلي والعرضي:

المغول، هم شعب من العرق الأصفر، موطنهم الأصلي منغوليا. شمال شرق آسيوي ومن الشعوب القبلية، وثيقة الصلة والتي تعيش بشكل رئيسي على الهضبة المنغولية وتتشارك لغة مشتركة وتقاليدهم بدوية. عاشت القبائل المنغولية في المنطقة الواقعة في وسط آسيا^١ بين نهري "سيحون"^٢ و"جيحون"^٣ من الغرب حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ممتدة حتى أقصى الشمال الشرقي لآسيا^٤. وطنهم مقسم الآن إلى دولة منغوليا المستقلة (منغوليا الخارجية) ومنطقة منغوليا الداخلية ذاتية الحكم في دولة الصين وجنوب روسيا. ويُطلق اسم المغول على كل من يتكلم اللغة المنغولية بما فيهم قبيلة الكالميكين إحدى قبائل الأويرات (المغول الغربيين) الموجودون في جمهورية كالميكيا^٥ ذات الحكم الذاتي شمال القوقاز^٦.

١ - آسيا [مفرد]: آسيا، آسيا، أكبر القارات وأكثرها سُكَّاناً إذ تبلغ مساحتها ثلث مساحة اليابسة، حدودها المحيطة المتجمدة الشمالي وأوروبا والبحران الأبيض المتوسط والأحمر والمحيطان الهندي والهادي، وهي مهد الديانات. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (٩٧/١).

٢ - سيجون: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وجاء مهملة، وآخره نون: نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل، وهو في حدود بلاد الترك. (الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م، (٢٩٤/٣).

٣ - جيحون: بالفتح، وهو اسم أعجمي، وقد تعسف بعضهم فقال: هو من جاحه إذا استأصله، ومنه الخطوب الجوائح، سمي بذلك لاجتياحه الأرضين، قال حمزة: أصل اسم جيحون بالفارسية هرون، وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبه الناس إليها وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ. (الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (١٩٦/٢).

٤ - انظر: الصِّلَاجِي، علي محمد محمد، المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار، الناشر: الأندلس الجديدة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩، (٢٧/١).

٥ - كالميكيا، جمهورية تقع في جنوب غرب روسيا، شمال غرب بحر قزوين وغرب نهر الفولغا السفلى. في الشرق تصل إلى ساحل بحر قزوين، وفي الشمال الشرقي تلامس نهر الفولغا. تقع معظم الجمهورية في الأراضي المنخفضة الشاسعة في انخفاض بحر قزوين الشمالي، حيث يقع الجزء الأكبر منها تحت مستوى سطح البحر. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors).

ينقسم المغول حاليًا ما بين ثلاث دول منغوليا والصين (إقليم منغوليا الداخلية)، وجنوب روسيا ويتواجد المغول في أفغانستان، قبيلة مغوليون، ويبلغ عددهم هناك نحو ٥ ملايين نسمة، ويبلغ عدد المغول في الصين نحو ٦ ملايين نسمة، وفي منغوليا نحو ٣ ملايين نسمة، وفي روسيا مليون نسمة^٢.

ثانيا: تاريخ بدأ ظهور المغول

ظهر المغول على مسرح أحداث التاريخ العالمي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ثم برزوا، كقوة عالمية ذات شهرة دولية واسعة النطاق خارج نطاق موطنهم الأصلي منغوليا خلال العقدين الأول والثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وقد استطاعوا أن يؤسسوا أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في أقصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال ثلاثة عقود من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوروبية غرباً، ومن سيبيريا وبحر البلطيق^٣ شمالاً إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً^٤.

ثالثا: النسبة بين المغول والتتار:

بالمراجعة إلى ما كتبه مؤرخو العرب الذين عاصروا أحداث ظهور المغول وغزواتهم للعالم الإسلامي يبدو أن المغول هم التتر أو التتار وقد نَحَج منهمجهم من جاء بعدهم من المؤرخين، بل وحتى الأغلبية من مؤرخي المغول في عصرنا الحاضر. فقد اعتمد كثير من المؤرخين المعاصرين على ما كتبه القدامى بدون المراجعة والبحث والتنقيب عن أصل هذه الكلمة وبنيتها.

of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Dec ٣٠, ٢٠٢٤, Article History, <https://www.britannica.com/place/Kalmykiya>

^١ - القوقاز، نظام جبلي ومنطقة تقع بين البحر الأسود (غرب) وبحر قزوين (شرق) وتشغلها روسيا، جورجيا، أذربيجان، وأرمينيا. (Written by Lewis Owen, Solomon Ilich Bruk, Last Updated: Feb ٤, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/place/Caucasus>)

^٢ - انظر: الكيلاني، جمال، تاريخ الاسلام في العصور الوسطى، الناشر: مكتبة المصطفى، القاهرة: ٢٠١١، (٤٣).

^٣ - البحر البلطقي، ذراع من المحيط الأطلسي الشمالي، يمتد شمالاً من خط عرض جنوب الدنمارك تقريباً إلى الدائرة القطبية الشمالية ويفصل شبه الجزيرة الاسكندنافية عن باقي قارة أوروبا. يعد البحر البلطقي أكبر مسطح مائي متسخ في العالم، وهو شبه مغلق وضحل نسبياً، مما يجعله موضع اهتمام كبير للعلماء. (Britannica, Written by Alastair Dougal Couper, Alice F.A. Mutton, Last Updated: Feb ٦, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/place/Baltic-Sea>)

^٤ - انظر: الصَّلَّابِي، المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار، (٢٨/١).

ثم إن هذه التسمية الخاطئة لم تقتصر فقط على المؤرخين المسلمين من العرب، بل وسار على ذلك التعريف الخاطئ المؤرخون والرحالة الأوروبيون، الأقدمون منهم على وجه التخصيص، إلا أن المؤرخين الأوروبيين المستشرقين الكبار، أمثال بریتسكنيدر، عرفوا الفرق بين التتار والمغول وذلك من خلال ما كتبه المؤرخ المسلم رشيد الدين الوزير، ثم ما كتبه المؤرخون الصينيون، كما عرف المستشرقون ذلك أيضاً مما كتب باللغة المغولية ويتمثل ذلك بصورة رئيسية بالكتاب المعروف بـ"التاريخ السري للمغول أو تاريخ المغول السري" بناء على هذا، نجد أن المغول شيء والتتار شيء آخر، ويمكن أن توجد صلة تعريفية بين الاثنين^١.

فقد جعل بعض المحققين المعاصرين النسبة بين المغول والتتار نسبة عموم وخصوص مطلق، حيث جعلوا المغول عاماً مطلقاً والتتار خاصاً مطلقاً.

التتار مغول؛ لأنه منشعب منه وليس كل مغول تتراً، فالتتار شعبة متفرعة من المغول، وليس المغول فرع من التتار، فالأصل هنا هم المغول، وليس الأصل التتار^٢.

والأصل أن هذه القبيلة (المغول) كانت مكونة من العديد من العشائر، ومن أهم هذه العشائر: التتر، وقنكرات، والقيبات، وأويرات، وأرلاد، وجلاير، وقرايط وغيرها^٣.

١ - انظر: (قاموس دهخدا).

٢ - انظر: الصِّلَبي، المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار، (٢٨/١).

٣ - انظر: (قاموس دهخدا).

الأمر الرابع

جغرافية الهند وموقعها في العالم

من الجدير بالذكر هنا أن القيم التي نريد أن نبحث عنها في هذه الرسالة من جوانبها المختلفة - سواء أكانت متعلقة بالأمور الفردية كالعقائد، والعبادة، والعلم ، والأخلاق، أم كانت مرتبطة بالأمور الاجتماعية كالحضارة، والاقتصاد، والسياسة- تدور حول إمبراطوريتين اللتين حكمتا أرض الهند لعدة قرون، فلا بد من معرفة هذه البلاد وموقعها في بسيط الأرض معرفة مختصرة حتى نبحث عن ما ذكرنا مع بصيرة بالنسبة إلى الأرض التي كانت مكان تلك الوقائع والحوادث التاريخية.

أولاً: وجه تسمية الهند

إن لتسمية الأماكن أسباباً مختلفة، فهناك علل متنوعة لاختيار الأسماء للأماكن، فبعض الأماكن تسمى بأشهر الحوادث التي وقعت فيها، وبعضها تسمى بالهياكل والأشكال التي كانت متصفة بها، وبعضها بأول من سكنها، كيثرب، حيث ذكر المؤرخون أنها سميت بأول من سكنها، وهو يثرب بن قانية، من ولد سام بن نوح^١. فكان المدينة تسمى قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها باسم يثرب.

ومن هذا المنطلق سميت الهند باسم أول من سكنها من بني آدم، فقد ذكر المؤرخون في تسمية الهند بهذا الاسم أن الهند والسند^٢ كانا أخوين من ولد توقير بن يقطن بن حام بن نوح، عليه السلام^٣.

ثانياً: حدود تلك البلاد ومساحتها

تشارك هذه الدولة حالياً في الحدود مع باكستان وبنغلاديش ونيبال وبوتان والصين وبورما، فيحد هذه البلاد الشاسعة شمالاً سلسلة جبال «همالية» التي هي تفصل بينها وبين بلاد التبت ، وهي تمتد من شمالي كشمير شرقاً بميلة إلى الجنوب ، حتى تحاذي (٩٢) من الطول الشرقي ، ويحدها شرقاً خط مفروض في (٩٢) من الطول الشرقي ، من السلسلة المذكورة إلى نهر «برهم بوتري» ، وكذلك النهر

١ - البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، المحقق: علي محمد الجاوي، الناشر: الحلبي، سنة النشر: ١٩٥٤م، (٣/ ١٤٧٤) .

٢ - السند: حضارة وادي السند كانت واحدة من أولى الحضارات العالمية العظيمة. بدأت هذه الحضارة في الازدهار قبل نحو ٤٥٠٠ عام، وكانت تتمركز في أودية النهر الشاسعة، وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم الباكستان، وشمال غربي الهند. وتسمى هذه الحضارة في بعض الأحيان بحضارة هارابا. واكتسبت هذه الحضارة اسمها من اسم مدينة هارابا الباكستانية. (مجلة البحوث الإسلامية، ٢٢١).

٣ - انظر: القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، الناشر: دار صادر - بيروت، (١٢٨).

المذكور ، وخليج بنكاله ، وجنوباً بحر الهند أيضاً ، ونهر الهند والسند ، ومعظم عرضها (١٦٢٠) ميلاً ، ومعظم طولها (١٤٠٠) من الأميال الجغرافية ، ومساحتها نحو (١٣٨٢٦٢٤) ميلاً مربعاً من أميال الجغرافية^١.

ثالثاً: فسحة اتساع الهند وكثرة نفوسها

إن شبه القارة الهندية هي من أكبر مراكز العالم من حيث السكان، حيث إن هذه الديار تتمتع بالأمطار الغريزة، والأنهار الممتلئة، والبساتين المتنوعة، فلما كانت هذه البلاد ممهدة للسكنى، اتخذها الناس منذ القديم لهم موطناً ومقاماً.

فالهند شبه جزيرة فسيحة الأرجاء يبلغ اتساعها ما يقرب من مليوني ميل مربع ، فهي ثلثا الولايات المتحدة في مساحتها، وهي أكثر من بريطانيا العظمى - صاحب السيادة عليها - عشرين مرة، وهو عدد أكبر من سكان أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية مجتمعين ، أو هو خمس سكان الأرض جميعاً؛ أرض الهند تسجل أكبر نمو سكاني في العالم، حيث يعيش حالياً مليار وأربعمئة مليون نسمة في هذه البلاد الذي يُتوقع أن تفوق الصين من ناحية عدد السكان . وتُعتبر بومباي^٢ أكثر المدن الهندية اكتظاظاً بالسكان، وهي تنمو عاماً تلو الآخر بشكل ملحوظ^٣.

رابعاً: توفر الأنهار في الهند

تتمتع الهند بمناخ متنوع للغاية، حيث تنتهي في سلسلة جبال الهيمالايا من الشمال، وتوفر الأنهار العديدة التي تنبع من هذه المرتفعات هواءً ممطراً وتربةً خصبةً للمناطق الشمالية من الهند. وأهم هذه الأنهار نهر الجانج^٤ ونهر براهماپوترا^١، وكلاهما يصب في خليج البنغال. كما يعتبر الهندوس نهر الجانج

١ - انظر: الحسيني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين ، الهند في العهد الإسلامي ، الناشر: مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لإحياء المعارف الإسلامية ، دار عرفات ، داره الشيخ علم الله ، ط ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م ، ص ٣٧.

٢ - بومباي وتعرف أيضاً باسم ممباي، عاصمة ولاية ماهاراشترا، وميناء مهم بساحل غربي الهند ومركز تجاري. وتشتهر بصناعة الماس وصناعة السينما. في سبعينيات القرن العشرين الميلادي ارتفع عدد سكانها بنسبة ٣٦٪ نتيجة لهجرة العمال إلى المدينة، وبلغت كثافة السكان ١٣,٥٠٠ نسمة/كم^٢. (مجلة البحوث الإسلامية، ٤٥٧).

٣ - انظر: ديورانت، ول وايريل ، قصة الحضارة، الهند وجيرانها، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، الناشر: دار الجيل، بيروت، عام النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، الجزء الثالث من المجلد الأول، (١٠).

٤ - ولأهل الهند نهر كبير يسمى كنج (جانج) يعظمونه غاية التعظيم، ويلقون فيه عظام من يموت من كبارائهم، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم. وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ، وكان يحمل من مائه كل يوم إلى سومنات ما يغسل به. (ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، (٧/٦٧٤).

مقدسًا. وأدنى مستوى في الهند يقع في المحيط الهندي، بارتفاع صفر، وأعلى نقطة في هذه البلاد، قمة كانشينجونجا، بارتفاع ٨٥٦٨ مترًا، وتقع في جبال الهيمالايا، وهي ثالث أعلى قمة في العالم^٢.
 فلهذه الأنهار والبحار دور بارز في طقس الهند، حيث جعلته ممطرًا ورطبة، وأثرت في التربة فجعلته خصبة وكثيرة البقول والأشجار والنبات. فاشتهرت أرض الهند بأرض التوابل^٣. والبهارات الملونة^٤.

سادسًا: العقائد والآلهة في الهند

سكان الهند هم أهل ملل مختلفة : منهم من يقول بالخالق دون النبي، وهم البراهمة، ومنهم من لا يقول بهما، ومنهم من يعبد الصنم، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد النار، ومنهم من يبيح الزنا^٥. ولها من العقائد الدينية ما يمثل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدق عقيدة في وحدة الوجود وأكثرها روحانية، ولها من الفلاسفة من عزفوا مئات الأنغام على وتر التوحيد بادئين من أسفار «الأوبنشاد» في القرن الثامن قبل الميلاد، إلى «شانكارا»^٦ في القرن الثامن بعد الميلاد^٧. فالهند مليئة بالعجائب والغرائب، ولا شك أن هذه العجائب الملموسة نابعة من الأفكار الغريبة التي اعتنقها أهل الهند منذ زمن طويل.

^١ - نهر براهماپوترا، نهر رئيسي في آسيا الوسطى والجنوبية. يتدفق لمسافة حوالي ١٨٠٠ ميل (٢٩٠٠ كيلومتر) من مصدره في جبال الهيمالايا إلى ملتقاه مع نهر الجانج (جانجا)، حيث تتدفق المياه المختلطة للنهرين إلى خليج البنغال. (Britannica, Written by Deryck O. Lodrick, Nafis Ahmad, Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/place/Brahmaputra-River>)

^٢ - انظر: وبگاه سفارت جمهوری اسلامی ایران در دهلی نو،

<https://www.newdelhi.mfa.ir/portal/newsarchive>

^٣ - ت ب ل: تابل / تابل [مفرد]: ج توابل: ١ - اسم فاعل من تَبَّلَ ٢ - ما يُطَيَّبُ به الطعامُ كالفلفل والكمون ونحوها "اشتهر الهنود بكثرة استخدام التوابل في أكلهم". (د. أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٨٩٨، (٢٨٣/١).

^٤ - ب ه ا ر، بهار / بهار ٢ [مفرد]: ج بهارات / بهارات: ما يُضاف إلى الطعام لتطيبه من توابل وأبزار، حبوب جافة تُطحن ثم توضع على الطعام لتطيبه. (د. أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٧٩١، (٢٥٣/١).

^٥ - القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، (١٢٨).

^٦ - شانكارا (ولد حوالي ٧٠٠، قرية كالادي، الهند - توفي حوالي ٧٥٠، كيدارنات) كان فيلسوفًا ولاهوتيًا، وهو أشهر ممثلي مدرسة أدفايتا فيدانتا الفلسفية، التي تستند إليها التيارات الرئيسية للفكر الهندي الحديث. كتب تعليقات على البراهما-سوترا، والأوبانيشاد الرئيسية، والبهاغافاد غيتا، مؤكدًا إيمانه بواقع أبدي غير متغير (البراهما) ووهم التعددية والتمييز. (Britannica, Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١٤, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Shankara>)

^٧ - انظر: ديورانت، ول وايريل، قصة الحضارة، الهند وجيرانها، (١٠).

فقد كثرت الآلهة في أهل الهند، وتميزت عن غيرها من المدن بكثرة الآلهة، حيث أصبح كل شيء رائع المنظر والمظهر، وكل مرفق من مرافق الحياة صنما وإلها يعبد من دون الله. قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس، فقد كان عدد الآلهة في "ويد" ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون. وهكذا تجاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلهات الحصر وأربت على العد^١.

^١ - الندوي، علي بن عبد الحفي، ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين، الناشر: مكتبة الإيمان، (ص: ٤٩).

الأمر الخامس

نبذة عن تاريخ دخول الإسلام بلاد الهند

قبل أن نبدأ بشرح القيم الإسلامية لدى أباطرة المغول في شبه القارة الهندية، يتطلب هذا الأمر منا أن نذكر نبذة مختصرة عن تاريخ دخول الإسلام هذه البلاد الشاسعة، فتاريخ حكم المغول على شبه القارة الإسلامية لا يكون إلا جزءاً من تاريخ حكام المسلمين في هذه الخطوة.

المطلب الأول: غزو الهند وفتحها من أعلام النبوة

يعتبر غزو الهند وفتحها من أعلام النبوة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بشر أمته بغزو الهند وفتحها في المستقبل من الزمان، فهناك أحاديث وآثار كلها تبين هذا الموضوع، ونكتفي بذكر روايتين منها:

١- عن ثوبان^١ مولى رسول الله، -صلى الله عليه وسلم- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار: عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم عليهما السلام"^٢.

٢- عن أبي هريرة، قال: «وعدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غزوة الهند، فإن أدركتها أنفق فيها نفسي ومالي، فإن أقتل كنت من أفضل الشهداء، وإن أرجع فأنا أبو هريرة المحرر»^٣

فبناءً على ما جاء في الحديثين فالذي حصل من غزو الهند هو من دلائل النبوة، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن وقوع هذا الغزو في المستقبل من الأيام وهو أمر غيبي لا يعلمه إلا الله الذي أوحاه إليه، فقد غزا المسلمون الهند والسند في عهد بني أمية كما نبينه بشيء من التفصيل والشرح.

^١ - ثوبان مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، صحابي مشهور، يقال: إنه من العرب حكيم من حكم بن سعد بن حمير، وقيل: من السراة، اشتراه ثم أعنته رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فخدمه إلى أن مات، ثم تحول إلى الرملة ثم حصص، ومات بها سنة أربع وخمسين. قاله ابن سعد وغيره. (ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، (١/ ٥٢٨)، رقم الراوي: ٩٧٠).

^٢ -انظر: النسائي، أحمد بن شعيب، المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦، غزوة الهند، (٤٢/٦)، رقم الحديث: ٣١٧٥. والشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ومن حديث ثوبان، (٨١/٣٧)، رقم الحديث: ٢٢٣٩٦. وقد صحح الألباني هذا الحديث في "صحيح النسائي" وحسنه الشيخ الأرنؤوط في تعليقه على مسند الإمام أحمد.

^٣ -انظر: النسائي، المجتبى من السنن، غزوة الهند، (٤٢/٦)، رقم الحديث: ٣١٧٣. وقد ضعف الألباني والأرنؤوط هذا الحديث.

المطلب الثاني: دخول الإسلام الهند

بالمراجعة إلى التاريخ يتضح أن الإسلام قد انتشر في العالم بأسلوبين هامين، أولاً: أسلوب الجهاد مع أعداء الدعوة المعاندين فيتعرف أهل تلك البلاد على سماحة الإسلام وسماحة أهله وكمال شرائعه، وثانياً: أسلوب التجارة والتعامل الحسن مع غير المسلمين في البلدان المختلفة، مما أثر في أهل تلك البلاد، فيعتنقون الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجا.

الأسلوب الأول: أسلوب الفتوحات الإسلامية

دخل الإسلام الهند عن طريق الفتوحات الإسلامية والحملات الجهادية التي قادها أبطال المسلمين لفتح البلاد ونشر دين الله بين العباد.

ففي سنة أربع وأربعين من الهجرة النبوية غزا أحد الأبطال وهو المهلب بن أبي صفرة^١ أرض الهند ، وسار إلى قنديل^٢ ، وكسر العدو وسلم وغنم ، وهي أول غزواته^٣ ، وكان هذا أول غزو المسلمين لبلاد الهند ، وبه تعرّف أهل تلك البلاد على دين الإسلام وشرائعه وأخلاقه وأحكامه، فأسلم منهم من وفقه الله وهداه لدينه ودخل في هذا الدين الحنيف من أهل هذه البلاد الشاسعة خلق كثير.

وفي سنة ثمان وأربعين من الهجرة كتب معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- كتاباً إلى زياد بن عبيد^٤: انظر رجلاً يصلح لثغر الهند ، فوجه زياد إليه سنان^١ بن سلمة بن المحبق الهذلي^٢ ، وكان أحد الشجعان المشهورين ، وقد استعمله زياد بن عبيد سنة خمسين على غزو الهند^٣.

^١ -المهلب بن أبي صفرة بضم المهملة وسكون الفاء واسمه ظالم ابن سارق العنكي بفتح المهملة والمثناة الأزدي أبو سعيد البصري من ثقات الأمراء وكان عارفاً بالحرب فكان أعداؤه يرمونه بالكذب، من الثانية وله رواية مرسلّة قال أبو إسحاق السبيعي ما رأيت أميراً أفضل منه مات سنة اثنتين وثمانين على الصحيح. (العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، تقريب التهذيب، الناشر: دار الرشيد - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ - ١٩٨٦، رقم الترجمة: ٦٩٣٧، (٥٤٩).

^٢ - قنديل بالفتح ثم السكون والبدال المهملة وبعد الألف باء موحدة مكسورة ثم ياء بنقطتين من تحتها ولام، هي مدينة بالسند وهي قصبّة لولاية يقال لها: الندهة. (الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، الناشر: دار الفكر - بيروت، (٤٠٢/٤).

^٣ -انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، حوادث سنة أربع وأربعين، (١٢/٤).

^٤ - زِيَادُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ وَأُمُّهُ سَمِيَّةُ جَارِيَةُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ الثَّقَفِيِّ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ. وبعضهم يقول: زياد الأمير. وولي البصرة لمعاوية حين ادعاه وضم إليه الكوفة. فكان يشتمو البصرة. ويصيف بالكوفة. ويولي على الكوفة إذا خرج منها عمرو بن حريث ويولي على البصرة إذا خرج منها سمرة بن جندب. ولم يكن زياد من القراء ولا الفقهاء. (البغدادى ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، رقم الترجمة: ٢٩٨٠، (٦٩/٧).

وفي سنة ثلاث وتسعين من الهجرة النبوية، افتتح محمد بن القاسم^٤ - وهو ابن عم الحجاج بن يوسف - مدينة الديبل^٥ وغيرها من بلاد الهند ، وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة، فسار في الجيوش فلقوا الملك داهر - وهو ملك الهند - في جمع عظيم ومعه سبع وعشرون فيلا منتخبة، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جدا فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل الملك داهر وغالب من معه، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه. ثم سار محمد بن القاسم فافتتح مدينة الكيرج^٦ ورجع بغنائم كثيرة وأموال لا تحصى كثيرة، من الجواهر والذهب وغير ذلك، وافتتح سنة خمس وتسعين الملتان^٧ من بلاد الهند، وأخذ منها أموالا جزيلة^٨.

وفي سنة ستين ومائة جهّز الخليفة المهدي العباسي^٩، عبد الملك بن شهاب المسمعي لغزو بلاد الهند ، فدخل مدينة باريد من الهند في جحفل كبير فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق ، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة ، وهلك بشر كثير من أهلها، وفتحوها عنوة وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك

١ - سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي، يكنى أبا عبد الرحمن. روى عنه أنه قال: ولدت في يوم حرب كانت للنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذهب بي أبي إلى رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحنكني وتفل في في، ودعا لي، وسماي سنانا. وكان من الشجعان الأبطال الفرسان. توفي سنان بن سلمة بن المحبق في آخر أيام الحجاج. (القرطبي ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ، (٦٥٧/٢).

٢ - انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث سنة ثمان وأربعين، (١٨/٤).

٣ - انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، رقم الترجمة: ٣٩ ، (٧٤/٦).

٤ - محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم ابن أبي عقيل الثَّقَفِي: فاتح السند، واليهما. من كبار القادة، ومن رجال الدهر في العصر المرواني. ويعنيه حمزة ابن بيز الحنفي بقوله: (قاد الجيوش لسبع عشرة حجة) كان أبوه والي البصرة للحجاج. وولي الحجاج محمدا ثغر السند في أيام الوليد ابن عبد الملك. (الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م ، (٣٣٣/٦).

٥ - ديبل، وهي على ضفة بحر الهند والتيز، وهي أيضا على ساحل البحر فتحت في أيام الحجاج بن يوسف، ومذهب أهلها الغالب عليها مذهب أبي حنيفة، ولهم فقيه يكنى بأبي العباس داود المذهب له تصانيف في مذهبه وكان قاضي المنصورة ومن أهلها. (الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (٢٦٧/٣).

٦ - (الكيرج) وهي مدينة (بومباي) كما يطلق عليها اليوم، وكانت مدينة مقدسة عند أهل البلاد. (خطاب، محمود شيت، قادة فتح السند وأفغانستان، الناشر: دار الأندلس الحضر، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م. (٣١٤/١).

٧ - مُوُلْتَان: بضم أوله، وسكون ثانيه واللام يلتقي فيه ساكنان، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون، وأكثر ما يسمع فيه ملتان، بغير واو، وأكثر ما يكتب كما ههنا: بلد في بلاد الهند على سمت غزنة. (الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م ، (٢٢٧/٥).

٨ - انظر: الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، البداية والنهاية، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م ، (٤٤٥/١٢).

٩ - المهدي . أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور، الخليفة الثالث من بني العباس. مولده بإيذج في سنة سبع وعشرين ومائة . وقال الخطي: ولد سنة ست وعشرين ومائة في جمادى الآخرة. وأمّه، أم موسى بن منصور، الحميرية. (الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، رقم الترجمة: ٣٦٠ ، (٤٣٥/١٠).

لاعتلاء البحر ، فأقاموا هنالك فأصابهم داء في أفواههم ، فمات منهم ألف نفس ، فلما أمكنهم المسير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح فعرق طائفة أيضا ، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير، فيهم بنت ملكهم.^١

وبهذه الفتوحات قد أدرك أهل الهند قوة المسلمين وصلابتهم في الإيمان والدين، وبهذه الفتوحات قد ذاق الكثير من أبناء الشعب الهندي طعم الإسلام، واعتنقوا الإيمان بالله وتوحيد رب العالمين، وكما بين المؤرخون إن هذه الفتوحات قد وقعت وحدثت من طريق السند^٢.

وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة في محرمها غزا السلطان الملك يعين الدولة أبو القاسم محمود بن سُبُكْتِكِين^٣ التركي بلاد الهند فقصده ملكها جييال في جيش عظيم فاقتتلوا قتالا شديدا، ففتح الله على المسلمين، وانخرمت الهنود، وأسر ملكهم جييال، وأخذوا من عنقه قلادة قيمتها ثمانون ألف دينار، وغنم المسلمون منهم أموالا عظيمة ، وفتحوا بلادا كثيرة ، ثم إن محمودا سلطان المسلمين أطلق ملك الهند احتقارا له واستهانة به ، ليراه أهل مملكته والناس في المذلة فحين وصل جييال إلى بلاده ألقى نفسه في النار التي يعبدونها من دون الله فاحترق^٤.

وكان السلطان محمود بن سبكتكين قد فرض على نفسه كل سنة غزو الهند ، فافتتح بلادا شاسعة، وكسر الصنم سومنات^٥ ، الذي كان يعتقد كفره الهند أنه يحيي ويميت ويحجونه ، ويقربون له النفائس ، بحيث إن الوقوف عليه بلغت عشرة آلاف قرية ، وامتألت خزائنه من صنوف الأموال ، وفي خدمته من البراهمة ألفا نفس، فكان بين بلاد الإسلام وبين قلعة هذا الصنم مفازة نحو شهر، فسار السلطان في ثلاثين ألفا، فيسر الله فتح القلعة في ثلاثة أيام ، واستولى محمود على أموال لا تحصى ، وقيل: كان حجرا

١ - انظر: الدمشقي، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م. (١٣٢/١٠).

٢ - البتند: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره دال مهملة: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان، قالوا: السند والهند كانا أخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح، يقال للواحد من أهلها سندي والجمع سند مثل زنجي وزنج، وبعض يجعل مكران منها. (الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (٢٦٧/٣).

٣ - محمود بن سبكتكين، أبو القاسم الملقب بعين الدولة، وأمين الملة، وصاحب بلاد غزنة، وما والاها، قام في نصر الإسلام قياما تاما، وفتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند وغيرها، وعظم شأنه، واتسعت مملكته، وامتدت رعاياه، وطالت أيامه لعدله وجهاده، وما أعطاه الله إياه، وكان مع هذا في غاية الديانة والصيانة وكرهه المعاصي وأهلها، لا يحب منها شيئا، ولا يألفه، ولا أن يسمع بها، ولا يجسر أحد أن يظهر معصية ولا خرا في مملكته، ولا غير ذلك، ولا يحب الملاهي ولا أهلها، وكان يحب العلماء والمحدثين ويكرمهم ويجالسهم، ويحب أهل الخير والدين والصلاح، ويحسن إليهم. (نظر: ابن كثير، البداية والنهاية، (٣٠/١٢).

٤ - انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، (٣٣٠/١١).

٥ - «سومنات» و «سوم» هو القمر و «نات» الصاحب، فهو «صاحب القمر» (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ. (٣٩٠).

شديد الصلابة فأحرقه السلطان، وأخذ منه قطعة بناها في عتبة باب جامع غزنة^١-^٢. فرحم الله هذا السلطان العادل لقد بذل جهدا جبارا لأجل إعلام كلمة الله في أرض الهند ورفع شعائر الإسلام فيها. لقد أحيى السلطان محمود الفتوحات الإسلامية في شبه القارة الهندية بعد أن أغلقت بابها منذ زمن طويل، واستطاع هذا السلطان العادل أن يؤسس دولة إسلامية في هذه البلاد، ويثبت تفوق المسلمين على غيرهم من عابدي الصنم والوثن والبقر.

وهذه الفتوحات قد حدثت من طريق منطقة الحدود الشمالية الغربية، وعبرها انحدرت جيوش محمود بن سبكتكين - أو محمود الغزنوي- (٤٢١-٣٨٨ هـ) ففتحت إقليم البنجاب^٣ وتقدمت حتى استولت على دلهي^٤ ومعظم الأجزاء الشمالية من الهند^٥.

نتائج هذه الفتوحات وآثارها على بلاد الهند

إن ما بذله أبطال المسلمين وقادة الجيش الإسلامي من جهود عسكرية وحرية، لا سيما تضحياتهم الجسام ومخاطراتهم العظيمة في ساحات الهند، كانت سببا لتحقيق سيادتهم على شعوب الهند، وسببا آخر في تطويع ثقافة الهنود ومعارفهم وتقاليدهم لمصلحة حضارة المسلمين وثقافتهم، بل لتصبح مع مرور

^١ - غَزَنَةُ، وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحدّ بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة إلا أن البرد فيها شديد جدًا بلغني أن بالقرب منها عقبة بينهما مسيرة يوم واحد إذا قطعها القاطع وقع في أرض دفيئة شديدة الحرّ، ومن هذا الجانب برد كالزهرير، وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يعدّ ولا يحصى من العلماء، وما زالت أهلة بأهل الدين ولزوم طريق أهل الشريعة والسلف الصالح، وهي كانت منزل بني محمود بن سبكتكين إلى أن انقرضوا. (انظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (٢٠١/٤)).

^٢ - انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م. (٤٨٥/١٧).

^٣ - البنجاب، مقاطعة في شرق باكستان. تحدها ولاية جامو وكشمير الهندية من الشمال الشرقي، وولايات البنجاب وراجستان الهندية من الشرق، ومقاطعة السند من الجنوب، ومقاطعات بلوشستان وخيبر پختونخوا من الغرب، ومنطقة العاصمة الفيدرالية إسلام آباد وآزاد كشمير من الشمال. العاصمة الإقليمية، لاهور، تقع في المنطقة الشرقية الوسطى، بالقرب من الحدود مع الهند. (Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica LastUpdated: Feb٧,٢٠٢٥ • ArticleHistory <https://www.britannica.com/place/Punjab-province-Pakistan>)

^٤ - دلهي إقليم ضمن الاتحاد الهندي، يتألف من ثلاث مناطق سكانية وهي: دلهي القديمة ودلهي الجديدة (نيودلهي) ومعسكر دلهي، مع القرى البالغ عددها ٢١٤ قرية في الريف المجاور، وتبلغ مساحة الإقليم ١,٤٨٣ كم^٢، وعدد السكان ١٢,٧٩١,٤٥٨ نسمة. (مجلة البحوث الإسلامية، ٥٧٧).

^٥ - انظر: السيال، الدكتور جمال الدين، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م، (٩/١).

الزمن وحالة الاندماج الشاملة للثقافة العربية الإسلامية مع ثقافة الهند ، ثقافة واحدة متجانسة مترابطة ومتصالحة مع كافة الثقافات التي تعيش على أرض الهند ، وهي كثيرة ومتنوعة بالطبع^١.

ولقد تنوعت الآثار التي تركتها الفتوحات الإسلامية في الهند بدءا من العلاقات التجارية ومرورا بانتشار الدعوة الإسلامية واعتناق الناس لدين الإسلام طواعية، وانتهاء إلى صيرورة بعض مدن شبه القارة الهندية مدائن عالمية ومراكز ثقافي وعلمي. فالسند من أهم المراكز التي انتشرت منها السيادة الإسلامية إلى سائر البلاد.

ففي السند وضعت الأسس الأولى لقيام حكومة إسلامية، ومنه انتشرت السيادة الإسلامية إلى سائر أنحاء شبه القارة الهندية، وقد استطاع العرب فيما بعد أن يتمثلوا الحضارت اليونانية والفارسية والمصرية القديمة ، وأن ينقلوا إلى العربية أهم مؤلفات هذه الشعوب القديمة ، وقد نقلوا هذا المزيج الجديد من الحضارة معهم إلى الهند ، وهناك أضافوا إليه قبسا جديدا من الحضارية الهندية ، فدرسوا العلوم الهندية وأخذوا عنها الشيء الكثير وخاصة نظام الأرقام الحسابية الهندية ، وعنهم نقلتها معظم شعوب أوروبا حيث لا تزال تعرف عندهم بالأرقام العربية^٢.

الطريق الثاني: التجار المسلمون

نستطيع أن نعهد الطريق لقبول الإسلام، ونلين أعناق المعاندين أمام الحق، ونكبح من جماح الطغاة والظلمة والعصاة بقوة السيف وغلبة السلاح، لكن زرع حب الإيمان ومحبة الإسلام في القلوب والعقول لا يمكن إلا بالدعوة والنصيحة والشفقة والرحمة.

ولم تكن الهند مستثناة من هذه القاعدة، فلما فتح الله هذه البلاد بأيدي أبطال المسلمين وقادة المجاهدين، ورأى الناس سماحة الإسلام ورحمته للعالمين اعتنقوه ودخلوا في ظله الظليل.

ولا نستطيع أن ننسى دور طائفة أخرى من العوامل التي دفع الناس إلى اعتناق الإسلام، فمن تلك العوامل مراعاة المساواة بين طبقات المجتمع، حيث إن شبه القارة الهندية كانت ذات طبقات مختلفة، وكان أهل الطبقة الأعلى يحرمون الطبقة السفلى من حقوقهم ويعتدون عليهم. فمتى كان الإسلام يساوي بين العربي والعجمي، وبين الأمير والرعية، فليس هناك فرق عند الله بين تلك الجماعات إلا من اتصف

^١ - انظر: الجوارنة، الدكتور أحمد محمد، الهند في ظل السيادة الإسلامية، الناشر: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع. (١٣/١).

^٢ - انظر: السيل، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، (١٤/١).

بالتقوى وخشية الله. ثم الهروب من استبداد البراهمة والتخلص مما كان يلزم به غير المسلمين عادة من الجزية^١.

ومن أسباب اعتناق الهندوس والبوذيين الإسلام هي الأساليب الدعوية السلمية، مثل: الوعظ، وتمثيل الإسلام بالأخلاق الجميلة، والقدوة الحسنة، ونشر العلم بينهم. فقد انتشر الإسلام بفضل هؤلاء الناس من الفقهاء والوعاظ وأهل الخير المصلحين، والمتقنين، ولما كان معظم هؤلاء الدعاة والعلماء عناصر غير عربية من الترك والفرس والمغول، لم ينتشر بين أهل الهند الثقافة العربية، ولم تحظ اللغة العربية عندهم حظوها.

هذه ناحية هامة نعتبرها مفتاح دراسة الإسلام في الهند ، فإن معظم هذه الجيوش والعناصر والدول التركية والمغولية كانت في معظمها حديثة عهد باعتناق الإسلام، وقد نقلت معها الثقافة الإسلامية ومظاهر الحياة التركية والفارسية والمغولية ، ولهذا انتشرت في المجتمع الإسلامي بالهند اللغة الفارسية (لغة الثقافة في ذلك العصر) ، واللغة الأوردية، ولم تنتشر اللغة العربية، وبالتالي لم تزدهر الثقافة العربية في الهند ازدهارها في الأقاليم والدول الإسلامية الأخرى ، وساعد على هذا أن معظم العلماء والشيخوخ الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ما وراء النهر، وهؤلاء كانوا من أتباع مذهب أبي حنيفة يعتمدون على كتب المتأخرين من فقهاء هذا المذهب، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة، ولغتهم الثقافية الأثرية لديهم هي اللغة الفارسية، ولهذا اصطبغت الثقافة الإسلامية في الهند بهذه الصفات الثلاث، ولم تقم على أسس سليمة قوية من الثقافة العربية.

ولكن ليس معنى هذا أن الهنود لم يعرفوا اللغة أو المؤلفات العربية ، بل لقد عرفوها وانتشرت بينهم انتشارا وتأثيرا في المجتمع الإسلامي الهندي إذا قورنت بالثقافتين الفارسية والتركية المغولية. وقد توالى على الهند منذ دخلها الإسلام دول إسلامية كثيرة متعاقبة كانت دولة أباطرة المغول آخرها وأهمها وأوسعها ملكا، وأطولها عمرا، وأرقاها حضارة^٢.

١ - انظر: الساداتي، الدكتور أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، الناشر: مكتبة الآداب - القاهرة، (١/٢٥١).

٢ - انظر: المرجع السابق، (١٧/١-١٨).

الأمر السادس

التعريف المختصر لأبرز السلاطين المغولية

إن السلاطين المغولية الذين حكموا شبه القارة الهندية أكثر من ثلاثة قرون وبالتحديد من القرن السادس عشر الميلادي (١٥٢٦) إلى القرن التاسع عشر (١٨٥٧) ، كانوا من أقوى سلاطين العالم في عهدهم وقد قام ظهير الدين بابر بتأسيس هذه الإمبراطورية الإسلامية ، واستمرت بيد سلالة إلى ثلاثة قرون أو أكثر، وحكمت هذه السلالة أجزاء كبيرة من شبه القارة الهندية، فبلغت الدولة ذروة مجدها وقوتها وتمتعت أرض الهند تحت حكم هذه السلالة بتقدم اقتصادي بارز وبالتعايش الديني والسياسة الجيدة والعلم والحضارة.

ومن الجدير بالذكر أن عدد السلاطين المغولية الذين تولوا أمور هذه الإمبراطورية، عشرون، أولهم ظهير الدين بابر وآخرهم محمد بهادر شاه^١، ولكن يعلم من دراسة حياتهم السياسية، والعلمية والحضارية وآثارها على المجتمع الهندي ، أنهم ما كانوا في مرتبة واحدة، فالخري بنا أن نكتفي بتعريف أشهرهم وأكثرهم تأثيراً في المجتمع الهندي.

١-بابر شاه التيموري:

هو الملك المؤيد بابر بن عمر بن أبي سعيد بن ميران شاه بن تيمور التيموري، السلطان ظهير الدين محمد بابر شاه سلطان الهند، كان ينحدر من سلالة تيمور لنگ ، بينما كانت أمه قتلغ نكار خانم، ابنة يونس خان المغول (خان مغولستان) من سلالة چنگيز خان.

كان مولده في سادس شهر الله المحرم سنة ثمان وثمانين وثمانمائة فسماه الشيخ الكبير عبيد الله الأحرار بظهير الدين محمد، ولكنه اشتهر عند الأتراك باسمه المشهور بابر شاه.

نشأ في مهد السلطة، وتلقى الفنون الحربية، وكان ذكياً فطناً حاد الذهن، سريع الإدراك، قوي الحفظ، فتبحر في كثير من الفنون لا سيما الشعر والإنشاء والعروض والألغاز والخط... وكان مع اتساع

^١ - بهادر شاه الثاني (ولد في ٢٤ أكتوبر ١٧٧٥، دلهي، الهند - توفي في ٧ نوفمبر ١٨٦٢، رانجون، بورما [الآن يانجون، ميانمار]) كان آخر أباطرة المغول في الهند (حكم من ١٨٣٧ إلى ١٨٥٧). كان شاعراً، موسيقياً، وخطاطاً، وكان يميل إلى الفنون أكثر من القيادة السياسية. Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Dec ١٣, ٢٠٢٤, Article History <https://www.britannica.com/biography/Bahadur-Shah-II>

معارفه السياسية والعسكرية كلفاً بالمعارف والفنون المستظرفة، مقتدراً على الشعر بالفارسي والتركي، له ديوان شعر بالتركية، وقوله في تلك اللغة على ما قيل في غاية الحلاوة والعدوبة، وله منظومة في المعارف الإلهية نظم رسالة لخواجه أحرار، وله الوقائع البابرية بالتركية، كتب فيها أخباره من بدء حكومته إلى آخر عهده، نقلها إلى الفارسية مرزا عبد الرحيم بن بيرم خان^١، وله رسائل في العروض، وله كتاب في الفقه الحنفي المسمى بالمبيّن وعليه شرح للشيخ زين الدين الخوافي المسمى بالمبيّن، ومن مخترعته خط سماه الخط البابري كتب بذلك الخط القرآن الكريم وبعث به إلى مكة المباركة.

ومن شعره:

نو روز و نوبهار و می دلبری خوش است بابر بعیش کوش که دنیا دوباره نیست.^٢
وقد بدأ حكمه لأراضي خراسان^٣ سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م، ثم زحف إلى الهند وقضى على أسرة اللوديين، وسيطر على معظم البلاد، فأسس أمبراطورية كبيرة، ولكن لم يبق على قيد الحياة منذ الاستيلاء على تلك البلاد إلا مدة قصيرة: ٩٣٢ - ٩٣٧ هـ.^٤
ولما حضرته الوفاة أوصى بأن ينقل إلى كابل ويدفن هناك لميله الشديد وحبه المفرط لهذا البلد، فنفذت وصيته، وكان ذلك في سنة سبع وثلاثين وتسع مائة، وله من العمر تسع وأربعون أو خمسون سنة.^٥

^١ - بيرم خان كان جنرال عسكري متميز خدم للإمبراطورين المغوليين هما همايون وابنه أكبر، وقد ساهم بشكل كبير في توسيع مملكتهم. قاد بيرام أكبر إلى انتصاره على هيمو في معركة باي پات الثانية. كمستشار مؤهل، توفي بيرام في ٣١ يناير ١٥٦١. (Mapsofindia, Akhilesh Muraleedharan, [https:// www.mapsofindia.com /who – is bairam – khan.html](https://www.mapsofindia.com/who-is-bairam-khan/history))

^٢ - انظر: الحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) دار النشر: دار ابن حزم - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م، (٤/٣١٥).

^٣ - خراسان: إقليم واسع وممتد يقع حالياً في الشرق والشمال الشرقي لإيران، وخراسان تسمية قديمة كانت تشمل بلاداً واسعة منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وبخارى وغزنة وخوارزم. وكلها بلاد تدخل تحت بلاد فارس وأفغانستان وتركستان، وكانت هذه البلاد منضمة إلى والي خراسان قديماً ويجمعها هذا الاسم، وقد دخلت كلها تحت راية الإسلام في القرن الأول الهجري. (مجلة البحوث الإسلامية، ٥٦٣).

^٤ - انظر: العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر، الناشر: غير معروف (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض)، الطبعة: الأولى: ١٩٩٦ م، (١/٤١٢).

^٥ - انظر: الحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٤/٣١٥).

٢- همايون:

هو الملك الفاضل همايون بن بابر بن عمر التيموري، السلطان نصير الدين همايون شاه. ولد ليلة الثلاثاء لأربع خلون من ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وتسعمائة بقلعة كابل^١.

نشأ همايون في مهد السلطنة وأخذ من الفنون الحرية والسياسة ما يليق بأبناء الملوك، وأضاف إلى ذلك معرفة اللغة التركية والفارسية وعلم الهيئة والهندسة والنجوم والشعر والألغاز، وتبحر في علم الأبطال... وكان دائم الاشتغال بمطالعة الكتب ومذاكرتها، وكان فاضلاً، له اليد الطولى في العلوم الرياضية وكان شغوفاً بالعلم، دائم الصحبة للعلماء وأهل الفضل، وكان يحافظ على الوضوء ويكره أن يسمى الله على غير وضوء، ونسبه بعض المؤرخين إلى التشيع، ونفاه آخرون وذكروا أنه كان سني العقيدة حنفي المذهب مجتنباً عن المناهي^٢.

قام بالملك بعد أبيه في تاسع جمادي الأولى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة بمدينة أغرا، فأرخ له بعض العلماء خير الملوك، ووزع الأموال الطائلة على الخاصة والعامة سلب السلطة منه الملك الأفغاني شير شاه^٣، ففر همايون إلى منطقة السند، ثم لجأ إلى بلاد إيران حيث كان يحكمها الشاه طهماسب الصفوي^٤، وقد انتهر همايون وفاة شيرشاه واستطاع أن يجهز جيوشه بمعاونة الصفويين فرجع من إيران

^١ - انظر: المرجع السابق، (٤٤٣/٤).

^٢ - انظر: المرجع السابق، (٤٤٣/٤)، (٤٤٣/٤).

^٣ - شير شاه سوري (ولد حوالي ١٤٨٦، ساسارام، الهند - توفي في ٢٢ مايو ١٥٤٥، كالينجار) كان الإمبراطور الذي حكم شمال الهند (١٥٤٠-١٥٤٥) في السلالة الإسلامية السورية (الأفغانية)، والتي تراوحت من ١٥٤٠ إلى ١٥٥٧. أسس نظام إداري طويل الأمد مسؤول للحاكم وأنشأ نظام مالي محسوب بشكل دقيق. لأول مرة خلال الفتوح الإسلامية، تم تنظيم العلاقة بين الناس والحاكم بشكل منظم، مع قليل من القمع أو الفساد. Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedi Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Sher-Shah-of-Sur>

^٤ - ولد طهماسب سنة ٩١٩ هـ. حكم لمدة ٥٤ عاماً من ٩٣٠ إلى ٩٨٤ هـ، وهي أطول فترة حكم في العصر الصفوي، على الرغم من أن الشاه إسماعيل هو مؤسس السلالة الصفوية، إلا أن استقرار الحكم الصفوي كان خلال فترة حكم الشاه طهماسب الطويلة. توفي شاه طهماسب في قزوین في السنة الرابعة والخمسين من حكمه في ١٥ / صفر، ٩٨٤ هـ، وبعد فترة من الوقت دفن جثمانه في مشهد. أظهر الشاه طهماسب أنه رجل متدين وملتزم بالالتزامات الدينية. على الرغم من أن الدين الشيعي أصبح ديناً رسمياً في عهد والده، إلا أن استقراره وتوسعته حدث في عهد الشاه طهماسب. (انظر: محمد يوسف واله اصفهاني قزويني، روضه های ششم و هفتم از خلدبرين (تاريخ تيموريان و ترکمانان) به کوشش مير هاشم محدث، انتشارات: ميراث مکتوب ايران، سال چاپ: ١٣٧٩، (٣٢٦).

بعد ثلاث عشرة سنة ، ففتح كابول^١ ، وقندهار^٢ ، ثم قصد الهند فتمكن من القضاء على سكندر سوري آخر حاكم من أسرة شيرشاه، فجلس على سرير الملك مرة ثانية فتمكن من استعادة ملكه بعد ١٥ سنة^٣.

وعندما كان همايون يعلو السلم إلى مكتبته العامرة بالكتب المتنوعة وقع منه، وذلك عند صلاة الفجر، ومات إثر هذه الحادثة بعد بضعة أيام وكان ذلك في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وتسعمائة هـ^٤.

٣- جلال الدين محمد أكبر شاه الكوركاني:

السلطان المؤيد المظفر أبو الفتح جلال الدين محمد أكبر بن همايون بن بابر التيموري الكوركاني، أكبر ملوك الهند وأشهرهم في الذكر وأسعدهم في الحظ والإقبال. ولد في قلعة أمركوت من أرض السند في ثاني ربيع الأول سنة تسع وأربعين وتسعمائة، واسم أمها حميده بانو^٥.

فلما توفي همايون، سنة ثلاث وستين وتسعمائة، جلس على سرير والده أكبر، وكان سنه حينئذ نحو ثلاث عشرة، أجلسه على سرير الملك بيرم خان أحد قواد والده، وأخذ عنان السلطنة بيده، ورتق ما فتح

١ - كائيل: بضم الباء الموحدة، ولام، وكابل في الإقليم الثالث، طولها من جهة المغرب مائة درجة، وعرضها من جهة الجنوب ثمان وعشرون درجة، وقال الإصطخري: الخليج صنف من الأتراك وقعوا في قديم الزمان إلى أرض كابل. التي بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور وهم أصحاب نعم على خلق الأتراك في زيتهم ولسانهم، وكابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى. (الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (٤/٤٢٦).

٢ - قندهار: بضم القاف، وسكون النون، وضم الدال أيضا: مدينة في الإقليم الثالث، طولها مائة درجة وعشر درج، وعرضها ثلاثون درجة، وهي من بلاد السند أو الهند مشهورة في الفتوح،. (الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (٤/٤٠٣).

٣ - انظر: محمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، رسالة مقدمة إلى قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية فرع الحضارة والنظم الإسلامية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى بمكة المكرمة لنيل درجة الدكتوراه في الحضارة والنظم الإسلامية، العام الدراسي ، ١٤٠٦-١٤٠٧ هـ (٣١). والحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام. (٤/٤٤٤). والحسني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسني، الهند في العهد الإسلامي، راجعه وقدم له (نجل المؤلف) العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي: الناشر: مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لأحياء المعارف الإسلامية، دار عرفات ، دار الشيوخ علم الله، الطبعة: ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م، (١/١٨٦).

٤ - انظر: الحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٤/٤٤٤).

٥ - انظر: المرجع السابق (٥/٤٩٦).

من مهمات الدولة حتى ظلت آمنة مطمئنة، فلما بلغ أكبر شاه سن الرشد، خرج من حضارته ، وأمره أن يسافر إلى الحرمين الشريفين ، فقتل في أثناء الطريق بكجرات^١.

كان أكبر شاه رحيمًا، لطيف المعاشرة ، ظريف المحاضرة ، شجاعًا مقدامًا ، محظوظًا جدًا ، حتى كان لا يقصد بابًا مغلقًا إلا انفتح ، ولا يقدم على أمر مهم إلا اتضح ، واجتمع لديه من أهل السيف والقلم ما لم يجتمع عند غيره بعد الخلفاء العباسيين^٢، افتتح أمره بالعدل والسخاء، وقرب إليه أهل العلم والصلاح، وكان يذهب بنفسه إلى بيت الشيخ عبد النبي بن أحمد الكنكوهي لاستماع الحديث، ويسوي نعليه بيده ويضعهما قدميه، وكان يرحل إلى أجمير لزيارة قبر الشيخ معين الدين حسن السجزي راجلاً في كل سنة، وكان يتبرك بالشيخ سليم بن بهاء الدين السيكروي، وبني مساجد وزوايا له، وبني مدينة بأرضه وجعلها عاصمة بلاد الهند، وبني بها قصرًا وسماه عبادات خانه وقسمه على أربعة منازل وأمر أن يجتمع فيه علماء البراهمة والنصارى والمجوس وأهل الإسلام، فيجتمعون في ذلك القصر ويباحثون في الخلافات بحضرة السلطان^٣.

وهناك شبهات حول حياة جلال الدين أكبر الدينية سيتصدى لها الباحث في الباب الثالث إن شاء الله.

توفي في جمادي الثانية سنة أربع عشرة وألف ودفن في سكندر آباد قريب أغرا. وكانت مدة سلطنته خمسين سنة، ودفن في ضريحه الذي كان قد بدأ بناءه في مدينة سكندرا والذي أتمه فيما بعد ابنه السلطان جهانجير ، وفي عهد السلطان «أورنجزيب» خرب الجات هذا الضريح ونبشوه ، وأخرجوا عظام الإمبراطور «أكبر» وأحرقوها وذروها في الهواء^٤.

تنبيه هام:

قال العلامة الأستاذ السيد أبو الحسن علي الندوي: يقال: إن ما سجّله جهانجير في «توزك» الصغير من أحوال الملك أكبر عند وفاته ، يدل على أنه شعر عند دنو الأجل بأنه على خطأ وضلال ،

١ - انظر: الحسيني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، الهند في العهد الإسلامي ، (١/١٨٧). والحسيني ، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥/٤٩٦).

٢ - انظر: الحسيني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، الهند في العهد الإسلامي ، (١/١٨٧).

٣ - انظر: الحسيني، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥/٤٩٦).

٤ - انظر: الحسيني ، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥/٤٩٦)، والشيبال ، دكتور جمال الدين ، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، (١٠٨).

فجدد إيمانه بتلفظه بكلمة التوحيد ، وأسلم روحه لبارئها في حالة من القراء الذين كانوا يقرأون سورة يس، ويدعون له ، وليس لنا أن نحكم على ما كان بينه وبين الله وهل أدركه اللطف الإلهي أم لا؟^١.

٤- جهانجير بن أكبر شاه الكوركاني

هو السلطان نور الدين محمد جهانجير بن أكبر بن همايون بن بابر الكوركاني أحد سلاطين الهند، ولد يوم الأربعاء ١٣ ربيع الأول سنة سبع وسبعين وتسعمائة بمدينة أكبر آباد من أم هندوسية ابنة راجا جيپور بيهار مال^٢. وكان اسمه سليم ، سماه به والده على اسم الشيخ سليم بن بهاء الدين السيکروي، لأن الشيخ بشر به والده قبل ولادته ودعا له، فلما استقل بالملك لقب نفسه بنور الدين محمد جهانجير^٣.

تولى المملكة بعد والده يوم الخميس لأربع عشرة خلون من جمادي الآخرة سنة أربع عشرة وألف. فاستقل بالملك نحو اثنتين وعشرين سنة^٤.

وافتح أمره بالعدل والسخاء وقرب إليه العلماء، وكان صحيح العقيدة خلافاً لوالده، وكان جهانجير رحيماً حليماً كريماً شاعراً لطيف الطبع حسن المعاشرة ظريف المحاضرة حسن الصورة سليم الذهن باهر الذكاء فصيح العبارة، له يد بيضاء في التحرير والتجوير، ويعتبر عصره وعصر ابنه شاه جهان العصر الذهبي للدولة المغولية في الهند.

صنف كتاباً في أخباره وسماه «ترك جهانجير» وهو مقبول متداول في أيدي الناس، وصنف في أخباره معتمد خان كتابه «إقبال نامه» ومرزا كامكار الملقب بعزت خان كتابه «مآثر جهانجير»، ومن مصنفات جهانجير «بندنامه» بالفارسية في أوراق عديدة صنفه لأبنائه، وأمر الشيخ محمد ابن الجلال

١ - انظر: الندوي، علي الحسني، رجال الفكر والدعوة، الجزء الثالث، الإمام السرهندي حياته وأعماله، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (٦٩).

٢ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، (٥١). ومحمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٣٤).

٣ - انظر: الحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥/٥١٧).

٤ - انظر: الحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) (٥/٥١٧). والحسني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسني، الهند في العهد الإسلامي، (١/١٨٨).

الحسيني الغوجراتي أن يترجم القرآن الكريم بالفارسية ولا يباشر فيه التصنع ولا يزيد على الترجمة اللفظية حرفاً من جانبه^١.

تزوج الملك جهانجير بنور جهان بيكم^٢، سنة عشرين وألف ، وكانت عشيقته، فتزوج بها فحببت إليه، حتى ألقى بيدها زمام السلطة ، وكانت نور جهان من خيار النساء حسناً، وجمالاً، وعقلاً، اخترعت أموراً كثيرة في الزيّ ، واللباس ، والحلي ، والأشياء العطرة ، وكانت ماهرة في الرمي ، والفروسية، والسياسة، والتدبير^٣.

توفي جهانجير وهو في طريق عودته من كشمير التي كانت مصيف الأباطرة المغول لثلاث بقين من صفر سنة ست وثلاثين وألف، وكانت مدته إحدى وعشرين سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً، ودفن في مدينة لاهور^٤.

٥-شاهجهان بن جهانجير الكوركاني

هو السلطان الفاضل الباذل شهاب الدين محمد شاهجهان بن جهانجير بن أكبر شاه الكوركاني ملك ملوك الهند كان اسمه خُرَّم معناه المسرور، سماه به جده أكبر شاه، ولقبه والده شاهجهان^٥. وقد ولد شاه جهان غرة ربيع الأول عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م بمدينة لاهور^٦ من أم هندوكية وهو ثالث أبناء جهانجير وأقدرهم جميعاً^٧، وجلس على سرير الحكم سنة ست وثلاثين وألف.

^١ - انظر: الحسيني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥١٧/٥). ومحمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٣٤).

^٢ - نور جهان (ولدت في ١٥٧٧، قندهار [الآن في أفغانستان] - توفيت في ١٦٤٥، لاهور [الآن في باكستان]) كانت الحاكمة الفعلية للهند خلال السنوات الأخيرة من حكم زوجها جهانكير، الذي كان الإمبراطور من ١٦٠٥ إلى ١٦٢٧. حققت سلطة سياسية غير مسبقة للمرأة في الهند المغولية. (Britannica, Written by Meg Matthias, Last Updated: Jan ٣, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Nur-Jahan>)

^٣ - انظر: الحسيني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، الهند في العهد الإسلامي ، (١٨٨/١)

^٤ - انظر: الحسيني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥١٧/٥). ومحمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٣٤).

^٥ - انظر: الحسيني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) (٥٣٦/٥)

^٦ - لاهور ثانية أكبر مدينة في باكستان. عدد سكانها ٢,٩٥٢,٦٨٩ نسمة. ولا يفوقها في عدد السكان إلا كراتشي. لاهور عاصمة البنجاب، الإقليم الواقع في شمال غربي باكستان. وتعدّ المدينة مركزاً لصناعة النسيج والحياكة والطحن وصناعات أخرى. كما تعتبر لاهور مركزاً تعليمياً أيضاً. وفيها متحف وعدة مدارس وتضم جامعة البنجاب. (مجلة البحوث الإسلامية، ٧٩١).

^٧ - انظر: محمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٣٦).

كان شاهجهان أشهر ملوك الهند وأجودهم، افتتح أمره بالعدل والسخاء، ورفع سجدة التحية التي اخترعها جده أكبر شاه، وأزال المظالم من البلاد وعمرها، وأخذ الفتنة والبدعة، وأسس المساجد والمشاهد، وكان كثير الإحسان إلى السادة والعلماء، قصده الناس من جميع البلدان فغمرهم بحسانه، وكان عصره أحسن الأعصار وزمانه أنضر الأزمنة ويعد عصره عصرا ذهبيا، حيث عم الأمن والرفاه والتقدم في البلاد^١.

وقد ترك شاهجهان خلفه آثارا كثيرة، من أعظمها مقبرة (تاج محل) التي دفن فيها زوجته، ثم دفن فيها بعد وفاته^٢.

صنف في أخباره محمد صالح كتابه «عمل صالح من الولادة إلى الوفاة»، وأمين بن الحسن القزويني كتابه «بادشاه نامه» من بدء جلوسه إلى عشر سنين، وصنف عبد الحميد اللاهوري كتابه «بادشاه نامه» في أخبار عشرين سنة من مدته، وكمله محمد وارث من عشرين إلى ثلاثين، وصنف محمد طاهر بن أحسن الله الكشميري كتابه «شاهجهان نامه» في أخباره، لخص فيه الأخبار من بادشاه نامه لعبد الحميد المذكور ثم أضاف عليها ما وقع بمسمعه ومشهده إلى آخر أيام الملك، وصنف له عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتي العلامة كتباً كثيرة وكان يعطي عبد الحكيم المذكور مائة ألف في كل سنة^٣.

ابتلى السلطان شاهجهان باحتباس البول ولزم الفراش، وتعرض في آخر أيام حياته كان اختلاف أولاده فيمن يخلفه في الحكم، حتى وصل الأمر بهم إلى عصيان بعضهم عليه والقتال فيما بينهم، وقد استطاع ابنه أورنجزيب التحالف مع أخيه مراد ضد دارا شكوه الأخ الأكبر، وتغلب عليه^٤.

بعد الانتصار الذي حققه أورنجزيب ضد أخيه شجاع، كتب إلى أبيه يعتذر إليه عن هذه الحرب التي أكرهته أعداءه على خوض غمارها، مبررا ما قام به، ويلتمس الصفح من والده، فتقبل السلطان شاهجهان ذلك واشترك في تكريم ابنه المنتصر، فبعث إليه سيفاً مرصعاً بالجواهر، وقد نقش عليه اللقب الذي منحه إياه يدعى السيف «عالمكير» ومعناه آخذ العالم وسيد هدية منه، ثم دعاه للقدوم إليه، غيره أن رجال أورنجزيب حذروه مما قد يكون أعده أبوه من فخ للإيقاع به وأشاروا عليه بأسر السلطان

١ - انظر: الحسيني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٤/٤٤١). ومحمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٣٦).

٢ - انظر: العسيري، أحمد معمر، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، (٤١٣).

٣ - انظر: المرجع السابق. (٥/٥٣٦).

٤ - انظر: الحسيني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) (٥/٥٣٦). ومحمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٤١).

حرصاً على سلامته وتأميناً لمركزه^١، فقبض عليه وسجنه في جناح الحريم بالقلعة أغرا^٢، وقضى شاهجهان بقية أيام عمره سجيناً في جناح الحريم في قلعة أغرا، ولم يسمح لأحد أن يتصل به فيما عدا ابنته جهان آراء التي تفانت في السهر على راحته وخدمته حتى وفاته^٣.

لقد حاول شاهجهان عبثاً استرداد سلطته حتى توفي حزينا عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م وهو في الرابعة والسبعين من عمره^٤.

٦- عالمكير بن شاهجهان سلطان الهند:

هو الامام المجاهد المظفر المنصور السلطان بن السلطان أبو المظفر محي الدين محمد أورنگ زيب عالمكير بن شاهجهان الغازي^٥. ولد ليلة الأحد لخمس عشرة خلون من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وألف بقرية دوهاب، وهو سادس الأبناء للإمبراطور المغولي «شاهجهان»، وأمه «ممتاز محل»^٦. تلمذ على مولانا عبد اللطيف السلطانبوري ومولانا محمد هاشم الكيلاني والشيخ محي الدين بن عبد الله البهاري وعلى غيرهم من الأساتذة، وبرز في كثير من العلوم والفنون، وباع الشيخ محمد معصوم بن الشيخ أحمد السرهندي وأخذ الطريقة عن الشيخ سيف الدين بن محمد معصوم المذكور، وكان براعته في فن أنواع الخط أوصلته إلى أن يقوم بنسخ المصحف الشريف بخط يده قبل أن يعتلي عرش الهند، وبعث بتلك النسخة إلى مكة المكرمة^٧.

جلس عالمكير على سرير الملك سنة ثمان وستين وألف، فافتتح أمره بالعدل والإحسان ورفع المظالم والمكوس وأسر غالب ملوك الهند المشهورين وصارت بلادهم تحت طاعته وجببت له الأموال وأطاعته

١ - وقعت بيد أورنجزيب رسالة من أبيه بعث بها دارشكواه يحذره فيها من القدوم إليه فانكشف له سوء نوايا أبيه نحوه، وصح لدينه ما حذره رجاله في السابق، فحرم الكتابة على السلطان شاهجهان داخل المعتقل. (انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، (٦٣).

٢ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، (٦٣).

٣ - انظر: الحسن الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥٣٦/٥).

٤ - انظر: الحسن الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام. (٥١٧/٥). ومحمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٣٦).

٥ - انظر: الحسن الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٧٣٧/٦).

٦ - انظر: الحسن الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٧٣٧/٦). والجوارنة، د. أحمد محمد، عالمكير الأول «أورنگ زيب» إمبراطور الهند الكبير، دراسات تاريخية، قسم التاريخ، جامعة يرموك، ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤ م، (١٣/١).

٧ - انظر: الحسن الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٧٣٧/٦). والجوارنة، د. أحمد محمد، عالمكير الأول «أورنگ زيب» إمبراطور الهند الكبير، (١٣/١).

البلاد والعباد، ولم يزل في اجتهد من الجهاد ولم يرجع إلى مقر ملكه وسلطته بعد أن خرج منه، وكلمًا فتح بلاداً شرع في فتح أخرى حتى لحقت حدود ملكه في الجهة الشمالية إلى حدود خيوه^١ وبخارا وفي الجهة الجنوبية إلى البحر المحيط الهندي وفي الجهة الغربية إلى سومنات على شاطئ بحر الهند وفي الجهة الشرقية إلى بوري منتهى أرض أزيسه^٢.

وقد حكى عن السلطان أورنجزيب مآثر جليلة، ومناقب جمّة، قلما يوجد مثلها في العلماء والوعاظ فضلاً عن الأمراء والحكام، فقد حكى المؤرخون عن التزامه بالطاعات، مثل: إقامة الصلوات المفروضة، والاعتكاف في شهر رمضان، وصوم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، والمداومة على الوضوء، والمحافظة على الأذكار، والصدقات ومجالسة العلماء والمشايخ، وعن اجتنابه عن المعاصي، مثل: شرب الخمر، وسماع الأغاني، والأكل في الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، والاشتغال بالأمور المستنكرة.

كان عالمكبر عالماً ديناً تقياً متورعاً متصلاً في المذهب، يتدين بالمذهب الحنفي لا يتجاوز عنه في قول ولا فعل وكان يعمل بالعزيمة، وكان يصلي الصلوات المفروضة في أوائل أوقاتها بالجماعة في المسجد مهما أمكن، وكان يصوم في رمضان في شدة الحر ويحيى الليل بالتراويح ويعتكف في العشرة الأخيرة من رمضان في المسجد وكان يصوم يوم الاثنين والخميس في كل أسبوع من أسابيع السنة وكان يريد أن يرحل إلى الحرمين الشريفين للحج والزيارة في أيام والده فلم يرض بفراقه وبعد ذلك لم تمهله المصالح الملكية ولكنه كان يرسل الناس إلى الحرمين الشريفين للحج والزيارة ويذل عليهم العطايا الجزيلة ويبعث إليهما أموالاً طائلة لحل الحوائج في أيام الحج بعد سنة أو سنتين، ويوظف الذاكرين والذاكرات ويجعل لهم الأرزاق السنوية، ويداوم على الطهارة بالوضوء، ويحيى الليالي المتبركة بالصلاة والصدقة وصحبة العلماء والمشايخ في المسجد، وكان يحتز عن كل سوء ومكروه منذ نعومة أظفاره، لم يشرب الخمر قط، ولم يقارب امرأة لا تحل له، وكان لا يستمتع الغناء بالمزامير منذ جلس على سرير الملك، ونهى الأمراء أن

^١ - خيوه، مدينة تقع في جنوب وسط أوزبكستان. تقع غرب نهر أمو داريا (نهر أوكسوس القديم) على قناة بلفان، ويجدها من الجنوب صحراء كاراكوم ومن الشمال الشرقي صحراء كيزيلكوم. كانت سوق عبدة سيئة السمعة تتركز هناك من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر. المدينة معروفة أيضاً بالهندسة المعمارية الإسلامية داخل مركزها التاريخي الذي يمتد على مساحة ٥٩٠ فدانا (٢٤٠ هكتاراً).

(Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/place/Khiva>)

^٢ - انظر: الحسن الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الإعلام، (٧٣٧-٧٣٩).

يتذكروا بين يديه بكذب وغيبة وقول الزور وأمرهم أن يعبروا عن الأمور المستكرهة إن وقع لهم حاجة إلى ذلك بكناية واستعارة^١.

ومن مآثر أورنجزيب واهتمامه بشؤون الدولة أنه وزع أوقاته ونظمها، فجعل للعبادة وقتاً ولقراءة الكتب وقتاً وللقيام بمشاغل الدولة وقتاً آخر، وكل هذا ينم عن جديته وتقييمه للوقت ومجانبته عن اللهو واللعب وما يصرف الإنسان عن الأولويات.

"وكان موزعاً لأوقاته فوقت للعبادة ووقت للمذاكرة ووقت لمصالح العساكر ووقت للشكاية ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته لا يخلط شيئاً بشيء... ويأمر المهمات من أمور الدولة وربما يدعو أهل المظالم والشكاوى فيقضي بينهم بالمعروف وربما يدعو المخدرات فيعرض عليه حوائج النساء فيبذل عليهن العطايا الجزيلة، ثم يذهب إلى المسجد ويصلي العصر بجماعة ثم يجلس بدولت خانة مرة ثانية فيتمثل بين يديه الأمراء ويكلمونه في المهمات... ثم يخرج إلى المسجد ويصلي المغرب بجماعة ويشغل نحو ساعتين بالأذكار والأشغال ثم يذهب إلى دولت خانة ويشغل بالمهمات إلى وقت العشاء ثم يذهب إلى المسجد ويصلي العشاء ثم يدخل المنزل^٢.

كان أورنجزيب افتتح أمره بالعدل والاحسان، ورقي الأمراء على المراتب السامية، والمناصب الرفيعة، كلاً بمقدار سعيه، واستحقاقه، ومرتبته، واعتنى بإقامة الجمع والجمعات، وأمر العلماء بتدوين الفقه، حتى جمعت بأمره «الفتاوى الهندية» في مجلدات كبار، وأبطل المكوس والمظالم عن المسلمين، ونصب الجزية بعد أن لم تكن على الكفار، وأقام دولة العلم، وبالغ في تعظيم أهله، ونصب المحتسبين في البلاد، وفتح الفتوحات العظيمة^٣.

وفهم مما سبق أن أورنجزيب اتبع سياسة شديدة في معاملته للهنداكة، حيث أبعد الكثير منهم من مناصب الدولة الهامة بعكس جده أكبر الذي كان يعاملهم معاملة لينة ويكرمهم بتعيينهم في مناصب هامة للحكومة.

١ - انظر: الحسيني الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٧٣٧-٧٣٩).

٢ - انظر: الحسيني الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٧٣٧-٧٣٩).

٣ - انظر: الحسيني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، الهند في العهد الإسلامي، (١٨٩/١).

استوعبت مدة حكم أورنجزيب خمسين سنة، وفاض روحه يوم الجمعة بدكن في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام ١١١٨ هـ / ١٧٩٧ م وهو في التسعين من عمره، ودفن في مقبرته بمدينة أورانجباد^١.

نهاية أباطرة المغول:

خلف أورنجزيب خلفاء ضعاف لم يستطيعوا أن يحافظوا على وحدة هذه الدولة الشاسعة المترامية الأطراف، مما جعل بعض الولايات والمناطق تعلن استقلالها عن الحكومة المركزية، كما ظهرت بعض الحركات الوطنية التي كانت تهدف إلى إيقاظ روح الديانة الهندوكية، ومن أهم هذه الحركات قوة مرهته في الجنوب ووسط الهند التي استغلت الأوضاع المتدهورة، فتسببت بالخسائر في أرواح المغول وأموالهم وسائر مسلمي الهند.

وأدت مثل هذه الحروب إلى انفصال مناطق كثيرة عن الدولة المغولية. وفي تلك الفترات، ظهر نفوذ الشركات التجارية الأوروبية، وفي مقدمتها شركة الهند الشرقية. وكان آخر سلاطين المغول «بهادر شاه» الثاني الذي أجبره جنوده على محاربة البريطانيين، وهذه المحاولة الاستقلالية التي سماها البريطانيون بـ«التمرد العسكري» أدت إلى قتل كثير من البريطانيين، ولكن للأسف انتصر البريطانيون، فقصوا على حكومة الأسرة المغولية نهائياً، وقبض الانجليز أخيراً على آخر إمبراطور مغولي/بهادر شاه الثاني ونفوه إلى بورما سنة ١٢٧٥ هـ/ ١٨٥٨ م، وانتهى بموته ملك المغول بالهند، وخضعت الهند مباشرة منذ ذلك الوقت لحكم التاج البريطاني حتى نالت استقلالها أخيراً في عام ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م^٢.

^١ - انظر: محمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٤٤). أورانجباد، مدينة تقع في ولاية ماهاراشترا الغربية-الوسطى في غرب الهند. تقع في منطقة مرتفعة جبلية على نهر كاوم. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ٧, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Aurangabad>)

^٢ - انظر: العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، (٤١٤). ومحمد يوسف صديق مجيب الرحمن، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، (٣٢-٤٤).

الباب الأول

الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الفردية

الفصل الثاني: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الاجتماعية

بالرجوع إلى المراجع والمصادر يظهر أن هناك تصنيفات كثيرة للقيم، فكل باحث اجتهد في تصنيفها على أساس وجهة نظره، وما جمع عنده من كمية جزئيات القيم وفروعها.

فقد اختلفت المعايير التي اعتمدها الباحثون في تصنيفاتهم، فبعض الباحثين صنف القيم حسب المحتوى إلى قيم نظرية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية، ودينية إلى غير ذلك، وبعضهم صنفها حسب مقصدها إلى قيم وسائلية وقيم غائية، وهناك معيار آخر اعتبرها بعض الباحثين في تصنيفه للقيم وهو العمومية والخصوصية، أو الديمومة والعرضية، ولكل وجهة هو موليتها.

أما المعيار الذي اعتبره الباحث في هذه الرسالة هي المبدئية في الظهور، فإن كان مبدء الظهور هو جوهر الإنسان وحده بدون أن يتدخل في ذلك المبدء تعامل الإنسان مع إنسان آخر أو مع مادة أخرى، فهي القيم الفردية، أما إن كان ظهوره يتطلب وجود إنسان آخر أو مادة أخرى فهي القيم الاجتماعية، فالعلم والفكر مثلاً من القيم الفردية حيث إنهما لا يتطلبان في ظهورهما في الإنسان سلوك الفرد وتعامله مع الآخرين، أما السياسة والأخلاق فلما تطلبا هذا الأمر كانتا من القيم الاجتماعية.

ويجدر هنا أن ننوه بوجود تعاريف مختلفة للقيم الفردية والقيم الاجتماعية، حيث إن الكثير من الباحثين جعل القيم الفردية والاجتماعية من أجزاء القيم الإنسانية، لكن سيستمر الباحث في هذه الرسالة على اصطلاحه السابق الذي اختاره للقيم الفردية والقيم الاجتماعية، ولا مشاحة في الاصطلاح.

الفصل الأول

الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الفردية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: القيم الإنسانية

المبحث الثاني: القيم الفكرية

المبحث الثالث: القيم العلمية

المبحث الأول

القيم الإنسانية

إن من القيم التي يهتم بها الإسلام، ويضعها في بؤرة اهتمامه هي القيم الإنسانية النبيلة، والتي تحافظ على كرامة الإنسان، وتبعده عن الصفات الحيوانية، فتخرجه من ظلماتها إلى النور والهدى. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^١. فقد حافظ الإسلام على القيم الإنسانية، ورفع قدره ومكانته، فلا يمكن المحافظة على تلك القيم إلا بالاستضاءة بنور الإسلام ونور الإيمان. بالرجوع إلى تاريخ الهند يتضح أن هناك قيمة إنسانية قد أحيها المغول أو قاموا بتعزيزها في شبه القارة الهند، سيذكر الباحث نماذج من أبرز تلك القيم هنا.

المطلب الأول: المرأة ومكانتها في عهد الأباطرة المغولية الإسلامية

بالرجوع إلى المصادر يتضح أن أهل الهند وإن تمتعوا بثقافة عريقة راسخة، لكنهم كسائر الشعوب والممل غير المسلمة كانوا يعاملون المرأة بمنتهى القساوة، والعنف ولم يكونوا يراعون القيم الإنسانية في التعامل مع المرأة، فظهرت المرأة عندهم كمتاع من أمتعة البيت، قد يخسرها زوجها في القمار. "على الرغم من أن بلاد الهند ذات حضارة عريقة راسخة، تتميز بطابع العلم والتمدن... ولكنها إذا أمعنا النظر نرى أهل بلاد الهند كبقية الشعوب التي كانت في الزمن الغابر تعامل المرأة عندهم بمنتهى القساوة... فقد فقدت المرأة الهندية إنسانيتها وتحولت إلى متاع من أمتعة البيت قد يخسرها زوجها في القمار"^٢.

فقد كان الهندوس لا يعترفون بحقوق المرأة، وكانوا يحرمون المرأة الهندية من معظم الحقوق المعترف لها في الإسلام، منها الملكية والإرث، كيف لا؟ فالمرأة في اعتقادهم عنوان الانحطاط الخلقي، ولا تتمتع بشخصية كاملة مستقلة^٣، وهذا أدى إلى ظهور كثير من العادات والخرافات التي تحطم كرامة المرأة وشخصيتها، وتذهب بها أدراج الرياح.

^١ - الإسراء: ٧٠.

^٢ - الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، (١٨٨).

^٣ - المرجع السابق، (١٨٨).

وكان من أشنع أنواع الإهانة للمرأة في شبه القارة الهندية، ظاهرة تسمى بالساتي أو السوتي^١، وبدراسة هذه الظاهرة تعلم مدى إهدار الهندوس لإنسانية المرأة، حتى جعلوها أهون عندهم من الحيوانات، فإنهم قد كانوا يعبدون كثيرا من الحيوانات، وأبوا معاملتها بهذه المعاملة البشعة التي أباحوها في تعاملهم مع المرأة.

وظاهرة الساتي تعني إحراق الأرمال على الكومة التي احترق فيها أزواجهن وهي حية، بعد أن يلبسونها أفخر أنواع الحلي والثياب، حيث كانوا يأتون بتلك المرأة وكأنها عروس في ليلة الزفاف، فيلقونها فوق تلك الجثة المحترقة حتى تأكلها النيران، وقد مسخ الله عقولهم وأفكارهم، حيث كانوا يعدون تلك الظاهرة اللإنسانية تشريفا للمرأة وتكريما لها ولعائلتها، ومن امتنعت منهن يعد عملها عارا عليها، فيجب عليها أن تبقى بائسة منبوذة عند أهلها لعدم وفائها. فلم تكن قبول تلك الظاهرة واجبا عليها، بل إعزازا وتكريما لها^٢.

وهذه العادة الشنيعة قد رسخت في أذهان وقلوب الهندوس بحيث لم يستطع الأباطرة المغولية رغم محاولتهم أن يستأصلوها عن المجتمع الهندي، فقد جاء في التاريخ أن السلطان أكبر حاول بكل نفوذه وهيمنته إبطال هذه الخرافة لكن فشلت خطته في نهاية المطاف، فقد رفضت إحدى العرائس الهنديات طلبه بالعدول عن إحراق نفسها، لكن العروس أصرت على التضحية لأجل بعلها^٣. ومع ذلك لم يكن محاولة حكام المسلمين عبثا وسدى، حيث مهدوا الطريق لإخماد تداعياتها عن النفوس، فلم يمحض على أهل الهند إلا سنوات قليلة حتى أخذت ظاهرة الساتي تقل شيئا فشيئا.

أما المرأة الهندية في عهد السلاطين المغولية فقد تغيرت مكانتها، حيث إنها حظيت بمكانة لم تحظ بها في مجتمع الديانات والملل، حيث صارت جزءا من المجتمع الإسلامي، واعترف السلاطين بحقوقها وكرامتها، فرجعت المرأة من الهبوط والانحطاط الخلقي إلى الاحترام والإعزاز.

فقد حرص المسلمون على انقاذ المرأة الهندية مما آل إليه أمرها من الانحطاط الخلقي والهبوط النفسي، وأرجعوها إلى مكانتها التي يليق بشأنها، وبهذا الأمر لم تعد المرأة الهندوسية صنما يعبد من دون الله، أو متاعا يباع ويشترى بثمن قليل، حيث شرع حكام المسلمين لإصلاح المجتمع وحقوق المرأة

١ - ومعنى السات أو الساتي أو سوتي " الزوجة المخلصة لزوجها". (المرجع السابق (١٩٠).

٢ - انظر: المرجع السابق، (١٨٩).

٣ - انظر: المرجع السابق، (١٨٨).

قوانين، وأعطوا للمرأة مكانا عاليا في تلك القوانين، منها منع الزوجة من إحراق نفسها إذا مات زوجها، وإعطاء الميراث للمرأة، وإعطاء المرأة حرية التملك والتمليك وغيرها من الحقوق الأساسية، ولأجل ذلك اعتنق الكثير من النساء الإسلام وتزوجن من الرجال المسلمين وأسهمن إسهاما فعالا في نشر الدعوة الإسلامية بين الهندوسات^١.

وأيضا أسهمت النساء من البيوت الحاكمة في فتح المدارس أمام تعليم المرأة، ولم يكن التعليم مقتصرًا على المسلمات فقط بل تعدى إلى غير المسلمات من بنات الشعب أيضا، وسيأتي في القيم العلمية شواهد تدل على هذا الأمر.

فقد برز دور المرأة في إمبراطورية المغول الإسلامية بشكل كبير في شبه القارة الهندية، فمن أبرز النساء اللواتي اشتهرن في الإمبراطورية المغولية الإسلامية وذاع صيتها "مهم أنكه"^٢ مربية السلطان أكبر، والسلطانة "نور جهان" زوجة جهانگیر، والسلطانة "ممتاز محل" زوجة شاهجهان^٣، فقد لعبت هذه النسوة دورا بارزا في مجالات كثيرة، مثل التعليم، والثقافة والسياسة^٤. فهؤلاء النسوة حققن الكثير من الإنجازات لأجل النهض بالمرأة الهندية، ورفع شأنها، وإنقاذها من العادات التي قد أظلمت دور المرأة، وحطمت حقوقها، فساهمن مساهمة فعالة في معاونتهم وإحياء حقوقهن.

"ولقد كان حريا بنور جهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التي حققت الكثير منها، حتى نهضت بالمرأة الهندية ورفعت الكثير من الجور عنها وساهمت مساهمة فعالة في معاونته الكثيرات من الفتيات الفقيرات على الزواج، فقد جرها ما صار لها من بالغ النفوذ على زوجها، حتى ضربت السكة

١ - انظر: المرجع السابق، (١٩٠).

٢ - مَهَم أنكه (توفيت في ١٥٦٢ م) كانت المربية الرئيسية والمخلصة والمفضلة لدى أكبر شاه الغوركاني. كانت ذكية جدًا، وسياسية، وقاسية، ومكررة وطموحة للسلطة. وكانت المستشارة الرئيسية الموثوقة والشخصية المؤثرة سياسيًا على شاه خلال فترة مراهقته. سيطرت عمليًا على الحكم الغوركاني من ١٥٦٠ م حتى وفاتها في ٢٤ يوليو ١٥٦٢ م، ولعبت دورًا مباشرًا وفعالًا في السياسة وشؤون الأسرة الإمبراطورية. (Jackson, Guida M. (١٩٩٩). *Women rulers throughout the ages: an illustrated guide*, Santa Barbara, Calif: ABC-CLIO. p. ٢٣٧. ISBN ٩٧٨-١-٥٧٦٠٧-٠٩١-٨.)

٣ - ممتاز محل (ولدت حوالي ١٥٩٣ - توفيت في ١٧ يونيو ١٦٣١، بورهانپور، الهند) كانت زوجة شاه جهان، إمبراطور المغول في الهند (١٦٢٨-١٦٥٨). بعد وفاتها في سن مبكرة بعد بضع سنوات فقط من حكم زوجها، ألهمت ذكرها بناء تاج محل، حيث دُفنت. (Britannica, Written by Adam Zeidan Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Mumtaz-Mahal>)

٤ - انظر: المرجع السابق، (١٩٠).

باسميهما، وذيلت مراسيم الدولة بخاتميها جنباً إلى جنب^١. كيف لا وقد كان للأميرات القصور دوراً بارزاً في السياسة، والقرارات الحكومية، ومن أجل ذلك يقر المؤرخون أن السلطان أكبر عندما نجا من سيطرة بيرم خان، لم يستطع أن ينجو من هيمنة الأميرات ونساء القصر إلا بعد جهد كبير ودهر طويل، كما مر في التمهيد.

كان لحريم الملك أئمة تثير الحيرة والعجب، حيث كان لكل أميرة من أميرات القصر جوار وراقصات، وكانت كل واحدة منهن تلبس ثوباً جديداً وحلياً جديداً في كل يوم، وكان طهارة^٢ الملك يطعمون الملكات المعروفات بـ "بي غم"؛ أي اللاتي لا يعرفن الغم، وكانت الخليلات يقمن بشئون أنفسهن بما يأخذنه من المنح والهبات^٣.

المطلب الثاني: نظام الطبقات في عهد الأباطرة المغولية الإسلامية

من سمات المجتمع الهندي أنه كان هناك نظام طبقي خاص، وكان لكل طبقة من تلك الطبقات رسوم وتقاليد تنظم مكانتهم، وتعين وظائفهم في شبه القارة الهندية.

وقد قسم النظام الطبقي أهل الهند إلى هذه الطوائف، الطبقة الأولى وهي طبقة البراهمة أو رجال الدين، فهذه الطبقة هي الطبقة العليا في المجتمع، ثم تأتي بعد تلك الطبقة، الطبقة الثانية وهي طبقة الكشترية، أو الجنود، وتأتي تحت تلك الطبقة المحاربين وقواد الجيش والفرسان وأشراف الحكومة، ثم كانت الطبقة الثالثة وهي طبقة الفيشيا من الطبقات الوضيعة في المجتمع وكانوا أهل التجارة والحرفة، ثم الطبقة الرابعة وهي طبقة العبيد والرقيق، وتعد هذه الطبقة من أسفل الطبقات في المجتمع فقد كانوا منبوذين، وكانت تتكون هذه الطبقة من القبائل التي لم تعترف بسمو البراهمة^٤.

ولا شك أن هذا التقسيم والتصنيف في المجتمع لا أساس له من العلم والعقل، فكم من عبد لا يلقي أحد لرأيه بالاً، ولا قيمة له عند الناس، وهو ذو معرفة تامة، وذهن متين، ونظر ثاقب، وكم من عالم بالدين والشريعة لا يعرف إلا سواد الكتب، ولا يتمتع برجاحة العقل واتقاد الذهن. فهذا التقسيم يزداد بؤس الفقراء، والمستضعفين، ويسوق الأشراف والملا إلى الترف والضلال المبين.

^١ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٧٩).

^٢ - طاو [مفرد]: ج طاهون وطهاة، اسم فاعل من طهى. طَبَّاح، خَبَّاز، شَوَاء. (انظر: د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١٤١٨/٢).

^٣ - غوستاف لوبون، حضارات الهند، المترجم: عادل زعيتر، الناشر: مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى: ٢٠١٢م، (٣٤٠).

^٤ - الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، (١٨٦).

ولأجل ذلك ساوى الإسلام بين الناس جميعاً، فهم أبناء لأب وأم واحد، وهم سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عربي وعجمي، وبين تاجر وقائد جيش إلا بالتقوى. فلم يدخل الإسلام شبه القارة الهندية إلا بهذا الشعار، وأحيى في نفوس الناس الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ففي ظل النظام الإسلامي لا نظام طبقات ولا منبوذ ولا نجس بالولادة، ولا يكره أحد على البقاء جاهلاً وأمياً، ولا يسلب مال أحد بغير حق، فهذا النظام العادل كان غريباً على المجتمع الهندي، المجتمع الذي تعود على نظام الطبقات، لكننا لا نستطيع أن ننسى إفادتها للهند، فقد لطفت من شدة النظام الطبقي السائد في الهند، وكان باعثاً قويا على رد الفعل ضد النظام الطبقي، وداعياً للمصلحين وأهل الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي^١. فاستطاع أكثر السلاطين المغولية بهذه الطريقة كسب قلوب الطبقات الدنيا، وإعانة الفقراء والمساكين الذين لم يعطوا حقوقهم الإنسانية في المجتمع.

فعلى سبيل المثال قد قسم أبو الفضل^٢، المجتمع الهندي في كتابه "آئين أكبري" في أربع طبقات مختلفات، فالطبقة الأولى هم رجال الجندية، والطبقة الثانية: أصحاب الحرف والتجار، والطبقة الثالثة: العلماء من الفلاسفة والأطباء وعلماء الفلك والرياضيات، والطبقة الرابعة العمال والزراعي، وكان السلطان أكبر يتعامل مع كل الطبقات لا سيما الطبقة الدنيا بكل احترام وود ولم يكن يفرق بين هذه الطبقة والطبقات الأخرى، فكان ينفق أموالاً كثيرة على الطبقات الدنيا وكان يتقبل منهم عطاياهم اليسيرة بوجه مبتسم فيتناول تلك العطايا منهم ويضعها إلى صدره، مع أنه لم يكن يفعل ذلك مع أفخر الهدايا التي كان يقدمها له الأشراف والملا. فقد دعا السلطان أكبر إلى محاربة التمييز بين الطبقات، والعنصرية التي قد نخرت عظام المجتمع وأوهنت اتحادهم^٣.

يمكن أن يستنتج من خلال هذا المبحث ما يلي:

١. يبرز الإسلام القيم النبيلة التي تحافظ على كرامة الإنسان وترفعه عن الظلمات، ويؤكد أن الإسلام هو السبيل الوحيد للحفاظ على هذه القيم.

^١ - انظر: المرجع السابق، (١٨٨).

^٢ - أبو الفضل بن المبارك الناكوري، أعلم وزراء الدولة التيمورية وأكبرهم في الحُدس والفراسة وإصابة الرأي وسلامة الفكر وحلاوة المنطق والبراعة في الإنشاء. ولد ليلة الأحد سادس شهر المحرم سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، وتعلم الخط والحساب والإنشاء واشتغل بالعلم، وقرأ أياماً في العربية على صنوه الكبير أبي الفيض بن المبارك وعلى أبيه، وفرغ من تحصيل العلوم المتعارفة في الخامس عشر من سنه، ثم أقبل على العلوم الحكيمية إقبالاً كلياً، واستفاد بعض الفنون عن الشيخ حسن علي الموصلي. (والحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٤٧١/٥).

^٣ - انظر: المرجع السابق، (١٨٨).

٢. بينما عانت المرأة الهندية سابقًا من مظاهر القسوة والإهانة، مثل حرمانها من الحقوق وظاهرة "الساتي"، شهدت مكانتها تحسُّنًا في عهد الأباطرة المسلمين حيث أُعطيت حقوقًا شاملة، مما جعلها تساهم بفعالية في نشر التعليم والإصلاح الاجتماعي.
٣. كان النظام الطبقي الهندي يُقسَّم المجتمع إلى فئات غير متساوية، مما أدى إلى تمييز عنصري حاد. ساهم الإسلام في تخفيف شدة هذا النظام بتشجيع المساواة بين الناس.
٤. بذل الحكام المسلمون، مثل السلطان أكبر، جهودًا لإبطال الممارسات القاسية وتحقيق المساواة، ما أدى إلى تحسين حياة الطبقات الدنيا وإضعاف التمييز الطبقي.
٥. لعبت النساء من الأسر الحاكمة أدوارًا بارزة في التعليم والثقافة والسياسة، وساهمن في رفع مكانة المرأة الهندية وتعزيز حقوقها.
٦. غرس الأباطرة المغول قيم العدالة والمساواة، التي تميز الإسلام، في المجتمع الهندي، مما مهد لإصلاحات اجتماعية واسعة النطاق.

المبحث الثاني

القيم الفكرية

لا شك أن العقيدة تكون حجر بناء المؤمن، ولقد بعث الله تعالى الرسل لأجل تحقيق معنى العبودية، وتصحيح العقائد الباطلة، وهداية الناس إلى عقيدة التوحيد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^١.

والقيم الإسلامية الخالدة، سيما القيم العقائدية هي الأمر الأصيل الذي ارتبطت به شخصية الشعوب الإسلامية في وجودها واستمرارها، والإسلام هو الدين الوحيد الذي يتمتع بقيم لا توجد تلك القيم في غيرها من الأديان البشرية. قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^٢.

بالرجوع إلى المصادر يتضح أن الشبه القارة الهندية قد تعرضت للكثير من الطرائق الفلسفية والأفكار المتشعبة المعقدة المتباينة، فالهند تعد مركز انتشار الفلسفات والأديان الكثيرة، ولقد تطور الفكر الفلسفي الهند وانبثق منه عشرات المصلحين الدينيين والفلاسفة والمفكرين، وكانت مهد ولادة ديانتين عظيمتين، هما: الديانة الهندوسية^٣ والديانة البوذية^٤، وخلفت تلك الديانات آثارا سيئة كثيرة، أحدثت تلك الآثار صعوبات أمام السلاطين والحكام الذين أرادوا تسيير الناس على المنهج الإسلام القويم، بل يصعب على الإنسان - لا سيما إذا كان أميا - أن يصل إلى شاطئ السلامة في هذا الخضم المتلاطم الأمواج، ولا يتأثر بتلك البدع والضلالات والفلسفات الزائفة.

^١ - النحل: ٣٦.

^٢ - المائدة: ٥٠.

^٣ - الهندوسية: وتسمى أيضاً البرهمية، وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وليس في الهندوسية دعوة إلى التوحيد، بل إنهم يقولون بأن لكل طبيعة نافعة أو ضارة إلهاً يعبد، ثم قالوا بوجود آلهة ثلاثة، من عبد أحدها فقد عبدها جميعاً وهي براهما وفشنو وسيفا. (موسوعة الملل والأديان - الدرر السنية، ربيع الأول ١٤٣٣ هـ، ٢ / ٨٦).

^٤ - البوذية: وهي الديانة التي ظهرت في الهند بعد البراهمية (الهندوسية) في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي تدعو إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناذاة بالتسامح، ويعتقد البوذيون أن بوذا هو ابن الإله عندهم وأنه مخلص البشرية من مآسيها. (الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ، (٢ / ٧١٢)).

^٥ - الجوارنة، عالمكير الأول «أورنجزيب»، (٤٣).

ومن الواضح أن الإسلام كان الدين الرسمي لجميع سلاطين المغول في الهند وإن كان هناك تفاوت في نسبة تدينهم من سلطان لآخر، لكن كلهم كانوا يهتمون بتعاليم الإسلام.

فهذا السلطان بابر فقد عرف بورعه وتقواه وكان حافظ على الصلاة كما كان يصوم يوما في كل أسبوع، وكان في معاركه يستعين بالله سبحانه وتعالى ويرجع الانتصارات في المعارك إلى توفيق الله وقدرته^١.

فلقد كان بابر يجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ومما قاله قبل أن يبدأ بالجهاد لحث الناس على المشاركة في المعركة، هو: "نحمد توابا يحب التوابين والمتطهرين ونشكر ديانا يهدي المذنبين والمستغفرين... ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، فافتلنا أسباب المعصية بقرع أبواب الإنابة -ومن قرع بابا ولج - وافتتحنا هذا الجهاد بالجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس ربنا ظلمنا أنفسنا، وإني تبت إليك وإني من المسلمين ... ولقد أراد الله التقدير أن يمتحننا بهذه المحنة، فإن نسقط في ميدان الجهاد فقد كتبت لنا الشهادة وإن نتصر فقد أعلننا كلمته تعالى"^٢. فهذا الصنيع من السلطان يدل دلالة واضحة على التزامه بالدين، وعقيدته السليمة واتكاله على الله - سبحانه وتعالى - وإخلاصه في سبيل الجهاد وحروبه ضد الهندوس، وبهذه الكلمات التي مرت آنفا يمكن أن نعلم مدى تمسكه بالدين وبالعقيدة الصحيحة.

أما السلطان همايون فكان ملتزما بإقامة شعائر الإسلام، وسنيا مخلصا في سنته، إلا أنه كان يتساهل مع الديانات الأخرى بعض الشيء، وكان له ميل إلى الفكر الشيعي، فقد أولى أكثر المناصب الحكومية إلى رجال من المذهب الشيعي، وذلك لأن شاه طهماسب الصفوي ساعده بالمعدات العسكرية ضد خصومه مقابل أن يتحول عن مذهبه ويعتق المذهب الشيعي^٣.

ولقد أثار الكثير من نزعات وميول السلطان أكبر إلى الديانات الأخرى جدلا واسعا حول تمسكه بالدين، والتزامه بتعاليم الإسلام القويم، سيتعرض الباحث لها - بإذن الله - في الباب الثالث.

ومع هذا فقد نقل عن السلطان أكبر أنه كان يحافظ على أصول الدين، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها، وكان أحيانا يؤذن للصلاة، ويحترم العلماء والمتصوفة وييجلهم ويقضي ساعات طويلة معهم، وكان لا يتردد في استجابة مطالبهم، ويزور بعض الزهاد حافيا، أو يحمل نعال بعض المشايخ^٤. وهذه

١ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، (٢٠٥).

٢ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٣٢/٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥).

٣ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، (٢٠٥).

٤ - انظر: المرجع السابق، (٢٠٦).

الأمر إن دلت على شيء فإنها تدل على اهتمام ذلك السلطان بالإسلام والتعاليم الدينية، وإن عزی بعض المؤرخين هذه الأفعال للمرحلة الأولى من حكمه^١.

ومن الجدير بالذكر أنه كان للعلماء دور بارز قد أثر في عقيدة السلاطين المغولية، والتزامهم بالإسلام، ولأجل هذا يذكر المؤرخون بعض علماء السوء الذين أحاطوا بالسلطان أكبر، وزينوا له البدعات وجرفوا به إلى وحل الهرطقة والإلحاد، لكن اختلف الأمر بعده، فكان هناك جماعة من المشايخ والعلماء المخلصين الذين أحاطوا بجهانجير ومن بعده، منهم الإمام أحمد السرهندي^٢، أحد كبار المسلمين المتصوفين الذين برزوا في تاريخ الهند.

يذكر لنا التاريخ أن هذا الإمام سجن أولاً من قبل السلطان جهانجير؛ لمخالفته بعض التقاليد المعروفة لدى السلطان، لكن بعد أن علم السلطان بمكانته وفضله، لم يطلق سراحه فحسب، بل اشتاق إلى لقاءه واستقباله، فبقي الإمام السرهندي في قصر السلطان عدة أعوام، ويذكر بعض المؤرخين الآثار الطيبة التي كانت لبقائه في قصر السلطان؛ حيث استطاع الإمام المجدد أن يقنع السلطان بتغيير أو إلغاء كثير من البدع والضلالات، وأصدر أمراً ملكياً بتحريم السجود للسلطان، وبإباحة لحم البقر وذبحه، فأبطل كثيراً من القوانين والأحكام التي كانت تعارض الشريعة الإسلامية، وعاد المجتمع الإسلامي إلى رشده، وبدأ المسلمون يشعرون بالراحة والحرية التامة، ولأجل هذا أطلق الكثير من العلماء على الإمام السرهندي مجدد الألف الثانية؛ تحقيقاً للحديث^٣ الشريف المروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -^٤.

^١ - انظر: الندوي، علي الحسني، رجال الفكر والدعوة، الجزء الثالث، (٦٤).

^٢ - أحمد بن عبد الاحد بن زين العابدين الفاروقي السرهندي من علماء الهند، الداعين إلى نبذ البدع، ويلقب بمجدد الألف الثاني. نسبته إلى (سرهند) ومعناها غابة الأسود، بين دلهي ولاهور، ومولده ووفاته فيها. تفقه وحج، واشتغل بالتدريس، وحبسه السلطان (جهانگیر) قيل: لامتناعه عن السجود تعظيماً له. وأطلق بعد ثلاث سنوات، فعاد إلى سرهند. مؤلفاته رسائل في (المبدأ والمعاد) و (إثبات النبوة) و (المعارف اللدنية) و (ردّ الشيعية). وتوفي سنة ١٠٣٤هـ. (انظر: الأعلام للزركلي، (١/ ١٤٢)، والحسني الطالبي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥/ ٤٧٩-٤٨٦).

^٣ - عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها" قال الشيخ شعيب الأرناؤوط - رحمه الله -: إسناده صحيح. (انظر: الأزدی البجستانی، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمّد كامل قره بللي، سنن أبي داود، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، باب ما يذكر في قرن المئة، رقم الحديث: ٤٢٩١، (٦/ ٣٤٩)، والنيسابوري، أبو عبد الله الحاكم، رقم الحديث: ٨٥٩٢، (٤/ ٥٦٨)، وقد سكت عنه الذهبي في التلخيص.

^٤ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ٢١٩.

"فالمملك "شاهجهان" قد سار بالدولة المغولية نحو تغليب مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، نابذا جميع العقائد والمهرطقات (البدعات) الفلسفية والسياسية التي لاقت رواجاً في عصور أسلافه، وهو السبب في فرض حالة الاستقرار العقائدي الإسلامي في شبه القارة الهندية"^١.

ثم إن شاهجهان الذي عرف بشدة تمسكه بشعائر السنة، كان يرسل على الدوام هبات في كل سنة إلى فقراء الحجاز وعلماء الأرض المقدسة^٢، فهذا من المؤثرات التي تدل على إخلاص هذا الملك واحترامه للدين ولعلماء المسلمين.

ثم إن السلطان أورنجزيب كان أشد السلاطين المغولية تمسكا بالدين وبالتعاليم الإسلامية، حرب البدع والتقاليد الفاسدة المعارضة للقيم الدينية، واهتم بالدعوة الإسلامية، وراعى تقدير العلماء والفقهاء المسلمين، وفي عصره بدأ نشاط الدعوة الإسلامية بين المسلمين والهنداكة، ولم يكن يداهن الهنداكة والشيعة، بل كان عنده رضى الله ورسوله أولى من رضى الناس جميعا.

فقد كان السلطان أورنجزيب عالما سنيا متمذبا بالمذهب الحنفي، شديد الكراهية للأديان الباطلة والفرق العقائدة الضالة، وتعد فترة حكمه فتحا كبيرا للمسلمين في الهند برمتها، ومع ذلك قد أوتي قوة وحكمة حربية يندر أن نجد نظيرها بين من حكم الهند من المسلمين.

ولقد طبق أورنجزيب إجراءات كثيرة استطاع أن يصل من خلال تلك الإجراءات إلى تنحية هيمنة الهندوس والشيعة على الأجهزة الحكومية، واستطاع أيضا من خلال هذه السياسات تمهيد الطرق وتهيئة الأجواء المناسبة أمام أهل الهند لاعتناق الإسلام والابتعاد عن الأديان الباطلة.

فرض أورنجزيب الجزية على الهندوس مقابل إعفائهم عن إعانة المسلمين في الجهاد ضد أعداء الدولة، وبذلك فتح بابا جديدا على الهندوس لأجل الدخول في الإسلام بسبب الإعفاء عن دفع الأموال المطلوبة للجزية، فقد لاحظ الرحالة الأوروبي "مانوشي Manucci" الذي شهد عصر الملك أورنجزيب أن أعدادا كبيرة من الهنداكة وغيرهم راحوا يدخلون في الدين الإسلامي^٣، ونبذوا معتقداتهم وأديانهم الكاسدة وراء ظهورهم.

١ - الجوارنه، د. أحمد محمد، عالمكير الأول "أورنك زيب" إمبراطور الهند الكبير، ص: ٤٧.

٢ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٢/٢١٠).

٣ - انظر: الجوارنه، د. أحمد محمد، عالمكير الأول "أورنك زيب" إمبراطور الهند الكبير، ص: ٥٢.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان السلطان أورنجزيب يستعطف الهنادكة ويستميلهم بالنفقات والعطايا والهبات حتى يعتنقوا الإسلام، وكانت لهذه الإجراءات والسياسات أثر كبير على خلق تغييرات واسعة وسط الهندوس^١. فتعاليم الإسلام يدعو المسلم إلى أن يكون خير ناصح ومعين للناس، يدعوهم إلى الله، ويزرع في قلوبهم محبة الله ومحبة دينه القيم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^٢.

فهذه الأمة هي أمة الدعوة والنصيحة وهداية الناس إلى الرشاد والصلاح، فمن زال عنه تلك الصفة ينخرط في سلك المحرومين من الخيرية، قال ابن عاشور: "إن قوله تأمرون بالمعروف حال من ضمير كنتم، فهو موذن بتعليل كونهم خير أمة... لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر، على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة، فمن التغيير على الأهل والولد، إلى التغيير على جميع أهل البلد"^٣. فقد كان هذا السلطان العادل شديد التمسك بتعاليم الدين، وبإقامة شعائر الإسلام، وجعله الله رحمة لأهل الهند، حتى يخلصهم من ظلمات الكفر، وغياهب الضلال، ويسوقهم إلى نور الإيمان ولمعان الإسلام.

فقد وقف أورنجزيب حياته كلها على إعلاء السنة ورفع لواء الدين في الأراضي الهندية، وأحصر في سبيل مجاهدة عبادة الأصنام والأوثان، وقضى أيامه على عبادة الله يحفظ القرآن الكريم ويصوم أغلب أيامه، حتى إنه كان لا يستطيع أن يمنعه أعنف المعارك والحروب من إقامة الصلاة، فينزل عن دابته وقيم الصلاة باطمئنان بالغ وخشوع تام، كأنه يقيمها في داره أو بالمسجد^٤. كان أورنجزيب ملكاً من أفضل ملوك الإسلام، ومن أعدلهم وأتقاهم وأشدّهم حزمًا وأكثرهم إصلاحاً، وكان بقية الخلفاء الراشدين^٥. ثم إن الله - سبحانه وتعالى - قد وفق السلطان أورنجزيب لأعمال جليلة لم يسبقه إليها أحد من الملوك الإسلامية، فهذا له دلالة بارزة على اهتمام هذا السلطان بالقيم الإسلامية، وتمسكه بالتعاليم الدينية، وبذله الجهود في سبيل خدمة العلوم الإسلامية.

١ - انظر: الجوارنة، د. أحمد محمد، عالمكير الأول "أورنك زيب" إمبراطور الهند الكبير، ص: ٤٧.

٢ - آل عمران: ١١٠.

٣ - التونسي، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، الناشر: الدار التونسية، الطبعة الأولى: ١٩٨٤م، (٤/ ٤٩).

٤ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٢/ ٢٤٥).

٥ - انظر: الطنطاوي، علي بن مصطفى، ذكريات - علي الطنطاوي، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة: ١٤٢٧، (٨/ ٥٨).

يذكر الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- أن السلطان أورنجريب قد وفق إلى أمرين لم يسبقه إليهم أحد من السلاطين المسلمة عبر تاريخ المسلمين.

أولاً: إن السلطان أورنجريب لم يعط أحداً من العلماء أو النجباء عطاء إلا وقد طلب منه تأليف كتاب أو التدريس في حلقة من الطلاب، وذلك لئلا يأخذ المال ثم يتكاسل في العمل، وبهذا الأمر قد جمع بين أخذ المال بغير حق وبين كتمان العلم.

ثانياً: إنه أول من اجتهد في تدوين الأحكام الفقهية على أساس مذهب الإمام أبي حنيفة في كتاب واحد، حتى يكون هذا الكتاب قانوناً رسمياً في الدولة الإسلامية، تحل القضايا وتفصل الخصومات من خلاله، فاجتمع لأجل تأليف هذا الكتاب نخبة من العلماء والمشايخ الحنفية، وألفوا كتاباً قيماً تحت إشرافه ونظره باسم "الفتاوى العالمكيرية"، واشتهرت بعد ذلك بـ "الفتاوى الهندية" وهذا الكتاب من أشهر كتب الأحكام في الفقه الإسلامي وأجودها ترتيباً وتصنيفاً.

ومن الأمور التي تدل على اهتمام السلطان أورنجريب بتعاليم الإسلام، كثرة ردود فعل المستشرقين، والمؤرخين الهنود، والمعادين لسلطة الدين، بل وقف بعضهم موقف العداء من تلك الإجراءات والسياسة التي اتبعها الملك أورنجريب في الشبه القارة الهندية زمن حكمه، فبعضهم اتهمه بأغراه الناس على اعتناق الإسلام، ورماه الآخرون باتباعه لسياسة القمع والترهيب، وادعى البعض الآخر اضطهاد الهندوس وأصحاب الديانات الأخرى زمن حكمه، أو هدم كنائسهم ومعابدهم. ومن أبرز أولئك المستشرقين، المؤرخ الإنجليزي "لينبول Lane poole"، و "سميث Smith"، و "كينيكهام Cunningham"، ومن المؤرخين الهنود "شارما Sharma"، و "ماجمدار Majumdar" و "ساكسينا Saksena" وغيرهم الكثير^٢. فهذه الأمور إن دلت على شيء فإنها تدل على اهتمام هذا السلطان العادل بالقيم الإسلامية، وشغفه لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإحياء كلمة الشيطان وكلمة الذين كفروا بالله الواحد القهار.

وخلاصة القول أن هذا الملك كان حسنة من حسنات الزمان، ولم يكن يدانيه في صفاته ومناقبه في عصره ملك من الملوك المسلمة، فقد وقف نفسه للجهاد، والدعوة، وعبادة الرب من الصوم والصلاة والزكاة، وللتدريس وقراءة كتاب الله، وتطبيق شريعة الله في أرضه، وإبطال التقاليد غير الإسلامية، فاتخذ

١ - انظر: علي الطنطاوي، رجال من التاريخ، الناشر: دار المنارة بجدة، الطبعة الثامنة: ١٤١١هـ، ص: ٢٣٦..

٢ - انظر: الجوارنة، د. أحمد محمد، عالمكير الأول "أورنك زيب" إمبراطور الهند الكبير، ص: ٥٢.

عرشه وسلطانه وسيلة إلى تحقيق هدف أعلى، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، فلم يرض أبداً بقبول المزايدة على حساب مبادئ الإسلام وتعاليمه. وقد كتبت في سيرته كتب طويلة بالفارسية وبغيرها من اللغات.

من خلال هذا المبحث يمكن تلخيص هذه النقاط:

١. يبرز المبحث أهمية العقيدة الإسلامية كركيزة أساسية في حياة المسلمين، مشيراً إلى دور الإسلام كدين فريد في توجيه الشعوب الإسلامية نحو التوحيد والقيم الأزلية.
٢. وتناول التفاوت في التزام السلاطين المغول بتعاليم الإسلام، مثل ورع السلطان بابر، الذي كان يجاهد لنشر الإسلام، وتساهل السلطان همايون مع المذاهب الأخرى، وتأثير التحالفات السياسية على قراراته.
٣. واستعرض دور العلماء في التأثير على التزام السلاطين المغول بالإسلام، مثل الإمام أحمد السرهندي الذي استطاع إصلاح المجتمع الإسلامي وإلغاء البدع والضلالات في عهد السلطان جهانجير.
٤. ووصف أورنجزيب كأشد السلاطين تمسكاً بالإسلام، حيث عمل على محاربة البدع وتطبيق الشريعة الإسلامية، مع الاهتمام بالدعوة ونشر الإسلام بين الهندوس. ويُعد عصره نقطة تحول في تاريخ الإسلام بالهند، حيث أصدر إصلاحات مثل فرض الجزية وإصدار كتاب "الفتاوى الهندية".
٥. وناقش الانتقادات التي وجهها المستشرقون والمؤرخون إلى سياسات أورنجزيب، حيث اتهموه بالأغراء على اعتناق الإسلام والاضطهاد الديني.

المبحث الثالث

القيم العلمية

لا شك أن كل دولة تتنافس في سبيل ازدهارها وتفوقها في المجالات المختلفة، من الاقتصاد، والسياسة، والحضارة، والتفوق العسكري، وكل هذه التطورات والتقدمات مرهونة بأشياء ثلاثة، ألا وهي العلم، والقوة، والأمن.

وعلى هذا فإن أحد الأسس والركائز في تقدم الدولة المغولية وتفوقها اقتصادا وسياسيا وعسكريا هي بذل الجهود في سبيل إحياء القيم العلمية، ومشاركة تلك السلاطين في رفع معالم العلم وراياتهم في شبه القارة الهندية. فيجدر أن يتصدى الباحث لذكر بعض تلك القيم حتى تكون خير دليل على اهتمامهم بالعلم والثقافة الإسلامية.

المطلب الأول: إنجازات المسلمين في العلوم

لقد قسم العلماء العلوم إلى علوم نقلية، مثل: الحديث والتفسير والفقه وأصول الفقه وأصول الحديث، وعلوم عقلية مثل: الفلسفة والمنطق، والرياضيات والفلكيات وغيرها. ولا شك أن ازدهار أي دولة معنى ومبنى، روحا ومادة يتطلب بذل الجهد للتقدم في دينك القسمين كليهما.

ولما كانت شبه القارة الهندية محصورة بالبحر على جوانبها الثلاثة وبالجبال العالية في أطرافها الشمالية، لم تكن في الغالب بين تلك القارة وبين البلاد الأخرى تبادل ثقافي لكن على كل حال لا نستطيع أن ننكر وجود علوم مختلفة من أدب ورياضيات وطب وفلك في تلك البلاد قبل دخول الإسلام فيها، كما يتضح هذا الأمر بعد قراءة تاريخها الطويل، فهناك مؤلفات لأهل الهند في هذه العلوم المذكورة قبل دخول الإسلام.

ولما دخل المسلمون شبه القارة الهندية ، أخذ العلماء والأمراء يهتمون بنقل علوم الهندوس وفنونهم، كما أنهم ترجموا أشهر كتبهم إلى اللغة العربية، فأدى ذلك إلى التبادل الثقافي بين المسلمين والهندوس، كما أن المسلمين قاموا بتحرير الثقافة والعلم من سطوة البراهمة، حيث إنهم حرّموا على غيرهم الاشتغال بالعلم والفن، هذا من جهة ومن جهة أخرى استطاع المسلمون إدخال علوم جديدة في تلك البلاد وهي علوم الشرعية والإسلامية ، ومن تلك العلوم، علم التفسير، وعلم الفقه، والتاريخ وعلم الحديث

وغيرها، ففي إثر الفتوحات الغزنوية والغورية والمغولية حدثت اهتمام بالحياة الثقافية في شبه القارة الهندية، وعمل المسلمون على انتشار الشعر واللغة العربية والأدب^١.

وهنا يريد الباحث أن يذكر بعض الجوانب من العلوم التي بذل المسلمون جهودهم في سبيل إحيائها وإبراز غوامضها.

أولاً: علم التفسير

يحتل علم التفسير مكاناً سامياً بين العلوم القرآنية، فبعلم التفسير يتضح معاني كلام الله، وبهذا العلم ينكشف دلالات كلمات القرآن ومعانيه، ويسهل العمل بتعاليمه.

فلما دخل تفسير القرآن الكريم تلك البلاد اهتم الفاتحون بهذا العلم الفريد، وقابل الهندوس ذلك بصدر رحب، فنجد أول محاولة لترجمة معاني كتاب الله إلى اللغة السنسكريتية، حيث قام بتلك الترجمة أحد ملوك الهندوس، ثم قام العلماء بتفسير كتاب الله إلى لغات محلية أخرى، وأول تفسير ظهر على يد العلماء هو تفسير الشيخ إسماعيل بن عبد الرحمن اللاهوري حيث استطاع إدخال عدد غير قليل من الهندوس إلى الإسلام، وقد أدرك أهل الهند بصورة عامة أهمية هذا العلم في عهد السلاطين المغولية فكانت هناك كتب تفسيرية عديدة متداولة آنذاك ما يقرب من مائة وتسع مؤلف، ومن تلك الكتب، التفسير الكبير للرازي^٢، والجلالين للإمام السيوطي، وتفسير الكشاف للعلامة الزمخشري^٣، فقد قام علماء الهند بكتابة الحواشي على هذه الكتب أو التأليف على منوالها^٤.

ومن الأعمال التي قام بها أهل الهند لخدمة هذا العلم المبارك هي المصنفات القيمة التي زينوها عباراتهم الجميلة وألفاظهم البديعة، وقد كان لأهل الهند مصنفات كثيرة يصعب هنا تعدادها وحصرها، لكن يجدر للباحث أن يذكر أكثرها شهرة وأقدمها زماناً.

١ - انظر: الندوي، مقالات سليمان، ص ٢٣ - ٣٠ نقلاً عن قمر الزمان، أورنجيب، ص ٣٢٧.

٢ - محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر. أوحّد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، توفي سنة: ٦٠٦ هـ. (الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، ٣١٣/٦).

٣ - محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخش (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية، فتوفي فيها. أشهر كتبه (الكشاف - ط) في تفسير القرآن، و (أساس البلاغة - ط) و (المفصل - ط)، توفي سنة: ٥٣٨ هـ. (المرجع السابق، ١٧٨/٧).

٤ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٣٠.

فمن تلك المصنفات تفسير القرآن الكريم المسمى بـ (سواطع الإلهام) لأبي الفيض بن المبارك الناكوري^١، حيث قام بتفسير القرآن بكلمات غير منقوطة من أول القرآن إلى آخره، ولا شك أن هذا يدل على براعته في اللغة والعربية ومعرفته العميقة بلغات القوم ومرادفاتهما. ومنهم الشيخ منور عبد المجيد اللاهوري^٢ وكان له معرفة بالقراءات السبع، ولما حبسه السلطان أكبر في السجن ألف العديد من الكتب وهو مسجون، ومن تلك الكتب الدر النظيم في ترتيب الآي وسور القرآن الكريم. ومنهم الشيخ يعقوب الصربي الكشميري^٣ حيث قام بكتابة تفسير للقرآن الكريم في ستة أشهر على نهج الجلالين وترجمة القرآن الكريم في أيام جهانجير وسماه تفسير جهانجير ومن مؤلفات أهل الهند في التفسير: تفسير مجمع البحرين ومختصر تفسير المدارك للشيخ طاهر السندي^٤، والتفسير النظامي للشيخ نظام الدين التهانيسري^{٥-٦}.

ثم إن الذي مر آنفا هي عرض وجيز من مؤلفات أهل الهند في تفسير القرآن الكريم، وتبيين معاني كتاب الله، ولا شك أن هناك تفاسير أخرى يصعب تعدادها وحصرها وشرح مؤلفيها في هذا البحث المختصر.

١ - أبو الفيض بن المبارك الناكوري، الذي لم يكن له نظير في الشعر والعروض والقافية واللغة في والتاريخ واللغز والإنشاء والطب. ولد بمدينة أغرا سنة أربع وخمسين وتسعمائة، وقرأ العلم على والده، وأخذ بعض الفنون العربية عن الشيخ حسين المروزي، ثم أقبل على قرض الشعر إقبالاً كلياً، وخاض كثيراً في الحكمة والعربية، توفي سنة أربع وألف، ودفن بأغرا وقيل: بمدينة لاهور. (انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥/ ٤٧٥).

٢ - الشيخ منور بن عبد المجيد اللاهوري، كان من العلماء المبرزين في العلوم العقلية والنقلية، قرأ العلم على الشيخ سعد الله بن إبراهيم اللاهوري، وكان غاية في قوة الحفظ والإدراك، ولذلك فرغ من التحصيل وله نحو العشرين، وبرع أقرانه في القراءة والتجويد، كان يقرأ القرآن على سبع قراءات، توفي في الثاني عشر من ذي القعدة سنة إحدى عشرة وألف فدفنوه في مقبرة الغرباء، ثم نقل أولاده جسده إلى لاهور ودفنوه بمقبرة أسلافه سنة خمس عشرة وألف، كما في كلزار أبرار. (المرجع السابق، (٥/ ٦٥٢).

٣ - الشيخ يعقوب بن الحسن الكشميري، الشيخ العالم الكبير يعقوب بن الحسن الصربي الكشميري، أحد فحول الأساتذة، ولد سنة ثمان وتسعمائة بكشمير، وحفظ القرآن وقرأ النحو والصرف والفقه على مولانا رضي الدين الكشميري، وقرأ المنطق والحكمة والمعاني وغيرها على نصير الأعمى وأخذ عنه ولازمه زماناً، وأخذ الشعر عن الشيخ محمد الآبي تلميذ الشيخ عبد الرحمن الجامي، ... ومن مصنفاته: تفسير القرآن الكريم، ولم يتم، وشرح على صحيح البخاري ومغازي النبوة ... مات ليلة الخميس الثاني عشر من ذي القعدة سنة ثلاث بعد الألف، كما في المنتخب.. (المرجع السابق، (٥/ ٥٤٨).

٤ - الشيخ العالم الكبير العلامة المحدث طاهر بن يوسف بن ركن الدين بن معروف ابن الشهاب السندي، أحد العلماء المبرزين في الفقه والحديث، ولد بقرية باتري من أرض السند، وسافر في صغر سنه مع والده حتى وصل إلى الشيخ شهاب الدين السندي، فقرأ عليه منهاج العابدین للغزالي، وله مصنفات كثيرة، وكانت وفاته في سنة أربع بعد الألف، كما في كلزار أبرار. (انظر: المرجع السابق، (٥/ ٦٦٥).

٥ - الشيخ العالم الفقيه الزاهد نظام الدين بن عبد الشكور العمري البلخي التهانيسري، أحد المشايخ الجشتية، جمع العلم والعمل والرياسة والمجاهدة، وأخذ عن عمه وصهره جلال الدين العمري التهانيسري، وتولى الشياخة بعده ... له مصنفات عديدة. توفي لأربع لبال بقين من شوال سنة أربع وعشرين، وقيل: ست وثلاثين وألف، ببلخ. (انظر: المرجع السابق، (٥/ ٦٥٦).

٦ - انظر: الجنائي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٣٠.

ثانياً: علم الحديث

إن من العلوم التي اهتم بها أهل الهند مؤخرًا علم الحديث؛ حيث ظل هذا العلم مهملاً في شبه القارة الهندية لعدة قرون، وكان العلماء في الغالب يهتمون بعلم التفسير والفقه أكثر من علم الحديث، فقد كان يعد خراسان مركزاً عظيماً من مراكز هذا العلم المبارك قبل أن يدخل شبه القارة الهندية. لكن سرعان ما ساهم أهل الهند في هذا المجال وتميزوا في هذا العلم وتفوقوا على أقرانهم، فأبلوا بأنفسهم في هذا الفرع بلاءً حسناً، حتى أصبح تأليفاتهم في هذا الميدان ما يقرب من مائة واثنين وتسعين مؤلفاً^١.

والذي يتضح بعد مراجعة تاريخ شبه القارة الهندية أن حركة الإقبال على علم الحديث بدأت في العهد المغول، حيث قام العلماء في هذا العهد بنقل هذا العلم من الحجاز إلى الهند، ثم نشرها بين أطراف الهند وأكنافها.

فمن علماء الهند البارزين في علم الحديث في عهد السلاطين المغولية الشيخ علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي (ت: ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م)، فقد ولد ولد بمدينة برهانپور سنة خمس وثمانين وثمانمائة ر، وعلت مكانته عند السلطان محمود صاحب غوجرات^٢، ثم سكن المدينة، ثم أقام مدة مديدة بمكة وتوفي بها^٣، وهو صاحب الكتاب الكبير المسمى بكنز العمال في السنن والأقوال، حيث يعد هذا الكتاب أكبر موسوعة في الحديث النبوي^٤ لكنه -رحمه الله- لم يرجع إلى الهند حتى يقوم بنشر الحديث الشريف هناك وإن زاره بعض علماء الهند عندما كان مقيماً بمكة، وأخذوا منه علم الحديث ثم رجعوا إلى الهند.

^١ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٣١.

^٢ - غوجرات، ولاية في الهند تقع على الساحل الغربي للبلاد، على بحر العرب. تشمل كامل شبه جزيرة كاتياوار (سوراشترا) بالإضافة إلى المنطقة المحيطة بها على اليابسة. (Britannica, checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ٨, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Gujarat>)

^٣ - انظر: العكري، عبد الحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الناشر: دار ابن كثير، الطبعة الأولى: ١٤٠٦، (١٠/ ٥٥٤).

^٤ - جمع فيه بين أصول السنة وأجاد مع كثرة الجدوى وحسن الإفادة، وجعله قسمين لكن عارياً عن فوائد جلييلة، فبوب أولاً كتاب الجامع الصغير وزوائده وسماه منهج العمال في سنن الأقوال ثم بوب بقية قسم الأقوال وسماه غاية العمال في سنن الأقوال ثم بوب قسم الأفعال من جمع الجوامع وسماه مستدرك الأقوال ثم جمع الجميع في ترتيب كترتيب جامع الأصول وسماه كنز العمال ثم انتخبه ولخصه فصار كتاباً حافلاً في أربعة مجلدات... توفي ليلة الثلاثاء وقت السحر ثاني جمادي الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة بمكة المباركة. (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٣٨٥ / ٤).

وممن يرجع إليه الفضل في نشر علم الحديث في الشبه القارة الهندية، لا سيما في عهد السلاطين المغولية الشيخ الفاضل والعلامة الكبير المحدث محمد بن طاهر الفتني الحنفي^١، حيث سافر إلى الحرمين وأخذ الحديث من علماء البلد الحرام ولازم الشيخ علي بن حسام الدين وأخذ عنه هذا العلم، ولما رجع إلى الهند اشتغل بالحديث وقصر همته على التدريس والتصنيف^٢، وبذلك استطاع نشر هذا العلم بين أهل الهند، وتعلم عنده جماعات لا تحصى.

ومن العلماء الذين وهبهم الله - سبحانه وتعالى - لأهل الهند في هذا العصر إمام المحدثين الشيخ عبد الحق الدهلوي^٣، فقد جاور الحرمين الشريفين أربع سنوات، وأخذ علم الحديث عن علمائهما. ثم رجع إلى الهند وقام بتدريس هذا العلم المبارك والتأليف فيه أكثر من نصف قرن، بلا تعب وملل، وبكل جد وعناية، فيعد حقاً من رواد المحدثين بالهند عامة وبشمالي الهند خاصة، قيل: بلغت مصنفاته مائة مجلد، بالعربية والفارسية، واستمر أبناء الشيخ وأحفاده بخدمة هذا العلم بعده وبذلك أحدثوا نهضة كبيرة في هذا المجال^٤.

فهذا عرض مختصر لأشهر مشايخ الحديث في العهد المغولي، فهناك عدد كثير من المحدثين والعلماء الذين لا يسع المجال لذكرهم هنا، وهذا فضلاً عن مصنفات أهل الهند في الحديث وأصوله، فقد ساعد أعمال هؤلاء العلماء القيمة على ازدهار علم الحديث وتطوره في إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند.

ثالثاً: علم الفقه

إن من العلوم التي اهتم بها أهل الهند بعد الفتح الإسلامي هو علم الفقه، فمعظم أهل الهند هم أتباع المذهب الحنفي ولم ينتشر فيها المذاهب الأخرى مثلما انتشر ذلك المذهب.

١ - الشيخ الإمام العالم الكبير المحدث اللغوي العلامة مجد الدين محمد بن طاهر ابن علي الحنفي الفتني الكجراتي صاحب مجمع بحار الأنوار في غريب الحديث الذي سارت بمصنفاته الرفاق واعترف بفضله علماء الآفاق. ولد سنة ثلاث عشرة وتسعمائة بفتن من بلاد كجرات ونشأ بها... وله مصنفات جليلة متمعة، وتوفي سنة ست وثمانين وتسعمائة. (انظر: المرجع السابق، (٤ / ٤٠٩).

٢ - انظر: المرجع السابق، (٤ / ٤١٠).

٣ - عبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدهلوي الحنفي، المولود بدلهي في الهند سنة (٩٥٨ هـ) والمتوفى بها سنة (١٠٥٢ هـ). كتب شيخنا الأستاذ الكبير، شيخ الإسلام المفتي محمد تقي العثماني - حفظه الله - في تقديمه على (لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح): "إن الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي - رحمه الله تعالى - ألف شرحه أولاً باللغة الفارسية باسم (أشعة اللمعات) ثم ألف شرحاً عربياً باسم (لمعات التنقيح) وذكر بنفسه أنه أتى في شرحه العربي بمضامين لم يستطع أن يأتي بها في الشرح الفارسي، لكونها فوق إدراك العامة. (الدهلوي الحنفي، عبد الحق بن سيف الدين، لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، تحقيق وتعليق: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي، الناشر: دار النوادر، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م، (١ / ٢٠).

٤ - الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٣٢.

أما مذهب الشافعي فقد دخل البلاد على يد التجار العرب في جنوب الهند، ولقد قوى شأن أتباع هذا المذهب في العهد الغوري، أما المذهب الحنبلي والمالكي فلم ينتشرا في شبه القارة الهندية^١.

وقد زاد الاهتمام بالفقه حيث إن الطلاب كانوا يتعلمون الفقه بصورة عامة، ولا سيما المذهب الذي كان ينتمي إليه طالب العلم، ولأجل ذلك تطور المذهب الحنفي على يد علماء الهند وازدهر في العصر المغولي بعد أن كان أهل ماوراء النهر يهتمون بذلك العلم قرونا طويلة.

اشتهر أهل الهند بتأليف الفقه أكثر من غيره من العلوم الشرعية، فمن تلك التأليفات ما هو شروح وحواش على الكتب المعتمدة، ومنها ما هو الفتاوى والنوازل، فأقبل أهل الهند على دراسة علم الفقه وكان لهم باع طويل في التصنيف والتأليف، وكان هناك عدد لا يعد ولا يحصى من فقهاء الإمبراطورية المغولية، نذكر على سبيل المثال أشهرهم ممن قام بالتأليف والتصنيف في هذا المجال.

فمن فقهاء الهند الشيخ المفتي عبد السلام بن أبي سعيد بن محب الله، فقد ولد الشيخ رحمه الله ونشأ بقرية ديوه من أعمال لكانا^٢، وسافر إلى الشيخ المفتي عبد السلام اللاهوري، فأخذ عنه العلم وفاق أقرانه في الفقه والكلام والأصول، وفي دولة السلطان شاهجان ولي الإفتاء بمعسكره، وبلغ هذا الشيخ مبلغا من العلم والمهارة في الفقه قلما يبلغه أحد من فقهاء الأحناف حيث كان يفتي خلافا لمختارات الفقهاء في فتاواهم، استدلالا بأن هذه المختارات لا تنطبق على الأصول. وقد كان له مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله، منها: شرح على منار الأصول، وحاشية على هداية الفقه^٣.

ومنهم الشيخ العلامة بير محمد بن أولياء اللكهنوي، وكان مشهورا بالكمال والفضل، فقد ولد في ناحية جون بور، واشتغل بالتعلم في صغره، ثم تصدى للإفادة، فكان يدرس ويفيد. أخذ عنه خلق كثير من العلماء وانتهت إليه رئاسة العلم والتدريس، له مؤلفات جلييلة منها حاشية على الهداية في الفقه، والفتاوى الفقهية^٤.

^١ - الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٣٢.

^٢ - لكانا، مدينة، عاصمة ولاية أوتار براديش، شمال الهند. تقع تقريباً في وسط الولاية، على نهر جوماتي على بعد حوالي ٤٥ ميلاً (٧٢ كم) شمال شرق كانبور. (The Editors of Encyclopaedia, Written and fact-checked by Britannica, Last Updated: Jan ٢٦, ٢٠٢٥, <https://www.britannica.com/place/Lucknow>)

^٣ - انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٥/ ٥٦٣).

^٤ - انظر: المرجع السابق، (٥/ ٥٠٦).

ومن الفقهاء الذين كانت لهم اليد الطولى في الفقه واستخراج المسائل الفقهية الشيخ نظام الدين الحنفي البرهانوري، فهذا الشيخ يعد أحد أكابر الفقهاء الحنفية وعلمائهم المشهورين، حيث تبحر في العلوم وحرر المسائل الفقهية، جدد مآثر الفتوى ونقل الأحكام، ولأجل ملكته الفقهية ولاه السلطان عامكير بن شاهجهان تدوين الفتاوى الهندية، فكان يعمل تحت أمره أربعة من فقهاء المذهب الحنفي^١، فأتموا بعون الله وتوفيقه كتابا جامعاً للمسائل الحنفية، وصار هذا الكتاب مرجعا للحكام والقضاة في ذلك العصر.

ومنهم الشيخ أبو الوفاء الكشميري، حيث يعد أحد أكابر الفقهاء الحنفية، فقد ولد بكشمير^٢ وتخرج على عدة مشايخ، وكان له باع طويل في استنباط المسائل الفقهية واستخراجها من الأصول والقواعد، فولى الإفتاء، وله كتاب نفيس في الفقه في أربعة مجلدات^٣، وبذلك استطاع نشر العلم والمعرفة بين الناس، ولم يكن هذا إلا عرض وجيز عن الشيخ الفقيه، فإن استنباط الفروع من الأصول لا يتيسر لكل من قصد الفقه وحفظ المتون، واطلع على الشروح.

وهذا الذي مر من اهتمام الناس بالعلوم الدينية، مثل علم الحديث وعلم الفقه وعلم التفسير، وانتشارها بين أهل الهند، حتى برز فيها كثير من سكان هذه البلاد، وخلفوا بعدهم آثارا قيمة ومؤلفات ضخمة، له دلالة صريحة على رجوع الناس إلى العلم، ونبتهم الضلالة والجهل والأمية وراء ظهورهم. إن أول شيء يجب أن يوجد قبل فتح مدخل العلم، والسير إلى درب العلوم هو المحرك الباطني الذي يجذب الإنسان إلى طلب العلم، فبدون هذا المحرك لا يمكن تعلم شيء، وإن أمكن فلا يستفيد منه الإنسان شيئا، وإن استفاد فلا يستلذ بكسبه ولا يدرك كنهه، فلذلك يعد وجود هذا المحرك قيمة من القيم التي تستحق التضحية في سبيلها.

فبعد دخول الإسلام هذه البلاد الشاسعة، ومترامية الأطراف، ساق كثيرا من الناس إلى التعلم، وأوجد في نفوسهم الشغف والحب إلى التخلص من الجهل والضلال والأمية، وبذلك نال الكثير من أهل الهند مراتب عالية في العلوم العقلية والنقلية، وحطموا أغلال الجهل وسلاسل الضلال.

١ - انظر: المرجع السابق، (٦/ ٦٩٠)

٢ - كشمير: منطقة جبلية تقع في شمال غربي جبال الهمالايا. وتدعى كل من الهند وباكستان أحقيتها بكشمير أو أجزاء منها. وأدى هذا النزاع في عام ١٩٦٥م إلى حرب بين الدولتين. وما زالت هذه المنطقة موطن نزاع بين الجانبين. وللمنطقة عاصمتان إحداهما شتوية والأخرى صيفية. أما الشتوية، فهي جامو، وأما الصيفية، فهي سريناجار. (مجلة البحوث الإسلامية، ٧٦٤).

٣ - انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٦/ ٦٩٠).

المطلب الثاني: إنشاء المكتبات

إن من الأمور التي للمسلمين شغف بها هي قراءة الكتب واقتناءها؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى قد حث على العلم وإعزاز العلماء وتبجيل أهلهم. ومن هذا المنطلق نرى العلماء والسلاطين المغولية في الهند قد تسارعوا في إنشاء المكتبات واقتناء الكتب النفيسة، فراج سوق الوارقين والنساخ، وتيسر القراءة والمطالعة لغير القادرين على اقتناء الكتب بسبب الغلاء أو الندرة، فلأجل هذه العلة وغيرها من العلل سارع السلاطين والعلماء وكثير من الأغنياء إلى تأسيس المكتبات بصورة غير مسبقة.

فالمكتبات لم تكن خاصة بالسلاطين ولا بالعلماء وحدهم، بل كانت منتشرة في أرجاء الهند وأطرافها في أماكن كثيرة، مثل: المساجد والخانقاهات والمدارس^١. وهذا الأمر لا شك في أنه يعين على ازدهار العلم وتطور الحياة الثقافية العامة.

ومما ساعد في إنشاء المكتبات واقتناء الكتب القيمة النادرة، وفرة المواد الخام ومنها الورق، فقد كانت شبه القارة الهندية تحتوي على أشجار كثيرة وغابات كثيفة تسهل الطريق أمام الكتاب والنساخ، وبهذا الأمر تم إنشاء المصانع الكبيرة لصناعة الورق في أنحاء متفرقة من الهند، وكانت أكبر تلك المصانع بمدينة سيالكوت^٢. فقد عد السلاطين المغولية اقتناء الكتب وتسهيل أمر مطالعة الكتب ومراجعتها على الطالبين قيمة يجب التنافس لأجل حصوله وبذل الجهد لنيله.

فقد اختلف شأن السلاطين المغولية عن غيرهم من الأباطرة، حيث إن واقع انتشار المكتبات يختلف اختلافاً كلياً عن العهود السابقة، فقد كانوا مهووسين بإنشاء المكتبات وجمع النواذر والمخطوطات العلمية والأدبية القديمة، سواء كان عن طريق المؤلفين والمصنفين أو بالشراء مهما غلت أثمانها^٣. وهذا الأمر رغب النبلاء وحثهم على إنشاء المكتبات الجديدة وجمع الكتب القديمة من النواذر وغيرها.

ثم إن السلاطين المغولية كان لهم شغف بجمع الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة فمثلاً السلطان بابر قد أدى سعة اطلاعه لفروع المعرفة إلى اقتناء مكتبة خاصة به، وجعل السلطان لهذا الأمر نظاماً خاصاً حيث وظف على مكتبته مسؤولاً يدعى بـ "عبد الله كتابدار"، ثم إن بابر ضم إلى هذه المكتبة قسماً من مكتبة غازي خان لودهي حين استولى على حصنه بينجاب، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنه همايون^٤.

١ - انظر: قمر الزمان، أورنجزيب، ص ٣٥٩.

٢ - انظر المرجع السابق.

٣ - الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٤٤.

٤ - انظر: المرجع السابق.

ثم إن ابن السلطان بابر السلطان همايون أيضا عرف بحبه الكبير للكتب والمكتبات، حيث جمع في مكتبته الملكية عددا كبيرا من الكتب، ثم أمر بتحويل شير مندل وكانت دارا يقضي فيها شير شاه أوقات سمره وسروره إلى مكتبة، ولأجل شغفه بالكتاب والمكتبات قد اطلع على أحسن المؤلفات الموجودة في عصره، ومع انشغاله بالحروب المختلفة دائما خصص جزءا من وقته للقراءة والدراسة ومراجعة الكتب، وقد قيل إنه كان يصحب معه بعض كتبه في ساحات وميادين القتال، ومن كثرة حضوره في مكتبته جعل الله أجله فيها، حيث انزلت قدماء وهو يصعد سلم مكتبته بدلهي^١. والحقيقة أن هذه الأمور لا تصدر إلا ممن يعرف قدر العلم ومنزلة العلماء وأهل التحقيق، فإذا كان هذا شأنه مع الكتب الجامدة، فما ظنك بتعامله مع العلماء وأهل المعرفة، فالإيمان يصنع الرجال، ويملي قلوبهم حكمة ومعرفة.

وأما السلطان أكبر فمع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب، لكنه كان محبا للعلم وللعلماء، وكان يبجلهم ويستشيرهم، فجمع كتب كثيرة في مكتبة الملكية، كتبها له ناسخون بارعون كانت لهم عنده منزلة الفنانين، وكان يكره طباعة كتاب لا تتجلى فيه شخصية الكاتب. ومن جهة أخرى كان يرتب مكتبته على عدة أقسام بحسب قيمة الكتب ومنزلة المواضيع التي كتبت فيها، فكان للشعر مكانا وللنثر مكانا آخر، فكان مكتبة أكبر من أكبر المكتبات آنذاك، حيث كان يحتوي على أربعة وعشرين ألف مجلد ضخمة في شتى العلوم والمعارف وقدروا قيمتها المادية بحوالي سبعة ملايين من الروبيات الهندية^٢، فالسلطان أكبر وإن لم تسمح له الظروف حتى يتعلم في صغره، ويقف في شبابه في صف العلماء وأهل العلم، لكن طموحاته قد علمته حب العلم وتبجيل أهله.

ثم إن المكتبات لم تكن خاصة بالسلطين، بل كانت هناك مكتبات عامة منتشرة في أنحاء مختلفة من شبه القارة الهندية، حتى إن كثيرا من المساجد والمدارس احتوت على المكتبات أيضا، والتي ساهمت في تغذية حركة التعليم في دلهي وغيرها من المدن. وعلاوة على هذا فقد تطورت المكتبات في عهد السلطين المغولية ووصلت إلى أعلى درجة من الحضارة والرقى والازدهار، فكان هناك عدة موظفين تدار تلك المكتبة من جانبهم، وقد تنوعت مسؤولياتهم بين تنظيف وترتيب، وتصليح ما يتلف من الكتب، وكان السلطان يعين مسؤول المكتبة بنفسه^٣.

^١ - انظر: الشيبال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، ص ٥٧-٥٨.

^٢ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٤٤.

^٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٤٤.

وفي هذا الأمر خير دليل على مراعاة السلاطين المغولية للقيم العلمية، فبالنسبة إلى سائر الناس يعد المسلمون أول من أولى لحفظ الكتب واحترامها وإيجاد نظام كامل للتفادي عن ضياع الكتب ذلك الاهتمام البالغ، وقد امتاز الصوفية وغيرهم في مجال احترام الكتب، حيث إن بعضهم أبى أن يدخل بيت الخلاء وفي يده أثر من الحبر الذي كان يستعمله لكتابة العلم، فإذا كان الكتاب محترماً وموقراً لأجل كونه من أدوات العلم، فما يتألف منه الكتاب يكون أيضاً مبعجلاً وموقراً.

المطلب الثالث: الاهتمام بإنشاء المراكز التعليمية

إن من القيم العلمية الاهتمام بإنشاء معاهد العلم ومراكز التعليم، فإن التعلم المؤثر كما يتطلب وجود معلم ومتعلم ومواد دراسية لا بد من بيئة جيدة يعثر الطالب فيه بالراحة وسكون القلب. ولأجل هذا فقد اهتم حكام الهند المغول اهتماماً بالغاً بإنشاء المراكز التعليمية في عاصمة الدولة والأماكن الأخرى، وعلى الرغم مما يشهد به تاريخ الهند في عهد المغولية فقد ادعى بعض الباحثين الأوربيين أن التعليم كان مقصوراً على الأغنياء، ولم تكن الأجواء ملائمة لتعلم الفقراء، ولا شك أن هذا محاولة لأجل تشويه صورة التعليم بادعاءات كاذبة ملفقة، والحق أن التعليم لم يكن مقصوراً على طبقة خاصة بل كان شاملاً لكل الطبقات والجماعات.

وهذا الرأي والقول مخالف للصواب، فالتاريخ يشهد بأن الدول الإسلامية عموماً كانت فاتحة خير لأهل الهند، حيث أصبح التعليم مجانياً، فقد قام السلاطين بإجبار الأهالي على إلحاق أبنائهم بالمدارس^١. وقد نقل عن بعض المشايخ أنه كان يتكفل الطالب الفقير، ويقول له: "تعلم، ولا تهتم من جهة معاشك، أنا أتعهد أمرك وجميع عيالك على قدر كفايتهم، فكن فارغ البال واجتهد في تحصيل العلم". فكان يفعل ذلك بجميع من يأتيه من الضعفاء والفقراء ويعطيهم قدر ما وظفه، حتى صار منهم جماعة كثيرة علماء ذوي فنون كثيرة، فأنفق جميع ماله في ذلك^٢.

ومن المعروف أن المؤسسات التعليمية القديمة كانت على ثلاثة أنواع: المساجد، والخانقاهات والمدارس. وفي هذا البحث المختصر سيلقي الباحث الضوء على أهم نقاط يتبين من خلالها اهتمام السلاطين المغولية بالقيم العلمية.

أولاً: المساجد

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١١٨.

^٢ - انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٤ / ٤١٠).

لما كان الهدف في المدارس الإسلامية القديمة في الهند من التعليم الديني هو ابتغاء رضى الله سبحانه وتعالى، لا كسب المال والشهرة والوظائف الحكومية، وكان سبب التدريس يعود إلى الوازع الديني الإسلامي الذي كان يحمل المسلمين على جعل تلك المهنة وظيفة دينية، يعد في تلك الأجواء المسجد من أهم مراكز التعليم، حيث إن الطالب لم يكن نصب عينه إلا التلمذ أمام أعلم العلماء، وأتقى الشيوخ والمدرسين، فلا يهمله الحصول على شهادة ورقية تحمل اسمه ويستطيع من خلالها حصول الوظائف وجمع الأموال.

وهذا الإخلاص التام، وترك الشرك في النية جعل للمساجد دورا بارزا وأهمية مرموقة، فما من مسجد واسع مترامي الأطراف إلا ويمثل مدرسة عظيمة، يجتمع فيه أصناف من طلبة العلم، وعطاش المعرفة. ولم تكن أية مدينة من مدن الهند إلا وتجد فيها مساجد فخمة واسعة.

ثم إن عدد المساجد في عهد السلاطين المغولية أكثر من أن يحصى، لكن من أبرز تلك المساجد في إمبراطورية المغول الإسلامية مسجد بابر الذي يقع في مدينة أيوديا، والمسجد الجامع في سامبهال، ومسجد همايون شاه بمدينة أغرا، ومسجد خير المنازل الذي أسسته ماهام أنجا في عام ١٥٦١م في دلهي، والمسجد الأكبر، والمسجد الجامع بدلهي الذي أنشأه شاهجهان، ويعد من أكبر المساجد الموجودة في العالم حيث يتسع لخمس وعشرين ألف مُصلٍّ، ومسجى ناجينا في مدينة أغرا الذي أنشأه السلطان شاهجهان أيضا، ومسجى فاتجبوري بيكم بشمال دلهي، ومنشئ هذا المسجد السيدة فاتجبوري بيكم إحدى زوجات السلطان شاهجهان^١.

وهذا ذكر مختصر لأشهر المساجد التي بنيت في عهد المغول، ولا شك أن هذه المساجد والمساجد الأخرى التي انتشرت في المدن والقرى كانت تؤدي دورا بارزا في عملية التعليم، حيث شهدت تواجد العلماء الماهرين من عدة تخصصات، مثل: اللغة العربية والفقه وأصوله، والحديث وأصوله، والتفسير وأصوله، والمنطق، والفلسفة، والرياضيات، والطب، والفلك والنجوم.

ثانيا: الخانقاهات

لا يستطيع الباحث في حركة التعليم زمن السلاطين المغولية الإسلامية في شبه القارة الهندية إغفال دور الخانقاهات أو زوايا المتصوفة، حيث إن أهل التزكية كما كانوا يركزون على تخلية الباطن من الصفات الذميمة وتحليلته بالصفات الحميدة كانوا أيضا يهتمون بالعلم، كيف لا؟ ومعرفة الله سبحانه وتعالى لا

^١ - انظر: الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٢٠.

يمكن بدون العلم، والصوفي الجاهل يعد ألعوبة بيد إبليس، والفقيه الواحد أشد على الشيطان من ألف عابد جاهل، ولهذه الأمور وغيرها كان لأهل الزوايا اهتمام بالعلم والتعليم.

إن الزوايا والخانقاهات في الغالب عامرة بأعمال أهل التزكية والإحسان، وكان هؤلاء القوم قدم راسخ في شبه القارة الهندية، والفضل الكبير في الحركة التعليمية في هذه المراكز يرجع إلى تشجيع هؤلاء القوم إما مباشرة أو غير مباشرة، وقد بدأ العهد الإسلامي في الهند هؤلاء الصوفية، وكان من أبرز مشايخهم في هذا المجال الشيخ معين الدين الأجميري الجشتي المولود عام: ٦٢٧هـ، وإليه يرجع أسس الطريقة الجشتية في هذه البلاد، حيث إنه بعد وصول هذا الشيخ إلى تلك البلاد المترامي الأطراف وقيامه بالدعوة الإسلامية، دخلت فئات وجموع كثيرة من الهند الوثنيين وغيرهم في دين الله أفواجا، فوصل عددهم بمئات آلاف، وقام مريدوه من بعده بالتمسك بطريقته، وتأسيس الزوايا والخانقاهات لأجل ممارسة تعاليمهم والعكوف على تربية الجيل وتزكية النفوس، ومن هذه الزوايا خرج الإمام أحمد السرهندي المجدد المصلح^١.

ثالثا: المدارس الدينية

إن من القيم العلمية في عهد المغول الإسلامي هي انتشار الآلاف من المدارس^٢ في مختلف بقاع الهند وأطرافها، ولم ينس سلاطين الهند الإغداق على هؤلاء بالأموال والهبات، وهذا فضلا عن تخصيص رواتب شهرية لهم، وقد أوقفت الدولة عددا من القرى الزراعية لدعم المدارس والقائمين عليها من العلماء والمدرسين^٣.

في هذا البحث المختصر لا يمكن ذكر جميع المدارس الموجودة في عهد أباطرة المغول، لكن سيشير الباحث إلى أشهر تلك المدارس.

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٢١.

^٢ - تشيناي، المعروفة سابقاً باسم مدراس، مدينة وعاصمة ولاية تاميل نادو في جنوب الهند، تقع على ساحل كوروماندل خليج البنغال. تعرف بلقب "بوابة جنوب الهند"، تشيناي هي مركز إداري وثقافي رئيسي. بلغ عدد سكان المدينة في عام ٢٠١١ حوالي ٤,٦٤٦,٧٣٢ نسمة، في حين بلغ التكتل الحضري حوالي ٨,٦٩٦,٠١٠ نسمة. (Also known as: Cennai, Madras, Madraspatnam Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٩, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Chennai>)

^٣ - انظر: الندوي، الهند في العهد الإسلامي، ص ٣٥٦.

من أبرز المدارس المغولية مدرسة الشيخ فريد التي أسست في عصر السلطان همايون، ومدرسة أكبر آباد ومدرسة أكبر اللتان أنشئتا بأمر من السلطان أكبر، حيث عين لهما علماء تميزوا بعلومهم ومعارفهم ومؤلفاتهم، ومدرسة الشيخ عبد الحق المحدث، وهي من المدارس التي بناه جهانجير تكريماً لذلك الشيخ، وتخليداً لذكوره، ومدرسة دار البقاء التي أسسها السلطان شاهجهان على مقربة من المسجد الجامع، ومدرستا لاهور وسيالكوت اللتان أسستا زمن شاهجهان باهتمام بعض المشايخ الكبار، وفي زمن أورنجزيب أمر بإغلاق بعض المدارس الهندوسية والمسيحية لأن تلك المدارس كانت تبث أفكار المخالفة للدين ولسياسة الدولة^١. فهذه المدارس ساهمت في نشر الإسلام والعلوم الدينية في ربوع الهند، كما ساهمت في تطور حركة التعليم وازدهار العلوم المختلفة بشكل بارز.

ومن أسباب ازدهار تلك المدارس المختلفة في ربوع الهند، هي ما أوقفه السلاطين المغولية من القرى لهذه المدارس، وما كان تقدمه السلاطين المغولية من الهبات والعطايا والرواتب لأصحاب تلك المدارس ومدرسيها^٢. وبهذا الأمر اتحدت كلمة الأمراء والعلماء، ومن المقرر أن لهما الفريقين دور بارز في توجيه الشعب، وأثر عميق في أفعال وتصرفات الناس.

لم يكن هذا فحسب، بل كانت المرأة المسلمة في الهند زمن السلاطين المغولية تتمتع بحرية كاملة في التعليم والتعلم، وكل ذلك كانت في إطار الحدود التي رسمها الشرع في هذا المجال.

وهذا الأمر على الرغم من حالة المرأة في العصور السابقة في الهند، حيث إن النظرة السائدة كانت لا تبرر القراءة والكتابة للمرأة، فلم تكن من حقها أن تلم بكتب الفيدا^٣، فإن الدراسة للمرأة تعد علامة من علامات الفساد في الناس^٤.

لكن في العصور الإسلامية قد شهدت المرأة تغييراً واضحاً في هذا الأمر، إذ تمتعت المرأة وحظيت بنصيب وافر من التطور العلمي والثقافي، فاستطاعت المرأة أن تلتحق بالمدارس وتتعلم ما يهمها من الأحكام، وفي هذا المجال لعبت أميرات البيت المغولي دوراً بارزاً، حيث اهتمن بتشجيع المدارس الخاصة

١ - الجوارنة، الهند في ظل السيادة الإسلامية، ص ١٧٩-١٩٢.

٢ - انظر: المرجع السابق.

٣ - كلمة الفيدا كلمة سنسكريتية تعني المعرفة أو الحكمة، وكتب الفيدا هي كتب مقدسة جاءت من الفترات الأولى من التاريخ الآري الهندي، ولا يمكن الجزم علمياً بتاريخ تأليفها. لكن بعض الباحثين الهنود والمتحمسين يرجعونها إلى الفترة الزمنية بين سنة ٦٠٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق.م. (الخشت، محمد عثمان، للوحي معان أخرى، الناشر دار روابط للنشر، الطبعة الأولى: ٢٠١٨م، ص: ٢٠).

٤ - ديورانت، قصة حضارة الهند، ص ١٧٩.

بالبنات، ومن هؤلاء النسوة بيك بيكم زوجة السلطان همايون، حيث أنشأت معهدا على مقربة من ضريح زوجها، كانت تتعلم فيها مئات من النسوة. ومن تلك النسوة السيدة مهام أنجا مربية السلطان أكبر، فقد أنفقت أموالا طائلة لتأسيس مدرسة في مدينة دلهي عام ٩٦٩هـ. كما أن الأميرة آراء بيكم ابنة السلطان شاهجهان أسست مدرسة كبيرة في مدينة أغرا، وخصصت لتمويل هذه المدرسة إقطاعات كثيرة. ومن تلك المدارس، مدرسة فاتح بور بيكم التي بنيت بجوار المسجد الشهير فاتح بوري، وقد أسست هذه المدرسة نواب^١ فاتح بوري بيكم إحدى زوجات السلطان شاهجهان^٢.

ولا يستطيع أحد أن ينسى الدور الذي لعبتها هذه المدارس في أرجاء الهند زمن السلاطين المغولية، فقد أسهمت تلك المدارس بشكل فعال في نشر الثقافة والوعي بين النساء، وبشكل خاص بين النساء المسلمات في شبه القارة الهندية.

المطلب الرابع: حث الناس على التعلم

إن من القيم التي نجدها في تاريخ السلاطين المغولية الإسلامية، هي حث الناس جميعا على التعلم - سواء كانوا من المسلمين أو الهندوس-، فهناك شواهد تدل على هذا الأمر، سيتصدى الباحث بذكر أبرزها.

فقد مر معنا في المطلب السابق أن السلاطين المغولية كانوا يقومون بإعطاء الهبات والهدايا لجماعات من المدرسين والعلماء الذين كانوا أساتذة في الجامعات والمدارس المختلفة، حتى إن بعض المدرسين كانوا يتلقون الراتب من هؤلاء السلاطين، ولا شك أن المشكلات الاقتصادية تعد من عراقيل التعليم والتعلم، فكم من طالب ترك التعلم، وكم من مدرس ترك التدريس لأجل ظروفه الاقتصادية.

ومن الأمور التي تشهد في هذا المجال أنه - كما قد مر معنا في المطلب السابق - صار التعليم في ذلك الوقت مجانا، وقام السلاطين بإجبار الشعب على إلحاق أبناءهم بالمراكز التعليمية، فهذا له دلالة واضحة على اهتمام السلاطين بالتعليم، وحث الناس وترغيبهم بنشر العلم بين أبناء الشعب.

^١ - نواب: راج استعمال هذا اللقب في الهند للتعبير عن حاكم ولاية، أي: الشخص الذي ينوب عن السلطان في حكم الإقليم. (نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، عام الكتابة: ١٩٩١م، ص: ٩٥).

^٢ - الجنابي، إنعام حميد شرموط، إمبراطور المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٢٥.

وهذا الأمر يفهم من كلام جوستاف لوبون^١: حين يعترف بقوله: "والمسلمون، حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب، أدخلوا معها رغبة كبيرة في العلوم والآداب والفنون، وما شادوه في عواصمهم: أحمد آباد^٢ وغور ودلهي وفيجاپورا^٣، إلخ من المباني ينطق بعظيم حمايتهم للفنون، وما انتهى إلينا من تراجم ملوك المسلمين يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يشجعون الآداب والعلوم أيضا، وأنهم كانوا يتعهدونها بأنفسهم،

ليس ذلك في كبرى الممالك وحدها، بل في صغرها أيضا... وعلى تلك السنته سار ملوك المغول، وهي التي كانت مشتركة بين جميع الدول الإسلامية في أوروبا وآسيا وأفريقيا كما أثبتنا ذلك في كتاب سابق. وإذا لم نستطع أن نرسم تاريخ مختلف الحضارات الإسلامية في الهند، نقتصر على وصف حضارة المغول التي هي أكثر تلك الحضارات ازدهارا، فما جاء في أخبار مؤرخيهم وأبناء الأوربيين الذين زاروا الهند في عصرهم يساعدنا على الحكم الصحيح في إدارتهم ونظام دولتهم، وما أبقوه من المباني يساعدنا على الحكم الصحيح في الفنون أيام سلطاتهم^٤.

^١ - جوستاف لو بون (مواليد ٧ مايو ١٨٤١، نوجنت لو روترو، فرنسا - توفي ١٣ ديسمبر ١٩٣١، مارن لا كوكيت) كان عالم نفس اجتماعي فرنسي اشتهر بدراسته للخصائص النفسية للجماهير. The Editors of Encyclopaedia Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Gustave-Le-Bon>

^٢ - أحمد آباد، مدينة في شرق ولاية غوجارات، غرب وسط الهند. تقع على طول نهر سابارماتي على بعد حوالي ٢٧٥ ميلاً (٤٤٠ كم) شمال مومباي (بومباي). تقع أحمد آباد عند تقاطع الطرق الرئيسية المؤدية إلى مومباي ووسط الهند، شبه جزيرة كاثياوار، وحدود راجستان. The Editors of Encyclopaedia, Britannica Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Ahmadabad>

^٣ - فيجاپورا، مدينة في شمال ولاية كارناتاكا، جنوب الهند. تقع في الجزء الشمالي من هضبة كارناتاكا، على بعد حوالي ٥ أميال (٨ كيلومترات) شمال غرب نهر دون (أحد روافد نهر كريشنا). Also known as: Bijapur Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Jan ٢٤, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Vijayapura>

^٤ - جوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٣٣٣.

الفصل الثاني

الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الاجتماعية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: القيم الأخلاقية

المبحث الثاني: القيم السياسية

المبحث الثالث: القيم الحضارية

المبحث الأول

القيم الأخلاقية

لا مرأ في أهمية الأخلاق في المجتمع الإسلامي، فالمجتمع الإسلامي أسوة المجتمعات وقودتها وقبل أن ينظر الناس إلى العقيدة والعبادة ينظرون إلى الأخلاق وتعامل المؤمن مع غيره، فلذلك تحتل الأخلاق مكانة سامية في أساليب ومناهج الدعوة إلى الله.

فالقيم الأخلاقية من ركائز الإسلام في بناء المجتمع الإسلامي وفي بناء الفرد، فقوة المجتمع وسلامته إنما هو بمسكه بالأخلاق الفاضلة، فمتى تحلى عن الأخلاق، ونسي دوره الريادي في هذا المجال كان إلى الانهيار أقرب منه إلى البقاء.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا^١

بل إذا شاع سوء الخلق في مجتمع، وفسدت أخلاق القوم، وانغمسوا في وحل الرذائل، ينبغي أن يقام عليهم مأتم، ولا يترب منهم إلا الخراب والدمار.

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتما وعويلا^٢.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله وأثنى عليه لأجل خلقه، حيث يقول: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}^٣. فيجب على كل مسلم أن يتحلى بالأخلاق الحميدة، سواء كان رئيساً أو مرؤوساً، أمراً أو مأموراً.

ولقد تميز السلاطين المغولية ببعض الأخلاق الفاضلة، ووضعوا هذه الصفات الحميدة في بؤرة اهتمامهم، سيتعرض الباحث في هذا المبحث القصير بذكر بعضها.

أولاً: التعايش السلمي

إن من الأمور التي كان يعاني منها سكان الهند، هو النزاع والتناحر بين أصحاب الأديان المختلفة، فكان المسلم يعاني من التعامل مع الهندوسي، والهندوسي مع المسلم، ولأجل ذلك كانت هناك ثورات كثيرة واضطراب شديد لا بد من القيام برفعه والتمسك بالتعايش السلمي.

^١ - حسين بن محمد المهدي، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، الناشر: دار الكتاب بوزارة الثقافة، سنة: ٢٠٠٩م، (١/٦٨٨).

^٢ - حسين بن محمد المهدي، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، (١/٢٨).

^٣ - القلم: ٤.

ثم إن السلاطين المغولية قد هدّتهم بصيرتهم إلى بذل الجهود لأجل توحيد سكان الهند هنادكة ومسلمين تحت راية واحدة، فطفقوا في سبيل هذا الأمر يبدوا لهم الأخلاق الطيبة، والخصال الحميدة، وفتحوا لهم أبواب البلاط، وبذلك رضي الناس في الجملة، وساندوا هذه الدولة المسلمة.

وقد بلغ من تسامح السلطان بابر أنه تغمض عما أنزله به بعض أقاربه من أضرار فادحة، حتى إنه عفى عن هؤلاء الخونة حين وفدوا عليه بالهند، بالرغم أن منهم من امتنع عن إضافته حين ضاق به العيش ببلاد ماوراء النهر^١.

وقد اهتم السلطان أكبر بهذا الجانب اهتماما كبيرا حيث "رفع أكبر الجزية التي كانت تفرض على الهنداكة، والرسوم التي كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقدساتهم، فغدا رعاياه جميعا على قدم المساواة فيما يلزمون به من واجبات وما يتمتعون به من حقوق، وكان صنيعة هذا كله هو البداية العملية لتحويل الهنداكة وأمرائهم من أعداء للدولة إلى خدام لها وحماة لأراضيها"^٢.

ثم إن التسامح أثر من آثار الشفقة والرحمة، فمن كان شفيقا رحيمًا، أحاطت به عواطف الرحمة، ينظر إلى الناس بنظرة التسامح والعفو والصفح، فلو لا الشفقة والرحمة لم نجد التسامح والصفح من هؤلاء السلاطين، ويشهد بوجود هذه الصفة في تلك السلاطين والأمراء، قول الرحالة الفرنسي في شاهجهان: "ينظر إلى رعاياه عموما نظرتة إلى أبنائه. وتجلت شفقتة بهم وحده على رعايتهم فيما كان يبذله من جهود كثيرة لتخفيف وطأة القحط والمجاعات حين كانت تنزل بهم، فلم يكتف بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانية كثيرة وما كان يبعث به إليهم من الأرزاق والمؤن والأموال، حتى أمر عماله بشراء الأطفال الذين كانت أهلهم يعرضونهم للبيع من فرط الإملاق ليردهم عليهم ثانية فيما بعد"^٣. ولا شك أن من خير الملوك من يرحم رعاياه ويجلب لهم المصالح ويدفع عنهم المضار، وشر الملوك من يبغض رعاياه، والرعية تدعو عليه الهلاك والدمار وزوال الملك.

وقد سببت هذه الأخلاق الطيبة في نفوس كثير من الهندوس، فأثرت فيهم لغات المسلمين وتقاليدهم وعاداتهم، فشاركوا في أنشطة الدولة المغولية، وقد كتب العديد من النقوش الفارسية تحت رعاية الهندوس، حتى إن السلطان أورنجزيب الذي قد اتهم كثيرا من قبل المؤرخين غير المسلمين بالتعصب تجاه

^١ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٥٦/٢).

^٢ - انظر: المرجع السابق، ٩٥-١٠٨.

^٣ - انظر: المرجع السابق، (٢١٠/٢).

الهندوس، وعدم الحيادة في هذا الجانب، نرى في عهده احتلال مناصب هامة في الدولة من قبل الهندوس والشيعة^١، ولو لم يكن هذا الخلق الفاضل من قبل هؤلاء السلاطين لما قدروا أن يحكموا بلاد الهند قرابة ثلاثة قرون.

ثانيا: الشجاعة

إن من الصفات الحميدة التي يجب على المؤمن أن يتحلى بها، لا سيما الداعي والمجاهد في سبيل الله هي الشجاعة. وقد كانت الشجاعة والكرم هي من الصفات اللازمة للسلطان آنذاك، فلا نجد في التاريخ الإسلامي من استطاع أن يتغلب على الآخرين، ويأخذ بمقاليد الحكم إلا من كان له تلك الصفة.

وقد سجل سلاطين الدولة المغولية في تاريخ الهند صورا كثيرا ونماذج واضحة من الشجاعة والبطولة، فمن السلاطين التي برزت في ذلك الميدان، السلطان بابر، فمما حدث ذات يوم أن أدركه ثلاثة فرسان بعد سير يومين على أثر معركة خسرها فوقف فالتفت فقال لهم ساخرا متكبرا: "أريد أن أرى، أيها الشجعان، أيكم يجرؤ على مسي قبل الآخر"، فارتبك هؤلاء الفرسان الثلاثة بفعل سخريته فقاتلوا مرتدين حالا^٢.

فإذا قرأنا سيرة بابر، نواجه شخصا قد تميز بالإقدام والبسالة قل مثله في تاريخ المسلمين، فقد كان غازيا جريئا ومجاهدا باسلا يشق صفوف العدو، ولا يبالي بكثرة عدد العدو وعدده.

فقد تميز بابر بشجاعته وبسالته، حيث إن السلطان محمود الغزنوي لما أقبل على الهند مجاهدا، كان قد ملك قبل ذلك سمرقند وبلاد ماوراء النهر وفارس وخراسان، وقد تجاوز عدد جنده المائة ألف، وكان له من الهيبة ما أوقع الرعب في قلوب أعدائه، ومنعهم من التطاول في حدود دولته، وأيضا كان للسلطان غياث الدين الغوري في زحفه على بلاد الهند من الجند مائة وعشرون ألفا، في حين لم يتيسر للسلطان بابر في غزوته لأجل فتح الهند إلا اثنا عشر ألفا من الجند، وكانت أرضه ضيقة الرقعة، والأوزبك ما يزالون ببلاد ماوراء النهر يتربصون به، ومع ذلك فقد واجه عدوا ذا ثراء عريض وجيشا ذا منعة وقوة. ولكن السلطان سجل بانتصاره على ذلك الجيش صفحة من أروع صفحات المغامرات في تاريخ الهند

^١ - محمد يوسف صديق، دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، عام: ١٤٠٦ هـ، (٢٧٨).

^٢ - غوستاف لوبون، حضارات الهند، (٣٤٢).

الطويل^١. فكان من أسباب انتصاره على ذلك الجيش العرمم هو شجاعته وبسالته، فكيف ينتصر الجبان في المعركة المحتدم؟ فهل ينتظر منه إلا الفرار والانصراف.

وكيف لا يكون بابر شجاعا وباسلا وقد اشتهر عنه في شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوي ذراعيه على الرجلين ويتخطى بهما الخنادق قفزا في تتابع سريع، ومع ذلك فقد مارس في حياته كافة أنواع الرياضة المعروفة آنذاك، حتى ليذكر في سيرته أنه سبح في كل نهر صادفه في حياته، وقطع نهر الجانج في أعرض مواضعه في ثلاثة وثلاثين ضربة^٢.

وقد ورث أبناء بابر هذه الشجاعة من أبيهم، فكان يرى فيهم آثار البسالة والشجاعة، منهم هاميون؛ حيث لم يكن دون أسلافه في الجرأة والشجاعة، فقد ساهم مع أخيه في كثير من الحروب، وكان يحمل الصبر ويتجلد أمام المشاكل، وكان يحتمل الشدائد ولم يكن يفارقه الثبات والجلد في المحنة والرخاء، فقد عجنت شيمته باحتمال الشدائد، حيث مضى خمسة عشر عاما في المنفى^٣، لكن لم ييأس عن العودة مرة ثانية إلى الهند، وبذل الجهود لإعادة ملك أبيه المغتصب.

ثم إننا نرى هذه الشجاعة أيضا في السلطان أكبر، فقد كان أكبر شجاعا مقداما قوي البنية، لم يكن يتردد أو يتخلف عن مشاركة جيشه في أشد الحروب وأعنف المعارك، ولم يكن يتردد عن صيد أضرى الوحوش مثل النمار والأسود، وكان لا يبالي بالسير في اليوم الواحد أربعين ميلا أو أكثر، ويندفع بفرسه في مجرى بعض المدن في مواسم الأمطار والفيضانات والسيول الجارفة^٤. وقد حكى التاريخ صورا من شجاعته في المعارك، منها أن شهامته أثبت أن يستجيب لوزيره بيرم خان، حين أشار عليه بقتل أسيره^٥. فإن المروءة تأبى قتل جريح لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، فالشجاعة هي أن تنكل بمن يدافع عن نفسه، وتكونا سواء، لا أن تقتل رجلا قد أوهنته الضعف واستنزاف الدم منه.

ثالثا: الكرم والسخاء

إن من الصفات التي لا بد أن يتصف بها الحاكم المسلم هو الكرم والسخاء؛ حيث إن البخل والشح ينقص من قدر الإنسان، ويسلب منه السؤدد والسيادة. فالكريم قريب من الناس قريب من الله،

^١ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٢٤).

^٢ - انظر: المرجع السابق، (٥٤/٢).

^٣ - انظر: المرجع السابق، (٩٥/٢).

^٤ - انظر: المرجع السابق، (١٦١/٢).

^٥ - انظر: المرجع السابق، (١٠١/٢).

والبخيل بعيد عن الناس، بعيد من الجنة ، ولا يحب أحد مجالسته.

فمن السلاطين المغولية التي يحكي لنا التاريخ عن جودهم السلطان أكبر، فقد كان شديد البر بالناس وكان يحسن إلى الطبقات الفقيرة والمسكينة، فجاز عدله ورحمته عماله وموظفيه حتى وصل إلى جميع سكان الهند. ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هداياهم البسيطة التافهة بنفسه ويضمها إلى صدره ممتنا، مع أنه كان لا يكثر بهدايا الأمراء والأعيان^١. فقبول هدايا الناس كافة من غير اكتراث إلى قيمتها يدل على كرم الإنسان، حيث إن البخيل وإن كان لا يرضى بإعطاء روية لشخص، فهو يحب دائما أن يهدى له أنفس الأموال وأعز الأمتعة.

ومن السلاطين المغولية التي يحكي التاريخ عن كرمهم وسخائهم السلطان بابر فقد طفق في أغرا يغدق على عماله ورجاله مما وقع في أيديه من أموال اللودهيين وكنوزهم الطائلة، وجعل لكل جندي كان معه في حرب اللودهيين قدرا وفيرا من العطاء وبعث بببات وافرة إلى عماله وأقاربه فيما وراء حدود الهند، ووصل الفقراء والعلماء في جميع المزارات الإسلامية بالحجاز، والعراق وماوراء النهر وخراسان^٢.

ومما يدل على سخاوتهم وكرمهم سنتهم في عيد النيروز، حيث كان السلطان يوزن كل سنة في عيد النيروز، ويقال له في الميزان الذهب والفضة، ثم كان يتصدق بمجموع تلك الأموال على المحتاجين والفقراء^٣، وهذا العرف يوضح مدى كرم السلاطين المغولية، وسخائهم في وقت الرخاء.

تأمل في كرم تلك السلاطين، مع أنهم إنما وصلوا إلى حيث وصلوا بعد جهد طويل، وإتعب النفس وتحمل المشقة، وما يفعله كثير من الحكام في هذا العصر، حيث يصل إلى الحكم والسلطة بعد أن انتخبه الناس بدون أن يتحمل في سبيل هذا المنصب معشار ما كانت السلاطين يتحملونها من قبل، لكن مع ذلك لا يفي بوعوده لمن نصر في الانتخابات، أو بذل جهدا لأجل تبليغ شهرته بين الناس، فالفرق بينهما شاسع وبعيد.

ومما يدل أيضا على كرمهم وسخائهم بذل الأموال الكثيرة، والنقود الوفيرة لأجل إنشاء العمارات أو إحداث المساجد وصنع العروش الجميلات، فقد سعى شاهجهان في إنشاء تاج محل، حيث استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما، واستخدم لأجل صنعه ألفا من العاملين، وتكاليفه زادت واحدا وتسعين مليون

١ - انظر: المرجع السابق، (١٦١/٢).

٢ - انظر: المرجع السابق، (٢٥/٢).

٣ - انظر: الجوارنة، د. أحمد محمد، عالمكير الأول "أورنك زيب" إمبراطور الهند الكبير، ص: ٥١.

من الروبيات، وبنى عرشه من الجواهر النادرة، والذهب الخالص على اثني عشر عموداً من الزمرد في سبعة أعوام وبلغت تكاليفه أكثر من ستة ملايين من الجنيهات^١. وهذا أيضاً من علامات جود هذه السلاطين وعدم بخلهم.

فكثير من السلاطين في هذا العصر يملكون أكثر مما كان يملكه هؤلاء السلاطين، لكن الشح قد منعهم من بذل الأموال وإنفاقها حتى لأقرب الناس إليهم، فهم يحملون الأموال على كواهلهم طيلة حياتهم، ثم يروحون إلى القبور وقد زال الملك، والثراء، وطارا أدراج الرياح.

يصف أحد المؤرخين أخلاق السلطان أورنجزيب، فيقول: "طوى عالمكير قلبه على الرحمة البالغة برعاياه حتى بعد كل البعد عن القسوة والقتل ... هذا فضلاً عما شهر به من تحمل بالصبر وهدهوء النفس في الحن، والتواضع الشديد الذي أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين بلغه أنه يتعالى عن الناس في مجلسه حتى اتخذ له ما يشبه العرش ليتربع عليه. ولم يلبس أورنجزيب إلا بسيط الثياب، ولم يكن يسمح لأحد أبداً أن يغتاب غيره في حضرته. وأدى به ورعه وزهده إلى أن كف يده عن بيت المال، في الغالب، فعاش على ما كان يكتسبه من صنع الطواقي^٢ بنفسه ونسخه للقرآن الكريم بخطي الشكست والنستعليق، وكان له في كتابته ذوق فني رفيع، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين الشريفين"^٣.

فقد كان أورنجزيب يحمل من الأخلاق الطيبة والصفات الجميلة الكرم، والرحمة، والشفقة، والصبر والهدوء، والتواضع، والعيش البسيط، والزهد، والورع، وعدم التواكل، ومحبة العلم والعلماء، والمجانبة عن الشر والفساد، وما تحظره القواعد الشرعية.

رابعا: التواضع لأهل العلم

إن من القيم الأخلاقية التي يجب على المسلم أن يلتزم بها، هي التواضع للعلماء، واحترام أهل العلم والمعرفة، حيث بحث الإسلام على معرفة قدر الناس ومكانتهم، فتكريم العلماء وإجلالهم بسبب حملهم رسالة الإسلام، ودعوة الناس إلى الخير والصلاح يعد من القيم الأخلاقية، والتزام الإنسان بحسن الخلق.

^١ - انظر: المرجع السابق، (٢/٢١٢).

^٢ - ط و ق: طاقية [مفرد]: ج: طاقيات وطواق: غطاء للرأس من القطن أو الصوف ونحوهما. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٣٢٦٠، (٢/١٤٢٥).

^٣ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٢/٢٤٧).

وكان السلاطين المغولية يراعون احترام العلماء ويعرفون قدرهم ومنزلتهم، ولأجل ذلك اجتمع حول هؤلاء السلاطين العلماء والحكماء ورجال الأدب، فلهند لم تعرف من قبل أكبر سلطانا مثله اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب، ولقي العلماء عنده كل إجلال وتقدير، فقد كان يحترم شيخه عبد النبي صدر الصدور لدرجة أنه كان يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه، بل لما بلغ السلطان مقتل وزيره الفضل وكان مؤرخا عالما شهودا له بسعة الإطلاع اشتد حزنه عليه، حتى إن السلطان تمنى أن يكون هو المقتول مكان هذا الوزير، فعلى حد قوله إن نوابغ العلماء لا يجود بهم الزمان إلا بالنادر القليل بخلاف الأمراء والسلاطين^١. وهذا الأمر يقتضيه طبيعة الحال، حيث إن الإنسان بطبعه يميل إلى من يحترمه، ويجله ويعرف قدره، فهؤلاء السلاطين لما عرفوا قدر العلماء وأهل العلم والأدب التفوا حولهم من كل حذب وصوب، ومدينة وقرية، وتضاعفت أعدادهم.

ولما كان السلطان أورنجزيب عالما وفقها ورعا، قدر العلماء وأهل الأدب حق قدرهم، ولأجل ذلك افتتح عصره بالكثير من الإصلاحات الاجتماعية والدينية، ومن أبرز تلك الإصلاحات، عودة نشاط الدعوة الإسلامية بين الهندوس والمسلمين، وبناء المساجد ورعاية العلماء والفقهاء وإعزازهم، فقد كان يوكل إليهم المسؤوليات ويستنجدهم في المهمات، ومن هذه الأعمال تأليف كتاب جامع لمسائل المذهب الحنفي^٢.

وأيضا فقد كان السلاطين المغولية يستشيرون أهل العلم، ولا يصدرن إلا عن آرائهم كما مر سابقا، وهذا بدوره يدل على احترامهم للعلماء وإعزازهم لأهل المعرفة والأدب.

يتلخص مفاهيم هذا المبحث فيما يلي:

١. بذل السلاطين المغوليون جهودًا لتوحيد الهندوس والمسلمين تحت راية واحدة من خلال التسامح وإزالة الفوارق مثل إلغاء الجزية.

٢. تميز السلاطين المغول بالشجاعة والبسالة، مثل السلطان بابر الذي خاض معارك كبيرة بشجاعة رغم التحديات.

٣. السلاطين المغول اشتهروا بالكرم، سواء في الإنفاق على الفقراء أو بناء المساجد والعمارات الفخمة مثل تاج محل.

^١ - انظر: المرجع السابق، (١٥٧/٢).

^٢ - انظر: الجوارنه، د. أحمد محمد، عالمكير الأول "أورنك زيب" إمبراطور الهند الكبير، ص: ٤٦.

٤. أظهر السلاطين تقديرًا كبيرًا للعلماء والأدباء، ما جذب أعدادًا كبيرة من رجال العلم والأدب إلى بلاطهم، وساهم في نهضة علمية وثقافية.

المبحث الثاني

القيم السياسية

إن من مؤشرات تطور المجتمع، وسير عجلة رقيه إلى الأمام التزامه بالقيم السياسية. فالقيم السياسية تشجع الشعب إلى العمل الجاد، والخدمة لأجل الأمة وعمارة الأرض. فما أحوج أمتنا هذه الأيام إلى تلك القيم السياسية النبيلة! فكم من دولة انهارت، وكم من أمة تشتتت وتفرقت بعد أن غابت قيمهم السياسية!

وقد عد العلماء نماذج من القيم السياسية في تأليفاتهم، سيتعرض الباحث لشرح بعض تلك النماذج في ضوء ما جرى في الإمبراطورية المغولية الإسلامية في الهند. وهذا لا يعني حصر قيمهم السياسية فيها، بل هناك قيم سياسية أخرى لا يتسع هذا البحث الموجز لشرحها وتفصيلها.

المطلب الأول: العدل

لا شك أن إقامة العدل من أهم القضايا التي يجب على الناس الاهتمام بها، والعمل الجاد في سبيل تحقيقها، فقد أمر الله - سبحانه وتعالى - بالتمسك بالعدل ومجانبة الاعتداء والبغي، يقول الله - سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^١.

يقول طاهر بن عاشور: "العدل: إعطاء الحق إلى صاحبه. وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات، إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته ... ومأمور بالعدل في المعاملة... ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة. فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة فهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكة، فيصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية"^٢.

ثم إن إقامة العدل كانت من القيم التي حرص سلاطين إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند على ضمانها في دولتهم وبين شعبهم وفي ربوع بلادهم. ولم يكن إقامة العدل في الهند زمن هذه الأباطرة

١ - النحل: ٩٠.

٢ - انظر: التونسي، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، (١٤/ ٢٥٤).

تنحصر في بعض المجالات، فقد كانوا شديدي الحرص على دقة اختيارهم للقضاة ومحاسبة الولاة، ورفع الموانع التي حجزت بينهم وبين شعبهم.

أولاً: تسهيل الطرق لرفع الشكاوى إلى السلطان

إن إقامة العدالة في الدولة تقتضي أن يراقب الحاكم والسلطان أعمال نوابه ورعيته وإلا فسيزداد الظلم وسيشفشئ الطغيان في البلاد، ومن طرق مراقبة أعمال الموظفين هو تصدي السلطان بإعمال العدالة ورفع الجور والقضاء بين الخصمين بنفسه.

ومن هذا المنطلق فقد كان أغلب أباطرة المغول الإسلامية في الهند يجتهدون في تسهيل الطرق لأجل رفع الشكاوى والمظالم إلى السلطان نفسه.

فمثلاً السلطان همايون أوجد ما يسمى بطبل العدالة. ووضع له نظاماً خاصاً فمن دق على هذا الطبل مرة واحدة يبدو أنه يشكو من عداوة عدو، ومرتين إذا كان قد أخطأه الإنصاف، وثلاث دقات إذا كان قد سرق منه شيء، وأربعاً إذا كانت الحادثة حادثة قتل^١، ففكرة إنشاء هذا الطبل يدل على أن السلطان يحرص على إقامة العدالة في البلد، وأنه يهتم بهذا الجانب الخطير من القيم السياسية ويضعه في بؤرة عنايته.

وبلغ حرص السلطان أكبر على ضمان العدل والمساواة في حكمه إلى أنه كان ينظر في القضايا الكبرى بنفسه، حيث ألزم عماله بولايات الحكومة أن يبتعثوا تلك القضايا إليه. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يفتح أبواب قصره للرعية يوماً خاصاً وهو يوم الخميس في كل أسبوع وكان يتلقى منهم شكاواهم بنفسه، وحين غيابه يتلقاها من ينوب عنه ممن يثق به من وزراءه^٢. ففي ظل هذا النظام يستطيع الحاكم أن يتفقد حال الرعية، ويفصل بالعدل ومجانبة الهوى في القضايا التي يكون عماله أحد أطراف القضية، أو التي لا يصل إلى حقيقتها كل قاض ووال.

وأما السلطان جهانجير فكان مطمح نظره ضمان العدل المطلق في دولته، وكان يحرص على الوقوف على شكاوى رعيته وشعبه، والنظر في تحقيق تلك الشكاوى بنفسه، ولأجل ذلك أمر أول يوم استولى على العرش بمد سلسلة العدالة.

^١ - انظر: الشيال، الدكتور جمال الدين، تاريخ دولة أباطرة المغول، (٥٤-٥٥)

^٢ - انظر: الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٤٥/٢).

يقول جهانجير: "عملت من أول يوم نزلت فيه مدينة أحمد آباد على الجلوس كل يوم مع شدة الحر بعد الفراغ من صلاة الظهر في شُرْفة على جانب البحر ساعتين أو ثلاثة، لا يحول بيني وبين الناس باب ولا جدار ولا حارس، وما تخلفت يوما حتى أيام ابتلائي بالوجع الشديد عن حضور الشُرْفة ولو كان في ذلك حرمان لنفسي من الراحة والهناء".^١

فهذا من أقوى المؤشرات لحرص سلاطين المغول على نشر العدالة وإحقاق الحق ورفع الجور والظلم عن الرعية، لمثل هذا فليعمل العاملون.

وكان ملك المغول لا يحتجب في الهند، فهو إذا كان يستلب رعاياه في الغالب فإنه لم يسلبهم نعمة إمتاع العيون، فكان يبدو للناس على الدوام. ففي الصباح كان يظهر في شرفته فيجتلي الجمهور طلعه فيهتف له، وما كان ليعدل عن الظهور في الشُرْفة إلا في حالة المرض الشديد، وإذا حل وقت الظهر عاد إلى تلك الشُرْفة؛ ليشاهد صراع الفيل ومختلف التمارين العسكرية وما إليها مما يتم في ساحة القصر، وإذا كان وقت العصر جلس للاستقبال ولاستماع كل ما يجدر أن يقال له.^٢

وعلاوة على هذا، كان السلطان يعين من يسجل القضايا التي كانت تحدث في المدينة، لأجل إرسالها إلى السلطان، فمن اختصاصات "مير عدل" تقديم المساعدة للقاضي في الفصل بين القضايا، وكان من أهم مسؤولياته إعداد السجلات الخاصة بجميع القضايا التي كانت تحدث في المدن خلال كل أسبوع ثم كان يرسلها إلى صدر الصدور في العاصمة للعرض على السلطان.^٣

ثانيا: أباطرة المغول وحثهم على إقامة العدل

من أجل حرص سلاطين المغول على إقامة العدل والمساواة بين الرعية كانوا يحثون العمال على التمسك بالعدل ويتواصون به.

فالسلطان بابر كان يحض موظفيه على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون في ذلك بين مسلم وهندوسي. وكان لبابر وصية تسمى بـ «وصيتنامه مخفي» تركها لخليفته همايون لتبين في وضوح سياسته في الحكم، ومن القضايا التي كانت تحوي عليها إقامة العدل والمساواة بين الناس عموما وبين المسلمين وغير المسلمين خصوصا.

١ - د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٩٨١م، ص: ٢٣٧.

٢ - انظر: غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٣٣٦.

٣ - انظر: قمر الزمان، أورنجزيب، ص: ١٨٢.

فقد جاء فيها: "أى بني: إن دولة الهند مليئة بالعقائد المتباينة، والحمد لله الحق العلي المجيد أن وهبك ملكها، وإنه لمن الصواب أن تقدم بقلب خال من كل تعصب ديني على نشر العدل تبعا لعقائد كل جماعة من الناس... وانشر العدل بين الناس حتى يعيش الحاكم سعيدا مع رعاياه ، وحتى يعيش الرعايا سعداء مع حاكمهم . وإن انتشار الإسلام ليتحقق بسلاح العطف والمحبة خيرا مما تحقق بسلاح الضغط والاضطهاد"^١.

وبلغ من حرص عالمكير على تحقيق العدل في بلاده، أنه أصدر أوامره وتوصياته الخاصة المتشددة لقضاياه في جميع أنحاء بلاده بأن يبذلوا جهودهم في تحقيق قضايا الناس وضمان العدل بين الخصوم، مع سرعة الفصل في القضايا المختلفة، وأن يجلسوا لأجل القضاء خمسة أيام في كل أسبوع بدلا من يومين فقط^٢.

ولأجل هذا كان يسير أباطرة المغول في الهند على مقتضى العدل والتسامح المطلق، من دون تفرقة في الدين أو الجنس بين المسلمين و غيرهم، فقد كان أهل كل ملة يعيش فيها بحرية تامة، وعدل كامل في حين كان ملوك أوروبا يقهرون أصحاب المذاهب التي تتعارض مع مذاهبهم في النصرانية على ما كان يفعل الأليزابيتيون مع كاثوليكيي أيرلندا، أو ما كان يفعله أصحاب فيليب الثاني مع البروتستانتين^٣، فما بالك بتعاملهم مع الديانات الأخرى، خاصة المسلمين. فلم يتجرب الأوروبيون آنذاك هذا التسامح والعدل الذي كان يسود العالم الإسلامي، فقد سبق المغول الدول الغربية بتطبيق هذا النظام الذي يأمل الغرب اليوم مثيله في الدول الغربية.

ثالثا: المعاقبة على الجور

من علامات اهتمام أباطرة المغول الإسلامية بالعدل والمساواة هو إنزال العقاب على من جار عن العدل وأراد التعدي على حقوق الآخرين.

كان السلاطين جميعا في إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند يحرصون على ضمان العدل في دولتهم، وإقامة العدل بين رعاياهم، فلم يكونوا يترددون في أن ينزلوا بهم أشد العذاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم للرعايا أو اعتدائهم على أملاكهم أو أموالهم^٤.

^١ - الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند: ٣٢.

^٢ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٢/٢٤٧).

^٣ - انظر: المرجع السابق، (١٤٣/٢).

^٤ - انظر: الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول، (٥٤-٥٥).

من تلك السلاطين، السلطان شاهجهان حيث لم يكن أقل حرصا على إقامة العدالة من أسلافه، وكان يتسم بالحزم الشديد والجدية مع عماله ورجاله، وكان يسهر على مصالح رعيته، ولم يكن هو أيضا يتردد في إنزال العقاب على المقصرين في تطبيق العدل في أمورهم وبين الخصوم، وعلى الذين كانوا يلحقون الضرر بغيرهم^١. وعلى نهج هذا الحاكم قد سار غيرهم من أباطرة المغول في الهند، على ما يتبين من مراجعة تراجمهم وسيرتهم.

فالحاكم يجب عليه توصية عماله بالتمسك بالعدل أولا، فإن جاروا وظلموا لا بد من إنزال العقاب عليهم فلا بد من وقوف الحاكم موقفا حازما، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

المطلب الثاني: الوحدة السياسية

إن من المشاكل التي كانت يواجهه من يريد أن يحكم الهند هو وسعة رقعة البلاد وكثرة المذاهب والأديان، واختلاف أجناس الناس فيها، فلم يكن الحاكم يوطد أقدامه في الهند إلا ويثور عليه طوائف من الأجناس الأخرى.

لم يستطع سلاطين المغول أن يفتحوا أبواب الهند ويجلسوا على عرش الحكم إلا بعد تعب شديد ومشقة عظيمة، فكان الأولى بسلاطين المغول إنشاء الوحدة السياسية في تلك البلاد، وحدة يعيش في ظلها المسلم مع الهندوسي، عابد الله مع عابد الوثن والصنم.

هذه الفكرة تظهر بمراجعة وصية بابر الخفية لابنه همايون، فقد جاء في تلك الوصية: " إنه لمن الصواب أن تقدم بقلب خال من كل تعصب ديني على نشر العدل تبعا لعقائد كل جماعة من الناس ، وبوجه خاص أن تمتنع عن ذبح البقر، فإن هذا هو السبيل لامتلاك قلوب الشعب في هندوستان، ورعايا مملكتك سيخلصون لك الإخلاص كله إذا أحسوا منك حذبا وعظفا. والهياكل وأماكن العبادة التابعة لكل فرقة دينية تحت حكمك يجب أن لا تخربها... وإن انتشار الإسلام ليتحقق بسلاح العطف والمحبة خيرا مما تحقق بسلاح الضغط والاضطهاد. تجاهل النزاع والتخاصم بين الشيعة والسنة، ففي هذا منبت الضعف في الإسلام وضم الرعايا من مختلف العقائد حول الأسس الأربعة بحيث يصبح كيان الدولة محصنا ضد عوامل الضعف المختلفة"^٢.

١ - انظر: طقوس، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند، ص: ٢٩٢.

٢ - انظر: الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٣٢.

واستطاع سلاطين المغول، بالنهج الذي اختاروه في سياساتهم أن ينشأوا دولة قوية يخضع لأوامرها وفرايينها المسلمون وغيرهم سواء، فعلى سبيل المثال اعتبر المؤرخون القدامى من الهندوس وغيرهم، السلطان أكبر أعظم حاكم عرفته الهند منذ أيام آشوكا^١ حامي البوذية في القديم^٢. ويعتبر جهانجير من أعظم سلاطين المغول في الهند، حيث نهج أسلوب أبيه أكبر في الحكم في التسامح المطلق وكان صورة صغيرة من سلفه أعظم سلاطين الهند المسلمين بلا شبهة، ويعتبر أيضا عهد أورنجزيب الذي قارب نصف قرن من أهم عهود التاريخ الهندي، ففيه وصلت الإمبراطورية المغولية إلى اتساعها، وإلى ذروة قوتها ومجدها^٣. فقد ساعد السلاطين المغولية أسلوبهم على إنشاء الوحدة السياسية في الهند، وإخماد نيران الثورات التي كانت توقد في تلك البلاد بين حين وآخر.

فأول سلطان طبق سياسة توحيد سكان الهند عمليا تحت راية واحدة هو السلطان أكبر؛ حيث هدته بصيرته إلى وجوب العمل في سبيل هذه الفكرة، ولأجل هذا اختار التسامح المطلق، وطفق يقرب زعماء الهندوس وأشرفهم منه، وفتح لهم أبواب بلاطه، وعهد إليهم بالمناصب الرفيعة، ورفع الجزية التي تؤخذ من الهندوس، والرسوم التي كانت تفرض عليهم عند زيارة مقدساتهم^٤. فلما رأى سكان الهند الأصليون أن لهم قدما في الدولة، ومساهمة في أعمال الحكومة، انشرح صدورهم لقبول حكمهم وأوامرهم. فصار شعب الهند على قدم المساواة في الواجبات والحقوق وكان هذا الأسلوب هو بداية عملية لتحويل الهنادكة وأشرفهم من أعداء للدولة الإسلامية إلى حلفاء للدولة وخدام للشعب وحماة لأراضي الهند. نعم هناك من يعارض تلك الإجراءات لمخالفتها مع الشريعة الإسلامية، لكن على جهة أخرى يوجد من يبررها مستندا إلى أهمية الوحدة السياسية قبل البدء في إخضاع الناس لتطبيق الشريعة في البلاد.

١ - الإمبراطور آشوكا (٣٠٤ ق.م - ٢٣٢ ق.م) من أعظم ملوك الهند في التاريخ وأهم حكام الإمبراطورية الماورية، قام ببناء أعمدة أشوكا التي نقش عليها أوامر الإمبراطورية الماورية، وله دور كبير في ترسيخ وحدة بلاد شبه قارة الهند، وفي نشر تعاليم البوذية في الهند وخارجها. (ديورانت، ويل وأربل، دروس من التاريخ، الناشر: عصير الكتب، الطبعة الأولى: ٢٠٢٠م، ص: ١٤٧).

٢ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٩٥).

٣ - انظر: الشبال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٥٠.

٤ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ٩٥ - ١٠٨.

ولقد تحقق بالفعل ما كان ينشده سلاطين المغول؛ حيث إن الراجبوت^١ المعروفون بشدة المراس^٢، في حروبهم كانوا يمحضون في تحقيق أهداف أباطرة المغول، ولا سيما في عهد أكبر، وقد أدركوا بعد أن يلوا أعلى مناصب الدولة ما للمغول من بأس و قوة، فصاروا يأترون بأوامرهم طوعا ورغبا. ولولا هذه السياسة التي اتخذتها سلاطين المغول في الهند لما خضع لهم أبدا المجتمع الهندي، ولا سيما الراجبوت، والشيخ^{٣-٤}

استطاع سلاطين المغول بدور لعبوا في السياسة أن يخضعوا أقاليم متعددة للدولة، فتضاعفت أعداد تلك الأقاليم، وزادت الولايات التابعة للحكومة المركزية في دلهي، فبهذا النهج، وهو إنشاء وحدة سياسية عامة نجحوا في السيطرة الكاملة على أراضي الهند. فعلى سبيل المثال كان عدد الولايات التابعة للدولة المغولية زمن حكم أورنجزيب إحدى وعشرين ولاية تشكل مجملها أراضي الهند الشمالية والغربية والشرقية والجنوبية، فمن تلك الولايات على سبيل المثال: كشمير، وملتان، وأجمير، والغوجرات، والله آباد^٥، والدكن، وأغرا، ودلهي، ولاهور، والسند، وبيهار^٦، وأوده^٧، ومالوا، وبيرار، وكابل، وقندهار، وبنغال.

١ - راجبوت وهم أهل الجند، ومنهم الولاة والحكام، ومعنى "راجبوت" أبناء الملوك، وقد مر فيما تقدم أن أهل الهند أربعة أقسام، ثانيهم أهل الجند. (انظر: الحسني، العلامة عبد الحي بن فخر الدين، الهند في العهد الإسلامي، الناشر: دار عرفات، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، (٨٠).

٢ - الممارسة والمعالجة. (انظر: الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، مختار الصحاح، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، (٢٩٣).

٣ - الشيخ: جماعة دينية من الهنود الذين ظهروا في نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر الميلادي، داعين إلى دين جديد، زعموا أن فيه شيئا من الديانتين الإسلامية والهندوسية، تحت شعار (لا هندوس ولا مسلمون). وقد عادى المسلمين خلال تاريخهم، وبشكل عنيف، كما عادى الهندوس بهدف الحصول على وطن خاص بهم، وذلك مع الاحتفاظ بالولاء الشديد للبريطانيين خلال فترة استعمار الهند. وكلمة شيخ كلمة سنسكريتية تعني المريد أو التابع. (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (٧٦٤/٢).

٤ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٩٥-١٠٨).

٥ - الله آباد مدينة كبرى بولاية أتربرادش في شمالي الهند، تقع عند ملتقى نهري الجانج وجمنة، وعند تقاطع الطريق الرئيسي مع السكك الحديدية التي تربط بين دلهي وكلكتا وبومباي، وهي مكونة من مدينتين في مدينة واحدة، تتكون المدينة الهندية الأصلية القديمة من منازل مكدسة محشورة في بعضها ذات أزقة ضيقة، أما المدينة العصرية التي ما زالت تتسع فقد بنيت على نط متشابك. (مجلة البحوث الإسلامية، ٣٠٩).

٦ - بهار تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الهند. تعدّ أفقر ولايات الهند. كثافتها السكانية عالية وتبلغ مساحتها ٩٤,٨٧٧ كم^٢ ويسكنها أكثر من ٦٤ مليون نسمة وعاصمتها باتنا. تنتشر فيها الأمية بنسبة ٧٥٪ ويسكنها خليط من المسلمين (١٤٪) والهندوس (٨٥٪) والنصارى والشيخ، ويعتمد اقتصادها على زراعة الأرز وصناعة الآليات الثقيلة وتعدين البوكسيت. (مجلة البحوث الإسلامية، ٤٧٢).

وقد اعترف جوستاف لولون بنفوذ المسلمين في الشبه القارة الهندية مدة سبعة قرون، فيقول ما معناه: لقد مارس المسلمون في الشبه القارة الهندية نفوذهم العميق في جميع أقطارها، كما مارسوا ذلك النفوذ في الأقطار الأخرى التي فتحوها من العالم، ولا أمة كالمسلمين تم لها من ذلك النفوذ العميق ما قد تم للمسلمين، ففي مدة سلطة المسلمين في الهند والتي دامت سبعة قرون، قد تبدل دين فريق من الشعب الهندي وكذا لغتهم وفنونهم وتقاليدهم تبديلاً عظيماً، فظل هذا التغير والتبدل بارزاً فيهم بعد زوال ملك تلك السلاطين^٢، ولأجل هذا النفوذ البالغ الذي مارسه السلاطين المغولية، اعتنق كثير من الناس الإسلام، يربو أعدادهم عن عشرات الملايين.

هذا من جهة ومن جهة أخرى استطاع سلاطين المغول بأسلوب التسامح والتعامل الحسن مع كل الأجناس أن يستقطبوا الفنانين والعلماء الكثر من البلاد الأخرى، حيث كانوا يرحبون في بلاطهم بكل من أبدى كفاءة وجدارة في فن من الفنون المختلفة، وهذا الأمر حفز الشعراء والموسقيين ورجال الدين والمحاربين والمصورين والرسامين أن ينحدروا إلى الهند من كل صوب وحذب ابتغاء المال والثراء، مثل: إيران، وأوروبا، وبلاد العرب وأفريقيا وتركيا^٣، وبذلك صار الهند ذات دولة مزدهرة وحضارة متطورة، بعد أن كانت منهمكة في حروب طويلة.

بالرجوع إلى تاريخ الهند الطويل، يتبين أن فكرة إنشاء وحدة سياسية في الهند تواجه مشاكل عديدة؛ حيث إن بلاد الهند أقرب إلى قارة منها إلى دولة، ففيها الجبال الشاخنة، وفيها الصحارى القاحلة، والسهول الخصبية، والغابات الكثيفة، فهم خليط عجيب، ينتمون إلى شعوب متنوعة، مثل: البيضاء والصفرى والسوداء، فهناك اختلاف في اللون وفي الدين والأعراف، فاجتماع أهل الهند تحت راية واحدة صعب جداً.

فمثلاً يعتبر المسلمون الهندوس عابدي البقر والصنم مشركين نجساً كفاراً، ويعتبر الهنادكة أصحاب الديانات الأخرى منبوذين نجساً، فيرفض الهندوسي أن يسمح لمسلم بزيارته، والشرب من مياهه، وشراء

^١ - أوده، هي منطقة تاريخية في شمال الهند، تشكل الآن الجزء الشمالي الشرقي من ولاية أوتار براديش. (Also known as: Avadh, Oudh) Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica
Article History <https://www.britannica.com/place/Awadh>

^٢ - انظر: جوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ١٧٣.

^٣ - انظر: الدكتور ثروت عكاشة، التصوير الإسلامي المغولي في الهند، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى: ١٩٩٥م، (٩٩/١٣).

الطعام من دكانه. فالموت للهندوس أحب من أن يمد يده إلى طعام أو شراب لمسه مسلم، ولذلك هناك طعام للمسلمين وطعام للهنداكة، شراب للهنداكة وشراب للمسلمين، صحيح أن هذه الرسوم في سبيل الانقراض بين أفراد الطبقة المتعلمة الراقية، لكن على كل حال ، هؤلاء قلة نادرة، والكراهية تأكل قلوب ثلاثة وتسعين على الأقل من الشعب الهندي. ولقد اجتهد الكثير من الفلاسفة والحكام التوفيق بين الطرفين، لكن أخفقوا في نهاية الطريق؛ لأن أوجه الخلاف بين هؤلاء مرجعها الدين، لا التقاليد والعادات فقط، فلا يمكن القضاء عليها أو تغييرها، إلا بمسح الأديان والقضاء عليها، وهذا الأمر محال، وهذا العداء الديني سيبقى إلى الأبد^١.

فلأجل هذه الأمور، اجتهد السلاطين المغولية في إيجاد حل يخفف من شدة الخصام بين أهل الهند، المسلمين وغيرهم، فوصلوا إلى أن التسامح المطلق في السياسة والتعامل مع الآخرين هو الحل الوحيد لهذه العويصة، ولا شك أن هذا الأمر يعد حلاً جزئياً مؤقتاً لا يستأصل الداء بأكمله، لكن السلطان أكبر قطع شوطاً أكبر في هذا المجال، وسعى في تقريب الأديان، وأنشأ ديناً جديداً اقتطف من كل دين ما كان يروق إليه، وسماه بالدين الإلهي، أملاً في توحيد بني التحتية للوحدة السياسية التي أقيمت في الهند.

المطلب الثالث: بذل الجهد لتحسين النظم السياسية

إن من القيم التي يجب على الدولة أن يلتزم بها هو بذل الجهد لتطوير النظم السياسية ومواكبة العصر وتطوير العلوم والفنون الجديدة، والإقبال على ما هو نافع وجديد. لكن للأسف الشديد هناك دول إسلامية وغير إسلامية لا يجذبون الترحيب بما هو غريب وجديد على ثقافتها بحجة الهرطقة^٢ والتجديف^٣.

من الأمور التي فعلها سلاطين المغول هو وضع الدساتير ليسيير عليها العمال، ويتبعونها في كافة أعمالهم، ولا شك أن هذه الدساتير تنظم شئون السياسية والإدارية، وتخلق المساواة والعدل، فمن تلك الدساتير، دستور أصدره جهانجير تحت اسم "دستور أمل" كان يتضمن اثنتا عشرة مادة وجهها إلى عماله لانتظام أمورهم، ونظم هذا الدستور وظائف الحكومة والمناصب الإدارية والمدنية والدينية والعسكرية على السواء، كما ضمن منع تطبيق بعض العقوبات، مثل: جلع الأنف وقطع الأذن أو قطع

١ - انظر: أمينة السعيد، مشاهدات في الهند، الناشر: دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، الطبعة الأولى: ١٩٤٦م، (١٣٩).

٢ - هرطقة [مفرد]: بدعة في الدين عند المسيحيين. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة (١/٣٥١)).

٣ - الكفر بالنعم وقيل هو استقلال ما أعطاه الله. (الرازي، مختار الصحاح، ص: ٥٥).

عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب. وحض على إنشاء دور الشفاء في كافة أطراف بلاده وزودها بالأطباء المتخصصين على أن تقوم الحكومة بالإنفاق على هذه الدور، فيوزع الدواء والغذاء بالمجان، وحظر على العمال استخدام أقاربهم في المناصب، أو مصاهرتهم إلى الأهلين دون إذن من الحاكم، وأمر بتعمير الأرض القفر والتي يأوي إليها اللصوص والأشرار عادة، وذلك ببناء المساجد والدور وحفر الآبار فيها حتى يأنس الناس إليها وتنقطع أيدي قطاع الطريق عنها^١. وبهذه الإجراءات استطاعت سلاطين المغول أن يعدلوا النظم السياسية الموجودة في الهند، ويبدلوا جهودهم في تطويرها.

ومن الجهود التي بذلتها سلاطين المغول في الهند لتطوير النظم السياسية، التقسيمات الإدارية؛ حيث كانت أراضي الدولة تنقسم إلى عدة ولايات، وكل ولاية إلى عدة مراكز وهكذا دواليك، وهذه التقسيمات لم تكن في الغالب معروفة للشعب الهندي، فكل هذه الأمور تدل على عبقرية السلاطين المغولية، ونباهة ذوقهم الفني والعملية.

"لم تكن الدولة الإسلامية في الهند، قبل عصر أكبر، تعرف التقسيمات الإدارية في الغالب، اللهم إلا ما ذهب إليه شيرشاه في هذا الباب من قبل، إذ كان تحديد الإقطاعات رهنا بمشيئة السلطان وحده. وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضي الدولة إلى ولايات "سبه" وكل ولاية إلى عدة مراكز "سركار" وكل مركز إلى جملة دساكر "برگنا". ورأس كل ولاية، في هذا النظام، يدعى سبهسالار، أي القائد العام، وهو نائب السلطان بها"^٢.

وقد تعددت المناصب الحكومية زمن سلاطين المغول، وأسند كل وظيفة إلى موظف خاص، فمن المناصب الموجودة زمنهم هو منصب: الوكيل المطلق، ومدار المهام، والديوان الأعلى، وصدر الصدور، وقاضي القضاة، والمحتسب، وداروغه عدالت، وديبر، وميرك توزك، ومير آتش، وميرسامان، وخانه سامان، وداروغه ابتياغ، وداروغه جواهر خانه، وداروغه كتب خانه، وداروغه غسل خانه، وداروغه عرض مكرر، وداروغه ذاك جوكي، وداروغه خواصان، وآخور بيكي، وشحنة الفيل، وكوتوال، وصوبه دار، وبخشي، وفوجدار، ووقائع نكار، وخزانه دار، وقانون كو، وديوان الحدائق، وديوان بيت المال، وبلغور خانه، ودار الشفاء وغيرها من المناصب المختلفة^٣، وهذه الأمور تدل على وجود نظام سياسي

١ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٦٥/٢ - ١٦٧).

٢ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٤٦/٢).

٣ - انظر: الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، ص: ١٥٠.

معقد ونظام إداري متطور، استطاع تلك السلاطين أن ينظموا أمورهم الكثيرة على أساس هذه السياسة ووفق تلك الإدارة.

واهتم السلاطين المغولية أيضا بصناع السلاح وتطويرها، وإدخال كل تحسين ممكن فيه، فقد احتال السلطان أكبر على تيسير استخدام قطع سلاح المدفعية الثقيلة التي يصعب حملها من مكان إلى مكان آخر، فقد وجه مصانعه إلى تصنيعها من قطع صغيرة يكون فكها وتركيبها سهلا يسيرا على الجند. وقام أكبر أيضا بتوجيه عدة مصانع لبناء السفن الكبيرة في عدة بلدان منها: لاهور وأحمدآباد وكشمير. واستخدم مهرة الملاحين والفنانين لصنع هذه السفن الحربية من الذين كانوا يفدون من ساحل كمباي والمالابار^١ وغيرها^٢. ومن هذا يتبين شغف السلاطين المغولية في تفوق نظمهم السياسية، وبذلهم الجهود المتنوعة في هذا المجال.

المطلب الرابع: الشورى

إن من القيم التي يجب على الحكام الالتزام بها، والاهتمام بشأنها، المشورة في الأمور، والأخذ برأي الآخرين فيما يسنح لهم من الأمور، فالحاكم الذي يهتم بالمشورة يقل خطأه ويندر ندمه، أما الحاكم المستبد، الذي يصير على رأيه، ولا يعبأ برأي الآخرين فليس على الصراط السوي، بل هو إلى الجور والظلم أقرب.

بعد البحث والمراجعة يتبين أن السلاطين المغولية كانوا تابعين للشورى، ولم يكونوا يترددون عن مشاورة رجالهم وعما لهم في شئون الدولة المختلفة.

"لم يكن هذا الأمير المغولي ليتردد عن مشاورة رجاله في تصريف شئون الدولة على أحسن وجه يكفل صالح الأهلين، حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أنه لم يعارض في فرض ضرائب جديدة عليهم فحسب بل ورفع عنهم كذلك قدرا مما كان يفرض عليهم من قبل"^٣.

^١ - ساحل مالابار، هو الاسم الذي طاملا أطلق على الجزء الجنوبي من الساحل الغربي للهند، تقريبا من ولاية غوا جنوبا، والتي تحدها من الشرق سلسلة جبال غاتس الغربية. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١٧, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Malabar-Coast>)

^٢ - انظر: السادتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٥٥/٢).

^٣ - السادتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٤٤/٢).

ثم إن سلاطين المغول كانوا يستشيرون النساء كما كانوا يستشيرون الرجال في تصريف شئون الدولة، وأخذ القرارات والتصاميم السياسية، فقد كان للنساء تأثير قوي في نفوس السلاطين المغولية، واتسمت كثير منهن بالصلاح والرشاد.

فحين رقى شاهجهان العرش صارت ممتاز محل له خير مرشدة وناصحة، فلم يبد منها أبدا ما كان من شأنه أن يغضب رجال الدولة أو يثير ثائرة القادة، وكانت سبب عدول زوجها عن التسامح المطلق الذي كان يصطنعه آباؤه بإزاء الهندوس والمسيحيين المبشرين وذلك بوازع من تقواها وورعها، ولعل زوجها شاهجهان إنما منع من سجود الناس له -على ما كان متبعاً منذ أيام السلطان أكبر- بوحى منها، وأيضاً حرم السلطان التطاول على مقام الخلفاء الراشدين، ومنع من إنشاء معابدة جديدة للهندوس، واتخذ التقويم الهجري في أعمال الدولة^١. فخير متاع الدنيا المرأة الصالحة المستنيرة التي تشير على زوجها ما تعمّر به آخرته.

يمكن تلخيص مفاهيم هذا المبحث فيما يلي:

١. حرص السلاطين المغول على إقامة العدل بين الرعية، مثل إنشاء "طبل العدالة" وسلاسل الشكاوى، لضمان الحق والمساواة.
٢. اعتمد السلاطين سياسة التسامح الديني والسياسي لتوحيد المجتمع الهندي المتنوع، مما ساعدهم على السيطرة على البلاد لفترة طويلة.
٣. بذل السلاطين جهوداً لتحسين الإدارة السياسية، مثل تنظيم الولايات وتطوير المناصب، مع إنشاء دساتير لتنظيم الدولة.
٤. اعتمدوا المشورة في اتخاذ القرارات، بمشاركة الرجال والنساء، مما ساهم في ترسيخ العدالة واتخاذ قرارات حكيمة.
٥. طُوّر استخدام الأسلحة الثقيلة وصناعة السفن الحربية، مما ساعد على تعزيز قوتهم العسكرية وتثبيت أركان حكمهم.

١ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٨٨/٢).

المبحث الثالث

القيم الحضارية

إن من القيم التي قد اعتنى بها الإسلام عناية كاملة ووضعها في بؤرة اهتمامه هي القيم الحضارية، فقد حافظ الإسلام على هذه القيم، ورفع قدرها ومكانتها، فلا يمكن المحافظة على تلك القيم إلا بالاستضاءة بنور الإسلام ونور الإيمان.

وبالرجوع إلى تاريخ الهند يتضح لنا أن هناك قيما حضارية نبيلة قد أحيها سلاطين المغول أو قاموا بتعزيزها في شبه القارة الهند، سيذكر الباحث نماذج من أبرز تلك القيم هنا.

المطلب الأول: السلاطين المغولية والتعايش السلمي

التعايش الديني السلمي هو فكر إسلامي أصيل، وصى به القرآن الكريم في آيات كثيرة، وبطرق مختلفة، ووضوح تام، في حين أن مفهوم "التعايش" الديني لم يكن معروفا للإنسان الذي كان يعيش في القرن الذي نزل فيه القرآن. وقد أوصى القرآن الكريم بطرق متنوعة لضمان التعايش السلمي، أهمها:

١. حرية الرأي والفكر:

أكد القرآن الكريم على مبدأ "حرية المعتقد"، وهذا لأن طبيعة القلب وقضايا الضمير قد كانت بحيث أنها لا تتركه على أي عقيدة أو فكر، قال الله - تعالى -: ﴿لَا أُغْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^١، وقال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^٢.

٢. النظر في المبادئ المشتركة

الإسلام دين التعايش السلمي مع العالم، سيما مع الأديان السماوية الأخرى من اليهود والنصارى، قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^٣.

هذه آية من أهم الآيات التي تدعو أهل الكتاب إلى الوحدة، وتعتبر لتحقيق الوحدة النقاط المشتركة بين الإسلام والأديان الأخرى.

١ - البقرة: ٢٥٦.

٢ - يونس: ٩٩.

٣ - آل عمران: ٦٤.

٣. الحوار السلمي

أيضا يوصي القرآن المسلمين بـ "الإحسان الجدلي" و "الحوار السلمي" مع أهل الكتاب ، يقول الله - تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^١.

إن القرآن الكريم ينهى المسلمين عن إهانة الكفار والمشركين وشتيمهم؛ لأنهم سيلجأون إلى نفس الطريقة في المقابل، قال الله - تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^٢.

يتطلب الإسلام مراعاة مبادئ المداراة والعفة والتأدب في التعبير، حتى ضد أشد الأديان الشريكية وأسوأها؛ لأن كل جماعة وأمة عقائدية يتعصب في معتقداتها وأفعالها، فالمعاملة القاسية والعنف تجر إلى التعصب الشديد في الدفاع عن معتقداتهم.

تعتبر معاهدة التعايش السلمي أهم من عقد الذمة، وهذه المعاهدة هي التي تتم بين المسلمين، وغيرهم على أساس آخر غير عقد الذمة لصيانة السلم، والأمن الداخلي - في دار الإسلام - دون التزام دفع عوض مالي للمسلمين.

والمقصود من هذه المعاهدة هو تأمين غير المسلمين على أنفسهم، وأموالهم، وعقد تحالف، وتناصر، وتعاون متبادل بين المسلمين، وغيرهم في دار الإسلام، دون تحديد بمدة، من أمثلة ذلك: أن النبي - صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة - كان أول عمل سياسي عمله هو أنه عاهد القبائل التي سكنت ما بين المدينة، وساحل البحر الأحمر، وغير ذلك من قبائل.

وما كاد يستقر النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة؛ حتى عقد صلحا دائما آخر مع طوائف المدينة، وفق فيه بين الأوس، والخزرج على أساس حسن الجوار، ومع اليهود أيضا؛ فأقرهم فيه على دينهم، وعلى أموالهم، فكانت هذه المعاهدة أول معاهدة سلمية - بالمعنى الصحيح - بين المسلمين وقبائل المدينة، وبين اليهود - بفرقهم المختلفة - حرم فيها الاعتداء بين أطراف المعاهدة، والتزموا بالتعاون والتضامن لدرء العدوان الخارجي، وعقدوا بما يشبه التحالف الدفاعي المشترك بين شعبين، وأوجبوا على أنفسهم المساهمة في الإنفاق المشترك في سبيل الدفاع، ونحو ذلك؛ مما ينظم صلات المسلمين مع بعضهم،

١ - العنكبوت: ٤٦.

٢ - الأنعام: ١٠٨.

وصلاتهم بغيرهم كأهم، أو شعوب متجاورة، وذلك يعد نموذجًا طيبًا للمبادئ الرائعة في تنظيم حالة السلم، والأمن الدوليين^١.

وعلى هذا الأساس تعتبر الدولة المغولية التي أسسها الملك ظهير الدين محمد بابر (٩٣٢- ١٢٧٤هـ) المملكة الأخيرة للمسلمين في الهند، والتي وصلت بالحكم الإسلامي إلى أرقى صوره وأقوى نفوذ له واهتمت اهتماما بالغا بالتسامح الديني والتعايش السلمي بين أهل الأديان المختلفة والشعوب المتنوعة في شبه القارة الهندية. ويعتبر ظهير الدين بابر من أعظم سلاطين إمبراطور المغول في الهند، فمنذ ولي العرش في العام ٩٣٢هـ، وحتى عام ٩٣٧هـ ، بدأ يتجه للإصلاحات الداخلية^٢.

وامتاز بالنشاط والحزم والعزم ، وهي الصفات التي امتاز بها في نضاله الحربي ، فقد جعل من عاصمته أجرا مدينة جميلة تتخللها الحدائق النضرة والقصور الفخمة والحمامات والصهاريج والقنوات المائية ، وأصدر بابر أوامره بترميم المساجد وأقام المحارس ومراكز البريد على مسافات متساوية ، وأنشأ نظاما لنقل البريد السريع بين كابل وأجرا ، وكان ينتقل خلال ملكه الجديد في الهند ليتفقد أحوال الرعية بنفسه ، وكان يدعو إلى السلم والتسامح والتعايش السلمي فجذب بذلك قلوب رعاياه من المسلمين والهنود وغيرهم ، وبدأوا يطمئنون لحكمه.

وإن وصيته السرية بـ اسم «وصيتنامه مخفي» التي تركها لابنه وخليفته همايون لتبين في وضوح سياسته في الحكم ، والإدارة وهي السياسة التي تدعو إلى السلام ، وتجعل التسامح الأساس الأول للحكم المغولي في الهند ، فهي بذلك تدل على عبقرية واضعها الإدارية، ولأهمية هذه الوصية ، ولأنها وثيقة تاريخية فريدة تدل على أن واضعها رجل من رجال الحكم المستنيرين فقد آثرنا إثبات طرفا منها هنا.

«الحمد لله» وصية سرية من ظهير الدين محمد بابر باد شاه غازي إلى الأمير ناصر الدين محمد همايون ، أطال الله بقاءه. من أجل استقرار المملكة كتبت هذه الوصية: أى بني: إن دولة الهند مليئة بالعقائد المتباينة ، والحمد لله الحق العلي المجيد أن وهبك ملكها ، وإنه لمن الصواب أن تقدم بقلبك خال من كل تعصب ديني على نشر العدل تبعا لعقائد كل جماعة من الناس، وبوجه خاص أن تمتنع عن ذبح البقر، فإن هذا هو السبيل لامتلاك قلوب الشعب في هندستان، ورعايا مملكتك سيخلصون لك الإخلاص كله إذا أحسوا منك حدبا وعظفا، والهياكل وأماكن العبادة التابعة لكل فرقة دينية تحت

^١ - انظر: مناهج جامعة المدينة العالمية، السياسة الشرعية، المرحلة: ماجستير ، الناشر: جامعة المدينة العالمية، (٧٨٤).

^٢ - انظر: النمر، عبد المنعم ، تاريخ الإسلام في الهند، ص: ١٧٧.

حكمك يجب أن لا تحربها... تجاهل النزاع والتخاصم بين الشيعة والسنة ، ففي هذا منبت الضعف في الإسلام ، وضم الرعايا من مختلف العقائد حول الأسس الأربعة بحيث يصبح كيان الدولة محصنا ضد عوامل الضعف المختلفة^١.

وقد كان ابنه الملك همايون يجتهد في طريق ما وصى به أبوه فكان يعامل مع رعاياه بالرفق والمروءة والتسامح ، وبعدما ولي ابنه محمد أكبر الحكم أخضع الكثير من الإمارات الهندية تحت سطوته في الشمال والجنوب، ففي عام ٩٧٠هـ انفرد جلال الدين أكبر بحكم شبه القارة الهندية؛ فبدأ عهداً جديداً، وقرب إلى جانبه زعماء الهنادكة، وعهد إليهم بأعلى المناصب في الدولة، خشية وقوع الفتن الطائفية، فكان لا يفرق في المعاملة بين المسلمين والهنادكة، إلى حد زاد فيه من عدد الأمراء الهنادكة في بلاطه من الأمراء المسلمين، وكان من نتائج هذه السياسة أن انضم إليه الهندوس، وتفانوا في خدمته^٢.

فبهذه السياسة استطاع السلطان أكبر أن تفادى النزاع والاضطراب الموجود بين المسلمين والهندوس، فأصبح رقعة دولته متسعة جداً، وانضم إليها أماكن كثيرة.

وأيضاً إن الملك أورنجزيب كان يؤكد على التعايش السلمي والتسامح كما ثبت عنه أنه وظف خلقاً كثيراً من العلماء والمشايخ لكي يشتغلوا بالعلم والعبادة منقطعين فارغي القلوب عن كل هم ولم يفرق فيها بين أهل الإسلام وكفار الهند، توجد مناشيره عند أحبار الهنادك في فارناسي^٣ وفي غير تلك البلدة حتى اليوم^٤.

ومن هذه الأمور يستنتج أن تأمين التعايش السلمي والعيش تحت ظل السلام كان من أولويات هذه السلاطين، ولأجل ذلك استطاعوا تحقيق الأمن في البلاد، وإنهاء الصدام والتشاكس والتناحر بين مختلف الأقصاع، وسوق البلاد نحو الازدهار والرفاهية، والتطور الإيجابي السريع.

١ - انظر: الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، (٣٣/١).

٢ - انظر: حازم محفوظ: ازدهار الإسلام في شبه القارة الهندية ص ٥٦.

٣ - فارناسي، مدينة في جنوب شرق ولاية أوتار براديش، شمال الهند. تقع على الضفة اليسرى لنهر الغانج (غانغا) وتُعد واحدة من المدن السبع المقدسة في الهندوسية. عدد السكان (٢٠٠١) المدينة: ١,٠٩١,٩١٨؛ تجمع حضري: ١,٢٠٣,٩٦١؛ (٢٠١١) المدينة: ١,١٩٨,٤٩١؛ تجمع حضري: ١,٤٣٢,٢٨٠. (Also known as: Banaras, Benares, Kashi Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٤,

٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Varanasi>)

٤ - انظر: الحسن الطائي، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٤٤١/٦).

المطلب الثاني: السلاطين المغولية الإسلامية وتحقيق الأمن

يعتبر الأمن من أهم مطالب الحياة، ولا شك أن مطالب الحياة لا تتحقق إلا بتوفره، حيث يعتبر الأمن ضرورة لكل جهد بشري، فردي أو جماعي، لتحقيق مصالح الأفراد والجماعات والشعوب. ومن الجدير بالذكر أن الأمن الكامل لا يحصل للإنسان بمجرد ضمان أمنه على حياته فحسب، بل له معنى شامل في حياة الإنسان، فهو كذلك يحتاج إلى الأمن على عقيدته التي يؤمن بها، وعلى هويته الفكرية والثقافية، وعلى موارد حياته المادية.

والأفراد والجماعات والشعوب والدول، تحتاج - فضلاً عن الحفاظ على أمنها الخارجي - إلى ضمان أمنها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ودون أن يتحقق لها ذلك، لا تتمكن من النهوض والتطلع إلى المستقبل، بل يظل الخوف مُهيمناً على خطواتها، ومقيداً لتطلعاتها^١.

فقد وضح لنا مما ذكرنا أن الإسلام دين يدعو إلى الأمن في كل مجالات حياة الإنسانية وقد وضع أسساً تضمن الأمن لكل إنسان في الدولة الإسلامية، سواء أكان مسلماً، متبعاً لهذا الدين أم كان غير مسلم، وهذا لأن الأمن مطلب للإنسان الذي كرمه الله، وهو نعمة تعم الناس جميعاً في المجتمع المسلم. فأحكام الإسلام المنزلة من الله تعالى، والمبينة بسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم، تدل على أن أمن غير المسلم - الذي يعيش في المجتمع المسلم - على نفسه وماله وعرضه، مضمون ما دام ملتزماً بما تقضي به تلك الأحكام^٢.

وقد تكفل أحكام ديننا الحنيف، أن يتمتع غير المسلم الذي يعيش في المجتمع المسلم بالأمن على حياته وماله وعرضه، وهذه الحماية مستمرة، سواء أكان من المعاهدين والمستأمنين أم من أهل الذمة، ما داموا ملتزمين بالعهد، مؤدين ما اشترطه الإسلام عليهم.

والذمة معناها: العهد والضمان والأمان، فلهم عهد الله ورسوله، وعهد جماعة المسلمين، أن يعيشوا في حماية الإسلام، وفي كنف المجتمع المسلم، آمنين مطمئنين، فهم في أمان المسلمين وضمانهم. وتشمل حماية غير المسلمين في المجتمع المسلم، الحماية من العدوان الخارجي والظلم الداخلي، أي داخل المجتمع المسلم، وتعني دفع كل اعتداء عليهم، وتأمين أنفسهم وأبدانهم وأعراضهم وأموالهم وحقوقهم، التي تكفلها لهم الشريعة.

^١ - انظر: التركي، عبد الله بن عبد المحسن، الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، الناشر: وزارة الأوقاف السعودية، (٨).

^٢ - انظر: المرجع السابق، (٨).

ويتولى ذلك إمام المسلمين وولي الأمر في المجتمع المسلم، أو من ينوب عنه. فأمن الذمي على نفسه وبدنه، مضمون بالشريعة؛ لأن الأنفس والأبدان معصومة باتفاق المسلمين، وقتلهم حرام بالإجماع. يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^١.

وذهب الشعبي وأبو حنيفة، إلى قتل المسلم بالذمي، لعموم النصوص الموجبة للقصاص ولاستوائيهما في عصمة الدم المؤبدة، وتقطع يد المسلم بسرقة مال الذمي، مع أن المال أهون من النفس، والمال الذي يعد ذا قيمة عند غير المسلمين، كالخمر والخنزير، لا يحل للمسلم إمساكهما، أما إذا أتلف المسلم ما يملكه الذمي من خمر أو خنزير، فإن الإمام أبا حنيفة، يرى أن يعرض الذمي عنهما. وجاء في " الدر المختار " من كتب الحنفية: «ويضمن المسلم قيمة خمره وخنزيره إذا أتلفه وتجب الدية عليه إذا قتله خطأ ويجب كف الأذى عنه ، وتحرم غيبته كالمسلم»^٢.

لا شك أن كل دولة تسعى في سبيل ازدهارها في المجالات المختلفة من الحضارة ، والسياسة ، والتفوق العسكري لا يمكن لها الوصول إلي هذه الأهداف السامية إلا بأشياء ثلاثة ، وهي الأمن ، والقوة ، والعلم.

وعلى ما ذكرنا فإن أحد الأسس الركائز في تقدم الإمبراطورية المغولية وتفوقها في مجالات المختلفة السياسية ، والاقتصادية ، والحضارية كانت منبعثة من جهودها في سبيل تحقيق الأمن وحفظه لكل أحد من المواطنين والمعاهدين، فيجدر للباحث أن يذكر في هذا المجال بعض ما يدل على اهتمام سلاطين المغولية بالأمن والسلم.

إن سلاطين المغول قد بذلوا جهوداً جبارة في سبيل تحقيق الأمن الحقيقي والسلام في أرض الهند وحاربوا كل من كان يريد أن يهدد أمن المواطنين وسلامتهم.

فهذا السلطان محمد ظهير الدين بابر حكم للهند لمدة قصيرة تقل عن خمس سنوات، فقد جعل من عاصمته أجرا مدينة جميلة تتخللها الحدائق النضرة والقصور الفخمة والحمامات والبحار والبحيرات والقنوات

١ - انظر: البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري ، تحقيق وتعليق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، رقم الحديث: ٣١٦٦، (٩٩/٤).

٢ - انظر: ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي رد المختار على الدر المختار ، الناشر: دار الفكر - بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، (١٧١/٤).

المائية ، وأصدر بابر أوامره بترميم المساجد وأقام المحارس ومراكز البريد على مسافات متساوية ، وأنشأ نظاما لنقل البريد السريع بين كابل وأجرا ، وكان ينتقل خلال ملكه الجديد في الهند ليتفقد أحواله بنفسه ، فجذب بذلك قلوب رعاياه من الهنود ، وبدأوا يطمئنون لحكمه، فقسم الملك بابر المملكة إلى إقطاعات، ووزعها على قواده^١.

ولا شك أن ما ذكرنا من إعمار المدينة ، والقصور ، وإنشاء نظام نقل البريد ، وتفقد أحوال الرعية، تعين على إقامة الأمن والسلام في البلاد أولا، وتنبئ عن تحقيق الأمن الكامل في شبه القارة الهندية ثانيا. وما يدل على أن الملك بابر كان يهتم بسياسة الأمن والسلم والاطمئنان لرعاياه ، وصيته السرية التي كانت معروفة باسم «وصيتنامه مخفي» وقد بين فيه سياسته في الحكم المبنية على السلام والأمن والتسامح وعدم التعرض والتدخل في النزاعات الدينية والمذهبية ، وتعد هذه الوصية وثيقة تاريخية لسلطين المغول ، وقد طبق هذه الوصية من ولي الحكم بعده من سلالاته في سياساتهم وإدارتهم ، وهذه الوصية كما تؤكد على التعايش السلمي ، تؤكد على كل عمل يعود بالأمن على الشعوب المواطنين، وتنتهي وتحرم كل عمل يهدد أمنهم وسلامتهم، وقد مر ذكر هذه الوصية في المطلب السابق.

ثم إن من الدلائل التي تدل على اهتمام السلطين المغولية بتحقيق الأمن والدفاع عنه واجتهادهم في سبيله ، صرف مبالغ كبيرة للأمن والسلامة وجمع كمية كثيرة من العساكر للدفاع عن الرعية ، وهذا الأمر يدل على عنايتهم البالغة بالسلام والأمن.

أما كمية العساكر الإسلامية بأرض الهند في أيام شاهجهان التيموري كانت مائة ألف من الفرسان وثمانية آلاف من أهل المناصب ، وسبعة آلاف ممن يسمونه : «برق انداز» وكانوا فرسانا ، وثلثين ألفا من أهل البندقيات والمدافع وبان ، ويسمونهم على الترتيب «تفنججي» و «توبجي» و «كوله انداز» و «باندار»^٢.

الدولة في العادة تقوم على عساكرها وجنودها، فماداموا في بؤرة اهتمام الملك والسلطان، يزيد قوتهم، ويتيسر عليهم تحقيق الأمن في البلاد، ولم يكن السلطين المغولية ييخلون بصرف الأموال للعساكر والجنود، ولأجل ذلك فاقوا في الازدهار والتطور على كثير من أقرانهم.

^١ - انظر: الشيال، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، (٣٢/١).

^٢ - العمارة الإسلامية أحد المظاهر الحضارة التي ميزت التاريخ الإسلامي ، مقالة تصدرها جريدة البيان - دبي ٢٠١١م.

ولأهمية الأمن عند ملوك المغولية اهتموا اهتماما بالغاً بالقوة البحرية فكانت القوة البحرية في أيام شاهجهان مؤلفة من ألف فلك ، وفي كل منها سبعون أو ثمانون رجلاً من الملاحين ، وطائفة من «تفنجكي» و «كولنداز» و «توبجي» و «تير انداز» و «باندار» وأهل السيف، ومن أهل الطبول ، والأبواق ، والأنفار والصرنايات ، ومن النجارين والحدادين وغيرها من أصناف المحترفة ، وكان مجموعهم سبعين ألفاً من الناس ، يرزقون من الخزانة السلطانية ، وتلك البحرية كانت في «بنكاله» ، وكانت رواتبها تعود إلى محاصيل تلك الأرض^١.

ولما كان الأمن والصلح والسلام من الأمور الأساسية عند الأباطرة المغولية الإسلامية ، بنوا أبنية حربية للدفاع عن المملكة ومدنها ، ومما لا شك فيه أن العمارة الحربية هي أهم فروع العمارة الإسلامية في الهند ، أنشئت للأغراض الدفاعية والحربية؛ من أجل حماية حدود وأطراف الدولة من أية مخاطر داخلية أو خارجية ، وتعد العمارة الحربية نوعاً من الدروع المعمارية الضخمة ، وقد تنوعت العماثر الحربية الإسلامية ما بين القلاع الكبيرة والحصون الصغيرة وأسوار المدن وبواباتها، وهذه القلاع والحصون تميزت بالكثير من العناصر المعمارية والسماط التي اختلفت من عصر إلى آخر، والتي تميزت عن مثيلاتها في الدول الأخرى لاسيما الأبراج والأسوار وغيرها من عناصر العمارة الحربية ، التي تميزت بفخامتها وضخامتها^٢. فقد بنوا قلاعاً حصينة وأسواراً رفيعة ما استطاع أحد أن يظهرها وما استطاعوا لها نقباً.

المطلب الثالث: السلاطين المغولية الإسلامية واهتمامهم بتحقيق الحرية

مما لا شك فيه أن الإسلام جعل حرية الأفراد في بؤرة اهتمامه، فأعلن حرية التفكير، وحرية الاعتقاد، وحرية العلم، وحرية التملك.

فعندما جاء الإسلام، أعلن حرية التفكير، فحرر العقول من الأوهام والخرافات والتقاليد داعياً إلى نبذ كل ما لا يقبله العقل السليم. ويعيب القرآن على الناس أن يلغوا عقولهم، ويعطلوا تفكيرهم، ويقلدوا غيرهم، ويؤمنوا بالخرافات والأوهام، ويتمسكوا بالعادات والتقاليد، دون تفكير فيما يأتون وما يدعون، ونصوص القرآن صريحه في تقرير هذه المعاني.

١ - المرجع السابق.

٢ - المرجع السابق.

ومما لا شك فيه أن شريعة الإسلام هي أول شريعة أباحت حرية الاعتقاد، وعملت على صيانة هذه الحرية وحمايتها إلى آخر الحدود. فلكل إنسان طبقاً للشريعة الإسلامية أن يعتنق من العقائد ما شاء، وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته أو اعتناق غيرها.

والإسلام لا يكتفي بأن يقرر حرية التعليم، بل يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وإذا كان الإسلام قد جعل طلب العلم فريضة ووضع العلم هذا الموضع السامي فقد أصبح من واجب كل فرد أن يتعلم ما استطاع للعلم سبيلاً، ووجب على الحكومة الإسلامية نشر العلم والقيام على أمره وتمكين الجميع منه. ولقد سن الرسول - صلى الله عليه وسلم - للحكومة الإسلامية كل هذا يوم جعل فداء الأسرى، المتعلمين، أن يعلم كل منهم عدداً من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة^١.

وكذلك قد ضمن الإسلام حرية التملك لكل أفراد المجتمع، للرجال، والنساء، والمسلمين، وغيرهم من أهل الذمة والمستأمنين، فهم أحرار في نشاطاتهم التجارية وأمورهم المالية. وانطلاقاً من هذه المبادئ سيذكر الباحث موقف السلاطين المغولية من أنواع الحريات، من العقيدة، والتعليم والتملك.

أولاً: حرية العقيدة في إمبراطورية المغولية الإسلامية

كانت أرض الهند مقراً للديانات المختلفة ومعظم أهل الهند كانوا معتقدين بديانة الهندوسية التي يطلق عليها أيضاً البرهمية وهي ديانة وثنية، ومجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر. إنها ديانة تضم القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله^٢، وسلاطين المغول قد أباحوا لكل الناس حرية العقيدة ولم يجيزوا لأحد أن يكره أحداً لترك عقيدته، وكان لهؤلاء الهندوس معابد كثيرة في كل بلاد الهند، وقد كانوا يؤدون طقوسهم وعباداتهم الدينية وفقاً لما يعتقدون في معابدهم بكل حرية.

فهذه السلطان محمد ظهير الدين بابر حكم للهند لمدة قصيرة تقل عن خمس سنوات، فقد كانت سياسته مبنية على صيانة حرية العقائد لكل الشعوب وقد طبق هذه السياسة إلى آخر حياته، وكتب في آخر أيام حياته وثيقة تاريخية باسم «وصيتنامه مخفي» وقد بين فيه سياسته في قضية الحراسة عن حرية

^١ - انظر: عودة، الدكتور عبد القادر، الإسلام وأوضاعنا السياسية، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، (٢٧٢ - ٢٦٦).

^٢ - انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (٢/٧٢٧).

العقيدة وعدم التعرض والتدخل في النزاعات الدينية والمذهبية ، وقد مر نص هذه الوصية في هذا المبحث.

وأيضا سار همايون وسائر سلاطين المغول على هذا المنهج ولم يحك أحد من المؤرخين عن أحد من هؤلاء السلاطين عملا، أو فرمانا ينبئ عن عنف واضطهاد ضد فرقة دينية غير إسلامية، وكان الملك أكبر أشد اهتماما بالصيانة والحماية عن حرية عقائد الفرق الدينية، حتى أنه بنى قصراً وسماه "عبادت خانة" وقسمه على أربعة منازل وأمر أن يجتمع فيه علماء البراهمة والنصارى والمجوس وأهل الإسلام، فيجتمعون في ذلك القصر ويباحثون في الخلافات بحضرة السلطان، والسلطان يحتظ بالمبحث^١.

ثانيا: حرية التعلم في إمبراطورية المغولية الإسلامية

إن من القيم التي نجدها في تاريخ السلاطين المغولية، هي إعلان حرية التعلم لكل الناس، سواء كانوا من المسلمين أو الهندوس-، فهناك شواهد تدل على هذا الأمر، سيتصدى الباحث بذكر أبرزها. إن السلاطين المغولية كانوا يقومون بإعطاء الهبات والهدايا لجماعات من المدرسين والعلماء الذين كانوا أساتذة في الجامعات والمدارس المختلفة، حتى إن بعض المدرسين كانوا يتلقون الراتب من هؤلاء السلاطين، ولا شك أن المشاكل الاقتصادية تعتبر مانعا كبيرا للمعلم والمتعلم من التعليم والتعلم، فكم من طالب ترك التعلم، وكم من مدرس ترك التدريس لأجل ظروفه الاقتصادية.

ومن الأمور التي تشهد في هذا المجال أنه صار التعليم في ذلك الوقت مجانا وعاما، وقام السلاطين بإجبار الشعوب وأصحاب الديانات المختلفة على إلحاق أبناءهم بالمراكز التعليمية، فهذا له دلالة واضحة على اهتمام السلاطين بالتعليم، وحث الناس وترغيبهم بنشر العلم بين أبناء الشعب ، وإعداد البيئة للتعلم وكسب العلم لكل أحد من المواطنين.

ولم يقتصر هذا على أبناء المسلمين، بل كان الهندوس أيضا يرغبوا في التعلم، حيث إن التعليم في المدارس زمن إمبراطورية المغول كان متاحا لأبناء الهندوس أيضا، ولم يميز المسلم عن الهندوسي في التعلم، ولهذا الأمر برز شخصيات هندوسية في سماء العلم والأدب، وقد اعترف كتاب الهندوس أنفسهم بهذه

^١ - انظر: الحسني ، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (٤٩٦/٥).

الحقيقة، وامتدحوا هذا الأمر، وعدوه خطوة على جانب كبير من التسامح والتطور في الأخلاق والقيم الإنسانية^١.

وهذا الأمر يفهم من كلام جوستاف لوبون: حين يعترف بقوله: "والمسلمون، حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب، أدخلوا معها رغبة كبيرة في العلوم والآداب والفنون، وما شادوه في عواصمهم: أحمد آباد وغور ودلهي وفيجاورا... من المباني ينطق بعظيم حمايتهم للفنون، وما انتهى إلينا من تراجم ملوك المسلمين يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يشجعون الآداب والعلوم أيضا، وأنهم كانوا يتعهدونها بأنفسهم، ليس ذلك في كبرى الممالك وحدها، بل في صغرها أيضا... وعلى تلك السُنَّة سار سلاطين المغول، وهي التي كانت مشتركة بين جميع الدول الإسلامية في أوروبا وآسيا وأفريقيا"^٢.

ثالثا: حرية التملك في إمبراطورية المغولية الإسلامية:

كانت الإمبراطورية المغولية الإسلامية أعطت الحرية للشعوب في أن يملكوا ما يشاءون من العقار والمنقول والأشياء ذات القيمة، فلكل مواطن أن يملك أي قدر شاء من الأموال على اختلاف أشكالها وأنواعها ، وعلى أن ينتفع منها كيف ما شاء بعد الالتزام بمبادئ الشريعة الإسلامية والقوانين الحكومية^٣، وكان الناس في أرض الهند -مع كونهم أحرارا في تملكاتهم- يعتمدون بشكل أساسي على الزراعة ورعي الأغنام وتربية الخيول والمواشي وكانت هذه هي الموارد الأساسية التي يحصلون عليها.

والناس اعتمدوا على نظام اقتصادي يركز على الاقتصاد الزراعي والرعي والتجارة، حيث كانت الأموال تتداول بشكل كبير في الإمبراطورية بسبب العلاقات التجارية الكثيرة التي أقاموها مع دول أوروبا وآسيا وأفريقيا كما اعتمدوا على الإنتاج الصناعي البسيط مثل النسيج والأحذية لتلبية احتياجاتهم اليومية، وكانت الأسواق مظاهر مشهورة في الإمبراطورية المغولية ، حيث كانت تشهد حركة تجارية كبيرة للبضائع والمنتجات المختلفة.

الآثار الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية المغولية الإسلامية:

الإمبراطورية المغولية كان لها آثار اقتصادية كبيرة على المناطق التي ضمتها. بعض هذه الآثار تشمل:

^١ - الندوي ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص ٢٢٩ ؛ بخش ، أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية ، ص ٨٥.

^٢ - غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٣٣٣.

^٣ - انظر: عودة، الدكتور عبد القادر ، الإسلام وأوضاعنا السياسية، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان ، عام النشر: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، (٢٧٢ - ٢٦٦).

١- التجارة والاتصالات: قامت الإمبراطورية المغولية الإسلامية بتوسيع الطرق التجارية وتحسين وسائل الاتصال بين الشرق والغرب . كما أنها أنشأت شبكة من البريد السريع يعتمد على الخيول لتسهيل التواصل ونقل الرسائل والمعلومات.

٢- الزراعة والرعي : كانت الإمبراطورية المغولية تشجع الزراعة والرعي وتطوير التقنيات الزراعية. تم توسيع المزارع وتحسين طرق الري وتقديم تقنيات جديدة لمحاصيل الزراعة.

٣- التسامح الديني: كانت الإمبراطورية المغولية الإسلامية تتبنى سياسة التسامح الديني وتحترم الأديان المختلفة . هذا ساعد في تعزيز التجارة وتبادل الأفكار والثقافات بين الشعوب المختلفة.

٥- الثقافة والفنون : تعزز الإمبراطورية المغولية الإسلامية الفنون والثقافة واستضافت العديد من العلماء والفنانين والأدباء في العاصمة الرئيسية للإمبراطورية^١.

المطلب الرابع: السلاطين المغولية الإسلامية واهتمامهم بالقيم الجمالية

إن هناك أنواعا عديدة للقيم الحضارية في الإسلام، ومن أنواعها الجمال، فالجمال سمة واضحة في الصنعة الإلهية، ونحن نرى الجمال ونجده في صنع الله، سواء كان سبب الجمال لونه أو صوته أو فؤاده، فالجمال آية من آيات الله التي أودعها في خلقه.

وإذا رجعنا إلى الآثار التي تركتها الإمبراطورية المغولية الإسلامية في الهند نجد فيها القيم الجمالية بشكل واضح وجلي. وهنا يذكر الباحث بعض الأمور التي تدل على اعتناء أباطرة المغول بالقيم الجمالية.

من منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دلهي الجديدة التي عرفت في عهده باسم شاهجهان آباد، والتي خططها على أحسن نمط في عصره وأقام بها عدة قصور فخمة له ولأمرائه، وخص التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقاشين وغيرهم، كل فريق منهم بمحلته، ليهيروا من بعد ذلك بمنتجاتهم ورواء مدينتهم أنظار الأوروبيين الذين زاروها إذ ذاك. ونالت أغرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى أشاد الرحالة الألماني مندلسلو بنظافة طرقها الممهدة وجمال أبنيتها واتساع رقعته، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجدا وثمانمائة حماما^٢.

^١ - انظر: الندوي، الهند في العهد الإسلامي، (٣٢٧-٣٣٠).

^٢ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٣١٣/٢).

وكانت السمة البارزة لروعة التصاوير التي رسمتها الإمبراطورية المغولية الإسلامية وجمالها هو تبجيل تلك التصاوير من قبل الغربيين، وكان هذا من أسباب إقبالهم على هذا الفن. لقد مهدت أسباب سياسية واقتصادية لأوروبا أن تقع على التصوير المغولي وإذا هو ينال إعجابها. وكان الفنان الهولندي رمبرانت أول من أعجب بهذا الفن ... وكما أعجب رمبرانت بالتصاوير المغولية كذلك أعجب بها عدد من الفنانين الإنجليز، ولعوا هم الآخرون بهذا الفن، وعلى رأسهم المصور والناقد الفذ جوشوا رينولدز^١.

أولاً: الدقة والرفافة

كان الأباطرة حريصين على إتقان وتجميل المخطوطات لتوفير المتعة التي كانوا يسعون إليها. ونتيجة لذلك، قل عدد المخطوطات، لكنها أصبحت أكثر أناقة وتفصيلاً. وهذا التحسين في إعداد المخطوطات تطلب بلا شك وقتاً أطول من الفنانين. ففي حين استغرق الفنان عبد الصمد نصف يوم لإنجاز صفحة واحدة في عام ١٥٥١م، تطلب العمل على مخطوطة بابر لعام ١٥٨٩م نحو خمسين يوماً. وبالمثل، استغرق إعداد منمنمة دقيقة في مخطوطة بادشاه نامه لعام ١٦٣٩م حوالي عامين^٢.

يعلم من هذه العبارة أن أباطرة المغول كان يهتمون بالجمال، وكانوا يجتهدون في تطوير هذا الفن شيئاً فشيئاً، فصارت بؤرة اهتمامهم الدقة في التصوير وبذل اللطافة والرفافة في رسم المنمنمات (رسم دقيق على مخطوطة مزخرفة) والبورترية (رسوم لأشخاص) المختلفة.

"كان جهانجير بلا ريب عاشقاً للفن يؤثر الكيف على الكم على الضد من أبيه الذي ملأ المرسم الملكي بكثرة من الفنانين، فما إن اعتلى جهانجير العرش حتى تخلص من جملة منهم. وقد خالف فنانو جهانجير النهج الذي انتهجه مرسم أبيه أكبر من الالتزام في تصاويرهم بالقوة دون الرفافة، فإذا الابن يترسم خطى أخرى فيؤثر الرفافة على القوة باستخدام ألوان وادعة وإيقاعات أقل عنفاً وتصميمات أكثر تنغيماً. هذا إلى أن تصوير البشر والحيوان أخذ في عهده طابعاً أشد عمقا وأكثر جهداً. فعلى حين أطلق أكبر العنان لمصوريه يصورون ما تقع عليه أعينهم ولا سيما الطير والحيوان والبورترية عن موضوعية واقعية، إذا هم في عهد الابن يلبون نزواته وطيشه"^٣.

^١ - انظر: د. ثروت عكاشة، التصوير الإسلامي المغولي في الهند، (١٢٠).

^٢ - انظر: المرجع السابق، (٨٥).

^٣ - المرجع السابق، (١١٨).

فكما مر سابقا، فهذه العبارة تشهد أيضا أن أباطرة المغول كانوا يبذلون جهودا جبارة للالتزام في التصاوير والمنمنمات بالرهافة واللطافة، واستخدموا ألوانا وإيقاعات جذابة تكون أشد عمقا. بعد مراجعة المصادر التاريخية في هذه القضية، نرى أن أباطرة المغول قد حيروا عقول الغربيين بإنجازاتهم الفذة المتصفة بالدقة واللطافة والرهافة.

تُروى حكاية أنه في السادس من أغسطس ١٦١٦م، قدم السفير البريطاني سير توماس رو صورة لجهانجير، وهي من عمل مصور بريطاني، وادعى أنه لا يوجد مصور مغولي أو هندي يستطيع محاكاتها. رد جهانجير بفخر بأن مصوريه يمكنهم تقليدها بشكل لا يمكن تمييزه عن الأصل. وفي مساء اليوم ذاته، قدم جهانجير للسفير خمس نسخ من الصورة نفسها من عمل أحد مصوري البلاط، وتحدى السفير أن يميز بينها وبين الأصل، فلم يتمكن السفير من التفريق بينها^١.

تجسد هذه الحادثة اهتمامًا عميقًا بالقيم الجمالية والفنية. حيث إن الفنانين في عهد أباطرة المغول تمكنوا من محاكاة الصورة إلى درجة لا يستطيع السفير التفريق بينها وبين الأصل. هذا التحدي الجمالي بين الثقافات يعبر عن مدى الفخر بالقدرة الفنية والإبداعية، ويبرز أهمية الفن كوسيلة للتعبير عن القوة الثقافية. القيم الجمالية هنا ليست فقط في دقة المحاكاة، بل في التحدي والمنافسة الزهية التي تعكس روح الابتكار والإبداع.

قام شاه جهان ببناء ضريح ضخّم لزوجته الحبيبة "ممتاز محل"، وهذا الضريح يعرف اليوم باسم "تاج محل". العديد من مهندسي العمارة يعتبرون هذا الصرح من أعظم الأعمال المعمارية على وجه الأرض. ورغم أن "تاج محل" ليس أكبر المباني، إلا أنه الأجل بينها. عن بُعد، قد لا يبدو عظيمًا، ولكنك تشعر بجماله الحقيقي عند الاقتراب منه والنظر إليه بتفاصيله الدقيقة. في عصرنا الحديث، حيث تُبنى الأبنية العملاقة ذات الطوابق المائة في غضون عام أو عامين، نتذكر أن بناء تاج محل استغرق ٢٢ عامًا وشارك فيه ٢٢ ألف عامل. عندما نفكر في هذا، ندرك الفرق بين الصناعة والفن، وربما تكون العزيمة الكامنة في تصميم وبناء "تاج محل" أكثر عظمة وعمقًا من تلك التي تُنسب إلى أعظم الفاتحين^٢.

ف قصة بناء تاج محل تبرز مدى اهتمام أباطرة المغول بالدقة والجمال بطريقة رائعة. فالتجربة الطويلة التي خاضها العمال في بنائه، والتي استغرقت ٢٢ عامًا، تعكس تفانيًا مذهلاً ودقة لا مثيل لها. التفاصيل

^١ - انظر: د. ثروت عكاشة، التصوير الإسلامي المغولي في الهند، (١٢٠).

^٢ - انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، الهند وجيرانها، (٣٩٧).

الدقيقة والتناسق الرائع في التصميم يجعلان تاج محل ليس مجرد بناء ضخمة، بل تحفة فنية تثير الإعجاب والنشوة في النفس. هذا التركيز على الدقة والجمال يشير إلى أن الإبداع والفن يتفوقان على الصناعة حتى في عصرنا الحالي الذي يتميز بالسرعة والتكنولوجيا. فالتصميم الرائع لتاج محل يجعله أحد أعظم الإبداعات الفنية التي تظل تبهر الناس من كافة أنحاء العالم.

ثانياً: استخدام المواد الثمينة والجودة

إن من الأمور التي تدل على اهتمام أباطرة المغول بالقيم الجمالية، هي استخدام المواد الثمينة والمعادن الغالية في تزيين الرسوم وتشبيد المباني.

تحيل حقبة زمنية تتسم بالاستقرار والرخاء، حيث أتيحت الفرصة للفنانين لاستخدام أفضل المواد وأتمنها من ورق وأصباغ وفُرشاة، والتي استوردوا بعضها من بلاد أخرى. من الصعب أن نتصور أن مخطوطة "أكبر نامه" التي أُنجزت عام ١٦٠٤م كانت لتصل إلى هذا المستوى من الإتقان لو أنها أُعدت في الفترة التي أُنجرت فيها مخطوطة "حمزة نامه" في عام ١٥٦٢م^١.

فكان أكثر أباطرة المغول مهووسون بالأبهة والجمال وبذل أموال كثيرة في ترتيب الحدائق وتزيين المباني الشاحخة، وصنع الأمتعة الفاخرة.

في عام ١٦٣٢م، شيد الإمبراطور المغولي شاه جهان ضريحاً رائعاً لزوجته المحبوبة ممتاز محل على الضفة الجنوبية من نهر جومنه خارج مدينة أجرة، وذلك تخليداً لذكراها. كلف شاه جهان نخبة من أبرز المهندسين من الهند، والفرس، وأواسط آسيا لوضع تصميم لا يحتاج لأي تعديل أو إضافات، كما كان الحال في العمائر الهندية المغولية. بدأ العمل في هذا المبنى الفخم بمشاركة عمالقة البناء والنقش والخطاطين من الهند وأواسط آسيا. يتوسط الضريح بناء مربع تعلوه قبة رائعة بارتفاع حوالي ٢٣ متراً وقطرها ١٧ متراً. تحت القبة، يوجد ضريحان: أحدهما للزوج والآخر للزوجة، وقد زُيّنا بنقوش زخرفية. يفتح المبنى أبوابه العالية على كل واجهة، تزينها عقود بقممها. استغرق تشييد هذا الضريح ٢٢ عاماً، مستلزماً استخدام عشرين ألف عامل يومياً طوال عام ١٦٤٣م لتسريع عملية البناء. يعتبره الكثير من نقاد الفن أحد أروع وأكمل المباني التي شيدها الإنسان، بجماله الباهر وقاعدته البيضاء المصنوعة من المرمر. تعلو كل زاوية من

^١ - انظر: د. ثروت عكاشة، التصوير الإسلامي المغولي في الهند، (٨٥)

زواياه الأربعة مئذنة بارتفاع ٣٧ متراً، يحيط بكل منها ثلاث شرفات دائرية متعاقبة تحطف الأنظار بجمالها^١.

فالمبنى الذي يستغرق تشييده اثنين وعشرين عاماً وكان يعمل فيه عشرون ألف عامل بلا انقطاع فكم ستكون تكلفته؟

لم تستخدم أشياء رخيصة في ذلك المبنى، بل كانت مبنية من المرمز الأبيض، والحجر الأحمر، على شكل محروطي، وكان منقوشاً بالفسيفساء الفاخرة، مع الاهتمام بالجمال والدقة واللطافة على نسق جميل ورائع.

تاج محل، ذلك الضريح الشهير المبنى من المرمز الأبيض النقي، بقطر يبلغ مائة قدم وارتفاع يصل إلى مئتي قدم، يأسر الأنظار بجماله الراقى. المبنى على شكل مثنى، مقام على رصيف عالٍ من الرخام، والذي يركز بدوره على رصيف آخر من الحجر الأحمر. في زوايا هذا الرصيف تقف أربع منارات شاهجة تأخذ شكلاً محروطياً، كل منها يصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً. في قلب الضريح، تتوسط قبة بديعة يبلغ قطرها عشرين متراً. كل جزء من الضريح، سواء داخله أو خارجه، مُزخرفٌ بفسيفساء فاخرة بترتيب مُدهش. أما آيات القرآن الكريم، فقد نُقشت بدقة متناهية في الفسيفساء الفاخرة على الجدران الداخلية. وتكمل هذه الروعة تلك النقوش البديعة التي تزين كل ركن من أركان الضريح^٢.

لم يكن هذا هو المبنى الذي شيده شاهجان فحسب، بل كان هناك مجموعات من القصور الملكية التي بناها شاه جهان في دلهي وفي آجرا من المعادن المختلفة مثل المرمز المزخرف والمرمر الأسود وغيرها على جنب الاهتمام بالجمال، والرشاقة، حيث تحيرت عقول الرحالين برؤية تلك الأمكنة.

في مدينتي دلهي وآجرا، قام الإمبراطور شاه جهان ببناء حصون فخمة تضم مجموعات من القصور الملكية، محاطة بأسوار دفاعية. من أسوأ جوانبها تبدو وكأنها قطع من المرمز المزخرف تشبه الحلويات، لكن من أفضل جوانبها، تعكس جمالاً رائعاً وصل إلى أرقى درجات العمارة في العالم. فمن بين هذه العمارات توجد قاعة الاجتماعات العامة، التي تزينت جدرانها بفسيفساء من الزهور على أرضية من المرمز الأسود. السقوف والأعمدة والأقواس المنحوتة بدقة تجعل منها عملاً فنياً بديعاً، جماله النحيل يجعله يبدو وكأنه من عالم آخر. أحد أعظم مؤرخي العمارة يصف مقر الملك في دلهي بأنه يشغل مساحة

١ - انظر: المرجع السابق، (١٤٥).

٢ - انظر: اللكنوي، عبد الحي بن فخر دين الدين، الهند في العهد الإسلامي، الناشر: دار عرفات، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م، (٣٨٤).

ضعف تلك التي تشغلها الأسكوريال الفسيحة بالقرب من مدريد. في زمانه، كان يعتبر أفخم قصر في الشرق وربما أجمل قصر في العالم بأسره. أما حصن أجرا اليوم، فقد تحول إلى أنقاض، ولا نستطيع سوى التخمين عن الجلال الذي كان عليه في بدايته^١.

لم يكن هذا فحسب، بل صنع شاهجهان أيضا لنفسه شيئا غريبا، وأثرا جميلا، يسمى عرش الطاووس، حيث أنفق لأجل صنعه وتشيينه أموالا هائلة. فقد بنى شاه جهان هذا العرض بأكداس من الجواهر النادرة، والذهب الهائلة.

الإمبراطور شاه جهان كان شغوفاً بالبذخ والفخامة لدرجة أنه أمر بصنع عرش مهيب يُعرف باسم "عرش الطاووس". هذا العرش كان مرصعاً بكم هائل من الجواهر النادرة، وكانت قوائمه مصنوعة من الذهب الخالص. سقفه المطلي بالمينا كان يرتكز على اثني عشر عموداً من الزمرد، حيث زُيّن كل عمود بطاووسين مرصعين بالجواهر، تتوسطهما شجيرة مغطاة بالماس والياقوت والزمرد. تتدلى من هذا العرش ثلاث درجات مكسوة بالجواهر والياقوت. استغرق صنع هذا العرش الفخم سبع سنوات، وبلغت تكاليفه أكثر من ستة ملايين جنيه^{٢-٣}.

ومن الجدير بالذكر أن السلطان أورنجزيب الذي انمحي في عصره رسم تصوير الحيوانات واتهمه الغربيون بالتعصب تجاه الدين، وبعدم اهتمامه بالمظاهر والزخارف، كانت له إسهامات جيدة في هذا المجال أيضاً.

قام الإمبراطور أورنجزيب باستبدال السور الذهبي لتاج محل بستانٍ مرمرى ثمانى الأضلاع، يكاد يُظهر ما وراءه بشفافيته الرائعة. هذا الستار مرصع بنقوش رائعة من الرخام ذات العروق، مما يجعله يبدو كمعجزة فنية. لدرجة أن بعض الزوار يعتبرون جمال هذا الستار يتفوق على كل ما أبدعه الإنسان من أعمال فنية صغيرة^٤.

١ - انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، الهند وجيرانها، (٣/ ٣٩٣).

٢ - جنيه: عُملة نقدية عربية مُستعملة في مصر وبعض البلاد العربية، ويختلف سعرها بحسب البلد والنوع. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ١٢٤٦ ، (١/ ٤٠٩).

٣ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الثاني، (٢١٢).

٤ - انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، الهند وجيرانها، (٣/ ٣٩٧).

ثالثاً: الاستفادة من الأساليب المتنوعة وامتزاجها

ثم إن من الأشياء التي تزيد الفن جمالا وحسنا، استخدام أساليب مختلفة، والامتزاج بين أنماط عديدة، فلا شك أنه لو استطاع الشخص أن يؤلف بين هذه الأساليب والأنماط بشكل بديع وغريب لازداد الشيء تألقا وجمالا.

تعكس هذه المنمنمة حرية واسعة في استخدام المساحات بشكل مبتكر. تُظهر العمارة فيها بأسلوب يكاد يكون ثلاثي الأبعاد مقارنة بالتصميمات المسطحة التقليدية، مما يضيف عليها طابعاً حيويًا. كذلك، نجد تصوير الكائنات الحية، مثل رعاة البقر والأشجار، قد تحول إلى تجسيد يضيف إحساسًا بالكتلة ضمن الفراغ المتاح. ويتناقص حجم الشخصيات والعمائر في الخلفية تدريجيًا، مما يعزز الإحساس بالعمق ويضيف على المشهد بُعدًا فنيًا رائعًا^١.

وقد تنوعت الأساليب في فترة سلاطين المغول، لا سيما في عهد جهانجير من خلال التحول التدريجي من التأثيرات الفارسية إلى النزعة الواقعية، والتركيز على تصوير مشاهد الطبيعة بدقة. وقد شملت هذه التغييرات الدرجات اللونية واستخدام تقنيات الإشراف والعتمة، مما أضفى عمقًا وجمالًا على الأعمال الفنية.

مدرسة التصوير في عهد جهانجير كانت تهتم في المقام الأول بتوثيق الأحداث التي تحدث في البلاط الإمبراطوري. ومع مرور الوقت، بدأ التأثير الفارسي يتلاشى تدريجيًا، لتحل مكانه نزعة واقعية تركز على تصوير مشاهد الطبيعة بدقة فائقة. تميزت هذه الفترة بتغييرات ملحوظة في الدرجات اللونية للمنمنمات، وباستخدام أكبر لتقنيات الإشراف والعتمة. لا نعرف الكثير عن مجريات الأمور في عهد جهانجير إلا مما دونه في مذكراته وما يمكن استنتاجه من مجموعات الصور التي أنجزت في عهده^٢.

هذا، وقد أفضى استخدام سلاطين المغول الأساليب المختلفة إلى امتزاج الخطوط والألوان الفارسية بالواقعية الأوروبية والأساليب الهندية المحلية، مما جعل التصوير المغولي في أوائل القرن السابع عشر فرعًا مستقلًا ومميزًا من فروع التصوير الإسلامي.

امتد تأثير الفن الأوروبي إلى التصوير المغولي بوضوح، خاصة في المناظر الطبيعية التي تزين الطرف البعيد من المنمنمات المغولية. فقد استلهم الفنانون المغول الصور الأوروبية المرسومة والمطبوعة على الحجر

^١ - انظر: د. ثروت عكاشة، التصوير الإسلامي المغولي في الهند، (١٠٢).

^٢ - انظر: المرجع السابق، (١١٨).

أو المعدن، وفي بعض الأحيان كانوا ينقلون الموضوعات الأوروبية بالكامل، كما هو الحال في لوحة "زيارة العذراء مريم لإليصابات". لأول مرة، ظهرت عناصر التصوير الأوروبية مثل قواعد المنظور وتقنيات الإشراف والعتمة، مما أدى إلى تداخل الخطوط والألوان الفارسية مع الواقعية الأوروبية والأساليب الهندية المحلية. هذا الامتزاج الفني أضفى على التصوير المغولي في بداية القرن السابع عشر شخصية فنية مستقلة، مما جعله يُعد فرعًا مميزًا من فروع التصوير الإسلامي^١.

وباستخدام الأساليب والأنماط المتنوعة استطاعت سلاطين المغول أن يؤسسوا نمطًا جديدًا في الفن، يكون أعلى شأنًا وأرفع قيمة وجمالًا. فاهتمام البابرين الشديد بالحضارة والمدنية دفعهم إلى التركيز على تعمير مدنها وشغفهم بالعمارة بشكل فائق، مما أدى إلى ظهور طراز معماري مميز يجمع بين فنون المسلمين والفنون الهندوكية، وعُرف عالميًا باسم الطراز المغولي. يتميز هذا الطراز بالقباب البصلية الشكل، والترصيع بالحجارة الكريمة، والميناء والخزف، والأقواس الحادة، والأبواب الفخمة التي تعلوها نصف قبة.

كان شغف البابرين بالحضارة والمدنية دافعًا قويًا لتعمير مدنها والاهتمام البالغ بالعمارة، مما أدى إلى ظهور طراز معماري مميز يعرف بالطراز المغولي. هذا الطراز هو مزيج من الفنون الإسلامية والهندوكية، ويتميز بالقباب البصلية الشكل، والترصيع بالحجارة الكريمة، واستخدام الميناء والخزف، والأقواس الحادة، والأبواب الفخمة التي تعلوها نصف قبة. خلال عهدهم، زين السلطان أكبر الهندستان بعدة منشآت فخمة تميزت بالإعجاز الفني، مثل ضريح همايون وبعض القصور في فاتحبور سكري^٢، بالإضافة إلى بلد دروازه التي بناها كذكرى لفتوحاته في الدكن، والتي تعتبر بارتفاعها البالغ ١٧٦ قدمًا مثالًا رائعًا للعمارة الهندية^٣.

لم يستخدم أباطرة المغول الأساليب المختلفة في فن التصوير وتشبيد المباني فقط بل استخدموها في فن تزيين الحدائق فعندما دخل بابر الهند وانتقد حدائقها لسوء تنسيقها، قام بإنشاء حدائق جديدة مشابهة لرياض فرغانة وكابل.

^١ - انظر: د. ثروت عكاشة، التصوير الإسلامي المغولي في الهند، (١٠٧).

^٢ - فاتحبور، مدينة في جنوب ولاية أوتار براديش، شمال الهند. تقع في منطقة دواب الغانج-يامونا، جنوب نهر الغانج (غانغا) وعلى بعد حوالي ٤٥ ميلًا (٧٠ كيلومترًا) جنوب شرق كانبور. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ٢٤, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/place/Fatehpur>)

^٣ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الثاني، (٣١١).

اشتهر سلاطين الدولة المغولية بشغفهم الكبير بالجمال وحبهم للطبيعة، وهذا تجلّى في حدائقهم التي أنشأوها في مناطق متعددة بالهند حتى ذاع صيتها ووصلت أصداؤها إلى أوروبا، حيث تأثر بها الأوروبيون في إيطاليا وبريطانيا واستخدموها كنموذج لتزيين مدّهم. كان السلطان بابر يعبر في سيرته عن إعجابه الشديد بإبداعات الطبيعة، ولكنه عندما شاهد حدائق الهند لأول مرة، انتقد تنسيقها وانتقد خلوها من الجداول المائية بين الخمائيل مقارنة بحدائق فرغانة وكابل. ولذلك، أنشأ بابر عددًا من البساتين والمنتزهات في الهندستان على نمط حدائق موطنه، ومن بين هذه الحدائق "جهار باغ الكابلي" في ضواحي أغرا، الذي جلب إليه نباتات وأشجار لم تكن معروفة في الهند. لا يزال الشعراء حتى اليوم يتغنون بجمال هذه الرياض في الفارسية والأوردية^١.

اذكر من خلال هذه العبارات في فقرة واحدة كيفية استخدام المغول الأساليب المختلفة لأجل مراعاة القيم الجمالية:

رابعاً: فتح المجال أمام جميع الفنانين

إن من الأمور التي تزيد في الجمال والحسن، هو فتح المجال أمام جميع الفنانين والاستفادة من الكوادر المختلفة، والذين لهم تجربة طويلة في مجال التطوير والتقنية.

ومن أجل هذا الأمر اهتم سلاطين الدولة المغولية بفتح المجال أمام الفنانين عبر شغفهم بفن النقش والعمارة، مما أدى إلى تطور مدرسة خاصة بهم في هذا الفن. فقد فتحوا المجال أمام النقاشين المشهورين في عهدهم، والفنانين الموهوبين من خارج الهند بالمنح والعطايا.

كان شغف سلاطين الدولة المغولية بالعمارة يمتد أيضاً إلى فن النقش، حيث اهتموا به وطوروا مدرستهم الفنية المغولية الخاصة. جلب السلطان أكبر إلى الهند روائع النقوش التي كانت في حوزة الأسرة التيمورية، من بينها لوحات الفنان بهزاد، المعروف بـ"رفائيل الشرق". عند عودته من المنفى، أحضر همايون معه النقاشين المشهورين سيد علي تبريزي وخواجه عبد الصمد. كان أكبر يقيم معارض للنقوش في قصره أسبوعياً، ويكرم المبدعين من الفنانين ويشجعهم، كما كان يجذب نوابغ النقاشين من خارج الهند بالمنح والعطايا. امتد تشجيعه أيضاً إلى فنان الهندوس، حاثاً إياهم على دراسة فنونهم القديمة. تأثر

^١ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الثاني، (٣١٨).

بعض هؤلاء النقاشين بالفنون الأوروبية التي جلبها البرتغاليون إلى الهند، مما أضاف عناصر جديدة إلى الفنون المغولية^١.

ومن صور اهتمام سلاطين المغول بفتح المجال أمام الفنانين، أن السلطان بابر جلب معه بعض المعماريين الفرس من خراسان. فعمل هؤلاء المهندسون على نقل وتطبيق الأشكال الهندسية الفارسية في العمارة الهندية، مما يدل على حرص سلاطين المغول على دمج الفنون المختلفة والتأثيرات الثقافية المتنوعة في مملكتهم.

كان التأثير الفارسي في العمارة الهندية خلال فترة إمبراطورية المغول بارزًا وواضحًا، حيث قام السلطان بابر باستقدام مهندسين معماريين بارعين من الفرس، هما مير ميراث غياث من هراة ومحمد شاه من خراسان، بهدف نقل وتطبيق الأشكال الهندسية الفارسية في الهند. هذا الدمج بين الفنون الفارسية والهندية أضاف إلى التراث المعماري المغولي جمالًا وتفردًا مميزًا^٢.

وأيضا هذا الاهتمام يظهر جليًا من خلال عملية بناء تاج محل. حيث استُفيد المعماريون والحرفيون من بغداد، ومصممو الحدائق من كشمير، والخطاطون من شيراز، والحجارون والنحاتون ومصمموا القباب والبنائون من بخارى والقسطنطينية وسمرقند. هذا التنوع الكبير في المساهمات الفنية يعكس مدى التقدير والدعم الذي قدمه سلاطين المغول للفنانين من مختلف الخلفيات الثقافية، مما أسهم في إغناء الإرث الفني والمعماري للمغول.

في عملية بناء تاج محل، استُفيد معماريون وحرفيون من بغداد والقصور العثمانية في تركيا، وانضم إليهم مصممو حدائق من كشمير، وخطاطون من شيراز، وحجارون ونحاتون ومصمموا قباب وبنائون من بخارى والقسطنطينية وسمرقند. هذا التنوع الغني للفنانين والحرفيين من مختلف المناطق يعكس مدى اهتمام المغول بجمع أفضل المواهب من أنحاء العالم لإنشاء أحد أعظم روائع العمارة في التاريخ^٣.

ولم يكتف سلاطين المغول بجلب الفنانين والمعماريين، بل أظهر بعضهم اهتماما خاصا بالفن وشاركوا في تطوير هذا الفن، فقد ساهم السلطان أورنكزيب نفسه بنصيب ملحوظ في نسخ القرآن الكريم، مما يدل على تقديره الكبير للفن والفنانين.

١ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الثاني، (٣١٥).

٢ - انظر: إنعام حميد شرموط، إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند، (١٥٧).

٣ - انظر: إنعام حميد شرموط، إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند، (١٦٧).

في عهد أورنكزيب، حقق الفنانون والنقاشون مستويات رائعة في فن الخط وزخارف الكتب، حيث وصلوا إلى مراتب فنية إعجازية. ولعب السلطان أورنكزيب دورًا بارزًا في هذا التطور الفني، بمساهمته الشخصية في نسخ القرآن الكريم، مما يجعله مثالًا معروفًا لالتزامه وتقديره للفن. هذا الاهتمام البالغ بالفنون والزخرفة يعكس تأثير أورنكزيب العميق في إثراء التراث الثقافي والفني لعصره^١.

^١ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الثاني، (٣١٧).

الباب الثاني

الإمبراطورية البريطانية وقيمها

الفصل الأول: الإمبراطورية البريطانية وقيمها الديمقراطية

الفصل الثاني: الإمبراطورية البريطانية وقيمها التنموية

لا شك أن الدول الكبيرة، والملل المسيطرة على الأراضي الشاسعة لا بد لها من نظام مستحكم، وإجراءات دقيقة، وقيم تسود نشاطاتها. ويرتبط مدى نجاحها في تسخير العباد وفتح البلاد بهذه الحقائق الثابتة. فالغلبة على الناس، وأخذ زمام الأمور من أيديهم لا يتأتى من فراغ، بل من خلال نظم دقيق ونسق محكم.

ومن هذا المنطلق نصل إلى مستوى الدقة في النظام البريطاني، واستحكام قواعده وترابط قيمه، حيث سخر بلاد الهند الشاسعة - بشرزمة قليلة من جيوشه لا يصل عددها إلى سبعين ألف - وأقام فيها نظاما جديدا، وقواعد لا تعهدا قبل ذلك. فحكم الدولة البريطانية هذه البلاد الشاسعة والأراضي المترامية قرنين من الزمان، واستطاعت أن تخضع لنظامها أكثر من ثلاث مائة مليون إنسان.

فما هي القيم التي استطاعت الحكومة البريطانية أن تسيطر من خلالها على تلك البلاد؟ كيف أرست قواعدها عبر تلك السنوات المديدة، وأقنعت كثيرا من الناس بضرورة وجودها في هذه المنطقة؟ فهل يمكن للحكومة الإسلامية الاستفادة من قيمها لفتح البلاد وإيصال الدعوة إلى الناس جمعاء؟ وبعد البحث والتتبع يتبين أن هناك طائفة من القيم التي سادت الحكومة البريطانية من خلالها بلاد الهند، وأرست قواعدها ونظامها فيها. يمكن تقسيم هذه القيم إلى مجموعتين، القيم الديمقراطية والقيم التنموية.

وقبل أن يخوض الباحث في تفصيل تلك القيم وشرحها، يجدر بيان أن المباحث التي تذكر في هذا الفصل وفي الفصل القادم معظمها أخذت من مزاعم الراج البريطاني أو المتغربون، فلا اعتراض على الباحث أن بعضها خارج عن الموازين الشرعية للقيم، أو أن الباحث لماذا يشيد بذكرها من غير نقد أو رد.

الفصل الأول

الإمبراطورية البريطانية وقيمها الديمقراطية، وفيه ثلاثة

مباحث:

المبحث الأول: الحرية.

المبحث الثاني: مراعاة حقوق الأقليات والطبقات الضعيفة.

المبحث الثالث: المساهمة في الحكم والأمن.

التمهيد

لا شك أن للديموقراطية معنى في اللغة والاصطلاح ومع هذا فقد شاع استخدام مصطلح الديمقراطية لدى السياسيين والمحللين الآن وإذا أمعنا النظر في التاريخ، فسوف نرى أن هذه الكلمة استخدمت كمصطلح سياسي منذ قرون طويلة، فيعرج الباحث أولاً لبيان معناها لغة واصطلاحاً لتوضيح مفهومها، ثم يبحث عن معناها لدى أهل السياسة.

تعريف الديمقراطية

الديموقراطية مصطلح غير عربي مشتق من المصطلح الإغريقي δημοκρατία (باللاتينية: dēmokratía) ويعني «حكم الشعب» لنفسه، وهو مصطلح قد تمت صياغته من شقين δῆμος (ديموس) «الشعب» و κράτος (كراتوس) «السلطة» أو «الحكم»^١.

وأما في الاصطلاح فقد جاء تعريف الديمقراطية بصياغات مختلفة تشير مجموعها إلى إعطاء السلطة والسيطرة للبشر، فالبشر هم المشرعون وهم المقننون، والعقل البشري هو الحاكم، والإنسان هو المقدس. فمن تعريفات الديمقراطية: "نظام الحكم، حيث تكون السلطة العليا بيد الشعب، أو" حكم الشعب، من قبل الشعب، ومن أجل الشعب"^٢. أو "حكم الشعب نفسه، بنفسه، لنفسه" أو "حكم الشعب للشعب ومن الشعب"^٣.

لكن يبقى هناك غموض في معرفة جوهر الديمقراطية، فهل الديمقراطية فلسفة أم هي مكونة من آليات عديدة مثل الانتخابات والمؤسسات النيابية؟ هل جوهر الديمقراطية بسيط أم مركب من الفلسفة والآليات؟ هل الديمقراطية طريقة من طرق الحكم وتطبيق السياسة أم هي نظام متكامل، يشمل جميع ميادين الحياة؟

^١ - انظر: عواجي، د. غالب بن علي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، الناشر: المكتبة العصرية الذهبية-جدة، الطبعة: الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، (٢/ ٧٦١).

^٢ - "What Is Democracy?", web-archive-٢٠١٧.ait.org.tw, Retrieved ٢٣-١٢-٢٠١٩. Edited.

^٣ - الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَّة، كواشف زبوف، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ص: ٧١٧.

وقد اختلف المحللون والسياسيون في تحديد هذه المفاهيم، فيرى فريق من علماء الحقوق أن مفهوم الديمقراطية هي الحرية والعدالة والمساواة، بينما يعتقد الآخرون أن هذه الأشياء ليست إلا جزئيات وفروعاً للديمقراطية، وهي فلسفة شاملة، وطريقة متكاملة للحياة، بل هي دين ينظم الحياة كلها^١. ثم إن الباحث يجد أن من العلماء من نظر إلى الديمقراطية من زاوية أخرى، فقد عد الديمقراطية شكلاً و مضموناً، يقول الشيخ راشد الغنوشي: "يعتبر كل الأسباب التي تقوم عليها الديمقراطية من فصل السلطات... مندرجة تحت الشكل ويضيف إليها مضموناً وهو الاعتراف بقيمة الإنسان"^٢. وفي المقابل يعد الدكتور محمد عمارة الديمقراطية شيئاً مركباً، ويقول: "إنه لو نظرنا للديمقراطية نجد أنها تتكون من فلسفة وآليات، وفلسفة الديمقراطية هي إعطاء السلطة المطلقة للشعب وآليات الديمقراطية كثيرة ومتعددة"^٣.

لكن لا نستطيع أن ننسى أن الديمقراطية أسست بناء على تأليه الإنسان، وقطع الصلة بالقانون الإلهي، وتقديس البشر وإعطاءهم حق التصويب والرد في كل صغير وكبير. ولما كان البشر سواء في هذه الأمور، حيث يتمتع البشر بالعقل وإبداء الرأي في الأمور، لم يكن بدا من تصنيع آليات يخدم هذه الفكرة، ومن هذا المنطلق ابتدعوا الانتخابات، والمجالس النيابية، وغيرها.

أطوار الديمقراطية

ترجع الديمقراطية وأصولها وتستند كمفهوم ومصطلح سياسي إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو، حيث قام بتصنيف الحكم إلى أقسام ثلاثة.

صنف أرسطو الحكم إلى أقسام ثلاثة: وهي الحكم الملكي، والحكم الأرستقراطي والحكم الديمقراطي. ففي الحكم الملكي يقوم النظام على التوارث بين أفراد الأسرة الحاكمة، بينما يقوم الحكم الأرستقراطي على إدارة السلطة من قبل أسرة واحدة، وتعني الديمقراطية في هذا السياق أن الشعب هو مصدر الحكم والسلطة، وهناك عقد اجتماعي بين الشعب والحاكم، ويجب عليه مراعاة هذا العقد، فهو نائب عن الشعب في إصدار الأوامر وتنفيذ القانون^٤.

١ - انظر: مصطفى أسعيد، الديمقراطية في المنظومتين الفكريتين الغربية والإسلامية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية فرع العلاقات الدولية، سنة: ٢٠١٠م، ص: ٤٢.

٢ - راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢م، ص ٧.

٣ - محمود الجوهري، النظام السياسي الإسلامي و الفكر الليبرالي، القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٣م، ص: ٤.

٤ - انظر: مصطفى أسعيد، الديمقراطية في المنظومتين الفكريتين الغربية والإسلامية، ص: ٢٤.

فقد كان اليونان القديم أولى حضارة تمارس الديمقراطية حيث إنه مع هزيمة أثينا أمام جيوش اسبرطة حوالي ٥٠٤ ق. م بدا نجم الديمقراطية كفكرة وكممارسة يدعمه بعض الفلاسفة والحكام وإن لم تصبح الديمقراطية نظاما سياسيا بهذا المفهوم الجديد الذي له مرتكزاته وقواعده إلا في القرن الثامن عشر^١.

ثم إن مفهوم الشعب يختلف بحسب المجالات، ففي مجال الاجتماع يعنى بالشعب جميع الأفراد من الشباب والشيوخ والنساء والرجال العاقلين و غير العاقلين والأحرار والعبيد، لكن في السياسة هناك معنى آخر للشعب.

"أما التعريف السياسي للشعب فيعني أولئك من لهم الحق في مباشرة الحقوق السياسية ونطاق هؤلاء يختلف من مجتمع إلى آخر وإن كان كمبدأ عام يستثني الأطفال والمعتوهين وفاقدي الحرية المدنية أو من يسمون في الفقه الإسلامي من رفع عنهم القلم، ويختلف في المرأة وفي السن الفاصلة بين الطفل والمراهق ومرحلة الرشد التي تتيح للمواطن حق التمتع بالحقوق السياسية"^٢.

ورغم هذا كله لم يكن فلاسفة اليونان يؤيدون الديمقراطية، حيث إن الديمقراطية تسوي بين العالم والجاهل وبين الذكي والغبي في إصدار الرأي وإبداء النظر، ولا شك أنه ليس هناك عاقل يعترف بهذه السخافة، ويصحح مفهومها.

فكان سقراط يرى أن الحكم الأمثل هو الذي يكون مصدره الفلاسفة والعلماء ونفس الفكرة اعتنقها تلميذه أفلاطون، فقد سمى الديمقراطية السائدة في عصره حكم الغوغاء، صارخا كيف يمكن أن نسوي بين الذين يعرفون ويعلمون وبين الجاهلين الغافلين، فهل يقبل العقل التسوية بين الأذكياء والأغبياء^٣.

ومن هذا يعرف أن الديمقراطية ليست هو الحكم الأمثل في إدارة الدولة والنظام، حيث إنها لا تتلائم مع الفطرة البشرية والعقل السليم. فحق لها أن لا توجد في المجتمع إلا باعتبارها رد فعل للاستبداد والأنانية. فللديموقراطية جوانب مظلمة لا نستطيع تفاديها، نعم تعتبر هي أهون الشرين إذا قيست بالاستبداد والاختناق.

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٧.

٢ - المرجع السابق، ص: ٢٥.

٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٥.

ومن هذا يعرف سر تمسك الغرب بالديموقراطية في العصر الحديث، حيث اعتبرت هي الحكم الأمثل ، والدول التي لا تلتزم بقواعده دولاً متخلفة لا تستحق الاعتراف بها.

فالشعوب الأوروبية عاشت في ظروف مجحفة من فقر وحرمان واستبداد واستعباد، حيث كان رجال الكنيسة والإقطاع^١ يمارسون هذه المظالم تجاه الشعب الأوروبي. فنشأت في أوروبا حركة فكرية من أجل تغيير هذه الظروف والأوضاع، وكانت القرون الوسطى لهؤلاء الناس قرون ظلام وجهل.

"لقد طالبت الشعوب الأوروبية بادئ ذي بدء بالحرية والعدالة والمساواة... من أجل التحرر من سيطرة البابا والإقطاعي^٢، بل إن الثورة الفرنسية جعلت من الديمقراطية مبدأ قانونياً... إن الثورة الفرنسية كانت نتيجة طبيعية لما عانت الشعوب من اضطهاد و استغلال مارسه رجال الإقطاع والكنيسة في القرون الوسطى، مما جعل الشعوب ترفع شعار الحرب ضد هؤلاء والمتمثل في: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس"^٣.

فالفكر السياسي الراجح في العصر الحديث في الغرب هو نتيجة لما عانته الدول الأوروبية في العصور الوسطى من ظلم وعدوان، وبالتالي فالنظام الغربي والفكر الديمقراطي هو في الواقع ثورة على الكنيسة وسلطتها على الشعب المظلوم.

ولقد شهد العالم في القرن الثامن عشر الميلادي حدثين كبيرين، تغير بسببهما النظم العالمي، وهما إعلان استقلال الأمريكي ١٧٧٦م والثورة الفرنسية ١٧٨٩م.

فقد جاء في إعلان الاستقلال الأمريكي ما يلي: إننا نؤمن بأن الناس جميعاً خلقوا سواسية وإن خالقهم قد وهبهم حقوقاً لا تقبل المساومة منها: حق الحياة وحق الحرية والسعي لتحقيق السعادة... و إنما تقوم الحكومات بين الناس لضمان هذه الحقوق و تستمد سلطتها العادل من رضا المحكومين و من حق الشعب إذا ما قوضت الحكومة هدفاً من هذه الأهداف أن يغيرها أو يلغيها ثم يقيم بدلاً منها حكومة يصنع أسسها على مبادئ و ينظم سلطتها في الصيغة التي تحقق له الأمن والسعادة^٤.

١ - إقطاع: مصدر أقطع. نظام يتحكم فيه المالك في الأرض ومن فيها من الناس. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٤٠٥٣ (١٨٣٦/٣).

٢ - مالك يملك الأرض ومن فيها من الناس. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٤٠٥٣، (١٨٣٦/٣).

٣ - مصطفى أسعيد، الديمقراطية في المنظومتين الفكريتين الغربية والإسلامية، ص: ٣٠.

٤ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٣.

وهكذا تؤكد بعض النظريات السياسية على أن الديمقراطية لم تكن في جميع هذه الأعصار سوى نظرية لم تطبق تطبيقا واقعيا إلا بعد الثورة الفرنسية، حيث إنه "بعد قيام الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م أصدرت الثورة في ٢٦ أغسطس إعلان حقوق الإنسان الذي نص على أن السيادة جميعها مصدرها الأمة و أن القانون هو التعبير عن الإرادة الجماعية"^١.

^١ - المرجع السابق، ص: ٣٤.

المبحث الأول

الحرية

إن من القيم التي ترجع إلى الديمقراطية، وتستمد منها، هي الحرية بمفهومها الغربي، فمن ثمرات هذه الحرية اعتناق أي دين يروق للشخص، ونبذه بدون أغراه أو عقاب، ومنها التخلص من الأوهام والخرافة التي نسجها بعض الناس حول الدين، ومنها الانفتاح على الآخرين ونبد العنف في التعامل السلمي. وقد كانت الحكومة البريطانية مثالا بارزا في هذا الميدان، والناس عندما يذكرون الحرية تتجه أذهانهم إلى الثورة الفرنسية، لكن ترجع بذور هذه الحرية إلى إنجلترا.

"والناس عندما يذكرون الحرية تلتفت أذهانهم إلى الثورة الفرنسية، مع أن بذرة هذه الثورة ترجع إلى إنجلترا، وقد دعا أحد دعاة فولتير إلى الدستور الإنجليزي. وكان خطيبها ميرابو يدعو هذه الدعوة أيضا. وإذا كنا نحن نرى الآن في غاندي داعية مخلصا للحرية والإخاء والمساواة، فإن آباءنا في القرن الماضي كانوا يرون في غلادستون على الرغم من تعصبه الديني، هذه الداعية أيضا، بحيث يمكن أن نجد صلة روحية بين الاثنين"^١.

ففي هذا المبحث سيتصدى الباحث بذكر بعض هذه الثمرات والآثار التي خلفتها الحرية في الهند بصورة وجيزة.

المطلب الأول: الحرية في اعتناق الدين

عندما دخل الإنجليز البلاد الهندية كان يستصحبهم المبشرين النصارى، وكانوا يدعون الناس إلى اعتناق المسيحية، وقد أسسوا لأنفسهم كنائس في مختلف أرجاء الهندية.

فقد كان الإنجليز يحث الناس على اعتناق المسيحية عن طريق الحملات التبشيرية وأصبح إنشاء المدارس والمستشفيات من قبل المبشرين المسيحيين البريطانيين سمة محورية للعمل التبشيري والمسارات الرئيسية للتحويل إلى الدين الجديد.

"ولقد أراد الغرب أن يدخل الهند في الديانة المسيحية ويصبغها بالصبغة الغربية"^٢ بطرق مختلفة وأساليب شتى.

^١ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى: ٢٠١٢م، ص: ٢٥.

^٢ - علي أدهم، الهند والغرب، الناشر: دار المعارف بمصر، ص: ١٢٢.

لكن لا نستطيع أن ننسى أن البريطانيين لما أنهم كانوا يتمسكون بالديموقراطية، فقد كانوا يعترفون بالحرية بالنسبة إلى اعتناق الدين، فلم يكن عندهم أغراه الناس على المسيحية، أو إنزال العقاب على من ارتد منها.

" يجب ألا ننسى هنا أن أعظم عقبة في سبيل الإصلاح الاجتماعي أو الديني في الهند هي قيام حكومة أجنبية جعلت شعارها ألا تتدخل في الدين"^١.

ولأجل هذه القيمة عندهم استطاع أهل الأديان من المسلمين والهندوس والبوذية أن يبقوا على دينهم ولا يتحولوا إلى المسيحية، ولعل هذا الأمر هو السبب في عدم انتشار المسيحية في شبه القارة الهندية انتشارا واسعا مثل الإسلام والهندية.

"ولقد أراد الغرب أن يدخل الهند في الديانة المسيحية ويصبغها بالصبغة الغربية، ولكن أرادت الأقدار أو طبائع الأشياء أن تكون الثقافة الغربية حافزا للهند على معرفة نفسها واستعادة تالدها"^٢.

المطلب الثاني: الحرية عن الخرافات والبدعات

الناظر في العقائد التي كانت تسود الهند فترة الحكم البريطاني، يرى فيها الكثير من التقاليد السخيفة، والآراء الغربية، فكان أهل الهند ولا سيما الهندوس في ظلام دامس، ولم يكونوا يدرسون إلا أشياء تافهة، وآراء سقيمة، لا جدوى تحتها.

"لما وصل الإنجليز إلى الهند كان الهندود -وخاصة الهندوكيين- في ظلام دامس، قد تحجرت تقاليدهم. يقتلون أراذلهم ويخضعون لبراهمتهم وراجواتهم، لا يدرسون غير السخف الذي تراكم من العقائد الهندوكية. وكانت البوذية قد انمحت من الهند وطوردت إلى الحدود"^٣.

ولأجل هذه الأمور كانت شبه القارة الهندية تحتاج إلى المصلحين المستنيرين، الذين يستطيعون - بروح الحرية وسعة الأفق- تقديم إصلاح شامل وعميق في الأفكار التي اعتنقها الهندوس، وإنشاء ثقافة جديدة تواكب لغة العصر.

١ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٢٨.

٢ - علي أدهم، الهند والغرب، ص: ١٢٤.

٣ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٢٥.

فمن ثم أنشأت في الهند تحت تأثير الاصطكاك بين الديانة المسيحية والديانة الهندوسية حركات إصلاحية، وثورات أدبية، أعانت على تشذيب تلك الديانة من بعض الخرافات والسخافات التي ألصقت بها عبر القرون المتتالية.

"حركة الإصلاح الهندي في القرن التاسع عشر من الحركات الكبيرة التي لها مكانها في التاريخ الحديث، وقد سارت في بطء تحت ستار النفوذ البريطاني، وكانت نتيجة الهجوم المسيحي على الهندوسية قيام حركة بين متعلمي الهندوس في سبيل الإصلاح الاجتماعي الديني"^١.

وهذه الحركات قد تمت على يد الهندوس أنفسهم، وقد أدرك الإنجليز أن تلك الحركات لا تكون لها صدى واسعاً إلا إذا تمت من قبل أصحاب الأديان أنفسهم، ففي هذه الحالة يصلون إلى أهدافهم ومقاصدهم بتكاليف قليلة، وأثرات عميقة.

"وقد تزعم هذه الحركة رام موهان روي^٢ (١٧٧٢ - ١٨٣٣م) الذي يعد منشئ حركة الإصلاح الهندوسي، وهو من أسرة برهية محافظة، وقد نشأ هندوسياً متشدداً، ولكنه تتقف ثقافة إسلامية مثل سائر الهندوس الذين كانوا يؤملون دخول الخدمة العامة في ذلك العصر، ولما التحق بخدمة شركة الهند الشرقية كان متمكناً من العربية والفارسية، وفي خلال تلك المدة درس اللغة الإنجليزية، وفتح له ذلك آفاق الفكر الغربي الحر، وكانت أوروبا في ذلك الوقت متأثرة بأفكار عصر الاستنارة وآراء الانسيكلوبيديين، وقد بدأت تظهر آراء بنتم والفلاسفة النفعيين في إنجلترا، وكان لذلك كله تأثير في تقدم الهند الفكري.... ولما نبذ المسيحية رأى أن الهندوسية في حاجة ماسة إلى شرح يفسر غوامضها ويجلو أسرارها، وقد حاول ذلك بإيجاد جماعة البراهمو ساماج، وعقيدة البراهمو ساماج تقوم على أساس هندوسي، ولكن نظرتها إلى الحياة ليست مسيحية ولا هندوسية، وإنما هي نظرة أوروبية تستمد وحيها من حركة القرن الثامن عشر الفكرية"^٣.

^١ - علي أدهم، الهند والغرب، ص: ١١٢.

^٢ - رام موهان روي (وُلد في ٢٢ مايو ١٧٧٢، رادها ناغار، البنغال، الهند - تُوفي في ٢٧ سبتمبر ١٨٣٣، بريستول، غلوسترشير، إنجلترا) كان مصلحاً دينياً واجتماعياً وتعليمياً هندياً تحدى الثقافة الهندوسية التقليدية وأشار إلى خطوط التقدم للمجتمع الهندي تحت الحكم البريطاني. يُطلق عليه أحياناً لقب "أبو الهند الحديثة". (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Dec ١٩, ٢٠٢٤, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Ram-Mohan-Roy>)

^٣ - علي أدهم، الهند والغرب، ص: ١١٢.

ولم يكن رام موهان هو الوحيد في هذا المجال، بل هناك رجال آخرون أثروا في المجتمع الهندي، وقدموا نظريات جديدة لإصلاح وتنقية الآراء والأفكار الهندوسية، فصاروا في هذا المجال فلاسفة ودعاة للإصلاح والتجديد الديني.

ومن أشهر الهندوس الذين قادوا حركة الإصلاح الاجتماعي والثقافي والديني في القرون الثامن عشر سوامي فيفي كاناندا، (١٨٦٣-١٩٠٢م)، وروبندرونات طاغور^١ (١٨٦١م-١٩٤١م) وغيرهم. "وقد وجد الإصلاح الهندوسي نصيرا له قويا وشارحا لأصوله ممتازا في شخص سوامي فيفي كاناندا، وقد كان بنغاليا تلقى تعليما غربيا وتأثر بالمفكر المتصوف راماكريشنا، أحد الذين أثروا في المجتمع البنغالي تأثيرا بالغا، وكان فيفي كاناندا يرغب رغبة قوية صادقة في إحياء الهندوسية وتنقية تعاليمها الدينية والسياسية من الشوائب، وقد زار أمريكا زيارة طويلة، وزار بريطانيا، وقد ألهمت هاتان الزيارتان وطنيته، وقوتا رغبته في إيجاد هدف اجتماعي للهندوسية، وقد أعلن أنه لا يؤمن بدين لا يكفكف دموع الأرمال ولا يأتي بالخبر إلى أفواه اليتامى، وسئل مرة عن رسالته فأجاب: إن هدف الحركة التي أقوم بها هو إيجاد الأسس العامة للهندوسية وإيقاظ الوعي القومي لهذه الأسس. وقد ذهب إلى أن هذه الأسس موجودة في أسفار الفيدانتا، وأخذ يفسر هذه الأسفار تفسيرا سهلا، ويشير بما فيها في جميع أنحاء الهند، وقد شاركه في الدعوة إلى استخلاص أسس العقيدة الهندوسية من أسفار الفيدانتا كثيرون من علماء الهندوس الذين لم يكن لهم مذهب خاص ولا شيعة معروفة"^٢.

وقد استفاد الهندوس من هذه التيارات التي كانت تهدف إصلاح المجتمع الهندي، حيث تمكنوا من الوقوف أمام هجوم الحركات التبشيرية الشرسة، وعدم الدوبان والانصهار في بوتقة الفكر الاستعماري، ولم يكن هذا فحسب، بل استطاعوا إلى جنب هذا تكوين الأسلوب الذي ينظر بها الهندوس إلى مشاكلهم.

ولأجل هذا استفاد المتعلمون وأهل المعرفة من جهود هذه التيارات، واستخدموا أساليبهم في مراكز العلم، وميادين المعرفة.

^١ - دواركاناث طاغور، جد رابندرانات، كان مؤسس جورسونكو وناجحا للغاية وأصبح ثريا بشكل متزايد من خلال مشاريعه الريادية مع بريطانيا العظمى. ساهم بشكل كبير في النهضة البنغالية. مات في لندن في ١ أغسطس ١٨٤٦.

(

^٢ - علي أدهم، الهند والغرب، ص: ١١٧.

"ومعنى ذلك أن الهند منذ سنة ١٨٢٠م بدأت تتصل بتيار الفكر الغربي وتفيد من ثمرات الثقافة الأوروبية، وكانت عقيدة البراهمو ساماج ترمي إلى الاتجاه نحو الغرب وتطهير الهندوسية من الخرافات الفاسدة والعادات البالية، والتقاليد السخيفة التي أثقلها، وطغت عليها، ورفع مكانة المرأة، ومحاربة النظام الطائفي حربا لا هوادة فيها والقضاء على كل العيوب والمساوئ المتفشية، وكان الهندي المتعلم الذي أثرت في تفكيره هجمات المبشرين يرى في عقيدة البراهمو ساماج مخرجا من حيرته وأصبحت البراهمو ساماج جزءا من أسلوب الحياة الهندي، وهي لم تمكن الهندوسية من الثبات أمام هجوم المبشرين فحسب بل ساعدت على تكوين الطريقة التي ينظر بها الهنود إلى مشكلات الهند".^١

ثم إن هذه الحركات والتيارات التي كانت تتصف بالإصلاح والتجديد مهدت الطريق أمام إصدار القوانين الجديد، لا سيما القوانين التي كانت تتعلق بالزواج، ومكانة الطبقات في المجتمع الهندي، فوجدت الطبقات المظلومة عبر القرون مفرا وملاذا في ظل هذه التيارات التي تأثرت من الحرية المستوردة من إنجلترا.

"وقد كان هذا الإصلاح الديني تمهيدا مناسبا لإصدار قانون بإلغاء زواج الأطفال الذي كانت تعده الجماعات الهندوسية جزءا من ديانتهم، وسمح للأرامل بالزواج، وخففت فروق الطبقات، ولطفت حدتها، وأبيح لطبقة الأنجاس دخول المعابد، ووضعت الهبات الدينية تحت سيطرة هيئات عامة، واتخذت حركة النهوض بالطبقات المضطهدة طابعا قوميا، وأصبحت مشاركتهم في الحياة السياسية الاجتماعية عاملا هاما في أواخر عهد الحكم البريطاني، وقد قوي شأن الديانة الهندوسية، وتجددت حياتها، وقد كان سبب ضعفها وتكاثر الخرافات فيها تأييدها على الإصلاح وجمود عقائدها، فلما أتيح لها المصلحون الأعلام استردت حياتها واستعادت قوتها".^٢

فالإنجليز من المصادر التي أخذ الهندوس فكرة الحرية والمساواة والإخاء منها، وقد استطاع الشعب الهندي -بعد أن تأقلمت الأفكار الغربية في شبه القارة الهندية- أن يأمن سخرية الإنجليز من لغتهم وسلوكهم وأعرافهم، فقد كان الإنجليز في البداية يسخرون من الذين يتكلمون بلغتهم، ويتشبهون بأعرافهم وتقاليدهم، لكن في النهاية تأقلمت تلك الأفكار في الهند، واستطاع الرواد في هذا المجال أن يلاموا بين الثقافتين، ويستفيدوا من كلا الحضارتين.

١ - علي أدهم، الهند والغرب، ص: ١١٢.

٢ - المرجع السابق، ص: ١١٧.

"وقد تمكن الهنود عن طريق اللغة الإنجليزية من الإطلاع على حركة الاستنارة في أوروبا والوقوف على آثار كبار مفكري الغرب، وأخذوا عنهم فكرة الحرية والمساواة والإخاء، وتبنت الهند الكثير من الأفكار الحرة التي أخذتها من الغرب، وقد كان الإنجليز في بادئ الأمر يسخرون من الوطنيين الذين يتكلمون لغتهم، ويحاكونهم في سلوكهم، ويتشبهون بهم في تفكيرهم، ولكن الأفكار الغربية تأقلمت في الهند، واختلطت بالنفوس، وأمكن الملاءمة بينها وبين الأفكار المستمدة من الأسفار الهندية القديمة، والعقائد الدينية المقدسة، وقد نشأت في مطالع تلك الحركة نزعتان كما هي العادة في أمثال هذه المواقف، نزعة ترمي إلى ترك الماضي والتعفية على آثاره وتقبل الحضارة الغربية بحذافيرها ونزعة ترمي إلى جعل التراث القديم ملائماً للعصر الحاضر، وتوسيع أطرافه، وتجديده وإصلاحه وتهذيبه، وقد كانت الغلبة للنزعة الثانية"^١.

فالنهضة التي شهدتها الهند في فترة الحكم البريطاني -على حسب قول بعض المؤرخين-، ترجع جزورها إلى الثقافة التي ورثها الشعب الهندي من الإنجليز، وبهذا الأمر استطاع الشعب الهندي أن يغلبوا الاستعمار البريطاني، ويخلصوا بلادهم من ذلك الاحتلال.

ففي ظل هذه النهضة استطاع كثير من المصلحين أن يدعوا الناس إلى تغيير ثقافتهم، وإصلاح أعرافهم وتقاليدهم، وتشذيب أفكارهم وآرائهم، ولولا هذه النهضة لم يتمكنوا من هذه الأمور بسهولة، ولم يستطيعوا أن يقفوا في وجه الظلم والعدوان الذي مارسه الإنجليز في بلادهم.

"إذ كان الإنجليز قد نكبوا الهنود بالاستعمار فإنهم قد أسدوا إليهم أعظم الفضل بتعليمهم اللغة الإنجليزية التي فتحت لهم باب الثقافة الإنجليزية الواسع. وهذه الثقافة هي العلاج الحقيقي للاستعمار؛ لأنها تحتوي على بذرة الحرية التي لا يمكن الاستعمار أن يقتلها، ويمكن الناقد المنصف أن يقول بعد أن يعدد المظالم الكثيرة التي أوقعها الاستعمار البريطاني بالهند: إن النهضة الهندية الحاضرة إنما تعزى إلى هذه الثقافة الإنجليزية العجيبة، وإن غاندي هو ثمرة هذه الثقافة التي لا يستطيع بها إلا أن يثور في وجه الظلم. ونستطيع أن نجزم أنه لولا هذه الثقافة الإنجليزية لما ظهرت الدعوة إلى الحرية في الهند، ولما تجرأ رجل مثل غاندي على أن يقول بمساواة المنبوذين بسائر الهندوكيين. ولو كان الهنود يقتصرون في ثقافتهم على

١ - علي أدهم، الهند والغرب، ص: ١٢٢.

الآداب الشرقية لبقوا إلى الآن في خضوع أعمى لولا تهم الإنجليز، كما يخضعون لراجواتهم الهنود وبراهمتهم، ولعدوا أنفسهم منبوذين أمام الحاكم الإنجليزي كما يعد الأنجاس أنفسهم منبوذين أما سائر الهندوكيين^١.

من خلال المطلب، يمكن استنتاج هذه النقاط التالية:

١. قدم الحكم البريطاني في الهند نموذجًا للحرية الدينية، حيث أتاح للأفراد حرية اعتناق الدين الذي يختارونه دون أغراه أو عقاب. ورغم جهود التبشير المسيحي، لم تفرض المسيحية بالقوة، مما سمح لبقاء تنوع ديني كبير في الهند.
٢. أدى الاحتكاك بين الثقافة الهندية والغربية إلى ظهور حركات إصلاحية في الهند ركزت على تنقية العقائد الهندوسية من الخرافات والتقاليد البالية، وتحسين أوضاع المرأة، وتقليل الفجوات الطبقية.
٣. كانت اللغة الإنجليزية والجوانب الثقافية الغربية نافذة للهند نحو أفكار الحرية والمساواة والإخاء. أسهم ذلك في إحياء الروح الوطنية ورفع الوعي بالحقوق الاجتماعية والسياسية.
٤. ظهرت شخصيات هندية بارزة مثل رام موهان روي وسوامي فيفي كاناندا، الذين قادوا حركات إصلاحية اجتماعية ودينية، مهدت لإحداث تغيير جذري في المجتمع الهندي.
٥. رغم المظالم الاستعمارية، ساعدت الثقافة الإنجليزية على إلهام حركة التحرر في الهند، وكان غاندي مثالًا بارزًا على تأثير هذه الثقافة في مقاومة الظلم وإرساء مبادئ الحرية والمساواة.

^١ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٢٥.

المبحث الثاني

مراعاة حقوق الأقليات والطبقات الضعيفة

إن من طبيعة الإنسان ، الاستيلاء على الآخرين والتعالي على أبناء جنسه، فالإنسان يطغى إذا رأى أنه استغنى من الآخرين، ومن أجل ذلك احتاج البشر إلى الحكمية والترافع إلى الأجهزة القضائية وغيرها.

ولم يكن أرض الهند مستثناة من هذا الأمر، فكانت هناك طبقات عديدة تعاني من الظلم والعدوان الذي تمارسه الطبقات المتغترسة. والأخطر من هذا كله أن هذه الأمور كانت تتم على حساب الدين والحق والعدالة.

وفي هذا البحث المختصر سيتعرض الباحث للظلم والجور الذي كانت بعض الطبقات في المجتمع الهندي تمارسه تجاه الأقليات، والطبقات الضعيفة، ومن تلك الأقليات والطبقات: المرأة والمنبوذين وغيرهم، ثم بعد أن اتضحت الصورة أمام القارئ حول حقوق هؤلاء سيتصدى الباحث لذكر دور القيم الديمقراطية عند الحكومة البريطانية لمحو آثار الظلم والاضطهاد الموجود في تلك البلاد. وهذا لأن الحاجة إلى القيم ودورها في إصلاح المجتمع لا يتبين إلا بعد عرض الحالة التي يعيشها الناس.

المطلب الأول: حقوق المرأة

إن الهندوس كانوا يمارسون أنواع الظلم والجور ضد المرأة، وكانوا يهضمون حقوقها ومن أشهر تلك الصور:

أولاً: الحرمان من الميراث

لم تعتبر المرأة في الديانة الهندوكية من ورثة الميت، فكانت محرومة من الميراث وواضح أن حرمانها من الميراث يتسبب في حرمانها من القيمة الاقتصادية.

"والمنبوذ هو المرأة سواء في الديانة الهندوكية من حيث حرمانها من الميراث^١. إنها تحرم هناك من الميراث، ويجوز للرجل أن يتزوج أي عدد شاء من النساء. وواضح أن حرمان المرأة من القيمة الاقتصادية

^١ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٢٠.

يُجرّمها أيضا من القيمة الاجتماعية، وأعتقد أنه لو لم تحرم المرأة الهندية من الميراث لما تجرأ الهنود على إحراقها عقب وفاة زوجها^١.

ثانيا: النبذ من المجتمع

إن من تقاليد الهندوس طرد المرأة من المجتمع وعدم الإذن لها بالخروج من حرمها الخاص إلا في حالات نادرة وظروف استثنائية. وقد بينى للمرأة مكانا خاصا باسم الحرم، وكثيرا ما يتفق أنه يبنى بصورة لا تنفذ إليه أشعة الشمس، فتفتشو بهذا السبب بين الهنديات أمراض خطيرة، مثل: مرض السل والرحم. "ولم تعرف المرأة الهندية النقاب الذي يخفي الوجه، ولكنها عرفت الحجاب، فإنها لا تختلط بالرجال. وهي تعيش في حرم خاص بالنساء، وهذا الحرم يبنى بحيث لا تنفذ إليه أشعة الشمس، ولا يؤذن لها بالخروج إلا قليلا جدا، وأكثر خروجها في الليل، ولذلك يفشو السل بين نساء الطبقات المتوسطة لهذا السبب. وتكثر أيضا أمراض الرحم عند الهنديات لسوء الطرق التي تستعمل في الولادة. فإن النساء تعد نجسة، فهي تنبذ إلى غرفة قذرة نائية من المنزل، ولا تستعمل سوى الملابس القديمة البالية، فتكون النتيجة موت الطفل أو مرضها^٢.

ولما كانت المرأة محرومة من أبسط الحقوق، مثل السير في الأرض والتحرر من ظلمات الغرف والاستفادة من نور الشمس، فما ظنك بالحقوق التي تكتسبها المرأة غالبا في ظل الديمقراطية، مثل: حق التصويت والمشاركة في سياسة الدولة، والعمل في مجالات الحياة الاجتماعية؟

ثالثا: البغاء وخدمة الكهنة

إن من التقاليد التي توجد في بعض مناطق الهند هي إرسال بعض البنات الصغيرات إلى المعبد تحت مسمى النذر، وهذه المرأة تكون خادمة للكهنة، وبعد أن تجاوزت سن الجمال والطراوة يطردها الكهنة خارج المعبد، فتكون بغيا لسائر الناس، بعد أن كانت في خدمة رجال الدين، ولا شك أن هذا نوع من البغاء الديني، لا بد من خلاصها من براثن هذه المصيبة.

وإلى الآن لا يزال من تقاليدهم نوع من البغاء الديني، فإن الهندوكي المؤمن ينذر ابنته لخدمة المعبد، فإذا بلغت السابعة أو الثامنة حملت إليه فتصير بغيا لرجال المعبد، فإذا تجاوزت سن الشباب والجمال

^١ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٣٦.

^٢ - المرجع السابق، ص: ٣٧.

طردوها منه فتعود بغيا لسائر الناس. وقد أعلن غاندي الحرب على هذه التقاليد وهو لا يزال في المَعْمَعَة (الحرب) لم يكتب له النصر^١.

فالطفلة تتعلم من أسلافها الرقص والغناء قبل أن تصير خادمة للكهنة، وعندما تكون أكثر جاذبية وهي في سن الخامسة تستخدمها الكهان لمصالحها فتكون طعمة جاهزة لهم ولزائري الأضرحة مقابل ثمن وبناءً على ذلك، يتم تسليم الكائن الصغير إلى نساء المعبد، لتعليمه الرقص والغناء. وغالبًا ما تصبح في سن الخامسة، عندما تعتبر أكثر مرغوبة، عاهرة للكهنة.

"وإذا عاشت لسنوات لاحقة فإنها تخدم كراقصة ومغنية أمام الضريح في العبادة اليومية في المعبد؛ وفي المنازل المحيطة بالمعبد تكون جاهزة دائمًا، مقابل ثمن، لاستخدام الرجال من الحجاج أثناء إقامتهم الدينية في حرم المعبد. وهي الآن ترتدي ملابس جميلة، وكثيرًا ما تكون محملة بمجوهرات الآلهة، وتعيش حياة نشطة حتى يتلاشى سحرها. ثم تُختم بعلامة الإله الذي عاشت تحت حمايته، وتُطرد إلى العامة، مقابل بدل صغير وبحق معترف به في عيش المتسولين. ولم يفقد والداها، اللذان قد يكونان من الأثرياء ذوي المكانة والطبقة الرفيعة، أي احترام على الإطلاق بسبب طريقة تصرفهما معها. ويُقال إن تصرفهما كان محترمًا تمامًا. وهي وأمثالها يشكلون نوعًا من الطبقة الخاصة بهم، ويطلق عليهم اسم ديفاداسي، أو "عاهرات الآلهة"، وهم عنصر أساسي معترف به في معدات المعبد"^٢.

"وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزعون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير^٣ يترصد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظن القارئ ببلات الملوك وقصور الأغنياء؟"^٤.

رابعاً: الزواج وهضم حقوق المرأة

بعد إمعان النظر في الظروف والأحوال يتضح لنا أنه في أثناء الزواج وبعده تهضم كثيرا من الحقوق التي تتعلق بالمرأة الهندية، فهناك أنواع كثيرة من المظالم التي قد حملت المرأة الهندية في مؤسسة الزواج.

^{١١} - انظر: سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٤٨.

^٢ - Katherine Mayo, Mother India, Published by Harcourt, Brace and company, INC,

١٩٢٧، page: ٤٧.

^٣ - م خ ر، ماخور [مفرد]: ج مَوَاخِرٌ ومَوَاخِرٌ: بيت الدَّعَاةِ والفساد "اعتاد الشَّقِيّ الدَّهَابَ إلى المَوَاخِرِ - لا تبيح المجتمعات الحديثة افتتاح المَوَاخِرِ". (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٤٧٥٨، (٢٠٧٤/٣).

^٤ - الندوي، علي بن عبد الحي، ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين، (ص: ٥٠).

ومن تلك المظالم والتقاليد السيئة التي لا تتوافق مع طبيعتها إرسال الطفلة الصغيرة إلى بيت زوجها لم تبلغ سن المحيض ولم تستطع أن تتحمل أعباء الحمل وأثقال التبعل.

وعلينا أن نميز بين حالتين مختلفتين، الحالة الأولى هي الزواج، والحالة الثانية هي التبعل والوقاع، فنفس الزواج وإن لم تتضرر بها الطفلة الصغيرة لكن كيف تستطيع هذه الصغيرة أن تتحمل أعباء الحمل والتبعل؟

كثيراً ما يبدو أن الزواج هو الوقاع ولا يمكن الفصل بينهما، ولكن الحق خلافه، فمجرد العقد من الإيجاب والقبول أي ضرر يوجه إلى الصغيرة؟ فعّد مجرد عقد الزواج مع الصغيرة باطلاً جهالة، فالعقد صحيح، وبعده على الرجل أن ينتظر صلاحية المرأة للرجال، ولا يتقيد هذا بسن بل متى تحتمل المرأة الرجال يرسلها أبوها إلى زوجها، قال برهان الدين البخاري: "وأكثر المشايخ على أنه لا عبرة للسن في هذا الباب، وإنما العبرة للطاقة إن كانت صحيحة سميّة تطيق الرجال، ولا يخاف عليها المرض من ذلك؛ كان للزوج أن يدخل بها وإن لم تبلغ تسع سنين، فإن كانت نحيفة مهزولة لا تطيق الجماع ويخاف عليها المرض لا يحل للزوج أن يدخل بها، وإن كبر سنّها وهو الصحيح ...، وإن ادعى الزوج أنها بلغت مبلغ النساء، وقال الأب: هي صغيرة لم تبلغ، ولا تحتمل الرجال، وهي ممن يشك في بلوغها، إذا قلن: إنها تحتمل الرجال دفعت إلى الزوج في هذا الباب"^١.

فمن العادات السيئة التي تورثت في الهند عن التقاليد أن الأم قد تترك ابنتها بمنزل العريس، فإذا بلغ الاثنان سن المراهقة استهلكا قوتهم في وقت يحتاجان فيه إلى ادخارها، فينشأ الشاب الهندي منهوكاً لا طاقة له على الكد والجهد. وتحمل زوجته وهي بعد في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، فيمتص الجنين دمها، ويضنيها بعد أن يولد بالرضاع. ثم هي في هذه السن لا تصلح للأمومة، ولذلك يموت الأطفال في الهند بكثرة مفزعة. وفي مثل هذه الظروف يهون شأن المرأة هواناً عظيماً. وينشأ الهندي وهو لا يدري معنى للحب بين الجنسين، إذ هو لا يعرف غير الغلّة. كما يهون شأن الأم، فلا تكون للتربية البيئية القيمة التي لها في الأقطار الأوروبية^٢.

^١ - البخاري برهان الدين محمود بن أحمد الحنفي، المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٥٣/٣.

^٢ - انظر: سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٣٧.

ولم يكن أمام الزوجة إلا الخضوع والتواضع لكل مطالب الزوج، فعندما يعاملها الزوج بقسوة وفظاظة لم يكن عليها إلا الصبر، والرضى بما قدر لها من الأزل.

"فليكن زوجها مشوهًا، أو متقدمًا في السن، أو ضعيفًا، أو مسيئًا في سلوكه ... يجب على الزوجة أن تنظر إليه دائمًا باعتباره إلهها، ويجب أن تغدق عليه كل اهتمامها ورعايتها ... يجب على الزوجة أن تأكل فقط بعد أن يشبع زوجها. إذا صام الزوج، فلتصم هي أيضًا ... في حضوره، يجب أن تكون دائمًا مبهجة، ولا تظهر أبدًا علامات الحزن أو السخط. فلتتجنب بعناية إثارة المشاحنات المنزلية بشأن والديها، أو بسبب امرأة أخرى قد يرغب زوجها في الاحتفاظ بها، أو بسبب أي ملاحظة غير سارة قد تكون موجهة إليها. إن مغادرة المنزل لأسباب مثل هذه من شأنه أن يعرضها للسخرية العامة، ومن شأنه أن يعطي سببًا لكثير من الكلام الشرير. إذا ثار زوجها، وهددها، وأساء إليها بشدة، بل وضربها ظلمًا، فعليها أن تحببه بتواضع، وتمسك بيديه، وتقبلهما، وتتوسل إليه بالعفو، بدلاً من الصراخ بصوت عالٍ والهروب من المنزل".^١

من المعلوم أن هذه التقاليد التي تجذرت في الهند وتمتعت بقوة الزمن لا يمكن استئصالها بعشوية وضحاها فلا بد من التدريج في التعامل مع هذه الظواهر السيئة.

عملت الحكومة البريطانية بالتدرج والاحتياط الكامل في تغيير القوانين، ورفع سن الزواج، وتسهيل الزواج بين الرجال والنساء من طبقات مختلفة، فقد استطاعت الحكومة البريطانية بهذه السياسة أن تقضي على العادات المتبعة في الهند منذ أكثر من ألفي عام.

ولم يبدأ الإصلاح التشريعي في الهند إلا بعد الحرب الكبرى ففي ظل الحكم الذاتي الجزئي الذي أدخل إلى الهند في سنة ١٩٢١ أسس مجلس تشريعي مركزي أكثرية أعضائه من الهنود المنتخبين غير الرسميين وقد استطاع هذا المجلس تغيير قوانين المجتمع الهندوسي وأن يلزم الهندوسيين اتباع القوانين الجديدة، وقد رفع سن زواج البنات إلى بلوغهن السنة الرابعة عشر من عمرهن، وأجاز الزواج بين رجال ونساء من طبقات مختلفة، وأبطل ذلك عمل القوانين التي كانت تحرم تزواج الأفراد من الطبقات المختلفة، وقد كانت العادة المتبعة في الهند منذ أكثر من ألفي سنة هي زواج البنات قبل سن البلوغ،

^١ - Katherine Mayo, Mother India, Published by Harcourt, Brace and company, INC, ١٩٢٧, page: ٧٣.

وكان هذه العادة من التقاليد المتبعة التي لا سبيل إلى مخالفتها وقد عدها التشريع الهندي عادة ضد القانون، وأصبح من يقدم عليها يعرض للقصاص^١.

خامسا: الأرمال يؤسهن وحرقهن

ومن العادات السيئة التي توجد في كثير من المناطق الهندية هي حرق الأرملة على رماد زوجها بعد أن أحرق الزوج ميتا. حيث إن الزوج عندما كان يموت يؤتى بأرملته وهي حية فتحرق على جثته وكان ذلك يعد لها شرفا وفخرا يعتزون به.

"فقد كان من تقاليدها إلى بداية القرن الماضي أنه عندما كان الزوج يموت يؤتى بأرملته وهي حية فتحرق مع جثته، وكان هذا عندهم من الدين. وقد كفوا عن ممارسة هذه العادة، ولكن لا يزال من بقاياها كراهة الأرمال، والتشاؤم منهن، ومعاملتهم أسوأ معاملة. والأرمال لا تتزوج إلى الآن في الهند"^٢. والسؤال المحير هو أن الأرملة كيف تسلم نفسها للحرق لأجل الحصول على العزة والشرف الموهوم بعد وفاتها، وهذا الشيء لا يجدي لها نفعاً، فلا بد من وجود دليل آخر تجبرها على ارتكاب هذا العمل الخطير.

يمكن أن يتضح بعض جوانب القضية من خلال عرض حالة الأرملة بعد وفاة زوجها. يتبين من خلال مراجعة المصادر أن الأرملة بعد وفاة الزوج تصبح خادمة للآخرين، فهي تخدم بدون راحة واستراحة مع أنها لا تجوز لها تناول أكثر من وجبة واحدة في اليوم. ومن شقائها أنها لا بد أن تحلق شعرها وأيضاً تخاطب بازدراء تام، وهذه الحالة تتكرر باستمرار، ومن ذلك قد تضطر الزوجة إلى أن تصب الزيت على ملابسها وتضرم فيها النار حتى تموت فتخلص من مصاعب الحياة بعد أن رفضت الحرق على رماد الزوج.

فالأرملة عندما تنظر إلى المستقبل لا ترى إلا الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، فكيف لا ترضى بالحرق أول يوم مات زوجها حتى تموت الآن خلال بضعة ثوان قبل أن تقتلها الآلام والأحزان والمصائب بصورة تدريجية.

وقد اتضح بعد هذا العرض الوجيز أن الحاجة إلى إخراج المرأة من هذه الظلمات المتراكمة عليها، كانت ماسة، ولم يكن بدا من إصلاح شامل وقوي يكشف عنها غطاء الظلم والجور.

١ - انظر: علي أدهم، الهند والغرب، ص: ١٢٠.

٢ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٤٨.

وقد دفعت القيم الديمقراطية الحكومة البريطانية إلى تحسين حالة المرأة الهندية، وإخراجها من ظلمات التقاليد والأعراف السائدة في الهند، من خلال سن القوانين وإنشاء الجمعيات وتأسيس العديد من الصادقين والمتنورين الهنود الذين تربوا تحت رعاية الحكومة الإنجليزية، وعرفوا القيم الديمقراطية. ومن الحقوق التي قامت الحكومة البريطانية بدعمها حق تعليم المرأة الهندية، وقد صرف لهذه المهمة كثيرا من الأموال، فهناك صناديق أسست من قبل الجمعيات الخيرية البريطانية لحماية حق تعليم المرأة الهندية.

"إن العديد من الصناديق التي تتبرع بها الجمعيات الخيرية البريطانية تدعم أعمال رعاية الأمومة والطفولة في العديد من أجزاء الهند، حيث يحاول الأطباء والممرضات البريطانيون المخلصون تعليم القابلات. ولكن المهمة بالغة الصعوبة. ففي كل مرة تعترض القابلات على أنهن ليس لديهن ما يتعلمن"^١.

وجهودهم لم تقصر على الفتيات، بل تعدت العجائز أيضا، فقد كانت هناك جمعيات تعطي للعجائز الأموال مقابل حضورهن الدرس.

"وقد قالت لي إحدى الطبيبات أثناء عرضها لي على صف تعليم القابلات الذي يضم مجموعة مروعة من العجائز المسنات: إننا ندفع لهؤلاء النساء من أموال من إنجلترا، مقابل حضورهن الدروس. كما ندفع لبعضهن مقابل عدم ممارستهن، وهو مبلغ زهيد، ولكنه يكفيهن بالكاد لمعيشتهن. فهن متقدمات في السن، وغيبات للغاية، وبائسات بشكل عام، إلى الحد الذي يمنعهن من التعلم. ومع ذلك، عندما نتوسل إليهن بعدم قبول الدعاوى القضائية بسبب الأذى الذي يلحقه، يقلن: "كيف يمكننا أن نعيش بطريقة أخرى؟ هذه هي وسيلتنا الوحيدة لكسب الطعام"^٢.

وأيضا لم تكتسب المرأة حق التصويت والمشاركة السياسية إلا في فترة الحكم البريطاني، وهذا الحق لم يكن معترفا به قبل ذلك.

عند صياغة مشروع قانون الإصلاح لعام ١٩١٩، قرر البرلمان البريطاني أن مسألة منح الحق لمشاركة النساء في التصويت لا يمكن الاعتراف به إلا بعد إقرار الشعب بهذا الحق، فما دام الشعب لا يقر لها بتلك الحق، يصعب تطبيق قوانين مشاركتها على المجتمع، ففي البداية وإن سمح البرلمان البقاء على

^١ - Katherine Mayo, Mother India, page: ١٠٥.

^٢ - المرجع السابق.

الاستبعاد الجنسي القديم في مشروع القانون، لكن في الوقت نفسه ترك المجال في سلطة المجلس التشريعي لكل مقاطعة لمشاركة النساء ووضعهن على سجل الانتخابات الإقليمية^١. وانتهز بعض المجالس التشريعية هذه الفرصة وأدرجت هذه الطبقة المحرومة في قائمة الناخبين.

"وبموجب هذه السلطة، ألغت مقاطعات مدراس وبومباي والبنغال والمقاطعات المتحدة والبنجاب وآسام القيود المفروضة على ترشح النساء على أساس الجنس، ومنحت حق التصويت للنساء بنفس الشروط التي يتمتع بها الناخبون الذكور. وعلاوة على ذلك، بعد أن أقر المجلس التشريعي المركزي قراراً مماثلاً، أصبح بوسع النساء الآن التصويت ليس فقط في مجالس المقاطعات بل وأيضاً في الجمعية التشريعية. ولكن بموجب المؤهلات العامة الحالية، فإن العدد الإجمالي للنساء اللاتي يحق لهن التصويت في مختلف أنحاء الهند لا يتجاوز مليوناً أو نحو سبعة عشر في المائة من إجمالي الناخبين"^٢.

وهكذا استطاعت النساء المشاركة في الحكم بعد أنه لم يكن كثير من الهنود يعترفون لها بحقوقها الطبيعية، مثل حق التعليم، وحق التملك وحق الإرث وغيرها.

"ثم أوصت لجنة موديمان بتعديل القواعد الانتخابية لكلا المجلسين التشريعيين في الهند. مجلس الدولة والجمعية. بإزالة شرط عدم الأهلية على أساس الجنس، بحيث يتسنى للدوائر الانتخابية في المقاطعات التي منحت حق التصويت للنساء فيها أن تنتخب النساء في كلا المجلسين متى شاءت. وفي الأول من سبتمبر/أيلول ١٩٢٦، صوت المجلس التشريعي الهندي على هذا"^٣.

إن الأرملة المسكينة تقدر القيم الديمقراطية الإنسانية والتي طبقتها الحكومة البريطانية في الهند، حيث خلصتها من الظلم البواح الذي كان الهندوس يرتكبونه باسم الساتي. كيف لا؟ وهذه الجريمة الشنعاء لم تحظر رسمياً إلا في العهد الحكومة البريطانية.

فأول من قام بتجريم ممارسة الساتي، هو اللورد ويليام بنتينك^٤، حيث أصدر قانوناً في عام ١٨٢٩م بعد أن استشار ٤٩ ضابطاً كبيراً وخمسة قضاة في تلك المسألة، وفي الأخير صار مقتنعاً بأن وقت الحظر

١ - المرجع السابق، ص: ١١٤..

٢ - المرجع السابق.

٣ - المرجع السابق.

٤ - اللورد ويليام بنتينك (مواليد ١٤ سبتمبر ١٧٧٤، بولسترو، باكينجهامشير، إنجلترا - توفي ١٧ يونيو ١٨٣٩، باريس، فرنسا) كان حاكماً عاماً بريطانياً لبنغال (١٨٢٨-١٨٣٣) والهند (١٨٣٣-١٨٣٥). كان أرستقراطياً يتعاطف مع العديد من الأفكار الليبرالية في عصره، وقام بإجراء إصلاحات إدارية هامة في حكومة ومجتمع الهند. قام بإصلاح المالية، وفتح الوظائف القضائية للهنود، وقمع ممارسات

قد حان، لم يكتف ببتينك لتقبيح تلك الممارسة فقط، بل نص على أن الذين تثبت تورطهم بالمساعدة في تلك الجريمة أو التحريض والترغيب عليها سوف يدانون بارتكاب جريمة القتل شبه العمد، بل صرح القانون بالإعدام في حق من يستخدم القوة والقهر لإرغام الأرملة على الحرق^١. وهذا القانون كان يعتبر أول قانون يصدر بتلك الصراحة من قبل الحكومات التي حكمت الهند.

بعد أن قامت الحكومة البريطانية بإصدار ذلك القانون، توجهت ٣٠٠ شخصية هندوسية بارزة يتقدمهم راجا راموهون بالشكر لبنتينك على ما وصفوه بـ "إنقاذنا إلى الأبد من العار المشين الذي لطخ سمعتنا إلى يومنا هذا وصورنا على أننا قتلة متعمدون للإناث"^٢. ثم إن هذا القانون وإن خفف بعد ذلك من قبل الحكومة لكن لا نستطيع أن ننسى دوره في تقليل تكرار تلك الحوادث المؤلمة.

في البداية تظهر عادة الساتي أنها انتحار المرأة لأجل الزوج، مثل غيرها من الحالات التي تقوم المرأة بحرق نفسها، وفي اعتبار هذا، فلا تكون المجرم إلا من يقدم على الساتي أو من يساعده في هذا الأمر، لكن بعد التأمل يتضح أن هذه الحالات هي حالات خطيرة تقف من ورائها التقاليد والأعراف والمعتقدات الدينية، فليس هذا جرماً شخصياً يتعلق بإنسان أو إنسانة فقط، بل هو بلوى عامة تشارك فيها جماعات من أفراد المجتمع، فلا بد من إدانة من يساعد على ارتكاب هذه الجريمة، ومن يقوم بتأييد هذه الفكرة وترويجها في المجتمع. وهذا الأمر هو ما قامت به الحكومة الهندية آنذاك بزعامة راجيف غاندي.

في عام ١٩٨٧، طبقت الحكومة الهندية آنذاك بزعامة راجيف غاندي - ابن حفيده موتيلال نهرو^٣ - قانوناً يجرم "تمجيد الممارسة" للمرة الأولى في تاريخ الهند. ونص القانون على أن الأشخاص الذين

مثل السوتي (إحراق الأرامل) والنغاغي (القتل الطقوسي من قبل عصابات السرقة). (Also known as: William Henry Cavendish-Bentinck, Lord Bentinck Written by Philip Mason Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Article History <https://www.britannica.com/biography/Lord-William-Bentinck>)

^١ - كيف حظر المستعمر البريطاني ممارسة حرق الأرامل في الهند؟ وكالة أنباء بي بي سي، ٢٥ أبريل/ نيسان ٢٠٢٣م، <https://www.bbc.com/arabic/world-٦٥٣٧٧٢٤٨>

^٢ - كيف حظر المستعمر البريطاني ممارسة حرق الأرامل في الهند؟ وكالة أنباء بي بي سي، ٢٥ أبريل/ نيسان ٢٠٢٣م، <https://www.bbc.com/arabic/world-٦٥٣٧٧٢٤٨>

^٣ - موتيلال نهرو (مواليد ٦ مايو ١٨٦١، دلهي، الهند - توفي ٦ فبراير ١٩٣١، لكناو) كان قائداً في حركة الاستقلال الهندية، ومؤسساً مشاركاً لحزب السواراج ("الحكم الذاتي")، ووالد أول رئيس وزراء للهند، جواهر لال نهرو. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica)

يؤيدون أو يبررون أو يروجون للممارسة يعاقبون بالسجن لفترة تصل إلى سبعة أعوام. كما رفع القانون الممارسة إلى منزلة القتل العمد وأعاد تطبيق عقوبة الإعدام على كل من يحرض عليها^١.

المطلب الثاني: حقوق المنبوذين

إن قضية المنبوذين في شبه القارة الهندية من التحديات التي يواجهها النظام الاجتماعي الهندي، حيث إن المنبوذين في الهند، المعروفين أيضاً باسم "الداليت" أو "الطبقة الدنيا"، وهم مجموعة من الناس الذين يعانون من التمييز الاجتماعي والاقتصادي والديني، كانوا يُعتبرون خارج نظام الطبقات الهندوسي التقليدي، وكانوا يتعرضون للاضطهاد والتمييز في جميع جوانب الحياة.

إن الاضطهاد الذي يتحمله المنبوذون في الهند له تاريخ طويل وجذور عميقة في حياتهم الاجتماعية، فقد يعود تاريخ التمييز ضد الداليت إلى آلاف السنين، حيث كانوا يُعتبرون "غير طاهرين" وكانوا ممنوعين من دخول المعابد أو استخدام نفس الموارد التي يستخدمها الطبقات العليا.

"في البداية، كما يُفسَّر، عندما جاء أسلاف الهندوس الحاليين ذوي البشرة الفاتحة إلى الهند لأول مرة، وجدوا هناك عرقاً أصلياً أكثر سمرة وسميكة، وهم الدرافيديون، بناء المعابد العظيمة في الجنوب. ورغب كهنة الوافدين الجدد في عدم اختلاط دماء شعبهم بالسلالة الأصلية، بل الحفاظ على سلالة واحدة. لذلك أعلنوا أن الدرافيديين نجسون، لا يجوز المساس بهم"^٢.

ولم يتوقف هذه الفكرة عند هذا الحد، بل قام المشرعون والمقننون الهندية من البراهمة وغيرهم بتحويل هذه الفكرة إلى نظام متكامل ينسحب على كل من يعيش هناك.

حيث إن البراهمة اخترعوا أربع طبقات رئيسية بعضها فوق بعض وجلوا أنفسهم في الطبقة العليا التي تريد أن تسيطر على الجميع، وهذا الأمر طبيعي إذ كل إنسان يحب التفوق على الآخرين وقهرهم.

"وضع المشرعون القدامى أنفسهم على رأس هذا النظام الطبقي، تحت مسمى "آلهة الأرض" البراهمة. ثم وضعوا تحتهم الكشاتريا، أو الرجال المقاتلين؛ وبعد المقاتلين، الفايشيا، أو الفلاحين، الذين ينظر إليهم الاثنان أعلاه بازدراء؛ وأخيراً، القسم الرابع، أو طبقة شودرا، الذين ولدوا فقط ليكونوا خدماً

checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ٢, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/biography/Motilal-Nehru>

١ - كيف حظر المستعمر البريطاني ممارسة حرق الأرامل في الهند؟ وكالة أنباء بي بي سي، ٢٥ أبريل/ نيسان ٢٠٢٣م، <https://www.bbc.com/arabic/world-٦٥٣٧٧٢٤٨>

٢ - Katherine Mayo, Mother India, page: ١٥١.

لثلاثة الآخرين. ومن هذه الأقسام الأربعة، التي انقسمت إلى أقسام أصغر اليوم، بُني إطار المجتمع الهندوسي. وخارج كل طبقة وتحتها، في عالم من الاحتقار الذي اكتسبته بسبب خطاياها في وجودها السابق، لابد أن يزحف المنبوذون إلى الأبد".^١

والشقاء يحيط بهؤلاء التعساء من جهات مختلفة تجعل نجاستهم حقيقية وليست دينية فقط. حيث إنهم ممنعون من امتلاك العقار، ويحرمون من الميراث ولا شغل لهم إلا نزع الكنف من المدن وحمل الزباله والقمامة، وغيرها.

"والمنبوذ هو والمرأة سواء في الديانة الهندوكية من حيث حرمانهما من الميراث. النجاسة في الهند صفة المنبوذين ورثوها بحكم التقاليد. ولكن الفاقة العظيمة التي يعيش فيها هؤلاء المنبوذون تجعل نجاستهم حقيقية وليست دينية فقط. فإنهم ممنعون من امتلاك الأرض، ومن حفر الآبار للاستقاء، وعليهم يقع واجب نزع الكنف من المدن وحمل الزباله. فإذا لم تلحقهم النجاسة من الدين فإنها تلحقهم من هذه الصناعات وأمثالها، ومن حرمانهم الذي يضطرهم إلى الاستقاء من البرك والمناقع".^٢

فعندما يعتبر طبقة أنها دون البشر فلا شك أن المهام التي تسند إليه تكون من أرذل المهام وأدناها، ولا يسمح لها بالعمل في المجالات الأخرى.

"إن هؤلاء الناس يعتبرون أنفسهم دون البشر، ولذلك فإنهم يخصصون لهم المهام التي تعتبر أقل شأنًا من البشر؛ ويرتبط اسمهم بالعار. ويُسمح لبعضهم بالعمل فقط في جمع الفضلات وإزالة التربة الليلية".^٣ ومن الحقوق التي حرمت هذه الطبقة منها هو حق التعليم، والقراءة والاستئارة بنور العلم والمعرفة، فقد عرفت البراهمة أن الجهل هي أفضل وسيلة لإبقاء هذه الطبقة بحالها، خادمة لهم وذليلة لا تعرف إلا الطاعة والخضوع لأوامرهم.

فالإنسان لا يخرج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد إلا بالمعرفة والعلم، فأول فريضة على الإنسان هو العلم، ولا يكون قبل العلم أي عبادة، ولما حرم الإنسان العلم حرم الخير كله.

"وبعضهم بسبب الجهل الذي حُكم عليهم به، فإنهم بغيضون في عاداتهم؛ وجميعهم محرومون بشدة من أي نوع من أنواع التعليم. ولا يجوز لهم امتلاك الكتب المقدسة الهندوسية أو قراءتها. ولا يجوز لأي

^١ - المرجع السابق.

^٢ - سلامة موسى، غاندي والحركة الهندية، ص: ٢٠ و ٣١.

^٣ - Katherine Mayo, Mother India, page: ١٥٤.

كاهن براهمي أن يخدمهم؛ وباستثناء حالات نادرة، لا يجوز لهم دخول معبد هندوسي للعبادة أو الصلاة. ولا يجوز لأطفالهم الذهاب إلى المدارس العامة^١.

بل إن الحيوانات كانت تتمتع بحقوق أكبر من هؤلاء الأثقياء، فالإنسان لم يكن نجسا على رأيهم بل لمس الحيوان ولكن يكون نجسا بعد أن جالس المنبوذ أو لمسه، ولم يكن الحيوان ممنوعا من دخول المعبد والمستوصف والشوارع العامة، لكن المنبوذ كان محروما من هذا الحقوق الطبيعية البسيطة.

فقد كان المنبوذون يُمنعون من دخول محكمة العدل، والمستوصفات، والفنادق. في بعض المناطق، لا يُسمح لهم حتى باستخدام الطرق العامة. كعمال أو مزارعين، لا يمكنهم دخول المتاجر أو المرور عبر الشوارع التي توجد بها المتاجر، ويعتمدون على وسطاء لشراء أو بيع بضائعهم. بعضهم لا يُسمح لهم بأي عمل سوى التسول، وحتى في ذلك، يجب أن يبقوا بعيدين عن الأنظار ويصرخون طلبًا للصدقة. إذا أُعطيت لهم الصدقات، يجب أن تُلقى على الأرض بعيدًا عن الطريق، ولا يمكنهم أخذها إلا بعد اختفاء المانح عن الأنظار.

ولا يجوز لهم سحب المياه من الآبار العامة؛ وإذا كان مسكنهم في منطقة حيث المياه نادرة ومصادرها متباعدة، فهذا يعني بالنسبة لهم ليس المزيد من الاهتمام من قبل الآخرين، بل المزيد من المعاناة والتعب.

"لا يجوز لهم دخول محكمة العدل؛ ولا يجوز لهم دخول مستوصف للحصول على مساعدة لمرضاهم؛ ولا يجوز لهم التوقف في أي فندق. وفي بعض المقاطعات لا يجوز لهم حتى استخدام الطريق العام، وباعتبارهم عمالاً أو مزارعين، فإنهم خاسرون باستمرار، حيث لا يجوز لهم دخول المتاجر أو حتى المرور عبر الشوارع التي توجد بها المتاجر، بل يجب أن يثقفوا في سلسلة عشوائية من الوسطاء الجائعين لشراء أو بيع بضائعهم الهزيلة. وبعضهم، في هاوية انحطاطهم، لا يُسمح لهم بأي عمل على الإطلاق. ولا يجوز لهؤلاء بيع أي شيء، حتى عملهم الخاص. ولا يجوز لهم سوى التسول. وحتى لهذا الغرض لا يجرؤون على استخدام الطريق، بل يجب أن يقفوا بعيدًا، غير مرئيين، ويصرخون طلبًا للصدقة من المارة. وإذا أعطيت الصدقات، فيجب إلقاؤها على الأرض، بعيدًا عن الطريق، وعندما يختفي المانح عن الأنظار وتكون الطرق فارغة، وليس قبل ذلك، يجوز للمراقب أن يتسلل ويخطف ويهرب"^٢.

^١ - المرجع السابق .

^٢ - المرجع السابق.

فعندما ينحرف الإنسان من الحق، ويختار اتباع الشهوات والغرائز الحيوانية، فلا شك أن معايير تصوير منكوسا، ووجهة نظره تصبح معكوسا، يجعل الحيوان مقدسا وبني جنسه نجسا، يقبل على العبادة على البقر والشجر، وينسي عبادة رب الأرض والقمر.

وفي ظل هذه الظروف البائسة اضطر بعض المنبوذين إلى تكوين عصابات إجرامية تقول بالنهب والسرقة وقطع الطريق، ولا شك أن هذه الأعمال الإجرامية تزداد يوما بعد يوم في ذلك المجتمع الذي يعد الإنسان أرذل من الحيوان، ولا يعترف له بحقوقه الإنسانية.

"وفي ظل هذه الظروف البائسة التي لا مفر منها، ابتكرت بعض المجتمعات بين المنبوذين مهنة في ممارسة الجريمة. وتتخصص هذه المجتمعات، إحداها في سرقة الجيوب، والأخرى في السرقة، والبعض الآخر في التزوير، وقطع الطرق، والقتل، وما إلى ذلك، وكثيراً ما تجمع بين تجارتها الخاصة والدعارة كصناعة ثانية. وتنتشر هذه المجتمعات في مختلف أنحاء الهند، وتعرف باسم القبائل الإجرامية، ويبلغ تعدادها اليوم نحو أربعة ملايين ونصف المليون شخص".^١

ثم إن الحكومة البريطانية في ظل القيم الديمقراطية فتحت الطريق أمام المنبوذين للحرية، واستطاعت أن ترد حقوقهم الإنسانية إليهم، ومن ذلك، حق التمتع بالمرافق العامة، مثل المدارس العامة، والمستوصفات، والمكاتب الحكومية، والمناصب العليا.

ثم إنه يجب علينا أن نميز بين القضيتين، إحداها إصدار القوانين واللوائح والثانية تطبيق هذه القوانين من قبل الشعب، ولا شك أن فرض هذه التشريعات على المساحات الشاسعة في البلاد أمر بعيد المنال إذا لم يتفق هذه التشريعات وتقاليد الشعب.

هناك أمران مختلفان تماماً فالأول أن تقوم الحكومات الإقليمية بتمرير تشريعات تؤكد على حق كل مواطن في التمتع بالمرافق العامة، مثل المدارس العامة، والثاني: أن يتم فرض هذا التشريع على مساحات شاسعة من الريف وعلى القرى الصغيرة العديدة دون تعاون الشعب وضد إرادته، فهذا أمر مختلف تماماً. ولنتأمل هذه الفقرة في أمر حكومة مدراس الصادر في السابع عشر من مارس/آذار ١٩١٩، والذي جاء فيه:

^١ - المرجع السابق، ص: ١٥٥.

لا يُسمح بقبول أطفال البانشاماس [المنبوذين] إلا في ٦٠٩ مدرسة من أصل ٨١٥٧ مدرسة تابعة للرياسة، على الرغم من أن اللوائح تنص على أنه لا يجوز رفض قبول أي صبي لمجرد أنه ينتمي إلى طبقة اجتماعية معينة^١.

وفي المجموع لقد بلغ الشعب الهندي بهذا المستوى من الفهم والإدراك أن التعليم لا يختص بطائفة دون طائفة وأن المنبوذين رغم ضعفهم ومشاكلهم الصحية يستطيعون أن يرتقوا إلى المناصب العليا، وأن يرسوا أبنائهم إلى المدارس والجامعات، وهذه الأمور لم تحسم إلا تحت ظل القيم الديمقراطية.

"في أحد أيام أغسطس/آب ١٩٢٦، كان أعضاء المجلس التشريعي في بومباي يناقشون قراراً يقضي بإرغام المجالس المحلية على السماح للمنبوذين بإرسال أطفالهم إلى المدارس، واستخراج المياه من الآبار العامة، والتمتع بحقوق المواطنة الأخرى. وقد وافق أغلب الأعضاء الهندوس على القرار من حيث المبدأ"^٢.

هذا من جهة ومن جهة أخرى تجرأ المنبوذون أنفسهم أن يثوروا ضد التقاليد السائدة في المجتمع، وطالبوا الطبقات الأخرى بإعطاء حقوقها وعدم الجور والعدوان.

لقد خاضت طبقة ناما-سودرا في البنغال، وهي طبقة من المنبوذين يبلغ عددهم هناك حوالي ١,٩٩٧,٥٠٠، تحت تشجيع النور الجديد، معركة قوية وثابتة وناجحة من أجل الارتقاء الذاتي، ونظموا أنفسهم لدعم مدارسهم الخاصة. وفقاً للتقرير الأخير، كان لديهم في البنغال أكثر من ٤٩,٠٠٠ طفل تحت التعليم، منهم ١,٠٢٥ وصلوا إلى المدرسة الثانوية و١٤٤ وصلوا بسبب الشعور الطبقي إلى كليات الفنون، حيث اضطرت الحكومة إلى تخصيص مساكن خاصة لإقامتهم^٣. وأيضاً قام المنبوذون بإنشاء جمعيات عديدة في المجتمع لحماية حقوقهم.

هذا هو الروح الذي نفخته القيم البريطانية في أبدان هؤلاء التعساء. فقد قامت الحكومة بإنجاز أعمال كثيرة من أجل المنبوذين بمساعدة البعثات المسيحية، ومن خلال العمل الدؤوب والمضني، في التعليم والإقناع والتشجيع، على جانبي الهوة الاجتماعية. فقد ظهرت في السنوات القليلة حركات وتيارات عديدة لأجل الدفاع عن حقوقهم، ومنها الجمعيات.

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٥٧.

٢ - المرجع السابق، ص: ١٦٠.

٣ - انظر: المرجع السابق.

"وهناك ظاهرة ثانية تتمثل في ظهور جمعيات تطوعية هندية تعهدت جزئياً بمكافحة التمييز على أساس العرق. وتشمل هذه الجمعيات جمعية "خدام الهند"، وهي جمعية سياسية معلنة؛ وجمعية اللورد سينها لمساعدة المنبوذين في البنغال وآسام؛ وجمعية براهمو ساماج، وغيرها. إن عمل هذه الجمعيات، على الرغم من فائدته حيثما يمس، متقطع، ولا يكاد يذكر مقارنة بالحاجة إليه، ولكنه جدير بالملاحظة مقارنة بالعدم الذي سبقه".^١

فهل قام الهنود قبل العهد البريطاني بقمع هذا الظلم والجور تجاه المنبوذين واسترداد الحقوق المغتصبة من الطبقات العليا؟

"إن مثل هذا المفهوم ليس من صميم الهند. لقد قال لي أبرز زعماء حركة براهمو ساماج: "إن كل ما نقوم به من أعمال اجتماعية في الهند اليوم ما هو إلا تقليد صريح للإنجليز ونتيجة لنفوذهم في البلاد".^٢ وحتى ندرك مدى خدمة الحكومة البريطانية للمنبوذين، ودورها في إنقاذ حياتهم من الذل والهوان، وتضمن حقوقهم ومكانتهم في المجتمع الهندي، يجب علينا أن نستمع إلى اعترافات المنبوذين في هذا المجال.

فالمنبوذون لم يكونوا يعارضون الحكم الذاتي، لكن كان قلقهم دائماً بشأن مصيرهم تحت الحكم الذاتي في الهند. فالطبقات العليا التي أساءت معاملة هؤلاء التعمساء، فهل ندمت عن عملها وستعاملهم بعد تولي زمام الأمور على أساس العدالة الاجتماعية؟

فقد تحسنت حال المنبوذين في ظل الراج البريطاني، ومع اعتبار القيم الديمقراطية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، فهل تكون تلك الحقوق معترفاً بها لولا حماية القوانين البريطانية؟

قالت جمعية مدراس آدي درافيدا جانا سابها، التي تم تنظيمها لتمثيل ستة ملايين من السكان الأصليين الدرافيديان في رئاسة مدراس ما معناه: إن نظام الطبقات الذي يطبقه الهندوس يصمنا بالعار باعتبارنا منبوذين، ولكن الهندوس المنتمين إلى الطبقات لا يستطيعون أن يعيشوا من دون مساعدتنا. فنحن نوفر لهم العمالة، وهم يستمتعون بالثمار، ولا يعطوننا في المقابل إلا القليل. ولقد بدأ تحسننا على المستوى الاجتماعي والاقتصادي بفضل الحكومة البريطانية. فالبريطانيون في الهند يحبوننا، ونحن نحبههم في المقابل. ورغم أن الحالة العامة للمجتمع لا تزال متدنية للغاية، فإنه وإن كان بيننا بعض الرجال المتعلمين

^١ - المرجع السابق، ص: ١٦٥.

^٢ - المرجع السابق.

لكن لا يسمح هؤلاء بالارتقاء في المجتمع بسبب الوصمة العامة التي يلصقها الهندوس بالمجتمع. فنحن لا نعارض الحكم الذاتي، بل سوف نقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا أي محاولة لنقل مقعد السلطة في هذا البلد من أيدي البريطانيين إلى ما يسمى بالهندوس المنتمين إلى الطبقات العليا. ورغم هذا فإن الهندوس يتجاهلون مطالبنا، بل وحتى وجودنا نفسه؛ فكيف سيتمكنون من تعزيز مصالحنا إذا انتقلت السيطرة على الإدارة إلى أيديهم؟^١

وهناك أمثلة عديدة لتأييد المنبوذين القيم الديمقراطية في ظل الحكومة البريطانية، ومن هذه الأمور هو الاستقبال الحار الذي قام به المنبوذون عندما أبحر ويلز إلى الهند في أواخر عام ١٩٢١م، وقبل أن يصل إلى الهند أعلن غاندي وهو في ذروة شعبيته لكل الهندوس أن تلك الزيارة القادمة إهانة تضاف إلى الإهانة، ودعا الشعب كله إلى المقاطعة العامة، وعدم الحضور لأجل الاستقبال، ومع كل هذا فقد استقبله المنبوذون بصورة محيرة.

فعندما وصل إلى ممر خيبر وجد أمراً غريباً في انتظاره. فقد تجمع على جانب الطريق سرب من المنبوذين، الذين شجعتهم الأنباء التي وصلت إليهم، ليقدّموا له التبرجيل والاحترام، قائلين: "الحكومة تحيا!" و"هتفوا: "الحكومة تحيا!"، مع هتافات ترددت صدها من التلال القاحلة. وعندما أبطأ الأمير سيارته ليرد عليهم تحياته، قفزوا ورقصوا من شدة حماسهم. فلا عجب أن ترتفع أرواحهم، وأن ترى أعينهم رؤى، وأن تنطق ألسنتهم بكلمات صوفية.

"انظروا! انظروا!" صاحوا في بعضهم البعض. "هو ذا النور! النور!"

ولقد بلغ من الفخر والاعتزاز مبلغاً دفع العديد منهم إلى الانتقال إلى دلهي للانضمام إلى خمسة وعشرين ألفاً من أمثالهم الذين كانوا ينتظرون قدوم الأمير. وسارع أهل القرى المجاورة إلى الانضمام إليهم. وأخيراً، وصل إلى طريق جراندي ترانك باتجاه بوابة دلهي. وفي وسط جيوش المنبوذين، كان هناك واحد يقف أعلى من البقية، ويرفع علماً^٢.

السلام على الأمير! السلام على ابن الملك!" صاحوا جميعاً معاً، حتى كاد أن يقطع حناجرهم. ثم تقدم أحد المتحدثين، ليعرض في خطاب صغير متواضع حب وولاء ستين مليوناً من النجسين، ويتوسل

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٠.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٣.

إلى وريث العرش أن يتوسط لهم لدى والده الملك الإمبراطور، وألا يتركهم أبداً في أيدي أولئك الذين يحتقروهم ويريدون الاحتفاظ بهم كعبيد.

لقد استمع الأمير إلى حديثه حتى النهاية فقد فعل شيئاً لم يسمع به من قبل. لقد وقف من أجلهم ، وتحدث ببضع كلمات طيبة، ونظر إليهم جميعاً ببطء، ثم ألقى عليهم التحية بابتسامة مشرقة^١. ثم إن غاندي دافع عن حقوق المنبوذين، وأراد محو الظلم الذي يرتكبه الطبقات الأخرى تجاه هؤلاء، ولكن السؤال هو أن غاندي من أين وصل إلى هذا المستوى من الفهم والشعور حتى قام بإصلاح المجتمع الهندي، وإحياء القيم الإنسانية. فلقد درس غاندي في جامعات لندن، وتعرف على الثقافة البريطانية، فلا نستطيع أن ننسى تأثيره بتلك البيئة.

المطلب الثالث: حقوق الحيوانات

كثيراً ما يتخيل إلى عقلية البشر أن أهل الهند لا يقومون بتعذيب الحيوانات ولا بإيلاهما، حيث إنهم يقدسون كثيراً منها، ويجعل دينهم تعذيب الحيوان وقتله جريمة. لكن في الواقع، للأسف الشديد، فإنهم يقومون بتعذيب الحيوانات بطرق أخرى.

فمن عادة الهنود أنهم يرسلون الأبقار المريضة والعجول التي تكاد أن تموت جوعاً إلى الشوارع والطرق حتى تموت، فهم لن يسمحوا بقتل البقرة مهما بلغت حالتها من الضعف والمرض.

"إن جزءاً لا يستهان به من ضرورة سن مثل هذا القانون ينشأ من عادة الهنود، التي سبق وصفها، في إرسال الأبقار المريضة والمحتضرة، والعجول التي يوشك على الموت جوعاً، إلى الشوارع لتتجول حتى تموت، وهو ما يسميه "موتاً طبيعياً"^٢. أي هندوسي لن يسمح بتدمير بقرة مهما كانت حالتها"^٣.

هذا من جهة ومن جهة أخرى هناك بعض من يقوم بتعذيب المعز وإيلامه بسلخ جلده حياً، حيث إن تمديد الجلد المنزوع من الماعز الحي أسهل بكثير من تمديد جلد الماعز الميت، وفي النتيجة سعره يكون أعلى قليلاً من الجلد الذي يسلك منه ميتاً. فالذي يقوم بهذه الأعمال الهمجية، فهل يجد في صدره قلباً ينبض؟

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٧.

^٢ - المرجع السابق، ص: ٢٥٢.

^٣ - المرجع السابق، ص: ٢٥٣.

"وفي عام ١٩١٧ تبين أنه من الضروري توضيح نوايا المادة الخامسة، وتوجيهها صراحة إلى الأشخاص الذين يقتلون عنزة بقسوة، أو يمتلكون في حوزتهم جلد عنزة مقتولة بهذه الطريقة. وقد سنت الحكومات الإقليمية نفس القوانين. ومع ذلك، فإن الجريمة التي تستهدفها هذه التدابير لا تزال مستمرة في البلاد هو سلخ الماعز حياً. يمكن تمديد الجلد المنزوع من الماعز الحي إلى حجم أكبر قليلاً، وبالتالي يكون سعره أعلى قليلاً، من الجلد الذي يتم إزالته بعد القتل.... ولن يكون من الضروري أن نستمر في شرح هذه النقطة. ففي عام ١٩٢٥، أحالت الشرطة إلى المحكمة أربعاً وثلاثين حالة من حالات سلخ الماعز حية في إقليم بيهار وأوريسا^١.

ورغم أن أهل الهند يقدسون كثيراً من الحيوانات، بل يعبدونها ويتركون بأبوالها وقاذوراتها، لكنه باعتراف أحد البياطرة فإنهم أكثر الناس قسوة في التعامل مع الحيوانات.

"إن هذا البلد هو الأكثر قسوة في العالم في التعامل مع الحيوانات، هذا ما قاله طبيب بيطري عجوز يمارس هذه المهنة منذ زمن طويل في الهند. ولعل من الإنصاف أن نكرر أن أهل الهند يتبعون دياناتهم، التي لا ترحم الإنسان ولا الحيوان، باستثناء الطائفة الصغيرة التي تسمى الجينيين، بالمعنى الذي نعرف به الرحمة في الغرب^٢.

لقد قام الحكومة البريطانية في ضوء القيم البريطانية بسن تشريعات عديدة لأجل منع القسوة على الحيوانات، حيث كانت بعض الحيوانات تحمل أثقالاً كثيرة لا تستطيع حملها. ولا بد أن نعرف أن تلك القوانين لا تكون لها أثراً جلياً في المجتمع إلا إذا كانت مقبولة عند الشعب ومعروفاً بما لديهم.

لقد نشأت القوانين في الهند لمنع القسوة على الحيوانات في صورة مشاريع قوانين حكومية. وسواء كانت هذه القوانين صادرة عن الإدارات المركزية أو الإدارات الإقليمية، فقد تم تمرير التدابير اللازمة لحماية الحيوانات من القسوة على الرغم من اللامبالاة، إن لم يكن العداء الصريح، من جانب التمثيل الهندي. فقد قدمت الحكومة مشروع قانون إلى المجلس التشريعي في ولاية بنغال في السادس عشر من مارس/آذار ١٩٢٦ للحد من نقل الجاموس المثقل بالأحمال في أشد ساعات النهار حرارة في خضم أشد

^١ - المرجع السابق، ص: ٢٥٩.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٦٢.

فصول السنة حرارة. وفي شوارع كلكتا^١، كانت معاناة الجاموس التي يتم نقلها بهذه الطريقة فضيحة عامة منذ أمد بعيد، في نظر الغربيين^٢. ولقد تم تشريع هذا القانون رغم معارضة كبار التجار الهنود؛ حيث إنهم كانوا يستخدمون تلك الأبقار لمصالحهم الخاصة.

هذا وقد أنشئت تحت رعاية الحكومة البريطانية بعض الجمعيات التي تدافع عن حقوق الحيوانات، وتخفف من الآلام التي تتحملها يومياً.

فقد أسست في الهند مؤسسة تديرها "جمعية إنقاذ الأبقار الحلوب من الذهاب إلى مسلخ بومباي". يتألف هذا المجتمع بالكامل تقريباً من التجار الهنود الأثرياء وجمعيات التجار. ومن بعض التقارير الشيقة (الجذابة)، هذا التقرير الذي يبدأ ببيان يتضمن التقدير الذي يفيد بأنه خلال السنوات الخمس من الأول من إبريل/نيسان ١٩١٩ إلى الحادي والثلاثين من مارس/آذار ١٩٢٤، تم ذبح ٢٢٩,٢٥٧ بقرة في مدينة بومباي، وأن ٩٧,٥٨٣ عاجلاً وجاموساً صغيراً "تعرضوا للتعذيب حتى الموت في الإسطبلات". ويبدأ التقرير باستئناف ضد كل عمليات الذبح، حتى ذبح الثيران والأغنام والماعز، والتي وردت أرقام عنها أيضاً^٣.

^١ - كلكتا: مدينة هندية، وهي عاصمة ولاية البنغال. وتعد ميناء رئيسياً للتجارة مع شرقي وجنوب شرقي آسيا. وتبلغ مساحتها ١٠٤ كم^٢، وعدد سكانها ٤,٣٩٩,٨١٩ نسمة، وعدد سكان كلكتا الكبرى ١١,٠٢١,٩١٨ نسمة. وتواجه المدينة مشكلة الانفجار السكاني وتلوث البيئة والأوبئة حيث تبلغ الكثافة ٤٢,٠٠٠ نسمة/كم^٢. (الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ٧٦٧).

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٥٠.

^٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٦٧.

المبحث الثالث

المساهمة في الحكم وتحقيق الأمن

إذا تأملنا في الديمقراطية يتضح لنا أن الديمقراطية في جوهرها تخالف الاستبداد والأنانية والانتكاء على الآراء الفردية التي لا تعبر عن رأي الجمهور، وبالتالي فمساهمة الشعب في الحكم، وتشريكهم في الرأي من قيم الديمقراطية البارزة، وإذا كان كذلك ففي ظل الديمقراطية وقيمها يعيش الناس راضين عن الحكومة وسياساتها.

المطلب الأول: المساهمة في الحكم

كان من سياسات الحكومة البريطانية مساهمة الناس في الحكم وأمن البلاد، فما دام أن الناس منعزلون عن الحكم وتدير أمورهم، ولم يروا لأنفسهم مكانا في الحكومة لم تستطع الحكومة تطبيق القوانين وتوفير الأمن إلا بصعوبة بالغة وجهد جهيد.

ولما كان المساهمة في الحكم تتطلب الخبرة والعلم والبصيرة، اهتمت الحكومة بصورة مستمرة بتأهيل الشعب الهندي، حتى يتيسر لهم المساهمة في الحكم بشكل فعال.

في سنة ١٨٦١م أصدر المجلس الاستشاري الهندي قانونا بإدخال أعضاء غير رسميين للأغراض التشريعية، وكان بين الذين رشحوا ثلاثة من الهنود، وكونت مجالس على هذا النمط في الأقاليم، وعمل الأعضاء حق مناقشة الميزانية وتوجيه الأسئلة في المسائل التي تمس المصلحة العامة، وهذا الإصلاح المتواضع أتاح الفرص لنقد الإجراءات الحكومية، ومكن من المشاركة في عمل القوانين^١.

وأيضا في المجالس التشريعية، أتاححت الحكومة فرصة المشاركة فيها لأجل التدريب على كيفية إدارة الشؤون ووضع القوانين وتدير المجالس الإدارية الإقليمية ومجلس الإدارة المركزية وغيرها في غياب الحكومة البريطانية.

وفي سنة ١٩٠٩م اتخذت خطوة أخرى إلى الأمام، فمنح المجلس التشريعي الهندي أغلبية من الأعضاء غير الرسميين على أن يختار بالانتخاب سبعة وعشرون من هؤلاء الأعضاء بعضهم يختاره جماعة خاصة من الناخبين مثل: أصحاب الأرض والغرف التجارية، والبعض الآخر يختاره المجالس التشريعية الإقليمية، وأصبح كذلك للهنود أعضاء في مجلس الإدارة المركزية وفي مجالس الإدارة الإقليمية، ثم أدخلت نظم الحكم الذاتي المحلي، وذلك بإيجاد هيئات إقليمية، ومجالس بلدية يتاح للعنصر القومي فيها أن يمارس

^١ - انظر: علي أدهم، الهند والغرب، ص: ٩٢.

الشؤون الإدارية، وتشجيع نظم الحكم المحلي ، جعل الناس يتألف النظم النيابية، وأصبح حجر الزاوية في بناء الديمقراطية الهندية^١.

وقد أدت مشاركة الشعب في إدارة الحكومة وتدير الأمور إلى وقوع الخلاف في بعض الأحيان بين من ينوب تطبيق سياسات الحكومة البريطانية في الهند وبين من كان ينوب عن الشعب الهندي. كان من نتائج تطور إدارة الخدمة المدنية في الهند ، تكرار وقوع خلاف بينها وبين وزير الهند في الوزارة البريطانية، وكان وزير الهند يمثل سياسات الحكومة البريطانية على حين كانت إدارة الخدمة المدنية تمثل السلطات الهندية، وكانت إدارة الخدمة المدنية تتحدث باسم الهند قبل ظهور الحركة القومية الهندية، وكان شعارها أن الشاهد الحاضر يرى ما لا يراه الغائب البعيد، لأن الشاهد الحاضر يعلم الملابس المحلية، فهو أصدق حكما وأصح تقديرا، وكانت إدارة الخدمة المدنية ترفض في بعض الأوقات قبول الضغط المالي أو البرلماني الذي يأتي من لندن، وكانت تقف في بعض الأوقات الأخرى في وجه مصالح الرأسماليين الإنجليز والتجارة وأصحاب الصناعات دفاعا عن مصلحة الهند^٢. فكانت هذه الإدارة تدافع عن مصالح الهند التي تصورتها وطنا للملايين الصامته الخرساء ضد أساطين المال وأصحاب الشركات الكبرى وكبار الرأسماليين.

وقد استقال مرة أحد نائبي الملك في الهند؛ لأنه رفض أن يحمل حكومة الهند على الأخذ بسياسة لمصلحة لانكشاير وليست لمصلحة الهند، وقد أدى ذلك إلى أن يعلن وزراء الهند المتتابعون أن حكومة الهند خاضعة خضوعا مطلقا لسياسة الوزارة البريطانية، ولكن تنفيذ هذه السياسة كان يواجه صعوبات جمة، وقد استطاعت حكومة الهند تدريجيا أن تعزز سلطاتها، وقد أدى ذلك في النهاية إلى تكوين سياسات مستقلة للهند يراعى فيها ما تعده إدارة الخدمة العامة لمصلحة الهند^٣.

ونظرا إلى هذه التطورات استطاعت الهند بصورة تدريجية أن ترسم سياساتها وحدها، وتفوق على المشاكل التي كانت تعج في البلاد، وصارت لها صوت في المجالس والمؤتمرات الدولية.

وإذا تركنا جانبا الاختلاف على نظام الحكم في الهند نجد أنه كان هناك تقدم في نواح أخرى، ففي مجلس الحرب الذي أنشأه لويد جورج في لندن اختير هنديان، ودعيت الهند إلى مجلس المباحثات

١ - انظر: نفس المرجع السابق.

٢ - انظر: نفس المرجع السابق.

٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٩٤.

الإمبراطورية وكان هذا المجلس مقصورا على أعضاء الكومنولث التي تتمتع بالحكم الذاتي، وارتفعت مكانة الهند من الناحية الدولية حتى تمكنت من أن تطالب بمقعد في مؤتمر الصلح، وجعلت صوتها مسموعا في المسائل التي تمس مصالحها^١. وقد تم كل هذه التقدمات والتطورات في ظل اهتمام الحكومة البريطانية بمساهمة الهند في الحكومة والأمن.

ولقد زادت سلطة الهندوس في الحكم عقب الحرب العالمية الكبرى؛ حيث تطورت آنذاك مساهمة الناس في البرلمان فسميت هذه الفترة بفترة التطور النيابي والبرلماني.

والفترة التي أعقبت سنة ١٩١٩م كانت فترة التطور النيابي والبرلماني في حكومة الهند، فإصلاحات مونتاغيو شلمز فورد أوجدت حكومة برلمانية ذات تبعة جزئية في الأقاليم، وبموجبها أصبح في يد الوزراء الشعبين تبعة التشريع واتسعت سلطتهم في مسائل أخرى كثيرة^٢.

المطلب الثاني: الأمن

إن من أعظم النعم بعد الإيمان العافية والأمن، فالأمن ضد الخوف، الأمن طمأنينة القلب وسكينته وراحته وهدوؤه. والأمن أصل من أصول الحياة البشرية، لا تزدهر الحياة ولا تنمو ولا تخلو بغير الأمن. والأمن من أسباب انبساط الحياة، واطمئنان النفوس على عواقب عمله، حيث إن الإنسان يصير ذا نشاط تام مع الأمن ويتحقق المصالح والمنافع في ظله، والأمن يدر الخيرات والبركات، ويسبب في أمن السبل والطرق واتساع التجارات والمصانع والشركات، وفي ظله يزيد الحرث والنسل، وتحقن الدماء، وتحفظ الأموال والحقوق، وتيسر الأرزاق، وتعظم العمران، وتسعد وتبتهج الحياة في جميع مجالاتها مع الأمن.

ومن قيم الديمقراطية تحقيق الأمن في المجتمع، ومن المعلوم أن تحقيق الأمن في المجتمع بصورة حقيقية وبشكل كامل لا يتيسر إلا بمساهمة الناس في الحكم، وتشريكهم في إدارة الأمور وشؤون الدولة. إذا رجعنا إلى تاريخ الهند نرى أن تلك البلاد قد فتحت أو احتلت بصورة مستمر من قبل البلاد المجاورة، فقد هاجمت عليها طوائف كثيرة من المسلمين وغيرهم عبر القرون المتعددة، فكانت بحاجة ماسة إلى من يأمن حدودها، ويحفظها من الهجمات المتكررة.

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٩٩.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٠٢.

ثبتت دراسة بسيطة للأحوال السائدة في الهند أن الحكم البريطاني لم يكن خاليًا من الفوائد؛ لأنه قبل الغزو البريطاني، لم يكن للهند وجود خارجي. في هذه الأرض الشاسعة، كان يحكم عدد من الأمراء وكانوا يتقاتلون باستمرار مع بعضهم البعض. وحتى اليوم لا توجد لغة مشتركة لجميع سكان هذه الأرض. وحتى القادة الثوريون يعترفون بأن اللغة الإنجليزية هي اللغة الوحيدة بين أكثر من ٢٠٠ لغة مختلفة في هذا البلد، ومن خلال هذه اللغة فقط يمكن إنتاج وحدة الرأي حول القضايا الثورية والسياسية بين أهل ذلك البلد^١.

هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت هناك عداوة عميقة بين الطوائف المختلفة ولا سيما بين الهندوس وبين المسلمين، حيث يعتبر الهندوس المسلمين وغيرهم من المنبوذين الذين لا يجوز التعامل معهم، ولا يحل أكل طعامهم أو مد اليد إلى شراهم.

ويعتبر الهندوس أصحاب العقائد الأخرى منبوذين أيضا، فالمسلم بالنسبة إليهم نجس، وكذلك المسيحي واليهودي، ولهذا يرفض الهندوسي رفضا باتا أن يسمح لمسلم بزيارته، والشرب من مياهه، وشراء الطعام من حانوته. ويفضل الموت جوعا أو عطشا على مد يده إلى طعام أو شراب لمس مسلم، أو نال منهما شيئا، ولذلك كان في كل مكان بالهند ماء للمسلمين، وماء للهندوس، وطعام للمسلمين، وطعام للهندوس وهلم جرا. ولا شك أن هذه الفروق المحزنة في طريق الانقراض بين أفراد الطبقة الراقية والمتعلمة، فهم يتزاورون ويختلطون، ويجالس بعضهم بعضا، ولكن هؤلاء قلة نادرة، والحقد والنفور والكراهية ما زالت قلوب ثلاثة وتسعين في المائة من الشعب على الأقل^٢.

وهذا التعامل السلبي المشحون بالحقد والتعصب والعنصرية، فلا شك أنه يزيد البؤس والشقاء وتتأجج في ظله العداوة والشحناء بين الطوائف والجماعات، فلم يكن بدا من جهة تستطيع إخماد نار هذه العداوة وتحقيق الأمن في المجتمع، وقد اعترف البعض بأن الحكومة البريطانية هي التي استطاعت أن تنجز تلك الأعمال.

وقد اجتهدت بعض الشخصيات في التوفيق بين الطرفين، وتحقيق الصلح والسلام في المجتمع، ورفع العنصرية والظلم ومحو آثاره، لكن أخفقت جهودهم ورجعوا بخفي حنين^٣.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، مترجم: رحيم نامور، ناشر: گام، سال چاپ: ١٣٥٦ هـ ش، ص: ٢٢٠.

^٢ - انظر: أمينه السعيد، مشاهدات في الهند، ص: ١٣٨.

^٣ - والأصل في قولهم: «جاء بخفي حنين» أن إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابيّ بخفّين، فاختلغا حتى أغضبه، فازداد غيظ الأعرابيّ؛ فلما ارتحل أخذ حنين أحد خفيّه فألقاه على طريقه ثم ألقى الآخر في موضع آخر؛ فلما مرّ الأعرابيّ بأحدهما قال: ما أشبه هذا بخفّ حنين! ولو

ولقد أخفقت الجهود في التوفيق بين الطرفين، لأن أوجه الخلاف مرجعها الدين، وليست بنت تقاليد اجتماعية، يمكن القضاء عليها، وتغييرها بسهولة. وأظن أن العداء سيبقى في الهند ما بقي الجهل، فالجهل يورث تعصبا دينيا، يحول بين المرء وتفهمه روح دينه على حقيقتها، مما يدفعه إلى التعلق بالأعراض دون الجواهر^١.

والسبب في تحقيق هذا الأمن الشامل في البلاد هو مساهمة الناس في الحكم وفي إدارة شؤون البلد، حيث إن هذا الأمر جعل الهندوس يشعرون بالرضا، وهم مستعدون لخدمة البلاد والشعب والحكومة، ولو لم تتدخل الحكومة في هذا الأمر لسفك في الأرض الدماء، ولم تكن أي طائفة من الطوائف مستعدة لقبول أمر طائفة أخرى، ومن المعلوم أن هذا الأمر يخلق الفوضى في المجتمع ويعزز التشتت والتشردم بين الناس.

وحتى اليوم، هناك أكثر من سبعمائة ولاية في الهند تخضع لحكم الأمراء الأصليين، وفي الشؤون الخارجية فقط تشرف الحكومة البريطانية على شؤونهم. هؤلاء الأمراء، الذين يشعرون بالرضا بسهولة عن سياسة الحكومة البريطانية، حتى لو كانت هناك حرب وسفك الدماء، لن يكونوا على استعداد للاستسلام أمام البرلمان في الهند. وحدها المبادئ والقوانين البريطانية هي القدرة على إرساء النظام العام والأمن بين الدول المختلفة والأديان المختلفة والأعراق المختلفة^٢.

والجنود البريطانيون وإن قل عددهم في أرض الهند، لكن يتمتعون بالخبرة والتجربة الطويلة في قضية تأمين الحدود والثغور، ويتمتعون أيضا بالأسلحة الجيدة وبالوسائل المتطورة ولذلك فهم ناجحون في تأمين الحدود رغم كل التهديدات الموجودة والأخطار المحدقة بهم.

تأمل الفصائل والطوائف المختلفة في الهند أن يتمكن الجنود البريطانيون فقط من منع الحرب بين المسلمين والهندوس. القوات البريطانية المدربة والمسلحة جيدا والبحرية البريطانية القوية هي التي تمكنت

كان معه الآخر لأخذته، ومضى؛ فلما انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول، وأناح راحلته فأخذه ورجع إلى الأول، وقد كمن له حنين فعمد إلى راحلته وما عليها فذهب به؛ وأقبل الأعراي ليس معه غير الخفين؛ فقال له قومه: ما الذي أتيت به؟ قال: بخفي حنين. (الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٨ هـ، ١٥٩/٣).

١ - انظر: أمينة السعيد، مشاهدات في الهند، ص: ١٣٩.

٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٢٠.

من منع الغزوات الأجنبية في البر والبحر لمدة قرن من الزمان وإنقاذ الهند من مخاطر الغزوات الأجنبية ومنع غزو القبائل البرية الشمالية أو الدول الاستعمارية الجشعة والصديقة مثل الإمبراطورية اليابانية. ولو لم تكن الهند تحت سيطرة قوات الإنجليز المدربة والمجهزة بالأسلحة المتطورة لم تتحصن الهند أمام الغزوات الأجنبية، والدول الاستعمارية الجشعة، وهذا الغرار استطاعت الحكومة البريطانية أن تحقق الأمن والسلام بصورة متكاملة، الأمن السياسي، والأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي، والأمن القضائي. كان القضاء البريطاني هو الوحيد القادر على تجميع سلسلة من قانون اجتماعي ووطني وجنائي وتنفيذها في جميع أنحاء الهند في الوقت المحدد. دعوة المبشرين الغربيين هي التي استطاعت الحد من حدة السخرية من البراهمة تجاه الطبقات الأخرى، وإنقاذ المرفوضين من هذه الحياة المهينة، وتعليمهم وطلب العلم وتغذية روح الأمل والحياة الحقيقية فيهم^١.

استنادًا إلى مطالب هذا المبحث، يمكن تلخيص هذه النقاط:

١. تبرز أهمية إشراك الشعب الهندي في الحكم والإدارة كجزء من سياسة الحكومة البريطانية. هذه المشاركة ساهمت في تعزيز الديمقراطية، حيث تم تأسيس مجالس تشريعية، وإدخال نظم الحكم الذاتي، ما أتاح للشعب فرصة التدريب على إدارة شؤون الدولة.
٢. الأمن اعتُبر من أهم الركائز الأساسية لنجاح أي مجتمع. إذ إنه يوفر الطمأنينة، ويدعم الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ويسهم في ازدهار البلاد. كما أن تحقيق الأمن ارتبط بمساهمة الشعب في إدارة شؤون الدولة.
٣. شهدت الهند تطورات ملحوظة في النظم البرلمانية، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى. تميزت هذه الفترة بإصلاحات مهمة عززت دور النواب الشعبيين وزادت من سلطاتهم في التشريع وإدارة شؤون الأقاليم.
٤. أظهرت مفاهيم هذا المبحث الصعوبات التي واجهتها الهند بسبب الانقسامات العرقية والدينية، خاصة بين المسلمين والهندوس. وقد اعتُبرت هذه الانقسامات تحديًا رئيسيًا أمام الأمن والوحدة الوطنية.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٢٥.

الفصل الثاني

الإمبراطورية البريطانية وقيمها التنموية

المبحث الأول: تحسين الاقتصاد

المبحث الثاني: الاهتمام بالتعليم

المبحث الثالث: العناية بالصحة

المبحث الأول

تحسين الاقتصاد

لا شك أن المال في هذه الدنيا شريان الحياة والعامل الأساسي للتنمية المادية، كما أن الشرع والدين شريان الحياة الروحي والمعنوي. فالدولة ليس لها تقدم في المجالات المختلفة إلا إذا تحسنت اقتصادها واستطاعت أن تتغلب على الفقر والتحديات الاقتصادية في البلاد. ومن القيم التنموية التي قد بذلت الحكومة البريطانية جهوداً لأجل تحقيقها - كما يدعى من قبل البريطانيين - تحسين الاقتصاد وتوفير بيئة مستقرة وشفافة تشجع على الاستثمار والنمو الاقتصادي. وفي هذا البحث المختصر سيعرض الباحث نماذج مختلفة تبرز اهتمام الحكومة البريطانية بالجانب الاقتصادي لبلاد الهند.

أولاً: الزراعة

لما كانت الهند بلداً زراعياً يعتمد اقتصادها على محصولاتها الزراعية، والثروة الحيوانية وضعت الحكومة البريطانية نمو الزراعة وتربية الحيوانات في بؤرة اهتمامها. فعلى سبيل المثال قامت بترويج زراعة القطن وتحسين نوعه ببرامج عديدة وبتثقيف الشعب في ذلك المجال. "لم تدخر الحكومة جهداً في تحسين جودة محصول القطن. وفي إطار الجهود الرامية إلى حث المزارعين على بذل المزيد من الجهد في العمل، تم إنشاء مزارع تجريبية ومحطات نموذجية في مناطق زراعة القطن، وتم إنشاء مراكز تعليمية تفتيشية، وتم توفير أدوات محسنة وبذور جيدة، فقد قامت الحكومة باستيراد تلك الأدوات من أمريكا، ولكن يتم تصنيعها الآن بواسطة العمالة الهندية في المحطات الزراعية الحكومية. لقد قال أحد الخبراء الأميركيين: "إن الهند في واقع الأمر دولة أفضل في إنتاج القطن من الولايات المتحدة"^١.

إن هذا لم يكن فحسب، بل استطاعت الحكومة البريطانية أن تضيف إلى أرض الهند أراضي كثيرة للزراعة، وبنت سدوداً مختلفة لتوفير المياه للزراعة.

فقد أرادت الحكومة أن تتم كل هذه التطورات بصورة تدريجية، حيث إن هذه البلاد كانت تعاني بشدة من الفقر والجهل المطبق، وكان الكثير منهم يكبد لأجل لقمة يدخلها في فيه وفي امرأته.

^١ - Katherine Mayo, Mother India, page: ٣٩١.

ونتيجة لجهود المهندسين البريطانيين، تم إضافة ٢٠ مليون فدان^١ من الأراضي، أي ما يعادل كامل وسد سُكور الذي يجري بناؤه حالياً، ففي حال اكتماله، سيضيف مساحة تعادل الأراضي الزراعية لدولة مصر إلى الأراضي المزروعة. واليوم، توفر الحكومة ١٣٪ من المياه الزراعية في الهند. وإذا كان على الرغم من هذه التطورات التدريجية وعلى الرغم من الجهود العديدة التي تبذلها الحكومة لتطوير الزراعة وتوسيع نطاق التعليم، فإن مجتمع الهند عالق في هاوية الفقر والعوز، فإن ذلك يرجع إلى حقيقة أن هذه الأمة تشبث بقوة بأخلاقها وعاداتها القديمة الفاسدة، ولا تريد أن تفتقد معتقداتها وأحكامها المسبقة الجاهلة^٢.

ثانياً: السكة الحديدية

لما كانت بلاد الهند تحتوي مساحات شاسعة يصعب على الناس التنقل في أطراف هذه البلاد الواسعة المترامية الأطراف، كانت بحاجة شديدة إلى تمهيد الطرق واستخدام الوسائل والأدوات الجديدة للنقل والحمل. ومن أبرز إنجازات الحكومة البريطانية في الهند الاهتمام بهذا الجانب المهم في تلك البلاد. فقد أنشأت الحكومة البريطانية سككا حديدية تسهل على الناس التنقل من مكان إلى مكان وحمل الأثقال عبر تلك الوسائل الحديثة التي لا عهد للهنود بها.

"اكتمل أول خط سكة حديد في الهند عام ١٨٥٣. وفي نهاية مارس ١٩٢٤، بلغ إجمالي طول النظام المفتوح في الهند ٣٨٠٣٩ ميلاً، والذي نقل في عام ١٩٢٥ ما يزيد على أربعة أضعاف ونصف عدد الركاب لكل ميل من الفولاذ مقارنة بخطوط السكك الحديدية في الولايات المتحدة. الأرباح الصافية التي حققتها حكومة الهند من السكك الحديدية بعد سداد الفائدة، وأموال الاستهلاك، ورسوم المعاشات التقاعدية، وما إلى ذلك، بلغت في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥، ٥٨,٧٣٦,٠٠٠ دولار^٣.

وفي السنوات المقبلة ازداد اهتمام الحكومة البريطانية في بناء السكك الحديدية وتم تأسيس النظام المعاصر للتلغراف والهاتف، ووطورت الإضاءة الإلكترونية.

١ - فدان [مفرد]: ج أَفْدَنَة وفَدَائِيْن: وحدة مساحة الأرض الزراعية، مقدار من الأرض الزراعية تختلف مساحته في البلاد العربية، ومساحته في مصر ٤٢٠٠ متر مربع تقريباً "زراع فدان قمح". مساحة أراضي فرنسا، إلى الأراضي الزراعية. (د. أحمد مختار عبد الحميد عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٣٧١٣، (١٦٨١/٣).

٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢١٣.

٣ - Katherine Mayo, Mother India, page: ٣٩٢.

واليوم تمت الموافقة على العديد من مشاريع القوانين المتعلقة بالمصانع، والتي خفضت ساعات العمل وفتحت شؤون العمال المهرة والميكانيكيين المؤهلين، وتم إرسال أصحاب رؤوس الأموال إلى الهند لتنمية المهوبة والجدارة في المجتمع الهندي. إن إنشاء وتأسيس النظام الحالي للتلفراف والهاتف والبريد وتعزيز وتطوير الإضاءة الكهربائية، وبناء خط سكة حديد بطول ٤٥٠٠٠ ميل، فتح أبواب الثروة والتقدم للهند. هذه نعمة وهدية قدمت للهند من الغرب، وهذا النجاح القسري وغير الطوعي ألقى بفكر وحياة هذا البلد إلى مستوى أفضل وأعلى^١. فقامت الحكومة البريطانية بتدريب الهنود بسلوك وطريقة يقدرون على التنافس والمساواة مع الدول المعاصرة في العالم.

ثم إن من الآثار التي خلفتها تلك السكك في البلاد هي القضاء على الرعب المنتشر بين الناس عن المجاعة العامة. فقد كان الخطر في الأيام الماضية بصورة خطيرة، لكن استطاعت الحكومة بفضل تلك السكك الحديدية أن تتغلب على تلك المشاكل والمصائب.

"فإن أحد آثار وجود السكك الحديدية كان بالتأكيد القضاء على الرعب المميت المتمثل في المجاعة في الهند. فبينما كان هذا التهديد في الأيام الخوالي يلوح في الأفق على الدوام، وينتظر فقط فشل موسم الرياح الموسمية في جني محصوله البشري، فإن الوفيات الناجمة عن هذا السبب أصبحت الآن غير معروفة تقريباً؛ لأن مخطط المجاعة المنظم الذي تنفذه الحكومة يعتمد على وسائل لنقل (أ) الرجال من مناطق المجاعة إلى المناطق التي تحتاج إلى العمالة، و(ب) الغذاء والعلف للذين يتوافران بكثرة إلى الأماكن التي يحتاج إليها كلاهما لإنقاذ الأرواح. خلف محطات السكك الحديدية تمتد شبكة من الطرق السريعة الجيدة التي بناها البريطانيون، والتي تعمل على تسريع حركة المرور بالسيارات حيث كانت عربات الثيران وحدها تترحف وتتخبط"^٢.

وقد كانت هناك استخدامات عملية أخرى لتلك السكك، مثل: قضية معادلة الأسعار، وتطوير التجارة، وزياد الرخاء وكثرة إيرادات الحكومة، وفتح أسواق جديدة على البلاد وغيرها. وكل هذه الأمور

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢١٧.

^٢ - Katherine Mayo, Mother India, page: ٣٩٣.

حمل أحد نواب مفوضي المنقطة القدامى أن يعترف ويقول: "وفي كل مرة أفكر في المجاعة والعمل اليائس والموت الجماعي الذي كان يعنيه ذلك في الماضي، الله يبارك هنري^١ فورد^٢!"

إن الذي ذكر لم يكن إلا جانب صغير من الأعمال التي أنجزتها الحكومة البريطانية في الهند، وهناك جوانب كثيرة يصعب شرحها في هذا البحث المختصر، فقد بذلت الحكومة البريطانية أموال هائلة لأجل إحياء الصناعات، وتسديد الدين العام للهند، وإنشاء السكك الحديدية وتأسيس المؤسسات العديدة لإقراض الهنود.

ومن أجل منع جشع الرأسماليين الهنود الظالمين الذين يدمرون مدينتهم، أنشأت إنجلترا ما يقرب من سبعين ألف مؤسسة رهن عقاري ومبالغ كبيرة من المال، بخصم أقل مما يطلبه الرأسماليون والمقرضون الهنود للشعب. وقد أعطت تلك الدولة قرضاً. أسس رأس المال البريطاني السكك الحديدية الهندية ومصانعها العديدة، وقد استخدم الرأسماليون البريطانيون ما يقرب من ٢٠ مليار دولار في مختلف فروع الصناعات الهندية. وقد سددت إنجلترا جزءاً كبيراً من الدين العام للهند البالغ ٢ مليار دولار. وإذا قامت بريطانيا بسحب رأس المال والأموال تدريجياً من الهند، فإن ذلك سيكون بقدر انخفاض هذه المبالغ^٣.

وفي الأخير يتضح ثروة بلاد الهند وتنمية اقتصادها في عهد الراج البريطاني أيضاً من خلال عرض الأرقام التي تتعلق بادخار الفضة والذهب فيها من قبل النساء الهندوسات.

"وعلى هذا فإن الهند تمتص سنوياً أربعين في المائة من إجمالي إنتاج العالم من الذهب، وثلاثين في المائة من الفضة في العالم. ولا يتم سك أي من هذا الذهب أو تحويله إلى عملة، ويقول السيد بليس عن الفضة: "إن كل الامتصاص يأتي استجابة للطلب على السبائك... للاستخدامات الزخرفية". ويضيف قائلاً: "لا شك أن كمية هائلة من السبائك الذهبية قد دُفنت ونُسيت". وعادة ما يمتلك الرجل المثقل

^١ - هنري فورد، مؤسس شركة فورد موتور، وُلد في بلدة سيرينغويلز، مقاطعة واين، ميشيغان، في ٣٠ يوليو ١٨٦٣، أظهر هنري فورد الشاب اهتماماً مبكراً بالميكانيك. توفي هنري فورد في مقر إقامته، فير لين إستيت في ديربورن، أُقيمت جنازة في كاتدرائية سانت بول الأسقفية في ديترويت، ميشيغان، ودُفن هنري فورد في مقبرة العائلة في كنيسة سانت مارثا الأسقفية في ديترويت. (<https://corporate.ford.com/articles/history/henry-ford-biography.html>)

^٢ - Katherine Mayo, Mother India, page: ٣٩٣.

^٣ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢١٩.

بالديون للبنك كمية كبيرة من العملات المعدنية المخفية، ومع ذلك يستمر في الاقتراض. وتستند هذه العادة إلى فكرة الاستعداد للأيام الصعبة وعدم الثقة العميقة في العنصر البشري في أي نظام مصري^١. وهذا الأمر ينشأ من قبل طبيعة الهندوس، حيث إنهم مهووسين بالذهب والفضة، وغيرها من المعادن التي تستخدم للتزيين والزخرفة.

فهل يمكن لمن هو فقير يحتاج إلى لقمة من الطعام لسد الرمق أن يدخر تلك الأموال الهائلة في البيت أو يقوم بتدفينها ويموت جوعاً وعطشاً!

"إن ميل الذهب والفضة في العالم إلى التركيز في الهند ثم اختفائهما من التداول هناك يروي لنا قصته الخاصة. فمن ناحية، لا يمكن لدولة فقيرة في الأساس أن تحقق مثل هذا الشيء. ومن ناحية أخرى، لا يمكن لأي دولة تدفن ثرواتها ثم تستلقي على قبرها أن تكون مزدهرة حقاً^٢.

استطاعت الهند أن تتغلب على كثير من مشاكلها تحت تلك القيم، حيث لم تكن تدعم هذا الضغط السكاني الموجود في القرن العشرين، حيث صارت موارد الهند متوفرة الآن لدى الجميع.

"إن هذا، مرة أخرى، نتيجة للتحرر من الحروب والاضطرابات ومن المجاعات القاتلة؛ ومن وقف الأوبئة؛ ومن تضاعف إنتاج الغذاء. وهي كلها عناصر لا بد وأن تنتج تأثيراً أعظم على نحو متزايد باعتبارها سمات أساسية لحكومة قائمة. والواقع أن التوقعات التي تسفر عنها هذه التطورات، والتي تتلخص في تراكم أعداد هائلة من البشر مع مرور العقود، مذهلة حقاً. ذلك أن الهند، البعيدة من قتل الأطفال، ومن الإجهاض، ومن صمامات النجاة الطبيعية الأخرى، والتي لا تزال متمسكة بالزواج المبكر والتكاثر غير المحدود، تقف اليوم عند تلك النقطة من التطور الاجتماعي^٣.

^١ - Katherine Mayo, Mother India, page: ٤٠٣.

^٢ - نفس المرجع السابق.

^٣ - المرجع السابق، ص: ٤٠٧.

المبحث الثاني

الاهتمام بالتعليم

لا أحد ينكر دور العلم في حياة الإنسان وأهميته البالغة في تطوير طرق المعاش وسبل الكسب، فالعالم هو الحي والجاهل هو الميت، لا سيما في هذا العصر، حيث أصبحت التنمية في كل المجالات منوطة بالعلم والمعرفة.

ومن هذا المنطلق اهتمت الحكومة البريطانية بنشر التعليم بين الناس، وإعطاء هذا الحق للجميع دون تمييز بين الفقير والغني، وطبقة دون طبقة أخرى.

تؤكد المصادر أن معظم الشعب الهندي كانوا يعانون من تبعات الجهل وكانوا يتقلبون في تيه الأمية، ولم يتهيأ لهم الاستضاءة بنور المعرفة طوال القرون المتتالية.

عندما ننظر إلى الهند نرى أن هناك الجماعة المثقفة عندهم هم البراهمة، ويتعدى التثقيف والتعليم إلى الجماعات الأخرى، فهناك ينشأ سؤال وهو ما هي علة انحصار التعليم في تلك الجماعة؟

أجاب عن هذا اللغز أحد هؤلاء الرجال المنتمين إلى الطبقات الدنيا عندما أصبح ثرياً ومحترماً وقوياً سياسياً بما معناه: عندما كان كل الناس يعيشون وفقاً لاختيارهم، كان البراهمان هو الرجل الوحيد الذي كرس نفسه للتعليم. ثم بعد أن أصبح متعلماً، وكان بطبيعته ذكياً، استولى سرّاً على الكتب المقدسة، وكتب في تلك الكتب نصوصاً زائفة فأعلنت أنه البراهمان وأن التعليم حرام للآخرين، وأنه سيد على كل الناس كلهم. مرت العصور والتدريج أصبح الناس يؤمنون بأنه إله الأرض الذي أطاعوه وفقاً لذلك. فلم يجرؤ أحد على منازعته^١.

واكتسب البراهمة من هذا الحرمان الذي مارسوه تجاه الآخرين، منافع جمة، حيث أثبتوا بهذا الأمر سطوتهم الروحية على الشعب، واستراحوا من كد التكسب وتحمل متاعب العيش، واكتسبوا مكانة عظيمة بين الناس لا يكونوا يتوقعون من الشعب إلا الاحترام، وانطبعوا بطابع القداسة في عيون الشعب الأمي المحروم.

ويضيف أيضاً إلى السابق ما معناه: ماذا فعل البراهمة من أجل تعليمنا في الخمسة آلاف عام التي سبقت مجيء بريطانيا؟ لقد أكدوا على حقهم في صب الآنك في آذان الرجل المنتمي إلى الطبقة الدنيا

^١ - انظر: نفس المرجع السابق.

الذي يجرؤ على دراسة الكتب. لقد قالوا: إن كل المعرفة ملك لهم. وعندما اجتاحتنا المسلمون وأخذونا، كان ذلك أيضًا تحسنًا على النظام الهندوسي القديم. ولكن في أيام بريطانيا فقط أصبح التعليم حقًا للجميع، حيث أصبحت المدارس والكليات والجامعات الحكومية متاحة لجميع الطبقات والمجتمعات والشعوب، لقد عرف البراهمة جيدًا ما هي السيادة الأخلاقية التي ستمنحهم إياها المعرفة على الطبقات الأخرى، ولذلك فقد جعلوا من ذلك لغزًا من خلال اتخاذ جميع الاحتياطات الممكنة لمنع الطبقات الأخرى من الوصول إليها^١.

ومن خلال هذا الأمر استطاع البراهمة أن يتغلغلوا في المجالات العديدة من حياة الهنود، وقامت بينهم وبين حياة الآخرين علاقات عميقة تحت اسم الدين والعقيدة وصاروا شركاء الناس في أموالمهم.

إن كل هندوسي في الهند يدفع للبراهمة أضعاف ما يدفعه للحكومة. فمن يوم ميلاده إلى يوم وفاته، لا بد أن يطعم الرجل الإله الأرضي. فيدفع للبراهمة في أزمّن متعددة، عندما يولد الطفل لكي يزدهر، وبعد ستة عشر يومًا، لكي يتطهر من "تلوث الولادة"، وبعد ذلك بقليل، لتسمية الطفل، وفي الشهر الثالث، لأجل قص شعر الطفل، وفي الشهر السادس، لإطعام الطفل الأطعمة الصلبة، وعندما يبدأ الطفل في المشي، وعند اكتمال السنة الأولى، لأجل إقامة مراسم عيد الميلاد^٢. فلا بد من إعطاء الطفل في كل هذه المناسبات للبراهمة حتى يبارك فيه، وإلا فسيلقى في حياته عناء وعنتا.

وهناك مناسبات أخرى يدفع الطفل أو الشخص إلى البراهمة ويعطى لهم أموال كثيرة مقابل الطقوس الدينية التي تقوم بها البراهمة وحملت منذ آلاف السنين على كاهل الشعب المحروم.

فعندما تبلغ الفتاة عيد ميلادها الأول أو السابع أو التاسع، أو عندما يبلغ الصبي سنة ونصف أو سنتين، أو حتى السادسة عشرة، تأتي الخطوبة، ويدفع للبراهمة الكثير من المال. ثم عندما يأتي سن البلوغ، أو قبل ذلك، إذا تم الزواج في وقت مبكر، يدفع لهم الكثير من المال. وفي حالة الكسوف، يجب دفع الكثير من المال لهم. وهكذا يستمر الأمر. عندما يموت رجل، لا يمكن إزالة الجثة إلا بدفع المال مقابلها. عند حرق الجثة، يجب دفع الكثير من المال لهم. بعد حرق الجثة، يجب على ابن الرجل الميت كل شهر لمدة عام أن يقيم وليمة للبراهمة - وليمة عظيمة قدر استطاعته - ويعطيهم الملابس والحلي والطعام وكل ما قد يكون عزيزًا على الميت. بعد ذلك، مرة واحدة في السنة، أثناء حياة الابن، يجب عليه أن يكرر

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٨.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٤٨.

هذا الاحتفال^١. ولا شك أن البراهمة لم يكتسبوا هذا المقام والمكانة بين الناس إلا بتجهيل الشعب وإبعاده عن الحقيقة والاستضاءة بنور المعرفة.

وهذا الجهل والتجهيل الموجود في البلاد، جر الناس إلى اعتناق الخرافات، والاعتقادات الباطلة التي لا تتوافق مع أي عقل وطبيعة.

إن هذه الأمة غارقة في الخرافات والأوهام لدرجة أنه لم يصل أي شعب في أي جزء من العالم وفي أي وقت إلى هذه المستوى من التعصبات الجاهلة. في كل عام، يسافر الملايين من الهنود الجاهلين مسافات طويلة ويغتسلون في المياه الموحلة والقذرة لنهر الجانج لكي يصبحوا سمينين بأعجوبة، أو يفقدوا إحساسهم وروحهم وقوتهم إلى الأبد ويحققوا الموت المطلق الأبدي. يضحي ملايين الهنود بالحيوانات الحية لإلهتهم المتعطشة للدماء "كالي"^٢ كل عام. يعيش في الهند ثلاثون مليون إنسان ببطن جائعة، بينما سبعون مليون بقرة مقدسة تتجول في وديان وقرى الهند. ولا يحاول الناس أبدًا قتل واستخدام لحومهم. يعيش أكثر من مليون رجل روحاني مقدس في الزاوايا منفردين بلا عمل في شقوق الجبال وغيرها^٣.

ولا شك أن معظم هذه الترهات (الأباطيل) والخرافات تتكون وتتألف في عقول الجهال الأميين الذين لم يصل أيدهم إلى نور العلم والمعرفة، ولم يخرجوا بعد من ظلمات الجهل والعقائد التي نسجت عليها العنكبوت.

وعندما جاءت الحكومة البريطانية إلى بلاد الهند انتزعت احتكار العلم من أيدي البراهمة، وجعلت حق التعلم والمعرفة عاما يشمل جميع الطوائف والجماعات، وبهذا الأمر تضاءلت سيطرة البراهمة وسطوتهم على الناس، وصاروا أحرارا ونجوا من مخالب التجهيل المستمر.

يقول أحد المنبوذين: "الآن، هل تفهم أنه حتى نتمكن نحن الآخرون من الصمود في الهند، فإننا نفضل ملكًا بعيدًا وراء البحر، يمنحنا السلام والعدالة، وشيئا في المقابل مقابل أموالنا وفرصة لنصبح

^١ - انظر: نفس المرجع السابق.

^٢ - كالي داسا (ازدهر في القرن الخامس الميلادي، الهند) كان شاعرًا وكاتبًا مسرحيًا بالسنسكريتية، وربما أعظم كاتب هندي في أي عصر. الأعمال الستة التي تم التعرف عليها بأنها أصلية هي المسرحيات: "أهيجناناشكوتتلا" ("اعتراف شاكوتتلا")، "فيكرامورفاشي" ("أورفاشي التي فازت بالشجاعة")، و"مالافيكيا وأجنيميترا" ("مالافيكيا وأجنيميترا")؛ والقصائد الملحمية "راجوفامشا" ("سلالة راغو") و"كوماراسامبهافا" ("ولادة إله الحرب")؛ والقصيدة الغنائية "ميغادوتا" ("رسول الغيمة"). (Britannica, Fact-checked

by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Kalidasa>)

^٣ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢١٣.

رجالاً أحراراً، على مليون ونصف من البراهمة الذين يأكلوننا، ومع ذلك يقولون: إن مجرد لمستنا من شأنه أن يلوثهم؟^١."

وفي ظل اهتمام الحكومة البريطانية بالتعليم العصري الجديد، انعكست المعادلة، حيث ارتقى الشباب المثقفون سلم المعرفة، وجربوا فنونا متنوعة، واستطاعوا أن يحركوا عجلة التقدم والتطوير إلى الأمام، لكن البراهمة بقوا في العصر الحديث جامدين مع الأفكار التي اندرست عبر القرون المتوالية، انمحت آثارها من الوجود.

"لا أعتقد أن البراهمة في العصر الحديث أكثر علماً بأي درجة من أسلافهم في زمن ليكوجورجوس وفيثاغورس. فخلال هذه الفترة الطويلة من الزمن، خرجت أعراق بربرية عديدة من ظلمة الجهل، وبلغت قمة الحضارة، ووسعت نطاق أبحاثها الفكرية... ومع ذلك ظل الهندوس طوال هذا الوقت في حالة ثبات تام، ولا نجد بينهم أي أثر للتحسن العقلي أو الأخلاقي، أو أي علامة على التقدم في الفنون والعلوم. ولا بد أن يعترف كل مراقب محايد بأنهم الآن متخلفون كثيراً عن الشعوب التي سجلت أسماءهم بعدهم بفترة طويلة في قائمة الأمم المتحضرة"^٢.

لقد بذل الحكومة البريطانية وقبلها الشركة الشرقية جهوداً في نشأة حركة تعليمية جديدة في بلاد الهند، حيث أرادت الشركة الشرقية دفع الحضارة الهندية إلى الأمام، ولذلك قام بعض التجار الإنجليزية مع بعض مواطني الهند بتأسيس الجامعات.

خلال نصف قرن تقريباً من تولي التاج البريطاني حكم الهند، نشأت حركة تعليمية جديدة في البلاد. وكان هدف وارن هاستينغز^٣، ثم شركة الهند الشرقية، التي دفعها البرلمان البريطاني، هو دفع الثقافة الهندية إلى الأمام. كان ديفيد هير^٤ قد كرس نفسه وكل ما لديه "لتعليم أهل البنغال وتحسين أخلاقهم". وانضم

^١ - Katherine Mayo, Mother India, page: ١٤٩.

^٢ - المرجع السابق، ص: ١٧٩.

^٣ - وُلد وارن هاستينغز في ٦ ديسمبر ١٧٣٢ في تشيرشل، بالقرب من دايلسفورد في أوكسفوردشاير، إنجلترا، وتوفي في ٢٢ أغسطس ١٨١٨ في دايلسفورد. كان هاستينغز أول حاكم عام بريطاني للهند وأشهرهم، وقد هيمن على الشؤون الهندية من ١٧٧٢ إلى ١٧٨٥. عند عودته إلى إنجلترا، تمت محاكمته بتهمة الفساد، ولكنه بُرِّئ في النهاية. (, Britannica, Written by P.J. Marshall)
(Article History, <https://www.britannica.com/biography/Warren-Hastings>)

^٤ - ديفيد هير (١٧٧٥-١٨٤٢) كان فاعل خير اسكتلندياً. كان هير هو الذي طور فكرة تأسيس مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية بين السكان الأصليين. وقد حفز هيرد إيست، كبير قضاة المحكمة العليا في كلكتا، لدعم مبادرته. توفي فجأة بسبب الكوليرا في ١ يونيو ١٨٤٢. (https://en.banglapedia.org/index.php/Hare,_David).

مع راجا رام موهان روي، إلى إنشاء كلية هندوسية علمانية، أعلننا هدفها "تعليم أبناء الهندوس المحترمين اللغة الإنجليزية والهندية والأدب والعلوم في أوروبا وآسيا، لكن المشروع أثار غضب الهندوس الأرثوذكس وعدم ثقتهم. وكان ذلك في عام ١٨١٧. وبعد عام واحد أسس ثلاثة من المبشرين المهندسين مدرسة بالقرب من كلكتا. وفي عام ١٨٢٠ افتتحت الكنيسة الأنجليكانية^١ كلية. وفي عام ١٨٣٠ أسس ألكسندر داف^٢، بمساعدة رام موهان روي، كلية رابعة لنقل العلوم الغربية إلى الهند^٣.

وكان الغرض الأساسي من التعليم هو تطهير المجتمع من الخرافات التي كانوا يعتقدونها، وترويج الثقافة الغربية في المجتمع الهندي، لا سيما ترويج اللغة الإنجليزية، وبهذا الأمر لقد تعرف المجتمع الهندي على العالم الجديد، والعلوم العصرية، والنظم الحديثة.

"ولقد رحب بهذا المؤيد الجديد عدد قليل من الهندوس المحدثين الذين كانوا يواجهون إدارة مجتمعهم، ... فأنشئت إدارات للتعليم العام في كل مقاطعة، واتخذت خطوات عملية لتحفيز الجهود الخاصة في إنشاء المدارس والكليات. لقد تم كل هذا بهدف محدد ومعلن وهو تسليم أيدي الشعوب مفتاح الصحة والازدهار والتقدم الاجتماعي، وتحفيزهم على تنمية الموارد الهائلة لبلادهم"^٤.

لقد قامت الحكومة البريطانية بفتح البحث في مجالات عديدة، مثل: البحث في لغة الهند القديمة وأدبها، وإحياء الحكمة الفيديا، والبحث حول التاريخ بمعناه المعاصر.

^١ - الأنجليكانية، واحدة من الفروع الرئيسية للإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر وشكل من أشكال المسيحية التي تشمل ميزات كل من البروتستانتية والكاثوليكية الرومانية. تنظم الأنجليكانية بشكل فضفاض في الكنيسة الأنجليكانية، وهي عائلة عالمية من الهيئات الدينية التي تمثل ذرية كنيسة إنجلترا وتعترف برئيس أساقفة كانتربري كرئيس أساقفة لها. (Written by William L. Sachs, Ralph Stanley Dean • All Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Article History <https://www.britannica.com/topic/Anglicanism>)

^٢ - ألكسندر داف (وُلد في ٢٦ أبريل ١٨٠٦ في مولين، بيرثشاير، اسكتلندا - تُوفي في ١٢ فبراير ١٨٧٨ في إدنبرة)، تمكن داف من النجاة من غرق سفينتين قبل وصوله إلى كلكتا في مايو ١٨٣٠، حيث افتتح مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية للهندوس والمسلمين، وقد جمع بين دراسات الكتاب المقدس وجوانب من العلوم الغربية التي كانت تتحدى المعتقدات الدينية المحلية. عاد إلى اسكتلندا حيث تم تعيينه مرة أخرى مشرفاً على جمعية الكنيسة الحرة في عام ١٨٧٣. (Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٨, ٢٠٢٠ • Article History <https://www.britannica.com/biography/Alexander-Duff>)

^٣ - Katherine Mayo, Mother India, page: ١٨٠.

^٤ - المرجع السابق، ص: ١٨١.

ومهما نتكلم حول التعليم الفكري في الهند في ظل الحكم البريطاني فلم نبالغ أبداً. أولئك الذين فتحوا باب البحث في لغة وأدب الهند القديمة وأحيوا الأدب والحكمة الفيدية هم الباحثون الأوروبيون والإنجليز. قبل أن يدخل السير ويليام جيمس^١ وماكس ميللر إلى ميدان الوجود، لم يكن لكلمة التاريخ أي معنى في نظر الهنود، ولكن بفضل جهود هذين العالمين، ضمن التاريخ أيضاً مكانته في الهند، وبدراسته نفخت روح جديدة في أجساد ملايين الهنود. ذقت الهند متعة العلم والمعرفة، وفهمت معنى البحث وفي النهاية مالت نحو العلم^٢.

وقام الأوروبيون بإنشاء مدارس عديدة في أرض الهند، وانتشر التعليم الغربي في الهند، وبسبب هذا التعلم انمحت آثار التعصب والجهل والخرافة.

تم إنشاء المدارس التي يديرها الأجانب والمبشرون في جميع أنحاء الهند، وانتشر التعليم الأوروبي الذي - وفقاً لأحد الهنود - "هو أعظم هدية من السماء أعطيت للهند تحت الحكم البريطاني"، وأصبح شائعاً في جميع أنحاء هذا البلد. لقد دمر العبادة والتعصب والخرافة والجهل. وكانت الهند، التي عانت من الانحطاط الفكري قرابة ألف عام، تنتظر أن تُزرع مثل هذه البذرة في سياق حياتها الاجتماعية^٣. وكان المنتفع بهذه الإنجازات هو الشعب الهندي.

هذا و بعد عام ١٨٥٧م ازدادت عدد الجامعات في الهند، حيث قامت الحكومة بتأسيس عدة جامعات أخرى، في المناطق المختلفة من بلاد الهند، واجتهدت في محو الأمية وتدريس العلوم العصرية التي يحتاج الناس إليها اليوم.

ولقد تزايدت مراكز التعليم تدريجياً. ففي الثلاثين عاماً التي أعقبت عام ١٨٥٧، تأسست خمس جامعات في كلكتا، وبومباي، ومدراس، ولاهور، وإله آباد. وبصرف النظر عن دورات محو الأمية، فقد

^١ - كان ويليام جيمس ديورانت كاتباً ومؤرخاً وفيلسوفاً أمريكياً غزير الإنتاج. اشتهر بكتابه قصة الحضارة المكون من ١١ مجلداً، والذي كتبه بالتعاون مع زوجته أرييل ونُشر بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٧٥. وقد اشتهر في وقت سابق بكتابه قصة الفلسفة، الذي كتبه عام ١٩٢٦، والذي اعتُبر "عملاً رائداً ساعد في نشر الفلسفة".

(https://www.goodreads.com/author/show/16184.Will_Durant).

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٢٣.

^٣ - انظر: نفس المرجع السابق.

حثت الحكومة على تدريس فروع عملية غير أدبية، الأمر الذي كان يجذب انتباه كل من يرغب في التعلم^١.

لقد كان لتأسيس الجامعات في بلاد الهند أثر ناجع في تثقيف الشباب، حيث تخرج من تلك الجامعات كثير من الطلاب وحصلوا على الشهادات الأكاديمية في علوم مختلفة. وهناك إحصائيات تبرز أرقام الطلاب الذين تخرجوا من الجامعات الموجودة في بلاد الهند في عهد الراج البريطاني.

في عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤، تخرج من ثلاث عشرة جامعة في الهند البريطانية ما مجموعه ١١٢٢٢ طالباً. ومن بين هؤلاء، حصل ٧٨٢٢ طالباً على درجاتهم في الآداب والعلوم، و ٢٠٤٦ طالباً في القانون، و ٤٤٦ طالباً في الطب، و ١٤٠ طالباً في الهندسة، و ٥٤٦ طالباً في التعليم، و ١٣٦ طالباً في التجارة، و ٨٦ طالباً في الزراعة. وفي الوقت نفسه، أظهرت الجامعات التحاق ٦٨٥٣٠ طالباً جامعياً، موزعين بالتساوي. تقف الأرقام المرتفعة باستمرار في مواجهة دورات الآداب والقانون^٢. استناداً إلى هذا المبحث، يمكن تلخيص النقاط التالية:

١. تناول المبحث دور العلم في تحسين سبل العيش والتنمية المجتمعية، مع تسليط الضوء على الجهود البريطانية لجعل التعليم حقاً متاحاً للجميع دون تمييز.
٢. واستعرض سيطرة طبقة البراهمة على المعرفة في الهند القديمة، ومنع الطبقات الأخرى من التعليم، مما أدى إلى تعزيز سلطتهم الروحية والاقتصادية.
٣. وأبرز كيف قامت الحكومة البريطانية بإزالة احتكار البراهمة للعلم، وتأسيس مدارس وجامعات حديثة أتاحَت التعليم لجميع الطبقات، مما ساهم في تخفيف الجهل والخرافات.
٤. وأشار إلى تأثير التعليم الغربي في القضاء على التعصب والخرافات، وتعزيز التفكير العلمي والثقافة الحديثة لدى الشعب الهندي.
٥. وتضمن بيانات حول تطور الجامعات وعدد الخريجين في مختلف التخصصات، مما يعكس الجهود المبذولة لتحسين التعليم العالي ومحو الأمية.

^١ - Katherine Mayo, Mother India, page: ١٨٢.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٨٣.

المبحث الثالث

العناية بالصحة

إن مما تستحسنه العقول السليمة، وتؤيده شرائع الله التي أنزلها على رسله أجمعين، العناية بالصحة وبالطهارة والنظافة. فالله جميل يحب الجمال، ويحب التوابين والمتطهرين.

فالصحة نعمة عظيمة من الله سبحانه و تعالى، حيث من بها على الإنسان وحثه على العناية بها والاجتناب عما يخطر بها. ولا شك أن الإنسان عند ما يهمل العناية بالصحة لا يتأثر به وحده، بل يتجاوز أثره على الآخرين، فتن الأفواه والأيدي والأرجل يؤذي الآخرين أكثر من المبتلى به.

ومن القيم التنموية التي اهتم بها الراج البريطاني العناية بالصحة ونظافة البيئة وتطهير البلاد من الأوساخ، والقاذورات المتراكمة على سطح المياه وضاف النهر.

إنه بالمراجعة إلى المصادر والمراجع يتضح أن بعض تقاليد الهندوس مضرّة بالصحة العامة، فهم في بعض الأوقات يلوثون البيئة تحت مسمى تطبيق الشعائر الدينية، وإجراء الأعمال المقدسة.

فعلى سبيل المثال إن فارناسي وهي مدينة قديمة قد بُنيت بعض مجاري الصرف الصحي فيها في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولا أحد يعرف الآن مسار هذه المجاري، إلا أن مخارجها تصب في النهر أينما كانت. ولأنها مبنية من الحجر، فإن موقعها يتكشف أحياناً بشكل محير عندما تنهار حجارها تحت أحد المباني أو الشوارع. وفي بعض الأحيان، تسد مخارجها، بسبب الطمي^١، أثناء إصلاح جدران النهر. ولا يزال عدد غير قليل من هذه المجاري يفرغون مياه الصرف الصحي الكثيفة التي تفرزها المنازل في النهر على طول الواجهة التي تعج بالبشر. ولكن أغلب هذه المجاري، بعد أن تحولت إلى مستنقعات شبه محكمة الغلق، تنتظر هطول الأمطار الغزيرة في موسم الأمطار^٢.

والمشكلة العويصة أن الناس قد اعتادوا هذه الظروف المهينة، وقد أصبحت عاداتهم الشعبية قواعد وقوانين يلتزمون بها، فهم يقاومون التغييرات الإيجابية، ويلتزمون بسننهم السالفة.

فالمتدينون لا يشربون هذه المياه المفلترة، بل يذهبون يومياً إلى النهر، وينزلون درجات أحد حمامات الاستحمام، ويأخذون إناءً مملوءاً بالماء من بين المستحمين تحت الجدار المتشقق بسبب تسرب المياه،

^١ - ط م ي طمني [مفرد]: مصدر طمى. طينٌ يحمله السيل، ويستقر على الأرض رطْباً أو يابساً "طمني ساحليّ- يكثر الطمي على جانبي النهر". (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٣٢٤٠، (١٤١٦/٢).

^٢ - Katherine Mayo, Mother India, page: ٣٥٧.

ويحملونه إلى منازلهم لإرواء عطش أفراد الأسرة، ويقابلون كل تحذيرات واحتجاجات مسؤول الصحة بازدراء شديد^١.

والأدهى أن بعض المعتقدات الشعبية تحت الناس على الاستمرار في تلويث البيئة، وتتعارض صريحاً مع العقل ومع الواقع الذي يعيش الهندوس في ظله.

فمن المعتقدات الشعبية أنه "ليس من سلطة الإنسان أن يلوث نهر الجانج"، أو "إن تصفية مياه نهر الجانج تزيل القداسة". فمن يستحم في نهر الجانج في فارناسي ويشرب ماء الجانج هناك، مع مراعاة احتياجات الكهنة في نفس الوقت، يمكن شفاؤه من أسوأ مرض يرثه الجسد. أو من يموت في فارناسي، يذهب مباشرة إلى الجنة. لذلك، يأتي عدد لا حصر له من المرضى، اليائسين من الشفاء، إلى هنا ليتنفسوا أنفاسهم الأخيرة، إذا أمكن، على حافة النهر وأقدامهم في الفيضان^٢.

ولا شك أن كل هذه الأمور خرافات وترهات وظلمات بعضها فوق بعض، لا يعتقدها إلا من أغمض بصره، وانجرف مع تيار الضلال والعمى.

ففي ظل هذه الظروف غير الصحية تنتشر كثير من الأمراض مثل الكوليرا والتيفوئيد وغيرها من الأمراض الوبائية المنتشرة بسرعة.

يفضل الناس استخدام الأماكن الرملية على حافة المياه بين درجات الاستحمام. على هذا النحو أو غير ذلك، قد يعدي حامل واحد للتيفوئيد أو الكوليرا، أثناء إقامته، عشرة آلاف شخص. فضفاف النهر عبارة عن مياه صرف جافة، ومياه النهر عبارة عن مياه صرف سائلة. يشرب الملايين من المعتقدين ويستحمون في أحدهما، وينشرون ملابسهم لتجف على الآخر. ثم في الوقت المناسب، بعد أن يلتقطوا ما يمكنهم من الجراثيم، يعودون إلى ديارهم على طول وعرض الهند، حاملين جراراً من الماء الثمين^٣.

وهذا ليس أول الأماكن المقدسة في الهند وليس بأخرها، بل توجد في الهند مدن ومراكز مقدسة أخرى. وكل منها تشكل تلقائياً مستودعاً ونقطة محتملة لانتشار الأمراض، الأمر الذي يتطلب أقصى درجات اليقظة وأقصى درجات اللباقة في التعامل معها.

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٥٨.

^٢ - انظر: نفس المرجع السابق.

^٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٥٩.

وهذه المشاكل تتضاعف في القرى القديمة التي لا توجد فيها شوارع واسعة، ولا أماكن مخصصة لبيع الأطعمة المطبوخة، والأسماك المشوية، والحلويات اللزجة، وهذا الأمر سبب انتشار الأمراض الخطيرة، مثل: التهاب العيون، وأمراض الجلد، والأمعاء والمعدة بين الناس ولاسيما الأطفال.

وأما الحي الهندي القديم من لاهور وخاصة سوقها الذي يعيش الناس التجمع فيه، تشكل نقطة الخطر التي تبقي مدير الصحة مستيقظاً طوال الليل. شوارع يبلغ عرضها نحو ثمانية أقدام، ملتوية مثل دودة الأرض بعد المطر، وترتفع من حوافها صفوف متصلة من المنازل السكنية التي يصل ارتفاعها أحياناً إلى عدة طوابق. وفي قاعدتها، على جانبيها، صف من المتاجر الصغيرة المفتوحة الواجهات، وتبرز العديد من المنصات الخشبية المتهاكة من الحافة الأمامية لأرضيات المتاجر إلى حافة الشارع. وتحت هذه المنصات، يمر مجرى مفتوح بعرض قدم تقريباً. ويستخدم المجرى بشكل ثابت ومفتوح كممرحاض عام.

وتتراكم على شرائح المنصات الخشبية كميات من الأسماك المقلية وكعك الأرز والحلويات اللزجة والأطعمة الأخرى للبيع. وتقع أكوام الطعام كلها تحت الأقدام عملياً، معرضة لكل أنواع الحوادث، بينما تضيف الذباب، والأيدي القذرة، ونخر الكلاب، والأبقار، والثيران والأغنام، والجرذان المسرعة مساهماتها باستمرار؛ كما يفعل الأطفال والرضع الذين يعانون من التهاب العيون وأمراض الجلد، ويتحركون ويتدحرجون في وسط كل ذلك، محاطين بسحب من الغبار والدخان اللاذع^١.

وتلوث البيئة تتعدى إلى أماكن كثيرة حتى المعابد التي يقدسونها، وكان من المتوقع أن تكون المعابد أظھر الأماكن وأنظفها، فإذا لم يكن المعبد مستثنى من القاذورات والتلوث فما بال الأماكن الأخرى! ولعل ما يمكن أن نستدل عليه بما يكفي من كلمات أحد علماء الأمراض البراهميين البارزين الذي تلقى تعليمه في الجامعات الأوروبية، والذي كان يزور لندن وباريس كل عام. فقد قال هذا الرجل بمشاعر عميقة:

"إن معابد فارناسي شريرة مثل الوحل الذي يملأ ضفاف الأنهار. لقد دخلت إليها بنفسي حتى أصبحت ملزماً بخلع حذائك، بسبب قدسيته. وخلفها تقع الأضرحة، التي ترتفع من الطين والطعام المتعفن والأوساخ البشرية. ومئات الآلاف يخلعون أحذيتهم، ويدخلون، ويتعبدون، ويخرجون، ثم يعيدون وضع أحذيتهم على أقدامهم غير المغسولة. وأنا، الهندوسي الطبيب، لابد أن أشهد على ذلك!"^٢

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٢.

^٢ - المرجع السابق، ص: ٣٦٠.

وهذا الذي مر آنفا هو طبيعة العيش في البداوة والبعد عن الحضارة والتقدم، حيث إن وسائل الرفاهية وأسباب المعيشة غير متوفرة لهم، فيكتفون بأساليب قد تضر الصحة وتعد خطرا على الحياة. كانت الهند البريطانية تضم نصف مليون قرية مبنية من الطين. وكانت أغلب القرى تأخذ كل الطين من بقعة واحدة، فتصنع بذلك حفرة متناسبة مع حجمها، وتبني نفسها على حافة الحفرة. لقد امتلأت الحفرة بالماء عند هطول الأمطار الأولى وأصبحت خزان القرية^١.

وكان الناس يستخدمون مياه هذه الحفر الراكدة لقضاء جميع حوائجهم، من الاغتسال، والطهي، والشرب، وغسل الملابس، وسقي الماشية وغير ذلك.

ومنذ ذلك الحين وإلى الأبد، يستحم أهل القرية في خزانه، ويغسل ملابسه في خزانه، ويغسل أوانيهم في خزانه، ويسقي ماشيته في خزانه، ويسحب ماء الطهي من خزانه، ويطفئ عطشه بمحتويات خزانه. ولأن الماء راكد تمامًا، فإنه يتكاثر فيه البعوض ويزداد سمًا بشكل مطرد مع تبخره بين المطر والمطر. وأحيانًا يكون جميلًا للغاية، حيث تكسوه نباتات الزنبق وتظللها أشجار النخيل ذات الريش. ويضمن استخداماته عمومًا حياة أي جراثيم جديدة تدخل القرية، وينتشر البعوض الملاريا فيها بشكل رهيب^٢.

إن إهمال الناس رعاية أصول الصحة، وعدم اكتراثهم بالتحذيرات الصحية قد أدى إلى انتشار الأمراض المزمنة، والأوبئة الخطيرة، فوصل عدد الوفيات بسبب الملاريا فقط إلى مليون حالة سنويا. ولا شك أن خزانات القرى هي من أهم أسباب انتشار هذه البعوضة، لكن هناك أماكن أخرى تجتمع فيها الملاريا أيضا.

لا أحد يعرف على وجه الدقة معدل انتشار الملاريا في الهند، ذلك أن الإحصاءات الحيوية للقرى تحتفظ بها حراس القرى البدائيون الذين ينسبون كل الوفيات التي لا ترجع إلى لدغات الثعابين، أو الطاعون، أو كسر الرأس، أو الأشياء القليلة الأخرى التي يعرفونها، إلى "الحمى". ولكن قد يُنظر إلى مليون حالة وفاة سنوياً بسبب الملاريا باعتبارها تقديراً متحفظاً لخسائر الهند بسبب هذا المرض. إن الملاريا - ككل - هي واحدة من اللعنات الكبرى والمكلفة التي تواجهها هذه الأرض، ليس فقط بسبب

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٦.

^٢ - انظر: نفس المرجع السابق.

معدل الوفيات الهائل الذي تسببه، بل وأيضاً بسبب الظروف المادية والاجتماعية المتدنية التي تنتجها، مع دعوتها لأشكال أخرى من الأمراض^١.

ومن المدن التي نسبة الابتلاء بالكوليرا فيها مرتفعة مدينة البنغال، فهي أسوأ مناطق الكوليرا، لا يزيد حجمها عن حجم ولاية نبراسكا. ويبلغ عدد سكان القرى فيها أكثر من ٤٣,٥ مليون نسمة، يعيشون في ٨٤,٩٨١ قرية. وفي عام ١٩٢١، وهو العام الذي شهد انتشاراً خفيفاً للكوليرا، تم الإبلاغ عن انتشار المرض في ١١,٥٩٢ قرية من هذه القرى، موزعة على ٢٦ مقاطعة، وبلغ إجمالي الوفيات المبلغ عنها ٨٠,٥٤٧ حالة^٢.

ولا شك أن للناس دور بارز في نظافة البيئة التي يعيشون فيها، فإن أهملوا رعاية الصحة وتركوا التدابير الوقائية، فيبقون معرضين لخطر الأمراض إلى الأبد، والحكومة بمفردها صعب عليها أغراء الناس على نظافة بيوتهم ومساكنهم وشوارعهم.

ثم إن العادات السيئة الموجودة في الهند التي سببت الإهمال في الصحة العامة والتدابير الوقائية لم تثر غضب الحكومة، بل أثارت أيضاً غضب بعض قادة الهندوس.

ولقد كتب غاندي مراراً وتكراراً حول هذا الموضوع. يقول، على سبيل المثال: "إن بعض العادات الوطنية [الهندية] سيئة إلى حد لا يمكن وصفه، ومع ذلك فهي متأصلة إلى الحد الذي يتحدى كل جهد بشري. أينما ذهب، يفرض هذا الجنون نفسه على نظري بشكل أو بآخر. في البنجاب والسند، في تجاهل تام لقوانين الصحة الأولية، نقوم بتلويث شُرْفَاتنا وأسطحنا، وتكاثر بالمليارات من الميكروبات المسببة للأمراض وننشئ مستعمرات للذباب. في الجنوب، لا نتردد في تلويث شوارعنا، وفي الصباح الباكر من المستحيل على أي شخص لديه حس اللياقة أن يسير في الشوارع التي تصطف على جانبيها الناس"^٣.

وإن تعجب فعجب أن هؤلاء ليسوا جهلة ولا أميين، بل سافر كثير منهم إلى خارج الهند، ورأى البلاد الأخرى وتعرف على الثقافات الجديدة، فإذا لم يستطيعوا أن يتخلصوا من محالب التقاليد المظلمة والعادات السيئة، فما بالك بأمي لا يكتب ولا يقرأ!

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٧.

٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٧١.

٣ - المرجع السابق، ص: ٣٦٣.

ويستمر غاندي في حديثه فيقول:

"في البنغال، يجب أن تُروى نفس القصة بأشكال مختلفة؛ نفس البركة التي غسل فيها الناس أوساخهم وأوانيهم، والتي شربت فيها الماشية، تزود بمياه الشرب... هؤلاء ليسوا جهلة؛ إنهم ليسوا أميين؛ لقد سافر العديد من الناس إلى ما هو أبعد من حدود الهند... ولا توجد مؤسسة تستطيع التعامل مع هذه المشكلة بشكل أفضل وأسرع من بلدياتنا. فهي تمتلك... كل الصلاحيات التي تحتاجها في هذا الاتجاه، ويمكنها الحصول على المزيد إذا لزم الأمر. ولكن الإرادة وحدها هي التي تنقصنا في كثير من الأحيان... في حين أن الحكومة عليها أن تجيب عن الكثير من الأسئلة، فأنا أعلم أن الضباط البريطانيين ليسوا مسؤولين عن جنوننا. في الواقع، إذا أعطيناهم حرية التصرف في هذا الأمر، فإنهم سوف يحسنون من عاداتنا بحد السيف".^١

مع كل هذه التحديات الموجودة في أرض الهند لقد بذلت الحكومة جهدها في تأمين صحة الناس، وتوفير المياه الصالحة للشرب، وتثقيف الناس في هذا المجال.

هذا، ولا شك أن توفير أدوات الصحة في البلاد يتطلب بذل أموال ضخمة وجهود جبارة، حتى يتحسن الحال ويعيش الناس عيشاً هنيئاً رغداً.

على سبيل المثال، أكملت مدينة مدراس، ثالث أكبر مدينة في البلاد، نظامها المائي الحالي في عام ١٩١٤. وتشمل منطقة مستجمعات المياه في التلال عدة قرى. والمياه، عندما تصل إلى محطة المدينة، تكون قدرة تماماً. لكن وفقاً لتصميم النظام، يتم تمريرها هنا عبر مرشحات رملية بطيئة إلى خزان مياه نقية بمعدل ١٠ ملايين جالون يومياً.^٢

وفي عام ١٩٠٥ نجح البريطانيون في مواجهة معارضة دينية شرسة في مد شبكة جزئية للصرف الصحي وخط أنابيب مياه إلى مدينة فارناسي. ويتم تجميع المياه في خزان وتصفيته ثم توزيعها على نطاق واسع، حيث يقوم مسؤول الصحة البلدية بنفسه بإجراء تحليل كيميائي وبكتريولوجي أسبوعي لكل مرشح.^٣

^١ - نفس المرجع السابق.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٤.

^٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٥٨.

وفي مجال إيواء الماء الصحي إلى الأماكن والبيوت قامت الإدارة البريطانية أيضا بحفر الآبار الجيدة والتي لم تكن متوفرة في كثير من القرى البعيدة.

إن أحد الأهداف العظيمة التي وضعتها الإدارة الصحية البريطانية هو حفر الآبار الجيدة في القرى وتثقيف الناس حول الاستخدام الصحيح لها. والآن، ليس من النادر أن نجد مثل هذه الآبار^١. وقد اضطرت الحكومة أيضا في صرف أموال كثيرة لأجل تطعيم، وتسجيل المواليد وتسجيل الوفيات والتعامل مع الأمراض المهلكة والأوبئة المضرة بالصحة.

فعلى سبيل المثال يبلغ عدد سكان فارناسي الثابتين في المعتاد نحو مائتي ألف نسمة. بالإضافة إلى ذلك، يأتي ما بين مائتي ألف إلى ثلاثمائة ألف زائر سنوياً للإقامة المؤقتة. وفي المناسبات الخاصة، مثل الكسوف، قد يتدفق أربعمائة ألف شخص إلى المدينة في ذلك اليوم، ليغادروا بعد بضعة أيام بنفس السرعة التي أتوا بها. وللاعتناء بكل هذه الإنسانية، تمنح البلدية كبير مسؤولي الصحة لديها مبلغاً سنوياً يعادل حوالي عشرة آلاف دولار، والذي يجب أن يغطي عمله في التطعيم، وتسجيل المواليد والوفيات، والتعامل مع الأوبئة والأمراض المعدية^٢.

لم يكن هذا فحسب، بل كان الموظفون يراقبون الزائرين الذين جاءوا من أماكن بعيدة حتى يقوموا بمعالجتهم قبل أن يسببوا العدوى بين الناس.

إن أغلب أعماله الرائعة تتلخص في مراقبة الزائرين وهم ينزلون من قطارات السكة الحديدية، لالتقاط مرضى الكوليرا قبل اختفائهم. ذلك أن البلدية تدفع رواتب عالية للموظفين الأعلى رتبة ورؤساء قسم الصحة العامة^٣.

وفي ظل الراج البريطاني استلهم بعض المتنورين من الجهود المبذولة من قبل البريطانيين لأجل تحقيق الصحة في البلاد، فأنشؤوا بعض الجمعيات التعاونية في الهند، وقاموا بمساعدة الناس من خلال تثقيفهم وعرض المعلومات الضرورية لهم حتى يحموا الناس من الإصابة بالأمراض المهلكة.

ومن أبرز هذه الجمعيات جمعية التعاون لمكافحة الملاريا في البنغال، وهي منظمة هندية تحاول السيطرة على الملاريا في حياة الناس، من خلال تثقيف القرويين حول الوسائل التي يمكنهم من خلالها

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٩.

٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٥٦.

٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٥٧.

حماية صحتهم. ولقد أشادت الجمعية بحماس كبير من جانب رئيسها الدكتور راي بهادور شاترجي، ومساعديه المتحمسين. إن هؤلاء السادة، لا يحاولون فقط القيام بأعمال مكافحة الملاريا، بل إنهم يجمعون أيضاً الأموال اللازمة لتوفير خدمات الأطباء الهنود المدربين تدريباً جيداً في الطب الغربي لأهل القرى البنغالية^١.

لم تظهر هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات والمؤسسات الخيرية التعاونية لأجل تثقيف الناس وإيقاظهم من الغفلة إلا بعد تعرفهم على القيم البريطانية التنموية وعلى الجهود التي بذلتها الحكومة في هذا المجال.

هذه الأمور كلها من جهة ومن جهة أخرى فإن طوائف من الهندوس لا تحتم بهذه الإنجازات والخدمات، وظلوا يتمسكون بأعرافهم وتقاليدهم القديمة وأهملوا كل التحذيرات الموجهة من قبل الراج البريطاني.

أما بالنسبة للمضخات، وهي الوسيلة الواضحة لإغلاق الآبار وتسهيل النقل، فقد تم تركيب بعضها. ولكن المضخات، كقاعدة عامة، غير عملية. وذلك لأن أي قطعة من الآلات، بالنسبة للهندوس، هي شيء يمكن استهلاكه، وليس استخدامه، والعناية به. فعندما تسقط الآلة صامولة، لا أحد يعيدها إلى مكانها، ومن ثم تصبح هذه الآلة مجرد خردة^٢.

ومن العلوم أن فطام الناس من العادات القديمة، والتقاليد المتجذرة في القلوب الراسخة في الصدور صعب ومتعب، ولأجل ذلك ترك معظم الناس ما شيدته الحكومة الأماكن ورجعوا إلى ما كانوا يعتادونه سابقاً.

وكما أوضح السيد غاندي، فإن الهندوس في كل مكان يستغنون عن المراحيض، ولكنهم لا يهتمون كثيراً بما يستخدمونه. وفي إحدى المدن، قد بُنيت المراحيض وفقاً لمواصفات ورغبات مسؤول الصحة؛ ولكن الناس، كما قال، تركوها وشأنها تماماً، مفضلين أن يفعلوا ما اعتادوا عليه دوماً، مستخدمين الطرق والأزقة والمزاريب وأرضيات منازلهم. على أي حال، يستخدم القرويون دائماً الحقول المفتوحة المحيطة بقريتهم مباشرة، الحقول التي يمشون عليها باستمرار^٣.

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٨.

٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٩.

٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٧٣.

والأدهى أن هناك حالات يقاوم هذه التعيريات، ويقابلون المسؤولين والموظفين في هذا المجال بعنف وشدة، أو يشيعون أكاذيب لصرف الناس عن استخدام هذه الوسائل.

أما العقبة المتقطعة، والتي تفاقمت حدتها في السنوات الأخيرة، فهي العميل السياسي الذي ينتقل هنا وهناك بين القرى، هامساً بأن الحكومة الشريرة عازمة على إلحاق الأذى بالناس. ولقد بلغ الأمر بهؤلاء الأشخاص من الحدة حداً جعل ضحاياهم يقتلون وكيل الصحة المحلي الذي أوكلت إليه مهمة إخراجهم من موقع موبوء^١.

فنظراً إلى هذه التحديات المختلفة الموجودة في أرض الهند، من حيث وسعة الأرض، وازدحام الناس، وقلة مبالاة كثير من الناس بالصحة، أو حتى في بعض الأحيان مقاومة الإجراءات اللازمة للصحة العامة، لا بد وأن نعترف بخطورة هذه المسؤولية، وذكاء واصطبار من يقوم بها.

إن منصب مسؤول الصحة العامة في فارناسي، والذي يعد أحد المفاتيح الرئيسية لصحة الهند، يشكل مهمة ضخمة وصعبة إلى الحد الذي قد يجعل من يعهد إليه بهذه المهمة يكتسب شرفاً وتميزاً. ويبدو أن شاغل المنصب الحالي يواجه وظيفته بروح طيبة، عازماً على استغلال موارده الضئيلة بذكائه^٢.

استناداً إلى محتوى البحث، يمكن استنتاج هذه النقاط:

١. يشير البحث إلى أن الصحة تعد نعمة عظيمة من الله، ويبحث على العناية بها لتجنب الأمراض التي تؤثر على الفرد والمجتمع.
٢. ويتناول بعض العادات الهندوسية التي تؤدي إلى تلوث البيئة وتفاقم الأمراض، مثل تلويث نهر الجانج تحت مسمى الطقوس الدينية.
٣. ويستعرض محاولات الإدارة البريطانية لتحسين الصحة في الهند من خلال توفير المياه النظيفة، بناء شبكات الصرف الصحي، وحفر الآبار.
٤. ويظهر مقاومة السكان للتغيير وتمسكهم بالعادات القديمة، مما صعب من جهود تحسين الصحة العامة.

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٧٥.

٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٦٠.

الباب الثالث

المقارنة بين قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية

والإمبراطورية البريطانية وتراثهما في الأجيال

اللاحقة

الفصل الأول: المقارنة بين قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية

البريطانية

الفصل الثاني: تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية

البريطانية ودفع الشبهات

إن إحدى الطرق المثيرة لمعرفة الجوانب الإيجابية والسلبية للظواهر هي المقارنة بينها. من خلال المقارنة، يمكننا اكتشاف نقاط القوة والضعف في الظواهر المختلفة. لذا، من الضروري لمعرفة نقاط القوة والضعف في قيم حكومة بريطانيا وقيم حكومة المغول في الهند، إجراء مقارنة بينهما.

أيضاً، من الطرق المعقولة والمناسبة لمعرفة الإيجابيات والسلبيات للظاهرتين، هو دراسة وتحقيق آثارها؛ لأن من خلال دراسة الآثار، تتضح الجوانب المختلفة للظواهر وتُفصل مجالات كل منها.

بناءً على ذلك، يرغب الباحث في هذا الباب في مناقشة ودراسة هذين الموضوعين بشكل موجز واستكشاف جوانبهما.

الفصل الأول

المقارنة بين قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية
والإمبراطورية البريطانية

المبحث الأول: تلبية شهوة المال وآثارها السيئة

المبحث الثاني: تلبية شهوة الجاه والسلطة وآثارها السيئة

إذا أردنا مقارنة بين القيم الإسلامية والقيم الغربية، يجب أن نرجع إلى الأسس والمبادئ لهذه القيم؛ لأن القيم الإسلامية والقيم الغربية لا يمكن أن تتحد معا ولديها اختلافات جوهرية. لذلك، من الضروري دراسة جذور هذه الاختلافات والفروق.

بعد التأمل في أسس القيم الإسلامية والغربية، يتضح لنا أن الفرق الأساسي والجوهري بينها هو مرجع هذه القيم.

مما لا شك فيه لأحد أن مرجع القيم الإسلامية هو كلام الله والوحي الإلهي، وهو الذي قدم لنا هذه القيم. أما القيم الغربية فتعتبر الإنسان ورغباته مرجعا لها ولا تعتبر كلام الله حكما. بناءً على هذا الفرق الجوهري والأساسي بين القيم الإسلامية وغير الإسلامية، يمكننا اكتشاف فروق أخرى، منها:

١. القيم الإسلامية ثابتة؛ لأن الوحي الإلهي ثابت وكلمات الله لا تتغير، أما القيم غير الإسلامية فهي قابلة للتغير وتابعة لرغبات ومتطلبات الإنسان المتغيرة.

٢. القيم الإسلامية تشمل جميع جوانب الحياة والإنسان؛ لأنها غير محدودة ولم تُعرّف من خلال منظور ضيق. أما القيم غير الإسلامية، تكون ناتجة عن عقل وشهوة الإنسان القاصر، فهي تركز على جوانب محدودة من الإنسان وهي المادة واللذات الظاهرية، وتقلل من الاهتمام بالجوانب الأخرى للإنسان أو لا تهتم بها على الإطلاق.

٣. القيم الإسلامية تتماشى مع الفطرة والطبيعة البشرية؛ لأن الروح والمادة تشتركان في تكوين الفطرة، والنظر فقط إلى الجانب المادي - كما نرى في القيم غير الإسلامية - لا يقدم تعريفاً كاملاً للفطرة.

٤. من وجهة النظر الشرعية، لدينا قيم عالية لا يجوز انتهاكها بحجة أنها وسيلة وليست غاية، بينما نفس هذه القيم في الرؤية الغربية تُنتهك لتحقيق الأهداف والمقاصد المادية واللذات الدنيوية الزائلة.

وبناءً على ذلك، إذا تأملنا، نجد أن معظم الفروق بين القيم الإسلامية وغير الإسلامية تستند إلى المادية، واللذة، وإهمال الجانب الروحي للإنسان.

وجدير بالذكر أن الشهوات واللذات المادية لها أنواع مختلفة، منها: شهوة المال، وشهوة الشهرة، وشهوة البطن، وشهوة السلطة والقوة، والشهوة الجنسية، وغيرها.

في هذا الفصل، سنتناول نوعين مهمين من هذه الشهوات، وهما شهوة المال وشهوة السلطة والطموح، وسنناقش آثار هذين المبدئين من مبادئ القيم الغربية في ضوء إنجازات الحكومة البريطانية في الهند.

المبحث الأول

تلبية شهوة المال وآثارها السيئة

القيم التي تستند إلى اللذات المادية والشهوات الحيوانية، هل يمكن أن تعمل كقيم حقيقية؟ هل يمكنها حل مشاكل الإنسان وتحديات البشر؟ التركيز على اللذات المادية والدنيوية، ونسيان المعاني الروحية والمعنوية السامية، يدفع الإنسان نحو الحيوانية ويضعف مشاكله وتحدياته.

إذا كانت القيمة مبنية على الشهوات المادية، وخاصة لذة وشهوة المال، فإنها بدلا من أن تقود الإنسان نحو السعادة، تدفعه نحو القلق الروحي وتشويه الفطرة الإلهية.

الآثار السيئة التي تتركها هذه القيم المذكورة أعلاه، أكثر بكثير من الفوائد والإنجازات التي يمكن ملاحظتها، ثم إن جري الغرب لا سيما الحكومة البريطانية وراء شهوة المال ومتاع الدنيا قضية لا أحد يستطيع إنكارها، كيف ولم تبدأ استعمار الهند إلا من خلال إنشاء شركتها المعروفة وهي شركة هند الشرقية.

النزاعات التي وقعت بين فرنسا وإنجلترا حدثت بناء على رغبة إنجلترا، يجب أن نلاحظ أن سياسة إنجلترا تتبع وضعها الجغرافي. بما أن إنجلترا جزيرة، فإن سكانها في مأمن من هجمات الأجانب... لذلك، إذا لم تعرقلها النزاعات الداخلية ولم تصرفها، فإن أساس إنجلترا يتجه نحو توسيع قوتها وتوسيع نطاق مستعمراتها... هذا القول لمجلس الكونغرس الفرنسي ينطبق عليهم، حيث قالوا: سياسة إنجلترا تتجلى في دفاتر تجارهم، وجعلوا الحرب والسلام تابعين لزيادة ونقصان الجمارك^١.

في هذا المبحث المتواضع، سيشير الباحث بإيجاز إلى بعض الآثار السيئة التي تركتها هذه القيم في الهند خلال فترة الحكم البريطاني.

المطلب الأول: استنزاف خيرات الهند

إن من الآثار السيئة التي خلفت الأسس المادية للقيم البريطانية في بلاد الهند هو نهب خيرات تلك البلاد، وسرقة مواردها وذخائرها المليئة بالذهب والفضة وغيرها من المعادن والأمتعة النفيسة.

فقد كانت بلاد الهند منذ آلاف السنين من أغنى البلاد من حيث الثروة والموارد الطبيعية والبشرية والمعادن، ولذلك ازدهرت تلك البلاد عبر القرون، وجرت هذه الثروات الملوك إلى الترف والإسراف في

^١ - انظر: ألبرماله و ژول ايزاك، تاريخ قرن هيجدهم و انقلاب كبير فرانسه، ناشر: چاپخانه سپهر، تهران، چاپ پنجم: ١٣٦٣ هـ ش، ص: ١٩٧.

تشديد المباني والقصور الجميلة، وتحضير أدوات الفنون المختلفة والتفاخر في تطاول البنيان وتحكيم طرق الفن والجمال.

"ظلت الهند أغنى بلاد العالم آلافا من السنين، وازدهرت الفنون فيها على الدوام مهما كان نوع الفن التي حركتها، وما فتئت الأمم تبحث منذ أقدم أديوار التاريخ عن أدوات الهند الفنية وحليها ونسائجها حتى صار من الممكن أن يقال: إنها استنزفت مال الدنيا في ألوف السنين، أجل، إن الثروات وتبدل الأسر المالكة مما كان يؤدي إلى انتقال الثروات بين حين وحين، بيد أن هذه الثروات كانت تبقى في الهند فيستعملها مالكوها الجدد، كأسلافهم، في شيد المباني والقصور واقتناء النفائس وتشجيع الفنون التي هي من أغنى مصادر البلاد".^١

وعندما احتلت الحكومة البريطانية بلاد الهند، ووجدتها مرتعا خصبا للرعي، ازدادت جشع أصحاب الأموال، ولم يكن همهم إلا نهب الثروات، وسرقة الخيرات، وغصب الأملاك، وذلك حوّلت الشركة الشرقية في ظل سنين إلى قدرة مستقلة، تحدد وجود الأمراء المحليين، وتسعى في سبيل ضرب جذورها القوية في أعماق أرض الهند.

تمكنت الشركة الشرقية وبعدها الحكومة البريطانية من نهب البلاد بصور مختلفة، تارة بالتهديد، وتارة أخرى بالأغراء وأخرى بتزويد الضرائب الباهظة أو نشر الرذائل والمفاسد الأخلاقية في أرجاء الهند.

أولا: غصب الأموال

إن من صور استنزاف الاحتلال موارد بلاد الهند، غصب أموال الهنود بحجج واهية، ودواعي كاذبة، فهناك حوادث عدة تشير إلى هذا الصنيع السيئ من الحكومة البريطانية، وأكثر هذه الحوادث اتفقت زمن حكومة الشركة الشرقية.

"وفي سورات وحده هوكنز^٢ ثلاث سفن إنجليزية يقودها مدلتون، ذهب مدلتون قائد الرحلة السادسة مع هوكنز وتعرض لسفن سورات التي تتجر في البحر الأحمر، ونحبا منها مالا كثيرا بحجة أن أهل سورات لم يلبوا رغبات الإنجليز في إقامة مستودع إنجليزي".^١

^١ - غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٤٣٧.

^٢ - السير جون هوكينز (ولد عام ١٥٣٢، بليموث، ديفون، إنجلترا—توفي في ١٢ نوفمبر ١٥٩٥، في البحر قبالة بورتوريكو) كان إداريًا وقائدًا بحريًا إنجليزيًا، أحد أبرز البحارة في إنجلترا في القرن السادس عشر والمهندس الرئيسي للبحرية الإليزابيثية. (Also known as: Sir John Hawkins Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia

وهذا الغضب والعدوان ونهب الغنائم غير المشروعة لم يرفع عن أهل الهند حتى اللحظة الأخيرة، فقد كانت ملتزمة بقيم الزائفة المبنية على أساس تلبية الشهوة وحب المال.

"الرشوة وقتل الناس والاحتلال العدواني ونهب الغنائم غير المشروعة والقانونية التي حكمت الهند منذ مائة وخمسين عاماً وأدت بتلك الأرض إلى الخراب والانحلال! هذه هي نتيجة الهيمنة البريطانية في الهند! مبادئ الاغتصاب لم تنته بعد، وفي هذه اللحظة بالذات، عندما نكتب هذه السطور ونعيش بسهولة تامة، كل هذه المبادئ الزائفة والمدمرة تحكم جميع أنحاء الهند".^٢

في ظل الشركة الشرقية البريطانية والقيم الغربية كان كل شخص وكل شيء عرضة للبيع والشراء، فقد كان خدم الشركة يجبرون الناس على البيع بثمان رخيص إذا لم يوافقوا عليه، كان الحكام البريطانية يستولون على المناطق والبلاد ثم كانوا يبيعونها للهنود بمبالغ هائلة لأجل تلبية شهوة المال، وتكديس الأمتعة والفلوس في خزائهم.

أجبر واران هاستينج نواب أوز على مصادرة ممتلكات والدته وجدته من أجل دفع مبلغ ٥ ملايين دولار الذي طلبته الشركة منه. ولم يمض وقت طويل حتى غزا ولاية أوز، واستولى عليها، ثم باعها لأحد الأمراء مقابل ٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار. يكتب تاريخ الهند لجمعية أكسفورد عن هذا: في هذا الوقت، كان كل شيء وكل شخص عرضة للبيع. يكتب ماكولاي: في غضون خمس سنوات بعد عودة كلايف، وصلت إساءة معاملة الحكومة البريطانية إلى حد أنها هددت وجود وفد الجمعية ومنعت بقاءه. وكان خدم الشركة ووكلاءها يجبرون الناس على البيع بسعر رخيص والشراء بسعر مرتفع... وبهذه الطريقة، بينما كان أكثر من ثلاثين مليون شخص يغرقون في دوامة الفقر والجوع الرهيبة، كانت الثروة والتمول تخزن وتذخر في كلكتا.^٣

فقد كان الحكام البريطانيون يتبعون سياسة الإلحاق، وهذه السياسية الاستعمارية كانت تمهد الطريق لغصب الأموال، واستنزاف الخيرات.

^١ - د. عبد العزيز عبد الغني، حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي، الناشر: دار المريخ، الطبعة الأولى: ١٩٨١م، ص: ١٧.

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٦.

^٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٣.

لم يكن لوارن هستنجر هم إلا أن يملأ خزانة الشركة التي أفرغتها الحروب والفساد، وفي سبيل تدعيم أوضاع الشركة المالية عصر أمراء الهند المستسلمين للشركة اعتصارا وعمل لخلعهم أو القضاء عليهم إذا قاوموا تلبية جشعه، كما حارب بضراوة الإمارات التي قاومت أعمال السلب والنهب المنظمة وانتهاك العهود التي أقدمت عليها الشركة في تلك الفترة^١.

ثانيا: الرواتب الباهظة

لما كانت الحكومة البريطانية لا تعتمد على الهنود، بل كانت تستخدم البريطانيين في معظم الوظائف الحكومية، ولا سيما في المناصب العالية والأساسية، لا بد وأن تعطيهم رواتب عالية تقضي حوائجهم المتنوعة، ولو أسندت الحكومة البريطانية تلك المسؤوليات والأعمال إلى الهنود لما احتاج إلى تلك المصارف الباهظة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت الحكومة البريطانية تفرض على الخزانة الهندية رسوما أخرى تحت مسمى الرواتب التقاعدية.

أوضح رامزي ماكدونالد^٢ أيضًا أن المبالغ المدفوعة كرواتب تقاعدية من الخزانة الهندية لشاغلي المناصب الساكن في إنجلترا تجاوزت ٢ مليون دولار. وعندما أصبحت إنجلترا، مثل البنغال، أكثر اكتظاظا بالسكان، تم إرسال بعض أبنائها إلى الهند. وتبلغ مدة خدمتهم ٢٤ سنة، تُمنح خلالها عطلة مدتها أربعة أعوام، وبعد انتهاء المدة المذكورة، يحصلون على أموال من خزانة الهند لبقية حياتهم ويحصلون على راتب تقاعدي. غالبا ما يرسل هؤلاء العملاء أسرهم وأقاربهم إلى إنجلترا أثناء خدمتهم ويرسلون لهم النفقات من الأموال التي يتلقونها كرواتب من الخزانة الهندية. وفقاً لمحاسبة آدم بروكس، خلال سبعين

^١ - انظر: نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٢٢١.

^٢ - رامزي ماكدونالد (ولد في ١٢ أكتوبر ١٨٦٦، لوسيموث، موري، اسكتلندا - توفي في ٩ نوفمبر ١٩٣٧، في البحر في طريقه إلى أمريكا الجنوبية) كان أول رئيس وزراء لحزب العمال في بريطانيا العظمى، في حكومات حزب العمال في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٩-١٩٣١ وفي حكومة الائتلاف الوطني في عامي ١٩٣١-١٩٣٥. (Also known as: James Ramsay MacDonald)

Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Jan ٢٣, ٢٠٢٥ • Article History

<https://www.britannica.com/biography/Ramsay-MacDonald>

عاماً، خرج ما بين مليارين ونصف مليار إلى خمسة مليارات دولار من الهند دون أن يدخل روبية واحدة إلى هذه البلاد من الخارج^١.

ثالثاً: الضرائب التعسفية

ومن مصادر هذا الاستنزاف الخطير لأموال البلاد الهندية، الضرائب المحفة والإتاوات الفادحة التي فرضتها الحكومة البريطانية على الأراضي الزراعية، فقد صارت الهند بالنسبة لهم ناقة حلوبا ركوبا، يجزون صوفها ويظلمونها في علفها.

ولما استولت الحكومة البريطانية على الهند، أعلنت نفسها مالك تلك البلاد، فقامت بفرض الضرائب الباهظة والإتاوات الفادحة على منتجات الأرض، حيث إن تلك الضرائب كانت تبلغ في بعض الأحيان إلى أكثر من نصف المنتجات، فكانت تشتري المواد الخام المستخرجة من باطن الأرض أو المحتاجة إلى الصنع والتركيب، وتصدرها إلى بريطانيا ثم بعد أن أجرى عليها تغييرات عدة وقامت بتركيب بعضها مع بعض في شركاتها الصناعية الكبرى تستوردها إلى الهند لتحتل مكان المنتجات الهندية. ولا شك أن هذا كان جزءاً رئيسياً من برامج الاستعمار في بلاد المسلمين.

"وكانت السياسات الاستعمارية تتآمر على بلاد المسلمين تأمر كبيراً، لمنع المسلمين عن التطور والتقدم في ميادين الصناعة، خشية أن ينشئوا في بلادهم المصانع الكبرى التي تساهم في تحريرهم من سلطان الاستعمار الاقتصادي، ولكي يبقوا ضمن نطاق الشعوب المستوردة، التي تقدم للمستعمرين المواد الأولى من أرضها أو كدّها، بالأثمان البخسة التي تحددها المؤسسات الاستعمارية، ثم تستوردها بعد أن يتم تصنيعها في بلاد المستعمرين بالأثمان العالية، التي تحددها هذه المؤسسات المحتكرة، ذات السلطان النافذ في البلاد بقوة الاحتلال العسكري"^٢.

وكانت الشركة الشرقية ثم بعدها الحكومة البريطانية تنتهج نفس السياسة في الهند لاستنزاف الموارد ونهب الثروات والخيرات، ولا شك أن النهب بهذه الطريقة أشد خطراً من النهب بطرق أخرى؛ حيث يخفى مساوئها على كثير من الناس.

١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٧٢.

٢ - الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، الناشر: دار القلم - دمشق، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ص: ٤٧٥.

"علاوة على هذا، أنشأ المستعمرون البريطانيون نظاما للنهب القانوني، أو ما يُعرف بقانون "استنزاف الثروة". وذلك حينما فرضت بريطانيا ضرائب على السكان الهنود واستخدمت ما حصل منها لشراء المنتجات الهندية، وعلى رأسها أصباغ النيلبي والحبوب والقطن والأفيون، وبالتالي تمكنت من الحصول على هذه السلع مجانياً تقريباً. ثم تم استهلاك هذه السلع إما داخل بريطانيا أو إعادة تصديرها إلى الخارج من أجل الترتيح، واستخدامها لتمويل التنمية الصناعية لبريطانيا ومستعمراتها الاستيطانية في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا. استنزف هذا النظام، الهند من البضائع التي تبلغ قيمتها تريليونات الدولارات بقيمة المال اليوم؛ مما أجبر الهند على تصدير الغذاء حتى عندما كان الجفاف أو الفيضانات يهددان الأمن الغذائي المحلي".^١

على الرغم من أن أراضي هذه المملكة كانت قبل غزو الحكومة البريطانية جزءاً من الملكية الخاصة، إلا أنه بعد الاستيلاء عليها، اعترفت بريطانيا بنفسها بأنها المالك الرئيسي للأرض وفرضت ضريبة على المزارعين بلغت خمس منتجات الأرض وفي بعض الأحيان يصل مقدارها إلى حد أكثر من نصف المنتجات. وكان يحدث في بعض الأحيان أن يتم تسليم كل المنتجات إلى الحكومة وكان هذا الإجراء متداولاً إلى حد ما في الهند خلال هذه الفترة وتُعتبر الضرائب التي تُفرض على الأراضي الهندية حالياً ثلاث مرات تقريباً أكثر من الضرائب التي كانت تُدفع للدولة قبل سيطرة البريطانيين.^٢

وكانت الولايات المختلفة يتعاورها الأيدي على معيار الضرائب المفروضة على الناس، فكانت الحكومة البريطانية توظف قائداً إثر قاعد طمعا في المال وفرض الضرائب الباهظة. فكان بعض الناس يتركون منازلهم ووطنهم فرارا من تلك الإتاوات، ومن لم يترك بيته قد يضطر إلى بيع الأولاد أو يعرض نفسه للحبس والضرب.

سلم كلايف قيادة البنغال إلى مير جعفر^٣. وخلعه خلفاء كلايف وعينوا مير كاظم بمبلغ ١,٠٠١,٣٤٥ دولار. وبعد ثلاث سنوات، تم استلام مبلغ ٢,٥٠٠,٨٢٥ دولار من مير جعفر وجعلوه

^١ - استنزاف مقدرات الهند قتل شعبها من الفقر والجوع، عربي بوست، نيللي عادل، تم النشر: ٣٠/٠١/٢٠٢٣،

<https://arabicpost.net/AF/>

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٤٥.

^٣ - كان مير جعفر (ولد عام ١٦٩١؟ - توفي في ٥ فبراير ١٧٦٥، بنغال، الهند) أول حاكم للبنغال (١٧٥٧-١٧٦٠؛ ١٧٦٣-١٧٦٥) تحت النفوذ البريطاني، والذي ساعد في تحقيقه من خلال العمل على هزيمة حكم المغول هناك. (Also known as: Mīr Muḥammad Ja'far Khān Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia

القائد مرة أخرى. وبعد عامين أخذوا من نجم الدولة مبلغ ١,١٥١,٧٨٠ دولارا وعينوه بدلا من مير جعفر. وكانت الضريبة التي فُرضت على الولايات الخاضعة للشركة مرتفعة وساحقة لدرجة أن ثلث الناس في تلك المناطق تركوا منازلهم وبضائعهم وغادروا وطنهم. ومن لم يكن بمقدوره دفع هذه الضريبة، لو وقع في أيدي وكلاء الشركة، فسيتم حبسه في قفص كبير وتعليقه أمام الشمس الحارقة. وكان الآباء يضطرون في بعض الأحيان إلى بيع أولادهم (أكبادهم) لكي يتمكنوا من دفع الضريبة المفروضة عليهم وللتخلص من المعاناة والتعذيب. لقد تقرر أن ٥٠ بالمائة من إجمالي إيرادات المنتج يجب أن تُمنح للشركة^١.

ولم تكتف الحكومة البريطانية بفرض ضريبة واحدة على هؤلاء الهنود المساكين، بل تنوعت الضرائب عليهم، ضريبة الأرض، وضريبة الحصاد، وضريبة العرض على السوق وضريبة تحويل المادة إلى الوسائل وهكذا دواليك، ولم يكن هناك أي تحكم في سعر الأسواق، فكان التجار يمتصون دماء هؤلاء الفقراء مرة بعد مرة.

وكان من نتائج ذلك، انتشار الفقر والشقاء في أنحاء الهند وإثارة النفوس ضد سيطرة الشركة الابتزازية، لا سيما وأن الإنجليز قد فرضوا ضرائب لا تطاق على الزراعة والتجار والصناع، بعضها مكرر بطريقة غير مشروعة، فكانت هناك على سبيل المثال ضريبة الأرض المزروعة بالقطن ثم ضريبة الحصاد، ثم ضريبة عرضه على السوق ثم ضريبة تحويله إلى الخيوط، ثم ضريبة نسجه وفي الأخير ضريبة بيع النسيج في الأسواق، ويزيدون الأمر سوءا بأنهم بعد فرض الضرائب الثقيلة هذه كانوا يتركون الأمر عبثا في داخل الأسواق دون أنظمة تحد من أطماع التجار، وكانت نتيجة عدم التدخل هذا حدوث احتكار الغلات بواسطة التجار الجشع الذين كانوا يقومون بشراء كميات كبيرة من الغلات في موسم الحصاد بأرخص الأثمان، ثم يبيعونها بأضعاف ما اشتروها، في وقت الشدة ونفاد محاصيل الموسم لينتج عن ذلك القحط الذي كان يتسبب بدوره في هلاك البعض^٢.

وبهذا الأمر لقد صارت الضرائب المفروضة على أهل الهند أكثر من الضرائب المفروضة على كثير من سكان البلاد الأخرى حتى أهلها يتمتعون بدخل جيد.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٣٢.

^٢ - انظر: نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤١١.

يقول كشكات ويلسون، عضو البرلمان: إذا نظرنا إلى نسبة الدخل والمنتجات العامة، نرى أن الضرائب المفروضة في الهند أكثر من أي دولة أخرى على وجه الأرض. كانت الضريبة للفرد في الهند حتى وقت قريب، ضعف الضريبة للفرد في إنجلترا وثلاث مرات الضريبة للفرد في اسكتلندا^١. فقد تحول أموال الهند إلى الخارج عن طريق وكلاء أجنب، رغم تحقيق البلد أرباحاً ضخمة سنوياً. فكان يأتي الأفراد من بريطانيا إلى الهند كرؤساء أو جنود أو تجار، ويجمعون الذهب والفضة، ثم يعودون بها إلى بريطانيا.

والآن أصبح الأمر أكثر دقة وصعباً، يمكننا أن نرى كيف يتم تحويل أموال هذا البلد إلى الخارج عن طريق وكلاء أجنب، على الرغم من أنه يتراكم أرباحاً ضخمة سنة بعد سنة. على سبيل المثال، يُمكن أن يأتي شخص من بريطانيا إلى الهند كرئيس أو جندي أو تاجر. يُمارس عمله، وعندما تمتلئ حقيبته بالذهب والفضة، يُغادر إلى بريطانيا مع تلك الحقيبة المليئة^٢. وبهذه الطرق استطاعت الإمبراطورية البريطانية أن يسرق من الهند ثروات هائلة وأموالاً ضخمة أدت إلى ركود الاقتصاد الهندي، وتراكم ديونه واستنزاف موارده.

خلال ٢٠٠ عام من الاستعمار، سرقت الإمبراطورية البريطانية ما لا يقل عن ٤٥ تريليون دولار من الثروة الهندية. بين عامي ١٧٦٥ و ١٩٣٨، بلغ حجم الاستنزاف ٩,٢ تريليون جنيه إسترليني. أخذت بريطانيا جميع الأرباح، مما أدى إلى ركود اقتصادي وموت الناس بسبب نقص التغذية والمرض. انخفض استهلاك الحبوب الغذائية للفرد من ٢٠٠ كجم في عام ١٩٠٠ إلى ١٣٧ كجم بحلول عام ١٩٤٦. النظام الرأسمالي الحديث تأسس على الاستعمار والاستنزاف، وبريطانيا سَوّت عجز ميزان المدفوعات من خلال الاستيلاء على الذهب، ووضع نفقات الحرب على الميزانية الهندية، مما زاد من مديونية الهند.

"تشير الدراسة، إلى أنه خلال ٢٠٠ عام من الإستعمار، سرقت الإمبراطورية البريطانية ما لا يقل عن ٤٥ تريليون دولار من الثروة من الهند. وتقول الدراسة، "نظراً لأنّ بريطانيا أخذت جميع الأرباح، فإنّ الركود الذي شهدته البلاد لم يكن مفاجئاً. وتتابع: "موت الناس العاديون مثل الذباب بسبب نقص التغذية والمرض." ونظراً لضغوط الضرائب المرتفعة على القوّة الشرائية للهنود العاديين، انخفض الاستهلاك

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٤٦.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٧٠.

السنوي للفرد من الحبوب الغذائية من ٢٠٠ كجم في عام ١٩٠٠ إلى ١٣٧ كجم بحلول عام ١٩٤٦. وتقول الدراسة، إنّ " النظام الرأسمالي الحديث لم يكن ليجد بدون الاستعمار والاستنزاف." ففي منتصف القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا تعاني من عجز في الحساب الجاري مع أوروبا القارية وأميركا الشمالية، وفي الوقت نفسه، كانت تستثمر بشكل كبير في هذه المناطق. وتمّ وضع كل النفقات الغير عادية مثل الحرب أيضاً على الميزانية الهندية، وكل ما لم تتمكن الهند من الوفاء به من خلال أرباح الصرف السنوية تمّ إظهاره على أنّه مديونيته، والتي تراكمت عليها على شكل فوائد^١.

وبهذا السيل من الأموال الهائلة، والثروات المتراكمة استطاعت الحكومة البريطانية أن تأسس تجارتها الدولية، وأن تحقق إنجازات كبيرة في مجال الصناعة والاختراعات.

فهل يمكن إقامة كل هذه الشركات، والمصانع الكبرى بدون امتصاص دماء الملايين من الناس وتدمير حضارات الشعوب وتضعيف ازدهارهم؟

وفقا لحساب آدم بروكس، في فترة سبعين عاما، تدفق من الهند مثل فيضان السيل ما بين مليارين ونصف إلى خمسة مليارات من الأموال، دون أن يدخل روية واحدة إلى هذا البلد من الخارج. ويرى آدم بروكس، مثل ماكولاي، أن الحكومة البريطانية تمكنت بهذه الطريقة من تأسيس تجارتها الحرة والواسعة في العالم، وتحقيق اختراعاتها الميكانيكية، وإحداث ثورة صناعية داخل بلادها من خلال هذه المبالغ الضخمة من الأموال. ويجب الاعتراف بأنه لو لم يتم إخراج هذه المبالغ الخطيرة من الهند بل تصرف تلك المبالغ وتستخدم في داخل ذلك البلد، لما كان من الممكن أن يقال بأن دفع الضرائب الباهظة وحده هو الذي جعل الهند فقيرة وعاجزة للغاية وغرقت في دوامة من الفقر والبؤس والحرمان^٢.

فلا شك أن أي دولة تخرج هذه الثروات والمبالغ الهائلة منها على مدار سنوات طويلة لم يبق فيها أي تقدم وازدهار، بل لا تستطيع أن تستأنف ازدهارها إلا بعد دهر طويل. يقول دوت: "إنّ الدولة التي تُخرج سنويًا هذه المبالغ الضخمة، حتى لو كانت أكثر الدول تقدّمًا وازدهارًا في العالم، ستُصبح مدمرة في وقت قصير وسيترزع أساس تقدمها"^٣.

١ - مقتل ١٦٥ مليوناً ونهب ٤٥ تريليوناً.. دراسة تكشف حصيلة لاستعمار بريطانيا الهند، <https://www.almayadeen.net/news/politics/>

٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٧٣.

٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٧٤.

هذه هي الآثار المرتبة وفقاً للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أن المغول تميزوا بالسخاء والكرم، حيث أنفقوا ثرواتهم في أمور العامة المهمة الخيري مثل بناء المساجد والمدارس والمكتبات. على سبيل المثال، السلطان شاهجهان أنفق مبالغ ضخمة في بناء تاج محل، الذي استغرق بناؤه ٢٢ عامًا، وبلغت تكاليفه ٩١ مليون روبية. كما أنفقوا الأموال على الفقراء والمحتاجين، وسنوا تقاليد كوزن أنفسهم بالذهب والفضة في عيد النيروز للتبرع بها على الفقراء. ولتبيين الثروات التي نخبتها الحكومة البريطانية من الهند، يمكن أن يوضع أمام القارئ جدول، حتى

يتضح منها مقدار ما جنته إنجلترا من الهند، ومقدار ما جنت عليها:

من سنة	إلى سنة	كان في إنجلترا	كان في الهند	حالة القحط
١٠٠٠ م	١١٠٠ م	٢٠ قحطاً	٢ قحطاً	عام
١١٠٠ م	١٢٠٠ م	١٥ قحطاً	١ قحطاً	محلي في نواحي دلهي
١٢٠٠ م	١٣٠٠ م	١٩ قحطاً	٣ قحطاً	محلي
١٣٠٠ م	١٤٠٠ م	١٦ قحطاً	٣ قحطاً	محلي
١٤٠٠ م	١٥٠٠ م	٩ قحطاً	٢ قحطاً	محلي
١٥٠٠ م	١٦٠٠ م	١٥ قحطاً	٣ قحطاً	محلي
١٦٠٠ م	١٧٠٠ م	٦ قحطاً	٣ قحطاً	غير معين
١٧٠٠ م	١٨٠٠ م	٧ قحطاً	١١ قحطاً	غير معين
١٨٠٠ م	١٩٠٠ م	١ قحطاً	٣١ قحطاً	غير معين

في سبعة قرون وقع القحط في إنجلترا مائة مرة مع ملاحظة انخفاض نسبته في القرن الذي نزلوا فيه إلى الهند، بينما وقع في الهند سبعة عشر فقط، وكان ذلك قبل سيطرة الإنجليز على الهند واستغلالها خيراتها، لكن هذه الحالة تبدلت تماماً بعد ما حل الإنجليز بالهند وتمكنوا منها، ففي مدة قرنين بعد استيلاء الشركة الشرقية ثم الحكومة البريطانية على الهند وقع القحط في إنجلترا ثماني مرات بينما وقع في الهند اثنتان وأربعون مرة.

تُظهر هذه الإحصاءات بجلاء تدهور حالة الهند حتى أصبحت فريسة للجوع والمرض والموت في عهد الاستعمار الإنجليزي، الذي ارتقت بلاده على حساب هذا الشعب المقهور وغيره من الشعوب المماثلة^١.

المطلب الثاني: تعزيز الفقر وتجويع الناس

لا شك أن نتيجة نهب الثروات والخيرات هو انتشار الفقر والجوع، حيث إن الفقر والجوع مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد والمال، فمتى سعت الحكومة في ابتزاز المال ونهب الثروات يزداد الفقر والجوع شيئاً فشيئاً.

كانت صادرات الهند هي المواد الخام وظلت طوال القرن التاسع عشر على هذه الشاكلة فضلاً عن كونها على رأس القائمة في تزويد الصناعات البريطانية بالمواد الخام، كالقطن والشاي والمطاط والبن وغيرها من الثروات الحيوانية والمعدنية، ونتج عن ذلك أن الهند ازدادت فقراً نتيجة لاستنزاف الثروة في البلاد^٢.

فكانت نتيجة الفقر في الهند أن سكان أكثر ولايات الهند خصوبة، كان لا يكفي راتبهم الشهري قوتهم اليومي حتى يقيم صلبه ويستطيع أن يعمل بجهد وكد سائر اليوم.

وفقاً لمذكرة نشرت عام ١٩١٥ عن ولاية البنغال، وهي أكثر ولايات الهند خصوبة، فإن إجمالي الراتب الشهري للمزارع والعامل الذي يعمل بمجد طوال اليوم في الحقول لا يتجاوز ٣,٦٠ دولار شهرياً. ومسكن هذا المخلوق البائس عبارة عن كوخ متواضع مصنوع من أغصان الأشجار المتشابكة وسقفه من القش الصافي. جميع الأثاث في هذا المنزل، الذي ربما يعيش فيه ستة موجود حية، لا يساوي أكثر من ستة دولارات^٣.

يكتب أحد الأساتذة الأمريكيين في ذلك البلد: يمكن أن نقول بكل جرأة أن هناك مائة مليون شخص في الهند، كل منهم لا يكسب أكثر من خمسة دولارات في السنة. نعم، إذا وضعنا هذه النقاط وهذه الحقائق نصب أعيننا^٤.

١ - انظر: النمر، تاريخ الاسلام في الهند، ص: ٥٠٣.

٢ - سماح سلام، الاحتلال البريطاني في شبه القارة الهندية، الناشر: مجلة المقتطف المصري التاريخية، -العدد الرابع- مارس، ٢٠١٠م، ص: ٧٦.

٣ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٦٠.

٤ - انظر: المرجع السابق، ص: ٤٦.

وفي ظل هذا الفقر المدقع أصابت الهند مجاعات خطيرة متتالية أدت إلى سلب حياة الملايين من الناس، فكانت الحكومة البريطانية ترى الناس يتضورون جوعاً وعطشاً، لكن تبتهد في تكديس الأموال وجمعها.

فعلى سبيل المثال تعد بنغال من أغنى الأقاليم الهندية، لكنها أصبحت من أفقر الأقاليم بعد سيطرة الشركة البريطانية عليها. نهب الإنجليز ثروات بنغال ونقلوها إلى لندن، مما أنعش اقتصاد إنجلترا وساهم في الثورة الصناعية. تزامن ذلك مع قحط رهيب في بنغال عام ١٧٧٠م، الذي أودى بحياة ثلث سكانها. "كانت بنغال من أغنى الأقاليم الهندية، إلا أنها بعد أن وقعت تحت سيطرة الشركة، أصبحت بمرور الأعوام من أفقر الأقاليم، وذلك بسبب نهب ثرواتها بواسطة الإنجليز ونقل هذه الثروات إلى لندن لتنعش اقتصاديات إنجلترا وتساهم في قيام ثورتها الصناعية التي جاءت متزامنة مع القحط الرهيب الذي أصاب بنغال وذهب ضحيته ثلث سكانها وذلك في عام: ١٧٧٠م الذي يعتبر بداية لتلك الثورة الصناعية في مراحلها الأولى"^١.

لم يكن هذا فحسب، بل حدثت مجاعة أخرى في مقاطعة البنغال في الهند البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية. تسببت المجاعة في وفاة ما يقدر بنحو ٢,١ إلى ٣ ملايين شخص بسبب الجوع وسوء التغذية والأمراض المرتبطة بها. خلال هذه الفترة، قامت الحكومة البريطانية بتصدير الطعام وحظرت واردات الحبوب، مما أدى إلى تفاقم الأزمة الغذائية في المنطقة.

ففي مجاعة البنغال سيئة السمعة عام ١٩٤٣، مات ما يُقدر بنحو ٣ ملايين هندي جوعاً، بينما صدرت الحكومة البريطانية الطعام وحظرت واردات الحبوب^٢.

هذا الذي مر يعد فقط نموذجاً من نماذج القحط والمجاعة في بلاد الهند، وإلا فالأمثلة في هذا المجال كثيرة، وأرقام هلاك البشر في ظل هذه الأوضاع مرتفعة، فقد وجدت في بعض الدراسات أن الاستعمار البريطاني في الهند أدى إلى مقتل أكثر من ١٠٠ مليون شخص في ٤ عقود فقط. الدراسة تسلط الضوء على المآسي الإنسانية التي تسببت فيها الإمبراطورية البريطانية خلال ذروة الإمبريالية بين عامي ١٨٨٠ و١٩٢٠. وتوضح أن السياسات الاستعمارية البريطانية أدت إلى وفاة عدد أكبر من ضحايا المجاعات

^١ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٣٧٨.

^٢ - استنزاف مقدرات الهند، قتل شعبها من الفقر والجوع، عربي بوست، نيللي عادل، تم النشر: ٣٠/٠١/٢٠٢٣،

في الاتحاد السوفييتي والصين وكوريا الشمالية مجتمعين. كما تشير إلى أن الفقر المدقع والوفيات المبكرة كانت نتيجة مباشرة للاستعمار البريطاني، وأن السكان الأصليين لم يتعافوا بالكامل إلا بحلول مطلع القرن العشرين. الدراسة تقدر أن ٥٠ مليون حالة وفاة إضافية حدثت بين عامي ١٨٩١ و ١٩٢٠، مما رفع العدد الإجمالي للوفيات إلى أكثر من ١٠٠ مليون شخص بسبب الإمبريالية البريطانية.

وجدت دراسة جديدة نُشرت في مجلة Science Direct أن الاستعمار البريطاني في الهند أدى إلى مقتل أكثر من ١٠٠ مليون شخص في ٤ عقود من العام ١٨٨٠ إلى ١٩٢٠، وهي ذروة الإمبريالية البريطانية. فقد أودت السياسات الاستعمارية البريطانية في الهند بحياة أكثر من كل ضحايا المجاعات في الاتحاد السوفييتي والصين وكوريا الشمالية مجتمعين. كان الفقر المدقع غير معتاد ولم يظهر إلا خلال فترات الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي العميقة، لا سيما خلال فترة الاستعمار. ومع تطور الرأسمالية منذ أواخر القرن السادس عشر، انخفضت الأجور إلى ما دون مستويات الكفاف، وانخفض معدل عُمر الإنسان، وازداد عدد الوفيات المبكرة.. وبالرغم من أنه من غير الموثق كم كانت أعداد الوفيات السنوية في الهند قبل الاستعمار، ولكن على افتراض أنه كان مشابها لمعدل الوفيات في إنجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر بنحو ٢٧/١٨ حالة وفاة لكل ١٠٠٠ شخص، يتضح أن ١٦٥ مليون حالة وفاة زائدة حدثت في الهند خلال الفترة من ١٨٨١ إلى ١٩٢٠. وهذه الأرقام تشير إلى أكبر أزمات الوفيات الناجمة عن السياسات في تاريخ البشرية^١.

وقد ادعت الحكومة البريطانية أنها تأسس السكك الحديدية وتقوم بتمهيد الطريق وتسهيل السير فيها، لأجل إزالة الكوارث البشرية، وتقليل مستوى الوفيات بسبب المجاعات، لكن كل هذه الوسائل كانت في خدمة الإنجليز.

ومن عام ١٧٧٠ إلى عام ١٩٠٠، مات ٢٥ مليون شخص بسبب المجاعة وحدها. لقد مات هؤلاء في بلد مشهور في جميع أنحاء العالم بكثرة بركاته. وكان من المأمول أن يؤدي بناء السكة الحديد إلى تقليل شدة المجاعة. لكننا نرى أن السكة الحديد لم تخفف من حدة المجاعة فحسب، بل زادت منها أيضا^٢.

^١ - استنزاف مقدرات الهند قتل شعبها من الفقر والجوع، عربي بوست، نيللي عادل، تم النشر: ٣٠/٠١/٢٠٢٣،

<https://arabicpost.net/AF/>

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٨٤.

كان الناس يتضورون جوعاً وعطشاً، ويعاني كثير من الناس من سوء التغذية وعدم وجود لقمة يقيم بها صلبه، حدث كل هذه البؤس والشقاء في نفس الوقت ، كانت الحكومة البريطانية ترسل موارد الهند إلى الخارج، فكيف لا يكون الفقر والبؤس الموجود في أرض الهند نتيجة الاحتلال؟

يقول ويل دورانت ما معناه: "على عكس النعم الوفيرة التي تتمتع بها هذه الأرض الشهيرة، لكن سبب هذه المجاعة والعوز هو أن نصف المنتجات والإيرادات تعود للحكومة البريطانية. نعم، إن شعب الهند محكوم عليه بالموت حتى لا ينخفض الدخل السنوي للحكومة الإمبراطورية البريطانية بمقدار دولار واحد. يعيش ثمانون بالمائة من إجمالي سكان هذه الأرض الشاسعة على الأرض، لأن الضرائب القمعية التي فرضتها الحكومة البريطانية على شعبها العاجز تقوض أسس جميع صناعاتها المحلية ... الفقر والبؤس والجهل العام بهذه الأرض هو النتيجة المباشرة لغزو واحتلال حكومة أجنبية. . ولذلك، لا أستطيع أن أسمى الحكومة البريطانية في الهند إلا خيانة عظمى للإنسانية من جانب تلك الحكومة وكارثة كبيرة للهند^١.

بعض الناس يربطون الجوع المنتشر في البلاد بازدياد عدد السكان، حيث يدعى بأن الموارد في الأرض محدودة لا تكفي كل سكان البلاد، لا سيما الأراضي التي مليئة بالسكان وهي في ازدياد مستمر، وبالرجوع إلى واقع الحياة وبعد تنقيح المناط يتضح أن السبب هو العلل الأخرى مثل: عدم وجود الإدارة الصحيحة وعدم عزم الحكومة على مساعدة الناس وغيرها، لا ازدياد نسبة السكان. وإذا قالوا: إن سبب هذه المجاعة لم يكن قلة المركبات أو قلة المطر أو الجفاف وأشياء أخرى، يجب أن نعترف أن زيادة عدد السكان لا يُمكن أن تؤدي إلى انتشار المجاعة بهذه الدرجة. بل يدرك المراقب الدقيق والفضولي جيداً أن هناك حقيقة وراء كل هذه القضايا، وهي السبب الأساسي لجميع هذه المعاناة والضيق^٢.

يصعب على الإنسان تصور الشدائد التي كانت تتحملها أهل الهند، فضلاً عن مشاهدتها، فلم يبق لكثير من الناس طعام يأكلونها ولا لقمة يتذوقونها.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٨٨.

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، مترجم: رحيم نامور، ناشر: گام، سال چاپ: ١٣٥٦ هـ ش، ص: ٨٤.

كتب ويلفريد سكاون بلنت^١: لا يمكن لأي من الإحصاءات الرسمية أن تخفي وفرة المجاعة والمرض. ورغم أنني شخصياً من المحافظين، إلا أنّ مشاهدتي لتعذيب وصعوبة حياة سكان الهند تُؤثر عليّ بشدّة لدرجة تكاد تُخنقني. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يجعل الناس مهنتهم أكلة لحوم البشر؛ لأنه لم يبق شيء يمكنهم من خلاله مواصلة حياتهم اليومية^٢.

هذه هي الآثار المرتبة وفقاً للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أنه ساهم المغول في تحسين حياة الناس من خلال دعم الزراعة، وإقامة مشاريع البنية التحتية كالقنوات المائية والطرق. قدم السلطان أكبر سياسات اقتصادية شملت خفض الضرائب على الفقراء وإلغاء الجزية، مما أدى إلى تحسين الإنتاجية الزراعية وزيادة ثروة المزارعين.

المطلب الثالث: تراجع الحضارة وضالة الإنتاج

إن من الأزمات التي أوجدت في الهند القيم البريطانية المبنية على شهوة المال وحب الثروة أفول حضارة الهند، فقد تراجعت في عهد الراج البريطاني المباني الجميلة الشاهقة التي بنيت زمن حكومة المغول عن ازدهارها، وانهارت اقتصاد الهند والدور الريادي الذي كان تلعبه الصناعات الهندية.

لقد ظلت الهند أغنى البلاد في العالم منذ دهر طويل، وازدهرت فيها بسبب ثرواتها وخيراتها فنون مختلفة وكانت تصدر أموالاً مختلفة إلى البلاد الأخرى، فقد كان العالم يمتلئ بمنتجاتها.

"ظلت الهند أغنى بلاد العالم آلاف من السنين، وازدهرت الفنون فيها على الدوام مهما كان نوع الفنون، وما فتئت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ عن أدوات الهند الفنية وحليها ونسائجها حتى صار من الممكن أن يقال: إنها استنزفت مال الدنيا في ألوف السنين، أجل، إن الثروات وتبدل الأسر المالكة مما كان يؤدي إلى انتقال الثروات بين حين وحين، بيد أن هذه الثروات كانت تبقى في الهند فيستعملها مالكوها الجدد، كأسلافهم، في شيد المباني والقصور واقتناء النفائس وتشجيع الفنون التي هي من أغنى مصادر البلاد"^٣.

^١ - ويلفريد سكاون بلنت (مواليد ١٧ أغسطس ١٨٤٠، بيتورث هاوس، ساسكس، إنجلترا - توفي ١٠ سبتمبر ١٩٢٢، نيو بيلدينجز، ساسكس) كان شاعراً إنجليزياً معروفاً بشعره الأنيق الذي يحمل طابعاً إبيروتيكياً وبعبارة عن معارضته للإمبريالية. (Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Article History <https://www.britannica.com/biography/Wilfrid-Scawen-Blunt>)

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٧٤.

^٣ - غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٤٣٧.

صارت الهند تابعة للدولة البريطانية، فكانت تستورد السلع من الدول الغربية، وأضحت عاجزة عن الوقوف أمام الوسائل الجديدة والصناعات الحديثة، فظل الهندوسي يفتخر بما يستورده من الخارج، وبما يشيده على غرار الفن الغربي، وإن كان في الواقع أكثر منه تفوقاً وازدهاراً. فمن اقتنع بهذا الذل والهوان، كيف يجتهد في إزالة هذا العار عن جبينه؟

"واليوم صارت بلاد الهند أفقر بلاد العالم بعد أن كانت أغناها، وبلاد الهند قد هزلت بعد أن خضعت منذ قرن لنظام مؤد إلى امتصاصها، وبلاد الهند قد أخذت تستورد السلع من برمنغهام^١ ومانشستر^٢ وغيرها من المدن الإنجليزية بعد أن كانت تملأ العالم بمنتجاتها، والهندوسي، الذي أضحي عاجزاً عن الوقوف أمام ما تنتجه الآلات الصناعية الأوربية، طفق يعدل بالتدريج عن فنونه القديمة العهد داخلاً زمرة الأجراء والزراع. وقد بينا أن فن البناء شرع يغيب عن الهند منذ رسوخ الإنجليز فيها، وسيكون مصير أكثر الفنون الأخرى مثل ذلك بعد زمن قليل على الرغم من تشجيع بعض ذوي النفوس النيرة، وما انفك كبراء الأمراء المحليين يفتقرون فلا يستطيعون أن يحثوا على التمسك بتلك الفنون، وذلك فضلاً عن تملقهم لسادة الهند الجدد باقتنائهم لما تنتجه إنجلترا، والسائح الأوربي، الذي يدخل قصور الهندوس الغنية، كقصر مهارنا بأودايبور^٣، يقف مشدوهاً حينما يشاهد فيها أسقاط الأمتعة الرخيصة الكريهة التي تخرج من الأسواق الإنجليزية بجانب عجائب الهندوس الفنية"^١.

^١ - برمنغهام، ثاني أكبر مدينة في المملكة المتحدة وبلدة حضرية في مقاطعة ويست ميدلاندز الحضرية. تقع بالقرب من المركز الجغرافي لإنجلترا، عند نقاط تقاطع أنظمة السكك الحديدية والطرق السريعة الوطنية. برمنغهام هي أكبر مدينة في منطقة ويست ميدلاندز الحضرية - إحدى المناطق الصناعية والتجارية الرئيسية في إنجلترا - حيث تعمل كمركز إداري وترفيهي وثقافي. تقع المدينة على بعد حوالي ١١٠ ميل (١٧٧ كم) شمال غرب لندن. (Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٥, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Birmingham-England>)

^٢ - مانشستر، مدينة وبلدة حضرية في مقاطعة مانشستر الكبرى الحضرية، شمال غرب إنجلترا. يقع معظم المدينة، بما في ذلك النواة التاريخية، في مقاطعة لانكشاير التاريخية، لكنها تشمل منطقة جنوب نهر ميرسي في مقاطعة تشيشاير التاريخية. مانشستر هي نواة أكبر منطقة حضرية في شمال إنجلترا، وتظل مدينة إقليمية مهمة. (Also known as: Mamucium Written by H.B. Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٥, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Manchester-England>)

^٣ - أودايبور، مدينة، جنوب ولاية راجاستان، شمال غرب الهند. تقع في التلال الواقعة شرق سلسلة جبال أرافالي، على بعد حوالي ٦٥ ميلاً (١٠٠ كم) جنوب غرب تشيتورجاره. (Also known as: Udaypur Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٥, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Udaipur>)

تراجعت فنون البناء الهندوسية بسرعة منذ الفتح الإنجليزي للهند قبل نحو قرن، ولهذا الأمر أسباب عديدة، مما دفعهم لتقليد الأبنية العامة الإنجليزية الثقيلة، مما أدى إلى ظهور قصور حديثة قبيحة، ونتيجة لذلك بدأ الأغنياء في الهند ببناء منازلهم على الطراز الأوروبي، معتقدين أنهم بذلك يظهرون تقدمهم الحضاري.

"رجع فن البناء، كأكثر الفنون الهندوسية، إلى الوراء رجوعاً سريعاً منذ تمام الفتح الإنجليزي للهند، أي منذ نحو قرن واحد، ولهذا الانحطاط الهائل سببان: أولهما: تدرج أمراء الهند وأشرافها إلى الفقر، فهؤلاء السادة إذ جردوا، على الأكثر، من دخلهم اضطروا إلى العدول عن إنشاء مثل تلك المعابد والقصور العجيبة التي هي عنوان الثراء ومظهر غنى البلاد في الغالب، وثانيهما: اعتقاد الأقلين منهم، الذين بقي لهم من المال ما يستطيعون أن يشيدوا به قصوراً، أن تفوق الأوروبيين في السلاح يتضمن تفوقهم في الفنون، فأروا أن يقلدوا ما أقامه الإنجليز من الأبنية العامة الثقيلة، فكان ما نراه من قصورهم الحديثة الشنيعة، ومن هذا أن راجه غواليار^٢، الذي هو من أقوى الأمراء المحليين، قد تعامى عما أمام عينيه من مباني الهند الرائعة فلم يجد غير إقامة قصر على طراز إحدى مباني لندن الكريهة، ومن هذا، أيضاً، أن أمير إندور بنى له قصراً على الطراز الأوروبي فكان أشنع ما رأيت في الهند - مع عده إياه، لا ريب، أجمل ما في عاصمته - ومن الطبيعي أن يسير أغنياء الهند على تلك السنة، طائنين أنهم يقيمون الدليل بذلك على بلوغهم درجة رفيعة من الحضارة وعلى نخوضهم فوق مستوى أبناء وطنهم، فتبصرهم ينشئون بيوتهم على طراز أوربي سقيم ممزوج بما لا يلائمه من الزخارف الإسلامية"^٣.

Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Jan ٢٣, ٢٠٢٥ • Article History
<https://www.britannica.com/place/Udaipur-India>

^١ - غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٤٣٧.

^٢ - غواليار، مدينة، شمال ولاية ماديا براديش، وسط الهند. تقع على بعد حوالي ٧٥ ميلاً (١٢٠ كم) جنوب أغرا. جواليور هي مركز ثقافي وصناعي وسياسي، وتستمد اسمها من القلعة الصخرية التاريخية التي تشكل مركز المدينة. وقد أطلق عليها أسماء جوبا بارفات، وجوباتشال دورج، وجوباجيري، وجوبادييري، وكلها تعني "تلة راعي البقر". عدد السكان. (٢٠٠١) ٨٢٧٠٢٦؛ (٢٠١١) ١٠٦٩٢٧٦.

(Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Jan ١٩, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Gwalior-India>)

^٣ - غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٤٢٨.

وللأسف الشديد هذه الحالة الخطيرة أدت إلى فقدان الهوية الثقافية ، حيث نرى أن الأغنياء بنوا في الهند منازلهم على الطراز الأوروبي، معتقدين أنهم بذلك يظهرون تقدمهم الحضاري، مما أدى إلى فقدان الهوية الثقافية الهندية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى انخفضت نسبة المتعلمين والمتعلمات في ظل الحكومة البريطانية، فكان التعليم محصورا على بعض الفنون التي تملئها الإنجليز على الشعب المسكين. فقد كان قبل السيطرة البريطانية عدد المتعلمين في معظم الولايات أكثر بكثير مما هو بعد قرن من الحكم البريطاني. هنا، يجب أن ننظر إلى نسبة الأمية في الهند، والتي تُشكل ٩٠٪ من السكان. في معظم الولايات، كان عدد المتعلمين قبل سيطرة البريطانيين أكثر بكثير من عدد المتعلمين اليوم، بينما تمرّ الهند تحت سيطرة الحكومة الإمبراطورية البريطانية منذ قرن^١.

فعلى رغم كل تلك الإشاعات التي كانت تبث من جانب الحكومة البريطانية بين حين وآخر، وما كانت الحكومة البريطانية تجمع من الثروات والأموال وتفرضها على الشعب المسكين على أساس الضرائب، لم تهتم بالتعلم وإنشاء المدارس، وكيف تهتم بها وقد جاءت لتخريبها وهدم كيائها، حتى يظل الشعب أمام قوتها وغلبتها ضعيفا ومحتاجا.

وجدير بالذكر أن الهند كانت تحتوي على العديد من المدارس الدينية والمدارس التي تديرها المجتمعات المحلية قبل سيطرة الحكومة البريطانية ، ولكن وكلاء شركة الهند الشرقية أزعجوا هذه المجتمعات ولم يبنوا مدارس جديدة بدلاً من القديمة. نتيجة لذلك، وبعد مرور قرن من الزمن، انخفض عدد المدارس إلى ٦٠٪ مما كان عليه قبل مائة عام.

أرض الهند تحتوي على ٧,٣٠٠,٠٠٠ مدينة، ولكن عدد المدارس الابتدائية هو ١٦,٢١٥ فقط، مما يعني أن ٤٪ فقط من الأطفال يذهبون إلى هذه المدارس. المدارس العامة ليست مجانية، ويمكن فقط لأولئك الذين يستطيعون دفع الرسوم الالتحاق بها^٢.

كيف تتقدم الهند وقد احتكرت بريطانيا تجارتها ولا تريد لها التطور والتقدم، لا سيما تجارتها البحرية، حيث لا يسمح للهنود أن تكون لهم تجارة مستقلة بحرية، بل هم تبع للإنجليز.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٧٨.

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، مترجم: رحيم نامور، ناشر: گام، سال چاپ: ١٣٥٦ هـ ش، ص: ٧٦.

التجارة البحرية تحتكرها بريطانيا أكثر من التجارة البرية. لا يُسمح للهنود أن يكون لديهم تجارة بحرية خاصة بهم. كان من المقرر نقل جميع بضائع الهنود بالوسائل النقلية البريطانية، وكان الإيجار يأتي من جيوب أمة فقيرة. إن بناء السفينة، التي كان من الممكن أن تنقذ آلاف الهنود من البطالة، محظور في الهند نفسها^١.

لا أحد ينكر تأثير الاقتصاد على الحضارة، فالدولة التي لا تتمتع باقتصاد قوي لا يتسنى لها أبداً أن تبني حضارة حرة ومستقلة، وكانت التجارة ولا زالت تلعب دوراً بارزاً في نمو اقتصاد البلد وتقوية بني التحتية لها.

فرضت بريطانيا ضرائب ضئيلة وقليلة جداً على المنتجات الغريبة التي تستوردها الهند، بينما فرضت ضرائب باهظة على منتجات الهند اليدوية الجميلة حتى صارت تجارتهم خارج الهند صعبة.

ويكتب شخص إنجليزي آخر: "لقد حاولنا بكل ما أوتينا من قوة ومقدرة جر المجتمع الفقير والعاجز، الذي أصبح ضحية للتجارة وأسيرا لأطماع رجال التجار الإنجليز الجشعين، نحو الفقر والدمار أكثر مما كان". إنجلترا تحت حكم عنوان التجارة الحرة، ترك سوق الهند مفتوحاً من خلال فرض ضريبة قليلة جداً على منتجات مصانع لانكشاير^٢ وبيركشاير^٣ وجلاسجو^٤ وغيرها، وفي الوقت نفسه أغلقت

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٦٧.

^٢ - لانكشاير، مقاطعة إدارية وجغرافية وتاريخية تقع في شمال غرب إنجلترا. يحدها من الشمال كمبرلاند وويستمورلاند (في مقاطعة كمبريا الإدارية الحالية)، ومن الشرق يوركشاير، ومن الجنوب تشيشاير، ومن الغرب البحر الأيرلندي. بريستون هي عاصمة المقاطعة. (Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Lancashire-county-England>)

^٣ - بيركشاير، مقاطعة جغرافية واحتفالية في جنوب إنجلترا. تحتل المقاطعة الجغرافية وديان نهر التيمز الأوسط وروافده، نهر كينيت، إلى الغرب مباشرة من لندن. وهي مقسمة إلى ست سلطات موحدة: غابة براكنيل، وريدنج، وسلو، وغرب بيركشاير، ووندسور ومايدنهيد، وويكينجهام. (Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Berkshire-county-England>)

^٤ - جلاسجو، مدينة في غرب وسط اسكتلندا. تقع على ضفتي نهر كلايد على بعد ٢٠ ميلاً (٣٢ كم) من مصب النهر على الساحل الغربي أو الأطلسي. تعد جلاسجو أكبر مدينة في اسكتلندا، وتشكل منطقة مجلس مستقلة تقع بالكامل ضمن المقاطعة التاريخية لاناركشاير. (Also known as: Glaschu Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٦, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Glasgow-Scotland>)

الحرف اليدوية الجميلة والمتينة في البنغال وبيهار بوضع هذه الضرائب الظالمة حتى تكاد تكون تجارهم في إنجلترا مستحيلة^١.

فالشركة الإنجليزية قضت على الصناعات الوطنية في الهند واستغلت خيرات البلاد. طردت المنسوجات القطنية الهندية من أسواق أوروبا وأغرقت الهند بالمنسوجات القطنية المستوردة. سيطرت على محصولات القطن الهندية وأرسلتها إلى إنجلترا لتحويلها إلى قماش يتم تسويقه بأسعار مرتفعة. هذا أدى إلى انتشار البطالة بين العمال والحرفيين، وتدهور الزراعة، وعجز ملاك الأراضي عن توفير مرتبات الموظفين.

"ففي المجال الاقتصادي رأينا أن الشركة الإنجليزية حيثما تقدمت في الهند وبسطت سلطتها، أخذت في القضاء على الصناعات الوطنية واستغلال خيرات البلاد، وطردت المنسوجات القطنية الهندية من أسواق أوروبا، ثم أقدمت لتصدير الخيوط القطنية إلى الهند إلى أن أغرقت الهند بالمنسوجات القطنية، ووضعت يدها على محصولات الهند من القطن لترسل إلى إنجلترا وتحول إلى قماش يتم تسويقه في الهند وسائر الأسواق الآسيوية بأضعاف أسعاره، وبذلك انتشرت البطالة بين العمال والحرفيين والموظفين الهنود، كما أن الزراعة لم تعد تتحمل هذا العبء الثقيل الذي ترتب على فقدان مئات الآلاف من الهنود أعمالهم ووظائفهم، حتى أن طبقة ملاك الأراضي المرتبطين بالطبقات الحاكمة عجزت عن توفير مرتبات الموظفين فعملت على تخفيض بعض المرتبات والمخصصات الأخرى"^٢.

وبهذه الحيلة التي نفذتها الحكومة البريطانية في الهند اختفت دور الصناعات التقليدية والتي كانت تعتبر من أهم الموروثات الثقافية في الهند، حيث تعكس التراث الغني والتنوع الثقافي للبلاد وتعد مصدرا هاما للعمل والدخل للعديد من الأسر المحلية. كما كانت تساهم هذه الصناعات في تعزيز السياحة والترويج للثقافة الهندية في العالم.

فلا شك أن الفقير الذي لا يملك قوت يومه وليلته يقبل على الوسائل والأدوات الرخيصة الإنجليزية، بدلا من شراء الأدوات الهندية الغالية.

مع تطور الصناعة في إنجلترا، بدأت الأسواق الإنجليزية تغلق أبوابها أمام المنتجات الهندية لتحل محلها البضائع الإنجليزية. قامت الشركة الإنجليزية بفتح أسواق الهند أمام البضائع المستوردة من إنجلترا، وأصدر

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٦٥.

^٢ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤١١.

البرلمان قرارات تمنع استيراد البضائع الهندية إلى إنجلترا. نتيجة لذلك، تأثرت الأسواق الهندية بشكل كبير، حيث تم فرض قيود على الصناعات الهندية ومطاردة منتجاتها في الأسواق الداخلية، مما أدى إلى تدمير صناعات النسيج الهندية وتضرر العديد من النساجين والحرفيين في بنغال وبيهار. استمرت هذه الإجراءات في جميع أنحاء الهند، مما أدى إلى تدمير صناعات أخرى مثل تصنيع السفن والتعدين وتصنيع الزجاج والورق. لم تصمد الصناعات اليدوية القديمة أمام الفنون الصناعية الجديدة، خاصة في ظل الضغوط السياسية والاقتصادية. لم تُبذل أي محاولات لاستخدام الفنون الصناعية الجديدة في الهند، بل حاول الإنجليز منع انتشار الصناعات في الهند، مما أدى إلى توقف النمو الاقتصادي الهندي وتحويل الهند إلى مستودع للمواد الخام لإنجلترا الصناعية^١.

نتيجة لذلك، ازداد الفقر في الهند، وأصبح مئات الألوف من الحرفيين والصناعيين مهددين بالموت بسبب عدم قدرتهم على توفير احتياجاتهم الأساسية. اعترف اللورد بنتنك، حاكم عام الشركة بين ١٨٢٨ و ١٨٣٥، بأن تاريخ العمل والتجارة لم يشهد مثيلاً لهذا الشقاء، وأن سهول الهند قد ابيضت من عظام نساجي القطن^٢. فالحكومة البريطانية بدلاً من مواساة هذا الشعب المسكين سعت في امتصاص دمه، ونهب ممتلكاته وتخريب حضارته.

أصبحت البلاد فقيرة ومنهار الحضارة بسبب تدمير بريطانيا بشكل فعال قطاع التصنيع بعد أن كانت من أكبر المنتجين الصناعيين في العالم، حيث كانت تصدر المنسوجات عالية الجودة إلى جميع أنحاء العالم.

فالهيمنة البريطانية على الهند من خلال الغزو العسكري الناجح، أدت إلى تدمير شركة تجارية كانت تفتقر إلى مبادئ النظام والحكم، وتجاهلت الحضارة والصناعة الهندية. الهند كانت غنية بالحضارة والتعليم، لكنها كانت متخلفة من حيث النظام العسكري والتحصينات، نتيجة لذلك، دمرت بريطانيا الحضارة الهندية بالنار والسيوف، مما أدى إلى تدمير حضارتها الرائعة. السؤال: في نهاية العبارة يستفسر عن الفوائد التي جلبتها الشركة البريطانية إلى الهند، وهو سؤال استنكاري يشير إلى أن الشركة لم تجلب أي فوائد

^١ - انظر: نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٣٨٠.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٣٨٠.

حقيقية للهند، بل على العكس، تسببت في تدمير حضارتها وزيادة الفقر والبطالة بين سكانها. ما هو الحظ الجيد الذي جلبته هذه الشركة إلى الهند؟^١

وبهذا المقارنة بين القيم الإسلامية والقيم الغربية الموجودة زمن الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية تتضح الفرق بين القيمين. الغزاة المسلمون لما كان الدين والإسلام أساس قيمهم جاءوا إلى الهند ليستقروا ويعتبروها وطنهم، واستخدموا الضرائب والنفقات التي جمعوها من أهل الهند لتطوير الصناعة والتجارة. كما أنهم احترمو الأدب والفنون الزخرفية الهندية. وعلى العكس من ذلك، لما كانت شهوة المال أساس قيم البريطانيين، لم يسعوا للاستقرار في الهند أو اعتبارها وطنهم، بل كانوا مهتمين بالمنافع المادية فقط. لو أن البريطانيين اتبعوا نفس النهج الذي اتبعه المسلمون، لكانت الهند اليوم من بين الدول المتقدمة والحية في العالم.

هذه هي الآثار المرتبة وفقاً للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أن المغول ركزوا على تعزيز الإنتاج من خلال تطوير الصناعات التقليدية، مثل النسيج والحرف اليدوية، ودعم التبادل التجاري مع دول أخرى. أنشأوا شبكة طرق لتسهيل التجارة، وأسسوا مراكز اقتصادية مهمة، مثل أغرا^٢ ودلهي.

المطلب الرابع: ترويج الرذائل

إن القيم المبنية على شهوة المال وتلبية الحاجات المادية تسوغ للإنسان جمع المال وتكديسها ولو على حساب نشر الرذائل، وترويج الفحشاء والمشروبات المحرمة. ولهذا السبب انتشر في الهند البريطاني تناول المخدرات، والمشروبات المسكرة وكان بإمكان أي إنسان أن يشتري تلك المواد السامة من أقرب مكان، فازداد هزال الناس هزالاً يمنعهم من القيام بأعمالهم اليومية.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٦.

^٢ - أغرا، مدينة تقع في ولاية أتر برديش الغربية، شمال الهند. تقع في السهول الهندو-غانجيتية على نهر يامونا (جومنا) على بعد حوالي ١٢٥ ميلاً (٢٠٠ كيلومتراً) جنوب شرق دلهي. (Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ٩, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Agra>)

"تبيح الحكومة الهندية تداول المخدرات، وفي إمكان كل إنسان أن يشتري الأفيون من أقرب بَدَّال إلى بيته، ولهذا التساهل ينغمس فقراء الشعب في هذه الرذيلة، فتتخط الصحة العامة، ويزداد هزال الناس جيلا بعد جيل، ويبلغ بهم خمول الذهن والبدن حدا يمنعه من القيام بأعمالهم على أكمل الوجوه"^١. اكتسب الحكومة البريطانية أموالا ضخمة من وراء تعزيز الرذائل في المجتمع الهندي، فبدلا من تقوية البنى التحتية، مثل المدارس والجامعات ومراكز الصحية، اجتهدت في توسيع القمار وتناول المخدرات وشرب الخمر، وخصصت لهذا الغرض العديد من الصالونات.

وبدلاً من توسيع الثقافة، تقوم الحكومة بتوسيع الشرب والقمار بين الناس. مع أول مركز تجاري أنشأه البريطانيون، تم افتتاح العديد من الصالونات لبيع مشروب الروم، وحققت شركة الهند الشرقية أرباحاً لا حصر لها من ذلك. وفي الأربعين سنة الماضية، زاد دخل الحكومة من هذه الطريقة يوماً بعد يوم، وقد وصل اليوم إلى المبلغ الأصلي. وفي عام ١٩٢٢، بلغت الإيرادات السنوية لهذه الصالونات ٦,٠٠٠,٠٠٠ دولار، وهو بالضبط ثلاثة أضعاف المبلغ المخصص في الخزينة لأغراض المدارس والجامعات^٢.

تم إنشاء المتاجر للأفيون في المناطق المكتظة بالسكان، وحثت الحكومة أهل بورما على زراعة الأفيون بالتوزيع المجاني لتلك المادة، فصارت تلك المادة السامة مصدر دخل للحكومة البريطانية، وخصصت لزراعها مناطق شاسعة، ومنعت القانون الذي كان يقف عقبة أمام زرعها.

فهل يستحي من لا يخشى الله عز وجل من تدمير الشعب بالكامل، وتخريب البلاد وتعذيب العباد؟ فلا شك أن كل هذه المشاكل ترجع إلى قيمهم الكاسدة التي لا قيمة لها أمام القيم الإسلامية السامية. فإذا كانت القيم كاسدة وفاسدة فماذا نتظر من آثار تلك القيم؟

تم إنشاء وإدارة ٧٠٠ متجر للأفيون اليوم في مراكز العبور، الأكثر اكتظاظاً بالسكان من قبل الحكومة. في عام ١٩٢١، أصدر المجلس التشريعي الهندي قانوناً يحظر زراعة الأفيون، لكن الحكومة رفضت تنفيذ أحكامه في الوقت المحدد. تم تخصيص ما بين مائتي ألف إلى سبعمائة ألف فدَّان من الأراضي في الهند، التي ينبغي زراعتها بالحبوب والبقوليات، لزراعة الأفيون، تسع جميع الإيرادات المباشرة وغير المباشرة من الحكومة يتم جمعها من بيع الأفيون. زراعة الأفيون كانت محرمة قانوناً في ولايات بورما

^١ - أمينة سعيد، مشاهدات في الهند، الناشر: دار المعارف للطباعة والنشر، الطبعة الأولى: ١٩٤٦م، ص: ٨٨.

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٧٩.

قبل الاحتلال البريطاني. وبعد الاستيلاء على تلك الولاية، قامت الحكومة البريطانية بإعطاء الأفيون لشعبها مجاناً حتى يعتادوا عليه، وبذلك تم إعداد سوق لبيعه. لجنة التجديد التابعة للدولة أشارت في تقريرها لعام ١٩٢٥ إلى أهمية بيع الأفيون الذي يعد من أهم مصادر الدخل، وضرورة تطوير استخداماته، وأمرت في الوقت نفسه بذلك فتطور العلوم الثقافية ليس ضرورياً إلى ما هو أبعد من ذلك^١.

والخلاصة أن الحكومة البريطانية في الهند كانت تعتمد بشكل كبير على زراعة وبيع الأفيون كمصدر رئيسي للدخل. على الرغم من أن المجلس التشريعي الهندي أصدر قانوناً في عام ١٩٢١ يحظر زراعة الأفيون، إلا أن الحكومة رفضت تنفيذ هذا القانون. بدلاً من ذلك، خصصت مساحات شاسعة من الأراضي لزراعة الأفيون بدلاً من الحبوب والبقوليات. كما أن الحكومة البريطانية قامت بتوزيع الأفيون مجاناً في بورما بعد احتلالها، مما أدى إلى إدمان السكان عليه وخلق سوق لبيعه. فبيع الأفيون كانت عندها كمصدر دخل رئيسي، وتطوير العلوم الثقافية ليس ضرورياً بقدر تطوير استخدامات الأفيون. هذه هي الآثار المرتبة وفقاً للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أنه ركز المغول على تعزيز الأخلاق مثل التسامح والرحمة. السلطان شاهجهان، على سبيل المثال، أنشأ مطاعم مجانية في أوقات المجاعات، وأمر بشراء الأطفال الذين باعهم أهلهم بسبب الفقر وإعادةهم لعائلاتهم بعد انتهاء الأزمة.

يمكن استنباط هذه النقاط من خلال هذا المبحث:

١. يعرض المبحث كيف أن القيم المادية التي تركز على شهوة المال تؤدي إلى تدهور الروحية الإنسانية وزيادة القلق الروحي وتشويه الفطرة. كما يوضح أن تلك القيم تسببت في آثار كارثية على المجتمع الهندي خلال فترة الاستعمار البريطاني.
٢. ويبرز أن الاستعمار البريطاني قام بنهب ثروات الهند بوسائل متعددة، مثل فرض الضرائب الباهظة، والاحتكار التجاري، وغصب الممتلكات، مما تسبب في تدمير الاقتصاد الهندي وتراكم ديونه.
٣. ويوضح كيف أدى الاستنزاف الاقتصادي إلى انتشار الفقر بشكل واسع، مما جعل الهند واحدة من أفقر الدول عالمياً بعد أن كانت من أغناها. كما تسبب ذلك في مجاعات كارثية أدت إلى وفاة الملايين بسبب الجوع وسوء التغذية.

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٨٠.

٤. ويسلط الملف على تدمير بريطانيا للصناعات التقليدية الهندية مثل النسيج والحرف اليدوية، مما أدى إلى انخيار الحضارة الهندية الثقافية والصناعية وجعلها تعتمد على المنتجات البريطانية.
٥. ويكشف عن دور الحكومة البريطانية في تعزيز الفساد والرشايل مثل تداول المخدرات والمشروبات المسكرة، مما أثر سلباً على الصحة العامة والهياكل الاجتماعية في الهند.

المبحث الثاني

تلبية شهوة الجاه والسلطة وآثارها السيئة

إن من الأسس التي انبنت القيم الغربية عليها، تلبية شهوة الجاه والسلطة وأغراه الناس على الخضوع والاستكانة أمام مطالبهم ومعتقداتهم وثقافتهم.

فالمسلم ينقاد لمطالب الشريعة الإلهية أمراً ونهياً، والكافر ينقاد للطواغيت من القوانين الظالمة، والكبراء الفاسدة، والأهواء النفسية.

إذا كانت القيمة مبنية على الشهوات المادية، من طلب الجاه والسلطة، فإنها بدلاً من أن تقود الإنسان نحو السعادة، تدفعه نحو القلق الروحي وتشويه الفطرة الإلهية.

الآثار السيئة التي تتركها هذه القيم المذكورة أعلاه، أكثر بكثير من الفوائد والإنجازات التي يمكن ملاحظتها، ثم إن جري الغرب لا سيما الحكومة البريطانية وراء شهوة القدرة والغلبة وبسط السلطة قضية لا أحد يستطيع إنكارها، كيف ولا يمكن جمع المال وتكديس الثروات بنهبها وفرض الضرائب الباهظة على الشعب إلا بالقدرة والسلطة.

في هذا المبحث المتواضع، سيشير الباحث بإيجاز إلى بعض الآثار السيئة التي تركتها هذه القيم في الهند خلال فترة الحكم البريطاني.

المطلب الأول: امتهان كرامة الناس ومعتقداتهم

إن طلب الجاه والسلطة على الناس قد تكون علامة من علامات الكبر في الإنسان، والمتكبر بصورة طبيعية يختار السبل التي تؤدي إلى التفوق على الآخرين، وتحقيرهم والاستهانة بهم.

المتكبر لا يعرف في التعامل مع من دونه قانوناً ونظاماً يحترمه، بل شاء أم أبي يتوسل للوصول إلى مآربه وأغراضه إلى امتهان كرامة الآخرين، والاستهزاء بعقائدهم وثقافتهم.

قامت الحكومة البريطانية بامتهان الشعب الهندي بأشكال عديدة، ظناً منها أن هذا الامتهان سيقف عرقلة^١ في طريق توصل أهل الهند بالمشاركة في الحكم وأن يكونوا ندا لها في الحكم والأمر.

١ - ع ر ق ل: عرقل يُعرقل، عرقلَةٌ، فهو مُعرقل، والمفعول مُعرقل، عرقل الأمر: صعبه. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٣٣٥٠، (١٤٨٩/٢).

أولاً: قتل الأبرياء

من تلك الطرق لإذلال الشعب الهندي التسبب في قتل الملايين من الناس، كأنهم حيوانات عجماء لا عقل لها ولا إنسانية ولا كرامة. فهل من يقدر شأن الإنسان، ويوقره يقوم بقتل إنسان واحد بريء؟ وقد مضت في المبحث السابق أن الاستعمار البريطاني تسبب في مقتل الملايين من الناس، وعلى بعض التقديرات ما يقرب من ١٦٥ مليون شخص في الهند من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩٢٠م، وهذه الأرقام والأعداد سهل كتابتها على الورق، لكن من عاين الواقع كاد أن ينفطر قلبه حزناً وكماًداً.

لقد أقدمت بريطانيا على قتل كل من احتج ضد برامجها غير الإنسانية، وأراد أن يعيش حراً من السلاسل والأغلال التي ربطت بها الشعب المسكين. فهل هذا احترام كرامة الإنسان أم امتهان؟ يقولون: لقد أعطت إنجلترا القانون والنظام والأمن للهند، ما هو الغرض؟ يجب معرفة حقيقة الأمر.

لقد استولى البريطانيون على الولايات الهندية واحدة تلو الأخرى عن طريق القتل والنهب والقتل، وهو ما يفسر في الثقافة العسكرية على أنه انتصار وهيمنة، مع مائة وخمسة عشر حرباً، هزوا أساس الإنسانية الهندية وسجنوا أو أعدموا كل هندي احتج على أفعالهم القمعية^١.

لقد قامت الحكومة البريطانية بانتهاك كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية انتهاكاً صارخاً. ومن تلك الحوادث التي تبين هذا الانتهاك بصورة واضحة حادثة حديقة جاليانوالا باغ حيث تجمع هناك القرويون لأداء احتفال ديني. بدلاً من التعامل معهم بإنسانية واحترام، أمر الجنرال البريطاني بإطلاق النار عليهم دون سابق إنذار، مما أدى إلى مقتل وإصابة العديد منهم. بعد المذبحة، زاد الجنرال من إذلال السكان المحليين من خلال إصدار أوامر قاسية تمنع تقديم أي مساعدة للجرحى. هذه الأفعال تعكس تجاهلاً تاماً لكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية، وتظهر مدى القسوة والوحشية التي يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتجاهل القيم الإنسانية.

في اليوم الثالث عشر، أصدر الجنرال البريطاني ريجينالد داير^٢ إعلاناً صارماً بمنع التجمعات لأكثر من ثلاثة أشخاص. بينما كان الجنرال يقرأ إعلاناً، تجمع حوالي ١٠٠٠٠ قروي في حديقة جاليانوالا

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٤٢.

^٢ - اللورد ريجينالد داير (مواليد ٩ أكتوبر ١٨٦٤، موري، الهند البريطانية - توفي ٢٣ يوليو ١٩٢٧، لونج أشتون، بريستول، إنجلترا) كان جنرال بريطاني مذكور بدوره في مجزرة أمريتسار في الهند عام ١٩١٩. (Also known as: Reginald Edward Harry Dyer Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Article History <https://www.britannica.com/biography/Reginald-Edward-Harry-Dyer>)

لأداء احتفال ديني، غير مدركين للوضع السياسي والثورة في المدينة. كانت الحديقة محاطة بجدران عالية وبوابات صغيرة، مما جعل من الصعب على الناس الهروب عندما بدأت المذبحة. ولما علم داير بالتجمع، انطلق بسرعة مع قواته، مزودين بالذخيرة والمدفعية والخرائط.

عند وصوله إلى الحديقة، دخلها شخصيا ورأى الحشد الكبير. اعتقد داير أن هذا التجمع يخالف أوامره بمنع التجمعات لأكثر من ثلاثة أشخاص. دون أن يحذر الحشد أو يعرف هويتهم وسبب تجمعهم، أمر قواته بإطلاق النار على الناس الذين كانوا في منتصف الصلاة، مما أدى إلى مذبحة مروعة. بعد أن أمر بإطلاق النار على الحشد، وجد الناس أنفسهم فجأة هدفا للرصاص، لم يحاولوا المقاومة، بل حاولوا الهروب عبر البوابات الصغيرة التي كانت تحت حراسة مشددة. استمر إطلاق النار طالما كانت هناك رصاصات، وتولى داير شخصيا مهمة المدفعية، مطلقا النار على كل من حاول الهروب. بعد انتهاء المذبحة التي استمرت عشر دقائق، أطلق النار على حوالي ١٥٠٠ شخص، توفي ٤٠٠ منهم. لزيادة الرعب، أمر داير الجنود بعدم مساعدة الجرحى بأي شكل من الأشكال، وأصدر أوامر قاسية أخرى تهدف إلى إذلال السكان المحليين^١.

ولم يكتف الجنرال بهذه الانتهاكات فقط، بل أمر أيضا بقصف الحقول التي كانت تعمل فيها مجموعة فقيرة ومجتهدة، مما أدى إلى تدمير حياتهم ومصدر رزقهم. فهل الحكومة البريطانية قامت بمحاسبته ومجازاته؟ نرى الأمر على العكس تماما، فبدلا من محاسبته على هذه الأفعال الوحشية، تم تبرئته من قبل مجلس اللوردات ومنحه مكافأة مالية وسيف مجوهرات تقديرا لخدماته.

كلف عدة طائرات بالذهاب وقصف الحقول التي كانت تعمل فيها مجموعة فقيرة ومجتهدة. برأه مجلس اللوردات، وبراتب كاف، أقنعه بأن العسكريين في الإمبراطورية البريطانية لم يروا هذا المبلغ كافيا بالنسبة له، وجمعوا له ١٥٠.٠٠٠ دولار كمكافأة وقدموا له سيف مجوهرات تقديرا لخدماته^٢.

هذا التصرف يتناقض تماما مع القيم الإنسانية التي تدعو إلى حماية الضعفاء والمحتاجين، وتقديم العدالة للجميع، ومعاملة الآخرين بكرامة واحترام. القيم الإنسانية تتطلب منا أن نكون رحيمين وعادلين، وأن نحترم حقوق الإنسان الأساسية.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ١٨٠.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٨١.

هذه لم تكن الحادثة الوحيدة التي وقعت في الهند بشأن قتل الأبرياء ومذابحهم. لدينا حوادث وأحداث أخرى تشير بوضوح إلى انتهاك كرامة وشرف الإنسانية من قبل الحكومة البريطانية في الهند، بما في ذلك حادثة بيشاور^١ والأحداث التي وقعت خلال العصيان المدني والمظاهرات في الهند.

في ٢٣ مايو/أيار، تجمعت حشود كبيرة في بيشاور للاحتجاج على اعتقال رؤساء الكونغرس، وفقًا لتقرير رسمي، قُتل ٢٠ شخصًا في أعمال الشغب. مرت مجموعات من الناس عبر الأزقة بانتظام وهدوء، ولكن عندما كان الحشد قادمًا نحو المدينة، وصلت سيارة مدرعة^٢ مليئة بالجنود ودخلت الحشد بلا مبالاة، مما أدى إلى مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة آخرين بجروح خطيرة. على الرغم من هذا العمل المروع، حافظ الناس على الهدوء والانضباط. عندما أصيب خط الجبهة وسقط على الأرض، تقدم الخط الثاني من الناس بشجاعة، مستهدفين أنفسهم بسهام الجنود القتالة. أصيب العديد من الأشخاص بأكثر من ٢٣ رصاصة، واصطف الشبان بإصرار وأطلقوا النار على أنفسهم دون محاولة الدفاع عن أنفسهم. رأت امرأة عجوز وعاجزة أن جميع أقاربها وأصدقائها قد قتلوا أو أصيبوا، فتقدمت بشجاعة وأصيبت بالرصاص وسقطت. تقدم رجل كبير السن يحمل طفلاً صغيراً وتوسل إلى جندي أن يطلق النار عليه، فاستجاب الجندي وأطلق رصاصة في قلب الرجل العجوز، إذا تم إجراء مزيد من التحقيقات، سيتبين أن أكثر من ١٠٠ شخص قد قتلوا بهذه الطريقة وبظلم كامل^٣.

هذه الأفعال تعكس انتهاكا صارخا لكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية، وتظهر مدى القسوة والوحشية التي يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتجاهل القيم الإنسانية. ولا يتسنى للإنسان أن يتخطى جميع الخطوط الحمراء إلا إذا كانت تلبية شهوة القدرة والغلبة والجاه أساسا لقيمه ومبادئه ومعاييره.

وقد نفذت الحكومة البريطانية أبشع الفضائح والجرائم تجاه الشعب الهندي المسكين في ظل حكمها على الهند، لا سيما في حادثة ثورة تحرير الهند من الإنجليز عام ١٨٥٧م، فعندما فشل الثوار في ردع

^١ - بيشاور، مدينة وعاصمة مقاطعة خيبر بختونخوا في شمال باكستان. تقع المدينة غرب نهر بارا، أحد روافد نهر كابل، بالقرب من ممر خيبر. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Article History <https://www.britannica.com/place/Peshawar>)

^٢ - د ر ع، مُدْرَعَة [مفرد]: صيغة المؤنث لمفعول دَرَعَ. ، عربة أو سفينة حربية قَوِيَتْ جدرانها بصفائح الصلب والفولاذ وزُوِّدَتْ بوسائل القتال. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ١٧٧١، (١/٧٣٩)).

^٣ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ١٩٩.

الظلم والبغي والاستعمار عن بلادهم، قامت قوات الإنجليز الظلمة باجتياح بعض المدن، والقتل الجماعي فيها.

وفي عام ١٨٥٧، سئم الهنود من كل هذه الاعتداءات وثاروا ضد البريطانيين، لكنهم فشلوا في تحقيق أي انتصار. لقد تحطمت قواهم بالكامل وتعرضوا للتعذيب الذي يذكر بالوضع الفاضح في العصور الوسطى. وكانت الإجراءات التي تم اتخاذها لإسكات المتمردين الآخرين هي ربط أسراهم بقم المدافع وتقطيعهم إلى أشلاء. وكتبت صحيفة "سيبكتاتور" اللندنية: "خلال التمرد، قتلنا ما لا يقل عن ١٠٠ ألف هندي وحرمانهم من بركات الحياة".^١

ثم إن الحكومة البريطانية تفنت في قتل مخالفيه، واستعملت لهذا الغرض أساليب مختلفة، ووسائل عديدة، حتى تستطيع توطيد سلطتها وإعمال نفوذها في المجتمع بإرغامهم وتدمير معنوياتهم. "ولما رأوا أن القتل بالرصاص سهل على المقتولين، استعملوا المشانق، فكانوا يشنقون الناس في كل مكان ويقفون حول المشنقة ضاحكين ومصفقين، كما كانوا يلقون أجساد الضحايا بالمسلمين بجلود الخنازير ويخيطونها عليهم أو يدهنونهم بشحومها ثم يحرقونها وذلك لتعذيبهم تعذيباً نفسياً قبل أن يفارقوا الحياة كما كانوا يحشرون الناس في البيوت ثم يشعلون فيها النار فيتحول من بها إلى رماد رجالاً ونساء وأطفالاً".^٢

ثانياً: تعذيب الأبرياء وتنكيلهم

لا شك أن تعذيب الناس بصورة قاسية ومروعة يتعارض تماماً مع القيم الإنسانية الأساسية. القيم الإنسانية تشمل احترام كرامة الإنسان، والعدالة، والرحمة، والتعاطف. عند ما يتم تعذيب شخص ما بوحشية، يتم انتهاك هذه القيم بشكل صارخ. التعذيب لا يحترم كرامة الإنسان، بل يهينها ويقلل من شأنها. كما أنه يتجاهل العدالة، حيث يتم استخدام القوة والعنف بدلاً من الحوار والتفاهم. التعذيب أيضاً يخلو من الرحمة والتعاطف، حيث يتم إلحاق الألم والمعاناة بالآخرين دون أي اعتبار لإنسانيتهم. إن القيم الإنسانية تدعو إلى معاملة الآخرين بكرامة واحترام، وتقديم العدالة للجميع، والتعاطف مع معاناتهم. التعذيب القاسي ينتهك هذه القيم ويظهر مدى القسوة والوحشية التي يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتجاهل القيم الإنسانية.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٣٨.

^٢ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤٨٤.

وإذا رجعنا إلى المصادر يتبين أن الحكومة البريطانية للأسف الشديد توصلت إلى تعذيب الناس بصورة مروعة وفجيعة، لأجل إسكاتهم، وتثبيت سلطتها وغلبتها الظالمة عليهم.

"أصدر الجنرال داير أمرا يأمر المارة في الزقاق الذي تعرض فيه المبشر الإنجليزي للضرب بالركوع والمشي على بطونهم أثناء عبورهم المكان. إذا حاول شخص ما المشي حتى يديه وقدميه بسبب الإرهاق ، فإن عددا من الجنود الذين تم تعيينهم لهذا الغرض فقط سيستهدفونهم برأس الرمح وعقب البندقية"^١. فهذه الحادثة تعكس انتهاكا صارخا للقيم الإنسانية وحقوق الإنسان. فقد تم انتهاك كرامة الأفراد وإجبارهم على القيام بأفعال مهينة وغير إنسانية. فاستخدام العنف والقوة ضد الأفراد الذين يعانون من الإرهاق هو انتهاك واضح للرحمة والعدالة.

ولم يكتف بهذا فحسب بل كان الجنرال داير قد بنى قفصا كبيرا يأوي فيه السجناء بعد جلدتهم وتعليقهم أمام أشعة الشمس الحارقة. تم ربط العديد من السجناء الآخرين بحبال مشدودة واحتجزوا لمدة خمس عشرة ساعة في سيارات الجنود. وأمر بتسليم جميع المراوح الكهربائية التي بحوزة الهنود إلى الحكومة مجانا^٢.

في ١٩ و ٢١ يونيو، تجلت هذه الموهبة والقدرة الفريدة على تحمل المشقة والشدة، كرمز أجنبي لروح الفخر الوطني وتصميم أمة الهند القديمة. خلال هذين اليومين، تقدمت المفارز النظامية من الثوار، رجالا ونساء وأطفالا، بهدوء وسلام من جميع الاتجاهات إلى ساحة إسبلاندا، متحدين الحظر الحكومي. تعرضوا لضربات متتالية وقاسية من شرطة المهرة، وسقطوا على الأرض ضعفاء وجرحى. انضم السيخ الأقوياء، المسلحون بالسيوف العريضة، إلى مجموعة الثوار، لكنهم رفضوا استخدام أسلحتهم وعرضوا أنفسهم لضربات الشرطة، حتى أصيبت رؤوسهم ووجوههم بجروح بالغة، وسقطوا على الأرض فاقدون للوعي وعاجزين، ينزفون من جروحهم^٣.

فهؤلاء الناس لم يخرجوا من بيوتهم للحرب ولم يحملوا السلاح ضد النظام، ولم يقدموا على قتل أحد أو تدمير مبنى، بل أرادوا أن يعيشوا أحرارا ويستطيعوا أن يحددوا مستقبلهم، لكن الاستعمار لم يرض بهذا الأمر، بل أحب أن يجعل البشر كقطيعة من الغنم، لا خيار لها إلا ما يختاره الراعي.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ١٨٠.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٨٠.

^٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٠٢.

لقد قامت الحكومة البريطانية بكل وحشية وهمجية بتعذيب الناس الأبرياء، وإراقة دماء الفقراء، وضربهم وسحقهم بصور مختلفة وأنماط متنوعة.

١. ضربات العصا على الرأس والصدر والمفاصل.

٢. إهانة الأشخاص بعصا القانون.

٣. تجريد الرجال وجرحهم على الأرض.

٤. وضع الكثير من الضغط على الخصيتين لدرجة أنه يسبب ضعفا قاتلا.

٥. جر الأشخاص الذين تعرضوا للضرب والجرحى على الأرض بأيديهم وأرجلهم وضربهم بوحشية.

٦. رمي الجرحى والعراة على شجيرات الشوك أو وضعها في الماء المالح.

٧. الحصان يركض على جثث القتلى وجثث الجرحى العاجزين.

٨. إدخال الإبر والأشواك في جسم العراة ، حتى في كثير من الأحيان عندما يكونون فاقدين للوعي على الأرض بسبب إصاباتهم.

٩. ضرب المصابين، وذكر جميعها يجعل كل شخص واع يرتجف.

كل هذه المعاملات وهذا الموقف متشابكان مع الوحشية التي لم ير مثلها في تاريخ حياة أي أمة أو مجتمع^١.

أين اختفى شرف وصدقة وعدالة الشعب البريطاني؟ هل يمكن لأي شخص وحشي وطاغية أن يستخدم هذه الوسائل لتفريق المجموعات التي تجمعت بسلام، ويتعامل مع مجموعة عاجزة بهذا القدر من الوحشية والهمجية؟

ماذا ستفعل الحكومة البريطانية؟ كل القوة والسلطة في يديه، وجميع أنواع الأسلحة البرية والبحرية والجوية في أيدي بريطانيا نفسها ، وتضغط على الصحافة الهندية في مخلبها الحديدي ، وأنشأت مؤسسات دعائية للخداع في جميع أنحاء العالم ، ووسعت مجال نفوذها في كل مكان بما يتجاوز الخيال^٢. فلماذا تضيق الحكومة البريطانية مع كل هذه الحقائق على الشعب المسكين الذي لا قبل لها بها.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٠٦.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٠٨.

ثالثا: الاستخفاف بعقائد الشعب الهندي وثقافتهم

ومن الآثار السيئة التي تركت تلبية الجاه والسلطة على القيم الغربية البريطانية هي امتهان عقائد الناس والاستخفاف بكرامتهم، فقد تعرض الهنود لمصائب عديدة، ومعاملات سيئة من قبل الإنجليز، فقد كان الإنجليز يمتهنون كرامة الهنود ويعاملونهم بازدراء واحتقار.

كانت القوات الإنجليزية تكذب دعاوي الهنود وتصدق شهود الزور، وكانت تطلب من وجهاء الهنود خلع أحذيتهم أثناء مراجعتهم، بينما لم تطالب ذلك من غيرهم. وعلى العكس لم يكن الهنود قادرين على الإفصاح عما في قلوبهم بسبب المعاملة السيئة من قبل الإنجليز.

"كذلك كانت الغطرسة (التكبر والترفع) الإنجليزية تستخف بالهنود وتذلم وتمتهن كرامتهم وتنظر إلى معززيهم نظرة الازدراء والاحتقار، وكان الإنجليز يعاملون الهنود معاملة سيئة جعلتهم لا يقدرّون على إفصاح ما في قلوبهم إذ لم تكن السلطات الإنجليزية تستمع إلى شكاويهم، بل كانت تكذب دعاويهم الحقّة وتصدق شهود الزور في المحاكم من السفهاء والأراذل إمعانا في إذلال الهنود الشرفاء، وعلى سبيل المثال كانوا يطلبون من وجهاء الهنود أن يخلعوا أحذيتهم أثناء مراجعتهم إلى السلطات الإنجليزية، في حين لم يكونوا يطلبون هذا الأمر من بني قومهم والأراذل الذين كانوا ينفذون الأعمال الاستفزازية والاستخفافيّة ضد أهالي الهند الشرفاء الذين كان يطلب منهم أن يوقروا الإنجليز، في حين لم يكن الإنجليز يردون تسليمهم. وكانوا يجبرون الشرفاء على القسم حتى في صغائر الأمور، في حين لم يكونوا متعودين على ذلك بل كانوا يعدّون القسم شكّا في شرفهم، وكانت نساؤهم ملتزمة بالحجاب، فلو دخل أحد بيّتهم ورأى النساء، فإنه كان عار لا يغسل إلا بالدم، ومع ذلك فإن بيوتا كثيرة كانت تتعرض لمثل هذه الانتهاكات والاستفزازات، وقد اجتمع حول الإنجليز جماعة من الحلافين والكذابين النهائيين، في الوقت الذي ملئت سجونهم بشرفاء أهل الهند"^١.

فهل الاستهزاء بالعقائد والاستخفاف بالثقافة يتلائم مع القيم الإنسانية؟ فكيف تدعي الحكومة البريطانية التزامها بالقيم وهي تستخف بعقائد الناس وثقافتهم؟

فقد استخفت الحكومة البريطانية بالهنود، بحياتهم، وثقافتهم، وحضارتهم، وهكذا دواليك، استخفافا شديدا لدرجة أنهم اضطروا إلى إقامة الثورات والمظاهرات ضدها. فقد قامت الحكومة البريطانية بترويج الفضائل الأخلاقية، والصفات الحميدة على أنها رذائل يجب الاحتراز عنها والتمسك بضدها.

^١ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤١٢.

"كان هناك سبب مهم آخر لاندلاع ثورة ١٨٥٧م وهو استهزاء الإنجليز بمعتقدات الهنود الدينية وقيمهم الاجتماعية، إذ كانوا يروجون بأن التمسك بتعاليم الدين جهالة وتخلف، وأن العناية بشئون الفقراء والمحتاجين ومد يد العون إليهم سفاهة، وأن الكرم والقيام بالمبرات والأمور الخيرية من أعمال الحمقى وأن البخلاء هم العقلاء، كما كانوا يشيعون بأن الحياء والترحم والتقوى هي من صفات الجبناء، وأن الشجاعة هي قساوة القلب والشدة في التعامل وارتكاب المنهيات الشرعية"^١.

ولا شك أن التعذيب الروحي في بعض الأحيان أشد على الإنسان من التعذيب الجسدي، فلم تكتف الحكومة البريطانية لأجل إسكات الشعب وسحق آمالها بالتعذيب الجسدي بل توصل إلى التعذيب الروحي أيضاً، لم توجه الحكومة البريطانية التعذيب الروحي إلى طائفة محددة، بل وجهته إلى جميع الأطياف والجماعات، إلى الرجال والنساء، والشباب والشيخوخ، والصغار والكبار.

"لم يرتكب الإنجليز تلك الأعمال الوحشية ضد الثوار والأهالي الأبرياء رجالاً ونساء وأطفالاً فحسب، بل لم يحترزوا عن ارتكاب أي عمل يؤدي إلى تعذيب المسجونين تعذيباً نفسياً بالإضافة إلى تعذيبهم جسدياً، ولقد أشرنا أنهم قتلوا أبناء السلطان بهادر شاه الثاني وأحفاده الذين وقعوا بأيديهم ولكنهم لم يتوقفوا إلى هذا الحد بل قطعوا رؤوس أبناء السلطان الثالث ووضعوها في إناء وغطوه ليقدموه على المائدة أمام السلطان الكهل في سجنه، وحين كشف السلطان الغطاء رأى المفاجأة المذهلة حيث لم يجد طعاماً بل وجد بدله رؤوس أبنائه الثالث، وقد غطيت وجوههم بالدم، ومع ذلك تمالك السلطان نفسه وقال في رباطة جأش^٢ غريبة: إنه لا يستغرب من أن يأتي أولاد التيموريين البواسل إلى آبائهم محمرة الوجوه"^٣.

وقد كانت الحكومة البريطانية تنوّه^٤ دائماً بالخرافات والآراء السخيفة التي تبنتها بعض الطوائف الهندية على مر التاريخ، وقد تجاهلت تماماً أن كثيراً من الحكومات الغربية اعتنقت مفاهيم وآراء أفسد وأسخف من تلك.

١ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤١٤.

٢ - رباطة الجأش: هدوء النفس وثبات القلب، سيطرة المرء النائمة على قواه العقلية أو قدراته الحسية أو مشاعره أو سلوكه وتصرفاته. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة . (٣٣٩/١).

٣ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤٨٣.

٤ - نوّه به/ نوّه عنه: شهره ورفع ذكره وعظمه، (د أحمد مختار عبد الحميد عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة . (٢٣١٠/٣).

فعلى النقيض من الخرافات والجهل المنسوب إلى الهنود، تظهر الهند للغربيين الخرافات للغرب، والتي جمعها البروفيسور جيت في كتابه "الرجل الجاهل" يشير إلى أن الأوهام الشائعة في الهند ليست أسوأ من تلك الموجودة في أوروبا. الهند تعبر عن امتنانها للتعاطف الغربي من خلال التضحية بما عزز للإلهة كالي، وفي الوقت نفسه تعبر عن أسفها للمعتقدات الغربية التي تؤدي إلى التضحية بآلاف الأغنام والماشية في شيكاغو^١. كما يسلط الضوء على بؤس الأرامل والفتيات الشابات في الهند مقارنة ببؤس الفتيات العاملات في الولايات المتحدة، حيث يتم تدمير طفولتهن في المصانع. يقارن أيضاً بين الخلافات الدينية في الهند وبين الاشتباكات بين الكاثوليك والبروتستانت في ليفربول^٢. ويشير إلى إذلال الرافضين في الهند وبؤس الحبشيين في الولايات المتحدة، مع التأكيد على أن الدعارة في الهند لم تتطور بقدر ما تطورت في البلدان التقدمية الأخرى. وأخيراً، ينتقد انتشار الجريمة والقتل والدعارة والتهرب في الولايات المتحدة^٣.

فتعكس كل هذه الحقائق جوانب متعددة من القيم الغربية البريطانية في ذلك الوقت، خاصة فيما يتعلق بالاستعمار والسيطرة على الشعوب الأخرى. استخدمت الشرطة القوة المفرطة لقمع صوت الحرية رغبة للحكومة البريطانية في الحفاظ على السيطرة والنظام بأي ثمن.

والحكومة البريطانية لأجل تحقيق مآربها الشيطانية وشهواتها الحيوانية توسل مرة بالقتل، وأخرى بالتعذيب الجسدي وثالثاً بالتعذيب الروحي، فالإنسان عندما يتحرر من القيود التي تضعها القيم الإسلامية، وتصبح أسس قيمه تلبية المال والجاه والسلطة، ويأخذ كل هذه الأمور إلها فمن يهديه من بعد الله؟

^١ - شيكاغو، مدينة ومقر مقاطعة كوك في شمال شرق ولاية إلينوي، الولايات المتحدة. مع عدد سكان يقارب ثلاثة ملايين نسمة، تعتبر شيكاغو أكبر مدن الولاية وثالث أكبر مدن البلاد من حيث عدد السكان. بالإضافة إلى ذلك، فإن منطقة شيكاغو الكبرى ثالث أكبر منطقة حضرية في البلاد وأهم مدينة في منطقة الغرب الأوسط. (Britannica, Written by Cathlyn Schallhorn, Perry R. Duis • All Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٦, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/place/Chicago>)

^٢ - ليفربول، مدينة وميناء بحري في شمال غرب إنجلترا، تشكل نواة مقاطعة مرزيسايد الحضرية في مقاطعة لانكشير التاريخية. تشكل المدينة نفسها، التي تعد بلدية حضرية في مرزيسايد، هالاً غير منتظم على طول الشاطئ الشمالي لمصب نهر ميرسي على بعد بضعة أميال من البحر الأيرلندي. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥ • Article History, <https://www.britannica.com/place/Liverpool-England>)

^٣ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٢٨، ٢٣٠.

هذه القيم والممارسات تعكس التوترات^١ والصراعات التي كانت موجودة بين القوى الاستعمارية والشعوب المستعمرة، وتظهر كيف كانت القيم الإنسانية تُختبر وتُتحدى في تلك الفترات التاريخية. هذه هي الآثار المرتبة وفقا للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أن المغول اشتهروا بالتسامح الديني، حيث أوصى السلطان بابر ابنه بالتعايش السلمي بين الشعب مع كونهم متبعين لأديان مختلفة، وألغى السلطان أكبر الجزية التي كانت تفرض على غير المسلمين، وسمح للهندوس بممارسة شعائهم بحرية تامة، كما دعم التعايش السلمي بين المسلمين وغير المسلمين.

المطلب الثاني: استغلال الناس

ومن الآثار التي تركها الجري وراء شهوة الجاه والقدرة أن الحكومة البريطانية استغلت الشعب الهندي الفقير وثرواتهم في حروبها ومعاركها مع الدول الأخرى، ففكرة توسيع القدرة والبسط في العالم للوصول إلى الأهداف الحيوانية لا تعرف شرافة للإنسان ولا كرامة للبشر.

ولقد قاسى الشعب الهندي من أجل حرص الحكومة البريطانية على القدرة وبسط السيطرة في البلاد ما لم يقاسه شعب آخر، فقد قتل الملايين من الهنود في الحروب العالمية، وتدهورت الظروف الاقتصادية والتجارة، وأكلت البلاد دودة الفقر والجوع، من أجل استغلال الحكومة البريطانية الظالمة ثرواتهم وخيراتهم.

"ولقد قاسى الهنود من أجل هذا الدور ما لم يقاسه شعب آخر، فقد جند منهم مليونان ونصف مليون مقاتل من خيرة الرجال وزهرة الشباب، فكسبوا النصر بدمائهم، وأتوا من ضروب الشجاعة ما عجز عنه غيرهم، بدليل أنه في معركة بورما استحق الهنود سبعة عشر وساما من صليب فيكتوريا^٢، وهو أعظم أوسمة البطولة والبراعة، مع أن الذي وزع منها في هذه المعركة عشرون وساما فقط"^٣.

^١ - تؤثر العصب والغرغرة: اشتد وتشنج "موقف سياسي متوتر - تؤثر العلاقة بين الدولتين: ساءت بعد واثم. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة . (٢٣٩٥/٣).

^٢ - وسام فيكتوريا كروس، أعلى وسام للشجاعة في القوات المسلحة البريطانية، يُمنح للشجاعة الفائقة في مواجهة العدو. تم إنشاؤه في عام ١٨٥٦ بواسطة الملكة فيكتوريا بناءً على طلب من قرينها، الأمير ألبرت. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١٥, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/topic/Victoria-Cross-British-military-decoration>)

^٣ - أمينة سعيد، مشاهدات في الهند، ص: ٩١.

وقد أثرت هذا الاستغلال الخطير على الشعب الهندي تأثيرا عميقا، حيث جردت البلاد من المواد التي كانت تحتاج إليها، وشلّت حركة النقل، وأنشبت المنية أظفارها في نفوس الملايين.

"ولم تقتصر التضحيات على الأرواح، بل تعدتها إلى النواحي الاقتصادية والحيوية، ففي بدء معركة شمال أفريقية اشتدت حاجة الحلفاء إلى القضبان الحديدية، فخلعوا من أراضي الهند ما يزيد طوله على ألفين ومائتي ميل، مع شدة احتياج البلاد إليه، بل إلى أضعافه، وكانت النتيجة أن شلت حركة النقل للمدنيين، ففاض الطعام وتعفن في بعض المقاطعات، وقد مات ملايين الناس جوعا في مقاطعات أخرى؛ وحادثة مجاعة البنغال مازال ماثلا في الأذهان".^١

يدعى أن الغرب يحترم حقوق الإنسان وحقوق المرأة، لكن إذا كانت تلبية شهوة الجاه وبسط السيطرة هي أساس قيم شعب، فهل من المعقول طلب مراعاة القيم الإنسانية منه؟ بل هل من المعقول تصور احترامه بحق الحياة للشعوب؟ سيستغل الشعوب الضعيفة ولو وصل الأمر إلى موتها من الجوع، وانتحارها من العار.

"قامت المصانع الهندية بصنع أربعة ملايين ونصف مليون مظلة من مظلات المهبوط، وأربعمئة مليون قطعة رداء عسكري، وملايين الثياب الخضراء المستعملة في حرب الغابات وخمسين مليون من الأحذية، وكل هذه الأشياء من أقطان الهند وأصوافها وحريرها وجلودها، وتناقص الكساء بين المدنيين بطبيعة الحال، وخلت أسواقهم منه، فانتحر بعض النساء عندما عجزن عن إيجاد ما يغطي أجسادهن".^٢

وقد فصل البروفيسور ويل دورانت في كتابه القيم "Gase for India" ما قامت الحكومة البريطانية باستغلاله في الحرب العالمية الأولى أو الثانية، وذكر الأرقام والأعداد.

"خلال الحرب العالمية، اضطرت الهند إلى إنفاق ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار لمساعدة الحلفاء و ٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار لدفع ديون الحرب، وتم إرسال ٢٠٨٠٠٠٠٠٠ من أبنائها إلى ساحات القتال لقتلهم من أجل مصالح الإمبراطورية البريطانية، وكذلك أرسل ٤٠٠ ألف لتنفيذ المهام... ويعترف جون مورلي^٣ أنه في القرن التاسع عشر وحده، شنت الحكومة البريطانية ١١١ حربا في الهند،

^١ - المرجع السابق، ص: ٩١.

^٢ - المرجع السابق، ص: ٩١.

^٣ - جون مورلي، فيسكونت مورلي (مواليد ٢٤ ديسمبر ١٨٣٨، بلاكبيرن، إنجلترا - توفي ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣، ويمبلدون) كان سياسيًا ليبراليًا إنجليزيًا وصديقًا واكتسب شهرة كرجل أدبيات، خاصة ككاتب سيرة. (Britannica, Written and fact-checked)

وفي كل هذه الحروب أجبرت القوات الهندية على القتال دون الحاجة إلى جندي بريطاني. لقد قاتل الملايين من الهنود وأعينهم مغلقة، بحيث يقع طوق الأسر والعبودية على الهند. وجميع نفقات هذه الحروب، حتى آخر دينار، كانت تؤخذ من السكان أنفسهم كضرائب إضافية^١.

ولم يكن هذا الاستغلال وآثاره يخفى على الشعوب أو يمكن اجتيازه أو تداركه، وأيضا لم يكن في فترة دون أخرى، بل كان مستمرا من أول يوم سيطرت الشركة الشرقية على البلاد إلى آخر يوم.

ظلت حكومة الهند الإنجليزية قبل ثورة السباهي منذ ثلاثين سنة تستغل مائتي مليون من الآدميين بواسطة شركة تجارية اتخذت عصابات من الإنجليز المرتزقين حامية لها فلم يستفد من هذا الاستغلال سوى هؤلاء الإنجليز الذين فوض إليهم أمر إدارة الهند، فلم ينل مساهمو تلك الشركة ربحا ذا مال ما كان هم كل موظف إنجليزي من هؤلاء، صغيرا كان أو كبيرا، أن يغتني بسرعة، فبحث البرلمان الإنجليزي في فضائح هؤلاء الموظفين الإنجليز المالية في الهند، فلما عم الجور والطغيان وقفت الأعمال العامة فأهملت الطرق والحياض والقنوات إهمالا تاما^٢.

لقد اشترك القوات الهندية في الحرب العالمية الأولى والثانية وقتل منهم الآلاف وأصابت البلاد الجوع والدمار، ولم ينته هذا الاستغلال حتى آخر لحظة من التواجد البريطاني في الهند عام ١٩٤٧ وإعلان الاستقلال والتقسيم.

من خلال العبارات، يمكننا أن نرى كيف استغلت الحكومة البريطانية الهند لمصالحها بطرق متعددة، استغلت الحكومة البريطانية الهند من خلال استخدام الجنود الهنود في الحروب، والاستفادة من الموارد المالية الهندية لدفع تكاليف الحرب، وفرض ضرائب إضافية على السكان لتمويل الحروب المحلية. هذا الاستغلال كان له تأثير سلبي كبير على الهند وسكانها.

هذه هي الآثار المرتبة وفقا للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أنه اهتم المغول بخدمة الشعب من خلال إقامة المراكز الصحية والمرافق العامة، وتشجيع التعليم المجاني، وتقديم الرواتب للعاملين في المراكز التعليمية. كما ساعدوا في تأمين الغذاء للفقراء خلال الأزمات.

by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Dec ٢٠, ٢٠٢٤, Article (History <https://www.britannica.com/biography/John-Morley-Viscount-Morley>)

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٥٠، ٣٧.

^٢ - انظر: غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص: ٥٥٥.

المطلب الثالث: نقض العهود والموااعد

كثيرا ما يتوصل الدول الاستعمارية إلى نقض العهود والمواثيق، والسبب الرئيسي لهذه الخيانة أن أساس قيمهم التركيز على شهوة القدرة والجاء وبسط السيطرة. فالدول التي تسعى إلى تعزيز سلطتها ونفوذها قد ترى أن الالتزام بالعهود والعهود يحد من حريتها أو يعوق مصالحها.

هذا السعي للجاء والسيطرة يمكن أن يؤدي إلى تصرفات تتسم بالأنانية وانعدام الأمانة، حيث يتم تفضيل المصالح الشخصية أو الوطنية على القيم الأخلاقية والالتزامات القانونية. وهذا يمكن أن يؤدي إلى انعدام الثقة وتفشي الفوضى في العلاقات الدولية أو العلاقات بين الأفراد.

وقد ثبت أن نقض العهود والمواثيق له تأثيرات سلبية متعددة تشمل فقدان الثقة، وتضرر العلاقات، وضعف السمعة، والتأثير العاطفي السلبي، وعدم الاستقرار، وضعف التعاون. والالتزام بالوعود والعهود يعتبر جزءا أساسيا من بناء علاقات ومجتمعات صحيحة ومستقرة.

وعندما نرجع إلى تاريخ الحكومة البريطانية في الهند يتضح لنا أن تلك الحكومة وقبلها شركة الهند الشرقية قد توصل مرارا وتكرارا إلى نقض العهود والمواثيق بحجج واهية ومبررات سخيفة.

في الأسطر التالية يريد الباحث أن يذكر بعض العهود والمواثيق التي تم نقضها من قبل الإنجليز، حتى يتضح أمام القارئ أن في ظل القيم الغربية المبنية على شهوة الجاء والسلطة لا عهد للإنسان ولا ذمة.

فضل حيدر علي^١ أن يبرم اتفاق الصلح مع الشركة من موقع القوة، حيث أملى شروط معاهدة مدارس الموقعة في إبريل ١٧٦٩م. بموجب هذه المعاهدة، حصل على مبلغ قدره خمسة وثلاثون مائة ألف من الروبيات، ونصت أيضا على التعاون الحربي المتبادل ومنع القوات الإنجليزية من النزول في الأراضي الخاضعة لحيدر علي إلا بإذنه. بالإضافة إلى ذلك، اتخذ حيدر علي من جبل يبعد خمسة أميال عن عاصمة الإنجليز مقرا له. التزم حيدر علي بعهده، لكن الإنجليز لم يفوا بوعودهم. لم يكتفوا بعدم تقديم المساعدة لحاكم ميسور^٢، بل حرّضوا أعداءه عليه وتخلّوا عنه بعد ذلك. في الواقع، كان الإنجليز

^١ - حيدر علي (مواليد ١٧٢٢، بوديكوت، ميسور - توفي ٧ ديسمبر ١٧٨٢، تشيتور) كان حاكم مسلم ومدير عسكري لمملكة ميسور الإقطاعية ولعب دورا مهما في الحروب في جنوب الهند خلال منتصف القرن الثامن عشر. (Britannica, Written by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/biography/Hyder-Ali>)

^٢ - ميسور، مدينة في ولاية كارناتاكا جنوب وسط الهند. تقع شمال غرب تل شاموندي وفي منتصف الطريق بين نهر كافي (كاويفر) وكاباني (كاباني) على الهضبة المتماوجة في ديكان على ارتفاع ٢٥٢٥ قدما (٧٧٠ مترا). الأراضي المحيطة بالمدينة تتميز بانخفاضات

مرتبطين بنفس الالتزامات مع نظام حيدر آباد والمرهته^١، وهم أعداء حيدر علي الأقوياء. أراد حيدر علي بتلك الاتفاقية أن يجعل جاريه يشكون في مصداقية الإنجليز، ويضع الإنجليز في موقف حرج يكشف حقيقتهم أمام الذين يثقون في صداقتهم^٢. فقد توسلت الشركة الشرقية بهذه الاتفاقات الواهية بسط قدرتها وهيمنتها على الأراضي لا التزام بموادها.

وأيضا غدر الإنجليز بالسلطان تيبو^٣ بعد أن صالحوا معه، حيث كانوا يعتبرونه خطرا عليهم في المستقبل، فتذرعوا إلى نقض العهد بحجج واهية.

وجد السلطان تيبو نفسه في مواجهة الإنجليز وحده، لكن الفرنسيين توسطوا لعقد مصالحة في مارس ١٧٨٤م، تعهد الطرفان خلالها بإنهاء الحرب وإطلاق الأسرى ورد الممتلكات. كان كورنواليس^٤ يعتبر تيبو تهديدا لمستقبل الإنجليز في الهند، فخطط للقضاء عليه أو تقليص خطورته، وانتهك عقد المصالحة. في ١٧٩٠م، عقد معاهدة مع حاكم حيدر آباد والمرهته لتنفيذ عمليات مشتركة ضد تيبو وتقسيم

ضحلة مليئة بالمطر (الخزانات). (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ٣, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Mysore>)

^١ - المرهته: هم طائفة هندوكية يقطن معظم أفرادها في مناطق جبلية بغرب الهند، وقد تعصبوا للهندوكية، وتحولوا في هذا الإطار إلى قوة عسكرية معادية لحكم المسلمين في الهند وذلك منذ عهد السلطان أوركزيب وكان لمعاداتهم تلك أكبر الأثر في تفكك الدولة المغولية. (نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٢٣).

^٢ - انظر: نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٢٣٢.

^٣ - تيبو سلطان (مواليد ١ ديسمبر ١٧٥١، ديفانجلي [الآن بنغالورو، الهند] - توفي ٤ مايو ١٧٩٩، سيرينجاتام [الآن سرينجاتانا]) كان سلطان مملكة ميسور، الذي حكم من ديسمبر ١٧٨٢ حتى وفاته في ١٧٩٩. يُعرف بالحروب الأنغلو-ميسورية الأربع في أواخر القرن الثامن عشر التي حارب فيها ضد بريطانيا وحلفائها. (Shatarupa Chaudhuri Fact-Checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Dec ١٩, ٢٠٢٤, Article History <https://www.britannica.com/biography/Tipu-Sultan>)

^٤ - تشارلز كورنواليس، الماركيز الأول والإيرل الثاني كورنواليس (ولد في ٣١ ديسمبر ١٧٣٨، لندن، إنجلترا - توفي في ٥ أكتوبر ١٨٠٥، غازيپور، الهند) كان جنديًا ورجل دولة بريطانيًا، وربما اشتهر بمجزئته في يوركناون، فيرجينيا، في آخر حملة مهمة (٢٨ سبتمبر - ١٩ أكتوبر ١٧٨١) من الثورة الأمريكية. لكنه كان أكثر أهمية لإنجازاته كحاكم عام بريطاني للهند (١٧٨٦-١٧٩٣، ١٨٠٥) ونائب ملك أيرلندا.

(britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Dec ٢٧, ٢٠٢٤, Article History <https://www.britannica.com/biography/Charles-Cornwallis-1st-Marquess-and-2nd-Earl-Cornwallis>)

ميسور بينهم. لتبرير الهجوم، ادعى الإنجليز أن قوات تيبو أغارت على ممتلكات الشركة في أركات، لكن تيبو نفى ذلك واتهم الإنجليز بالاستفزاز على الحدود، وطلب منهم وقف هذه الأعمال. لكن الإنجليز استمروا في اتهاماتهم وهاجموا ميسور بمساعدة حلفائهم، فهاجموا أراضي تيبو من أربع جهات^١.

وقد أثارت نقض العهود والمواثيق من قبل الإنجليز غضب كثير من قادة الهنود، وندموا على اعتمادهم على الإنجليز، لكن لم ينفعهم هذا الندم؛ لأن الأوان قد فاتهم.

لم تتوقف طلبات الإنجليز عند هذا الحد؛ إذ طالبوا البيشوا بالتنازل عن أحمد آباد في غوجرات كفدية للدم، وعن بلاد كوكن في دكن وعدد من القلاع، وتسريح جيوش المرهته لعدم الحاجة إليها وعدم الاحتفاظ بأكثر من خمسة آلاف جندي. أثارت هذه المطالب غضب قادة البيشوا، فأوضحوا له أن طلبات الإنجليز لا حدود لها وأنهم سيستمرون بخلق الذرائع للاستيلاء على البلاد بأكملها. وعليه، طالبوه بالسماح لهم بمحاربة الإنجليز، مفضلين الموت المشرف على العيش في الذل. إما أن ينتصروا ويطردوا الإنجليز أو يقدوا أنفسهم في سبيل العزة والكرامة^٢. ولم يكن النقض إلا بعد أن أظهر هذه الجماعات للإنجليز أنهم صادقين في العهد، ولا يريدون الغدر بأحد.

فالإنجليز لم يعقد بينهم وبين الطرف الآخر عهد في تلك العقود إلا لمخادعة الأمراء، والتحايل معهم، حتى يأمنوا بأس الهنود. ولأجل ذلك قاموا بنقض العهود مرة بعد مرة.

غادر باجي راو^٣ عاصمته بونه^٤ مدعياً الحصول على توقيعات الصكوك، ولكن الإنجليز علموا أنه جمع حوله أكثر من مائة ألف من المقاتلين. بذل الإنجليز جهدهم لإعادة البيشوا إلى بونه، وأرسلوا إليه

١ - انظر: نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٢٣٥.

٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٧٢.

٣ - باجي راو الأول، البيشوا أو الوزير الأول لاتحاد ماراثا، من ١٧٢٠ إلى ١٧٤٠ خلال حكم شاهو (١٧٠٨-١٧٤٩). كانت انتصارات باجي راو من بين العوامل التي ساهمت في تدهور الإمبراطورية المغولية، خاصة خلال فترة حكم الإمبراطور محمد شاه (١٧١٩-١٧٤٨). (Britannica, checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ١, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/biography/Baji-Rao-I>)

٤ - بونه، مدينة في غرب وسط ولاية ماهاراشترا غرب الهند، عند تقاطع نهر مولا وموتها. تُدعى "ملكة ديكان"، بونه هي العاصمة الثقافية لشعب ماراثا. اكتسبت المدينة أهمية لأول مرة كعاصمة لبونسل ماراثا في القرن السابع عشر. تم الاستيلاء عليها مؤقتاً من قبل المغول، ولكنها خدمت مرة أخرى كعاصمة ماراثا الرسمية من عام ١٧١٤ حتى سقوطها إلى البريطانيين في عام ١٨١٧.

مبعوثا ليلبغه بأنهم لن يطالبوه بأي شيء، بل وأكثر من ذلك، وعدوه بإعادة القلاع والأراضي التي تنازل عنها بناء على طلبهم. وهكذا عاد راضيا ليكتشف أن الإنجليز لم ينفذوا وعدهم، بل طلبوا منه مجددا تسريح جيشه والاحتفاظ بعدد محدود منهم فقط^١.

ومن جهة أخرى كان الإنجليز يقلدون الأمراء على المناطق بأخذ المال، وبعد ميثاق العهد بين الإنجليز وهؤلاء الأمراء على أخذ مبلغ محدد بشكل الضرائب، كانوا يطالبون الأمراء بمبالغ إضافية، ويقدمون على نقض العهد والميثاق حرصا على المال، وطمعا على بسط السيطرة.

قلد الإنجليز مير جعفر نوابا على بنغال، لكن طلبوا منه أموالا كثيرة، وبعد أن عصروه وأعجزوه، نقض الإنجليز عهدهم وقرروا أن يعينوا شخصا آخر كان اسمه مير قاسم، لكن تزايد طلبات الإنجليز، ولم يتمكن هو أيضا من دفع هذه المبالغ الخطيرة، فكتب إليهم قائلا:

"إنني أتعجب من أن تطالبوني بدفع عشرين لك روبيه دون وجه حق، ولقد كنت قبلت أن أدفع إلى ونسترت وبعض المدراء الآخرين، ولكنهم رفضوا قبول المبلغ في ذلك الوقت وبدلا عن ذلك رضوا أن أتنازل للشركة عن بردوان وثلاث محلات أخرى، وقالوا: إنه بعد تسلم بردوان وغيرها، لن نطالبك بدينار ولا درهم، ولقد عملت بكامل ما تعهدت، وإضافة إلى ذلك دفعت للشركة مبلغا قدره خمسمائة ألف روبيه مراعاة لخاطر شمس الدولة ونسترت حتى يتأكد من صداقتي، وبعد كل هذا كيف تطالبوني بدفع ذلك المبلغ، علما بأنني لم أستقرض منكم شيئا وليس لكم علي روبيه واحدة ولن أدفع لكم ولن أقبل هذه السنة السيئة، وهي ما تعملون به من نقض العهود وانتهاك لما اتفق^٢."

هذا الرد يشير إلى أن هذا الأمير لم يدرك جيدا طبيعة الإنجليز وخبايا نفوسهم، فهل ينتظر شخص جرب الإنجليز ونقضهم العهود والمواثيق من هؤلاء الظلمة، الصداقة، والوفاء بالعهد والوعد؟ ومن الممكن أن هذا الأمير كان مطلعا على طبيعة الإنجليز الخادعة، لكن أراد التأكيد على غدرهم بعد أن عجز عن دفع كيدهم وشهرهم.

وفي رسالة أخرى من مير قاسم إلى ونسترت الحاكم العالم للشركة، يكتب ما معناه:

(Britannica, checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ٨, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Pune>)

^١ - انظر: نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٢٧٣.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٣.

"الإنجليز لا يعيرون أي اهتمام لسلطات الولاية، ولا يلتزمون بتوجيهاتكم بخصوص تفتيش السفن، رغم توقيعكم وختمكم. يتاجرون بالأفيون في مراكزهم، ويستولون على أموال الرعايا بالقوة. يشترتون بأبخس الأثمان ويبيعون بأضعاف السعر، دون إعطاء صاحب المال خيار تحديد السعر المناسب لسلعته. حتى الآن، تم إنشاء حوالي أربعمئة مستوطنة جديدة في الأراضي الخاضعة لي، وسكانها يعيشون بأمن البلاد ويسعون إلى الفساد. لا يسمحون لعمالي بأداء واجباتهم في جمع الضرائب والعوائد، مما أدى إلى خسارة سنوية قدرها خمسة وعشرين لكا من الروبيات. كيف يمكن لهذا أن يدير شؤون الحكم؟ ومن أين سيدفع المستحقات السلطانية ورواتب الجند؟ كل ما أطلبه هو أن لا يتدخل الإنجليز في الأراضي الخاضعة لي، كما لم ولن أتدخل في المحلات التي تنازلت عنها لصالح الشركة. لماذا يحاول زعماء الإنجليز وعامتهم أن يستخفوا بي؟ أرجو أن تعالجوا الأمر دون أي تساهل، لأن استمرارية هذا الوضع ستكون خسارة كبيرة لي".^١

وقد صارت الغدر والخيانة لكثير من المندوبين البريطانيين في الهند، ملكة وكيفية راسخة في النفس، حيث إنهم لم يكتفوا بالغدر ونقض العهود في الهند، بل أيضا أرادوه في مناطق أخرى، مثل أفغانستان. اقترح المقيم البريطاني استخدام وسائل دبلوماسية مراوغة^٢ لإنقاذ ما تبقى من الإنجليز، فقام بمراسلة زعماء المقاومة وتقديم عهد يتضمن سحب القوات الإنجليزية من أفغانستان، وخلع شاه شجاع^٣، وإعادة دوست محمد خان^٤ إلى الحكم، والتعهد بعدم التدخل في شؤون أفغانستان. رفضت المقاومة هذا العرض، ومنحت الإنجليز مهلة ثلاثة أيام لسحب قواتهم من كابل. ومع ذلك، تأخر الإنجليز في تنفيذ

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٥.

^٢ - مكر وحيلة. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة . (٩٦١/٢).

^٣ - شاه شجاع (مواليد ١٧٨٠ - توفي في أبريل ١٨٤٢، كابل، أفغانستان) كان الشاه أو الملك لأفغانستان (١٨٠٣-١٨١٠، ١٨٣٩-١٨٤٢)، والذي تمكن من تحقيق تحالف مع البريطانيين، مما أدى إلى وفاته. (Britannica, Written and fact-checked by : Shāh Shujā‘, Shojā‘ Mirza, Shojā‘-ul-Mulk, Shujā, Mirza, Shujā‘-ul-Mulk The Last Updated: Jan ١, ٢٠٢٥, Article History Editors of Encyclopaedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Shah-Shoja>)

^٤ - دوست محمد خان (مواليد ١٧٩٣، أفغانستان - توفي ٩ يونيو ١٨٦٣، هرات) كان حاكم أفغانستان (١٨٢٦-١٨٦٣) ومؤسس سلالة براكزاي، الذي حافظ على استقلال أفغانستان خلال فترة كانت الأمة محورًا للصراعات السياسية بين بريطانيا العظمى وروسيا. (Britannica, Written and fact-checked by: Dūst Moḥammad, Last Updated: Jan ١, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Dost-Mohammad-Khan>)

تعهداتهم على أمل وصول إمدادات جديدة ومحاولة إحداث انقسام بين زعماء المقاومة، إلا أن المقاومة اكتشفت المؤامرة الإنجليزية وعزمت على الرد بالمثل^١.

إن الإنجليز استطاعوا بنقض العهود والمواثيق وتخطيم القيم الأخلاقية والإنسانية، السيطرة على البلاد، فعندهم الغاية تبرر الوسيلة، ومصلحة مجموعة تترجح على مصلحة المجموعات. كانت نقض العهود من قبل شركة الهند الشرقية الإنجليزية عاملاً أساسياً في ثورة أهل الهند. رغم فرضهم شروط الاتفاقيات على الأمراء المحليين، كانوا يبادرون لنقضها عند عدم الحاجة إليها. استخدمت الشركة الاتفاقيات الثنائية لتحقيق الهيمنة على الإمارات الهندية. بعد القضاء على المنافسين، اتصلت الشركة عن الاتفاقيات وقضت على العديد من الإمارات، بما في ذلك أوده، ونفت آخر حكامها واجد علي شاه^٢ دون استماع لتظلماته^٣.

هذه هي الآثار المرتبة وفقاً للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أن المغول التزموا بالمواثيق التي عقدها مع السكان المحليين. السلطان أورنجزيب، على سبيل المثال، كان يحترم القوانين الإسلامية، وأصدر أوامر بتحريم السجود للسلطان، مما عزز الثقة بينه وبين الشعب.

المطلب الرابع: تهميش السادة في عملية الحكم

سبق في الباب الثاني أن من سياسات الحكومة البريطانية إشراك الهنود في الحكم، والاستعانة بهم في إدارة أمور البلاد، لكن عند التأمل يتضح أنه لم يفتح للهنود المساكين إلا أدنى أبواب المناصب الحكومية، لأن المناصب العليا كانت محظورة عليهم.

فشهوة الجاه والقدرة لدى الإنجليز كانت سدا منيعاً أمام مساهمة الهنود في الحكم، وهذا لم يكن لأجل فقدان الهندوس الكفاءة اللازمة في الإدارة، وأيضاً لم يكن الهنود يطلبون رواتب عليا، بل كانوا يقتنعون برواتب أخف من رواتب الإنجليز.

^١ - انظر: نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٢٩٣.

^٢ ميرزا واجد علي شاه (الأردية: واجد علي شاه) (٣٠ يوليو ١٨٢٢ - ١ سبتمبر ١٨٨٧) كان الحاكم الحادي عشر والأخير لمملكة أوده، شغل المنصب لمدة ٩ سنوات، من ١٣ فبراير ١٨٤٧ إلى ١١ فبراير ١٨٥٦. (<https://www.rekhta.org/poets/wajid-ali-shah-akhtar/profile>).

^٣ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤١٣.

في كل عام، يتخرج أكثر من اثني عشر ألف طالب من مختلف المؤسسات التعليمية في الهند، محصلين على شهادات. يُنهي مئات الشباب الهنود دراستهم في الكليات والجامعات الأوروبية والأمريكية في الغرب، ويحصلون على شهاداتهم ويعودون إلى وطنهم. لكنهم عندما يصلون، يجدون أن أبواب أدنى المناصب الحكومية والعسكرية مفتوحة لهم فقط، بينما تُصبح مناصب عليا محرمة... أعلن لورد اسكويث^١ صراحةً: "إذا تم منح الوظائف والمناصب العليا في الهند للهنود، وحتى لو لم يصلوا إلى درجة كفاءة العاملين البريطانيين، فهم أكثر كفاءة، فإن البريطانيين سيعتبرون ذلك نوعاً من الإهانة الاجتماعية لأنفسهم...". يقول روتفورد: "بالنسبة لكل وظيفة تُدار حالياً في الهند بواسطة بريطانيين، يُمكننا القول بكل ثقة: إنَّ هناك خمسة أو عشرة هنود يُمكنهم إدارة عمل ذلك البريطاني بشكل أفضل وأكثر كفاءة بنصف الراتب^٢."

فكان الشباب الهنود يدرسون في العلوم المختلفة والفنون المتنوعة، لكنهم بعد التخرج لا يجدون فرص العمل في المجالات التي صاروا متخصصين فيها، كما أن الضباط الوطنيين كانوا محرومين من الارتقاء إلى الرتب بعد أن خدموا خدمة طويلة.

ولقد انتقل السخط وكره الإنجليز إلى جيشهم الذي قضوا بهم على كل مقاومة هندية، وقفت ضد تقدمهم وإحكام سيطرتهم في الهند، وأصبحت الجنود الهندية تكره الإنجليز لما يشاهدونه من ظلم واقع عليهم وتفرقة في المعاملة، وكان ضباطهم الوطنيون محرومين من الارتقاء إلى الرتب الصغيرة بعد خدمة طويلة^٣.

وعند ما نقارن هذا مع الظروف السائدة في الهند فترة حكم أباطرة المغول يتبين لنا أن المسلمين أشركوا الهنود وأصحاب الأديان المختلفة في الحكم، خلافاً للبريطانيين الذين كانت تتكون أسس قيمهم، القدرة وبسط السيطرة والاستعمار، لا عمارة البلد وتحريك عجلة التقدم إلى الأمام.

^١ - إتش. إتش. أسكويث، أول إيرل لأوكسفورد وأسكوث (مواليد ١٢ سبتمبر ١٨٥٢، مورلي، يوركشاير، إنجلترا - توفي ١٥ فبراير ١٩٢٨، سوتون كورتني، بيركشير) كان رئيس الوزراء الليبرالي لبريطانيا العظمى (١٩٠٨-١٩١٦)، وكان مسؤولاً عن قانون البرلمان لعام ١٩١١، الذي حدد صلاحيات مجلس اللوردات، وقاد بريطانيا خلال أول عامين من الحرب العالمية الأولى. (Britannica, Written by The Editors of Encyclopaedia, Britannica Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/biography/H-H-Asquith-1st-earl-of-Oxford-and-Asquith>)

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٥٢.

^٣ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤٢١.

قال السير توماس مونرو^١، الحاكم البريطاني في مدراس، منذ ما يقرب من مائة عام: عندما كان المسلمون يحكمون الهند، كان من الممكن أن يشغل الهنود أعلى المناصب والترتب في البلاد. فقط في ظل الحكم البريطاني تُحرم المجتمع الهندية من الحقوق الاجتماعية، وحتى في بعض الحالات التي يتم قبولهم للخدمة في إحدى الدوائر، فهم لا يختلفون عن أدنى الخدم... يقول اللورد ليتون^٢، الذي كان عام ١٨٧٨ نائب الملك في الهند: "بما أنني متأكد من صحة أقوالي، أقول بلا تردد: إن الحكومة البريطانية، التي تُتهم بأنها تُحاول في الواقع أن تعمل عكس ما تقوله ظاهرياً، لم تتمكن من إثبات براءتها من هذه التهمة وتطابق أفعالها مع أقوالها"^٣.

فالسير توماس مونرو واللورد ليتون يعبران عن نقد قوي للحكم البريطاني في الهند، مقارنة بالحكم الإسلامي السابق. حيث يشير مونرو إلى أنه عندما كان المسلمون يحكمون الهند، كانت الفرص متاحة للهنود لشغل أعلى المناصب والتمتع بالحقوق الاجتماعية. في المقابل، يقول مونرو: إن الحكم البريطاني حرم الهنود من تلك الحقوق، وعاملهم وكأنهم أقل شأنًا. أما اللورد ليتون فيوضح أن الحكومة البريطانية لم تستطع إثبات تطابق أقوالها مع أفعالها، مما يعزز الاتهام بأنها تعمل عكس ما تدعيه.

هذه هي الآثار المرتبة وفقًا للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أن المغول أشركوا الهندوس والمسلمين في الحكم، حيث عمل العديد من الهندوس في مناصب حكومية رفيعة. السلطان أكبر، على وجه الخصوص، أقام مجلسًا استشاريًا يضم مختلف الطوائف.

المطلب الخامس: تحطيم العدالة الاجتماعية

العدالة الاجتماعية تُعتبر ركيزة أساسية لتحقيق مجتمع مستدام ومزدهر. فهي ليست مجرد توزيع عادل للموارد والفرص، بل هي أيضًا مبادئ تعكس القيم الإنسانية الأساسية مثل الإنصاف، والمساواة،

^١ - الجنرال السير توماس مونرو، البارون الأول كيه سي بي (٢٧ مايو ١٧٦١ - ٦ يوليو ١٨٢٧) كان جنديًا اسكتلنديًا ومسؤولًا إداريًا استعماريًا بريطانيًا. خدم كضابط في جيش شركة الهند الشرقية ورجل دولة، بالإضافة إلى كونه حاكمًا لرئاسة مدراس.

<https://collection.nam.ac.uk/detail.php?acc=١٩٩٦-٠٩-١٦-١>

^٢ - روبرت بولوير-ليتتون، الإيرل الأول لليتون (مواليد ٨ نوفمبر ١٨٣١، لندن، إنجلترا - توفي ٢٤ نوفمبر ١٨٩١، باريس، فرنسا) كان دبلوماسيًا بريطانيًا ونائب الملك في الهند (١٨٧٦-١٨٨٠) والذين حققوا أيضًا خلال حياتهم سمعة كشاعر. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Article History,

<https://www.britannica.com/biography/Robert-Bulwer-Lytton-1st-earl-of-Lytton>)

^٣ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٥٤.

والاحترام. من خلال العدالة الاجتماعية، يمكن تقليل الفجوات الاقتصادية والاجتماعية، وتعزيز الشعور بالانتماء والتضامن بين أفراد المجتمع.

والعدالة الاجتماعية ترتبط بشكل وثيق بالقيم؛ لأنها تجسد مفاهيم الأخلاق والإنسانية في السياسات والممارسات. على سبيل المثال، القيم الأخلاقية مثل العدل والكرامة والحرية تعزز الحاجة إلى نظام اجتماعي يحترم حقوق الجميع ويكفل لهم حياة كريمة. لذا، العدالة الاجتماعية ليست فقط هدفا إنسانيا بل هي أيضا وسيلة لتحقيق مجتمع يعكس القيم التي يؤمن بها الناس ويعزز التعايش السلمي.

وإذا رجعنا إلى المصادر المتاحة في هذا المجال يتضح أن البريطانيين لم يراعوا العدالة الاجتماعية في أغلب القضايا، فالذي ظهر منهم ، أنهم كانوا يتكبرون ويتعاضمون على الناس، ويرونهم أحقار وضعافا، تمنعهم شهوة الجاه والسلطة والقدرة أن يعترفوا بحقوق الآخرين، وأن يراعوا العدالة الاجتماعية.

نظرا إلى هذه الأمور، كانت تتم مناقشة المسائل والقضايا المدنية في المحاكم الهندية لمدة طويلة، وتظل غامضة غير محسومة دهرًا طويلا.

في كثير من الأحيان ، تتم مناقشة الشؤون المدنية والقضايا الاجتماعية في المحاكم لمدة تصل إلى خمس سنوات، وفي النهاية، تظل غامضة وغير واضحة. الحقيقة هي أن المبادئ الجديدة كانت أكثر فائدة للمشرعين والقضاة مما هي عليه للمجتمع^١.

وأيضا لم تكن المحاكم تراعي العدالة عندما يكون طرفا النزاع جنسين مختلفين من البريطانيين والهنود، فيشمل هذه الأحوال التسامح تجاه البريطانيين لا الهنود.

في الحالات التي يكون فيها طرفا النزاع من الهنود أو الأوروبيين ، يمكن تحقيق العدالة ، ولكن عندما يكون أحد جانبي القضية إنجليزيا والآخر هنديا ، يسود التعاطف والتساهل مع الحقيقة والعدالة. بالطبع ، في هذه الحالات ، سيشمل التعاطف والتسامح الأوروبيين^٢.

ثم إنه كان هناك تمييز واضح في تطبيق العدالة بين الأوروبيين والهنود في الهند خلال فترة الحكم البريطاني في تطبيق الجرائم. الأوروبيون الذين كانوا يرتكبون جرائم ضد الهنود يتلقون عقوبات خفيفة أو لا يعاقبون على الإطلاق، بينما الهنود يتعرضون لعقوبات قاسية حتى على الجرائم الأقل خطورة. هذا

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٤٥.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٤٥.

التمييز يعكس عدم مراعاة القيم الاجتماعية والإنسانية، ويؤدي إلى شعور بالظلم والاستياء بين السكان المحليين. بانديت موتيلال نهر، الذي عمل قاضيا في الهند لمدة ٤٠ عامًا، يشير إلى أن البريطانيين لم يُعاقبوا بشكل عادل على جرائمهم، مما يعزز الشعور بعدم المساواة والتمييز الطائفي.

إذا ارتكب شخص أوروبي جريمة ضد الهنود، فإنه يخضع دائما لأصغر وأخف العقوبات. في كثير من الأحيان، تمارس الآراء ويتم تمويل جرائم الأوروبيين بطريقة يتردد صداها بشكل سيء بين الناس. رجل إنجليزي يقتل خادمه الهندي بسبب الإهمال الذي يغتفر الذي يعاني منه كل خادم بشكل طبيعي، وحكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر وغرامة قدرها ٦٧ دولارا. حكم على رجل هندي بالسجن لمدة ٢٠ عاما لمحاولته اغتيال امرأة بريطانية. لكن في الوقت نفسه، في نفس المدينة، اختطف رجل إنجليزي قسرا فتاة هندوسية واغتصب شرفها، فهو حر ولا يوجد قانون يحمله المسؤولية عن هذا العمل القبيح. يقول بانديت موتيلال نهر، الذي يعمل قاضيا في الهند منذ ٤٠ عاما: "خلال هذه السنوات الـ ١٥٠، لم يتم فرض العقوبات المفروضة على مرتكبي جرائم القتل والجريمة على البريطانيين بأي شكل من الأشكال، ولم تتم إدانة أي رجل إنجليزي بالقتل".^٢

نسيت الحكومة البريطانية العدالة الاجتماعية في كثير من المجالات ولا سيما في المحاكم القضائية، وهذا ما اعترف به كبار الهنود والبريطانيين المنصفين.

يقول مهاتما غاندي: "في تسعة وتسعين بالمائة من المحاكمات بين الهنود والبريطانيين في المحاكم القضائية للحكومة البريطانية، لا يتم تنفيذ العدالة والإنصاف". في ما قلناه، لم نسلك طريق المبالغة، وأي هندي تعامل مع هذه المحاكم مرة واحدة في حياته سيدرك هذه الحقيقة التي لا جدال فيها.^٣

من خلال هذه العبارة، يظهر أن مهاتما غاندي يُشدد على الفجوة الكبيرة بين الهنود والبريطانيين في تحقيق العدالة في المحاكم القضائية البريطانية. يشير إلى أن العدالة والإنصاف لا يتم تنفيذهما في غالبية المحاكمات، وهو ما يعكس تمييزا واضحا وتحيزا لصالح البريطانيين. يسعى غاندي إلى تسليط الضوء على هذا الظلم المستمر الذي يعاني منه الهنود تحت الحكم البريطاني، ويبرز حقيقة أن هذه المسألة ليست

١ - س و أ: استاء من يستاء، استأ، استيأ، فهو مُستاء، والمفعول مُستاء منه، استاء منه: تألم، تضايق بسببه، تأثر، تكدر، اغتاظ "استاء من سلوكه الطائش - مستاء من تصرفك". (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، الرقم: ٢٦٥٩، معجم اللغة العربية المعاصرة. (١١٢٨/٢).

٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٤٥.

٣ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٤٦.

مبالغة بل واقع يعايشه كل هندي تعامل مع هذه المحاكم ولو لمرة واحدة. تلبية شهوة الجاه هنا تتجلى في السلطة البريطانية التي تتجاهل مبادئ العدالة، وتُفضل مصالحها الشخصية على حساب حقوق الهنود، مما يعمق من شعور الظلم والتمييز في المجتمع.

وسيحاكم المشتبه بهم سرا، وليس في محاكم العدل الرسمية، ولكن بحضور ثلاثة قضاة تعينهم الحكومة. لن يتم إخبار المتهمين أبدا بأسماء الأشخاص الذين قاموا بالتشهير بهم. ويدلي الشهود بشهاداتهم في غياب المتهم وليس في حضوره. ولا يكون للمتهم الحق في توكيل شهود لإثبات براءته. يمكن للحكومة فرض عقوبة على المشتبه به دون اتباع الإجراءات القانونية الواجبة، ولا يمكن للمدان استئناف الحكم الصادر ضده^١.

تجسد هذه الحقائق مخاطر شهوة السلطة وانحرافها عن العدل والشفافية. يظهر من خلالها كيف يمكن للحكومات الاستبدادية إساءة استخدام السلطة وتعرض حقوق الأفراد للانتهاك. ففي هذه الحالات، يتم محاكمة المشتبه بهم سرا دون مراعاة معايير العدالة الأساسية، حيث تُعين الحكومة القضاة وتُخفي أسماء الشهود، مما يحرم المتهمين من حقوقهم الأساسية في الدفاع عن أنفسهم أو استئناف الأحكام الصادرة ضدهم. تعكس هذه الإجراءات تعسف السلطة وافتقار النظام القضائي للشفافية والاستقلالية، مما يؤدي إلى انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان ويعزز مناخ الخوف والظلم داخل المجتمع.

المطلب السادس: العنصرية والتمييز الطائفي

من الآثار السيئة التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بشهوة الجاه والقدرة -أساس قيم البريطانيين في الهند- العنصرية والتمييز الطائفي، فالعنصرية والجاه والقدرة ترتبطان ببعضهما البعض بشكل وثيق، حيث يمكن أن تؤدي التمييزات العنصرية إلى تعزيز السلطة والنفوذ لبعض الأفراد أو الجماعات على حساب آخرين. عندما يتم تمييز الأشخاص بناء على لون بشرتهم أو عرقهم، يُمكن أن يمنح هذا التمييز قوة ومزايا غير مستحقة لأولئك الذين يُعتبرون من الفئة المهيمنة، بينما يُجرم الآخرون من الفرص والموارد التي قد تساعدهم في تحقيق النجاح والجاه.

والتمييز الطائفي والعنصرية لدى الإنجليز لهما جذور تاريخية عميقة. خلال فترة الاستعمار البريطاني، كانت هناك سياسات تمييزية واضحة تجاه الشعوب المستعمرة، حيث تم تقسيم المجتمعات على أساس العرق والدين لتعزيز السيطرة البريطانية. هذا التمييز لم يقتصر على المستعمرات فقط، بل كان موجودا

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٦.

أيضا داخل بريطانيا نفسها، حيث كانت هناك تفرقة عنصرية ضد الأقليات العرقية والدينية. حتى في العصر الحديث، لا تزال بعض التحديات المتعلقة بالتمييز العنصري والطائفي قائمة في المجتمع البريطاني، مما يستدعي جهودا مستمرة لتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية.

وعلى هذا الغرار كان البريطانيون يعتبرون أنفسهم نوعا متفوقا على الهنود، وكانوا يسلكون معهم سلوكا لا يطاق، ولم يكن هذه الأمور على حساب الكفاءة، بل كان الأساس هو العنصرية والتفوق العرقي.

وكتب في أحد التقارير المقدمة إلى البرلمان في عام ١٨٣٥: "لا يوجد في الهند شيء أكثر - لا يُحتمل ولا يُطاق - من سلوك المسؤولين، الذين تم تعيينهم في تلك الدولة، ليس بسبب كفاءتهم، بل بسبب رحمتهم وتعاطفهم مع السكان".^١

ويتضح عند تتبع جذور الوحشية التي كان الإنجليز يمارسونها تجاه الهنود الضعفاء أن هذه العنصرية هي السبب لكل تلك المشاكل.

يُخبر ساندرا لاند أن البريطانيين يُعاملون الناس في الهند كما لو كانوا أجناب ومُغتربين لا يملكون أي حق في تلك الأرض. إن العنف والوحشية والازدراء والإهانة التي يُظهرها البريطانيون تجاه السكان تُعتبر شديدة لدرجة تُذكرنا بسلوك المستعبدِين الظلمة مع الناس في لويزيانا^٢ وجورجيا^٣ خلال فترة العبودية في أمريكا. وفي مكان آخر، يصف الحالات التي رآها بأم عينيه، كيف طرد الجنود البريطانيون، علماء البراهمة والراج المحترمين من الدرجة الأولى من عربة القطار بكل إذلال وإهانة، ولم يسمحوا لهم بالجلوس في نفس الدرجة مع أنفسهم. ويؤكد شاول زيماندي حديثه بالتصريحات التالية: إن الامتياز الشعب

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٥٥.

^٢ - لويزيانا، ولاية ضمن الولايات المتحدة الأمريكية. تحدها أركنساس من الشمال، وميسيسيبي من الشرق، وتكساس من الغرب - بحدود طبيعية ومصطنعة. يحدها من الجنوب خليج المكسيك. تبلغ المساحة الإجمالية للويزيانا حوالي ٤٦٠٠ ميل مربع (١٢٠٠٠ كيلومتر مربع) من المياه الداخلية. العاصمة هي باتون روج. (Britannica, Written by Perry H. Howard, Robert J. Norrell, Last Updated: Feb ٨, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/place/Louisiana-state>)

^٣ - جورجيا، دولة في منطقة القوقاز في نهاية البحر الأسود الشرقية على المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال القوقاز الكبرى. تحدها روسيا من الشمال والشمال الشرقي، وأذربيجان من الشرق والجنوب الشرقي، وأرمينيا وتركيا من الجنوب، والبحر الأسود من الغرب. (Britannica, Written by David Marshall Lang, Mikhail Leonidovich Djibladze, Last Updated: Feb ٤, ٢٠٢٥, [Article History](https://www.britannica.com/place/Georgia) <https://www.britannica.com/place/Georgia>)

الإنجليزي الأدنى للهنود هو بالضبط نفس الامتياز الذي يصنعونه بينهم وبين المتوحشين السود في جنوب إفريقيا. وهذا يعني أن أي شخص إنجليزي يمكنه معاقبة أي شخص هندي دون محاكمة أو تحقيق. لقد رأيت الكثير من الأمثلة على ذلك بأم عيني، لدرجة أنني إذا أردت تدوينها، "لصارت كتابا ضخما".^١

لم يكن الإنجليز يتحملون حتى البقاء الرمزي لدولة غير دولتهم، فهم كانوا أجود أنواع البشر، بل لم يوجد أحد أعلى منهم نسبا وعرقا، فلم لا يمارس البريطاني كل أنواع الظلم تجاه الشعوب الأخرى عندما يفكر بهذا الطريق؟

كذلك جعل كيننك حاكم عام الشركة، باكورة أعماله بأن أبلغ بهادر شاه الثاني سلطان دلهي بأنه سوف يكون آخر من يحمل هذا اللقب، وبهذا أصبحت الشركة لا تتحمل حتى البقاء الرمزي للدولة المغولية التي لم يكن يتمتع سلطانها بأية سلطة، كما أصبحت لا تطبق استمرارية الإمارات التي كانت تتمتع باستقلال اسمي ضمن نظام الحلف التعاوني، وهنا نفذ صبر الهنود بعد أن رأوا الشركة الإنجليزية لا تعترف إلا بالإنجليز أو إنجليزي المنشأ أو التربية، حيث كانت كلما ألحقت إمارة إلى سيادتها المباشرة، وظفت المتخرجين من مدارسها والمتدربين في معاهدها.^٢

هذه الحقائق تعكس بوضوح أن شهوة الجاه والقدرة يمكن أن تؤدي إلى سياسات تمييزية واستغلالية. عندما أبلغ كيننك بهادر شاه الثاني بأنه سيكون آخر من يحمل لقب السلطان، كان ذلك تعبيرا عن رغبة الشركة في تعزيز سلطتها ونفوذها على حساب الرموز التقليدية والسلطات المحلية. هذا التصرف يعكس عدم تحمل الشركة لأي شكل من أشكال السلطة الرمزية التي قد تعيق سيطرتها المطلقة.

بالإضافة إلى ذلك، رفض الشركة الإنجليزية الاعتراف بأي شخص أو كيان غير إنجليزي أو غير متخرج من مدارسها ومعاهدها، يعكس رغبتها في الحفاظ على هيمنتها الثقافية والتعليمية. هذا التمييز أدى إلى استياء الهنود الذين شعروا بأنهم مستبعدون من مراكز السلطة والنفوذ، مما زاد من التوترات والاحتقان.

بالتالي، يمكن القول إن شهوة الجاه والقدرة لدى الشركة الإنجليزية أدت إلى سياسات تمييزية واستغلالية، حيث سعت الشركة إلى تعزيز نفوذها وسلطتها على حساب الآخرين، مما أدى إلى تفاقم التوترات والصراعات.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٥٦.

^٢ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٤١٤.

هذه هي الآثار المرتبة وفقا للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أنه أسس المغول نظاما عادلا في توزيع الضرائب والموارد. على سبيل المثال، أمر السلطان أكبر بإعفاء الفلاحين من الضرائب في السنوات العجاف، مما خفف من معاناتهم، ووصى السلطان بابر في "وصيت نامه مخفي" ولده همايون ، بأن يتعامل مع الشعب بالعدالة بدون أي تمييز بين الأديان والمذاهب المختلفة ، حيث كتب فيه "«الحمد لله» وصية سرية من ظهير الدين محمد بابر باد شاه غازي إلى الأمير ناصر الدين محمد همايون ، أطل الله بقاءه. من أجل استقرار المملكة كتبت هذه الوصية: أي بني: إن دولة الهند مليئة بالعقائد المتباينة ، والحمد لله الحق العلي المجيد أن وهبك ملكها ، وإنه لمن الصواب أن تقدم بقلب خال من كل تعصب ديني على نشر العدل تبعا لعقائد كل جماعة من الناس، وبوجه خاص أن تمتنع عن ذبح البقر، فإن هذا هو السبيل لامتلاك قلوب الشعب في هندستان، ورعايا مملكتك سيخلصون لك الإخلاص كله إذا أحسوا منك حذبا وعطفا، والهياكل وأماكن العبادة التابعة لكل فرقة دينية تحت حكمك يجب أن لا تخربها... تجاهل النزاع والتخاصم بين الشيعة والسنة ، ففي هذا منبت الضعف في الإسلام ، وضم الرعايا من مختلف العقائد حول الأسس الأربعة بحيث يصبح كيان الدولة محصنا ضد عوامل الضعف المختلفة^١.

المطلب السابع: بث التفرقة بين الجماعات

لا شك أن هناك ارتباطا قويا بين شهوة الجاه وبسط القدرة وبين بث التفرقة بين الجماعات المختلفة، ومن السياسات التي مارستها الحكومة البريطانية في الهند سياسة "فرق تسد". سياسة "فرق تسد" كانت أحد الأساليب التي استخدمتها الحكومة البريطانية للسيطرة على مستعمراتها، خاصة في الهند. هذه السياسة تعتمد على تقسيم المجتمعات إلى جماعات متنافسة ومتناحرة، مما يضعف وحدتها وقوتها ويجعل من السهل ، السيطرة عليها. في الهند، شجعت السلطات البريطانية على تعزيز الفروق الدينية والاجتماعية بين الهندوس والمسلمين وغيرهم من الطوائف، مما أدى إلى تفاقم التوترات والصراعات الداخلية. هذا النهج سمح للبريطانيين بالبقاء في السلطة، حيث كانت الفئات المختلفة منشغلة بصراعاتها الخاصة بدلا من التوحيد لمواجهة المستعمر.

^١ - انظر: الشيال، دكتور جمال الدين، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، (٣٣/١).

بالإضافة إلى ذلك، استخدمت بريطانيا هذه السياسة لإقامة نظم إدارية وتعليمية تفضل الطبقات والنخب التي تدين بالولاء لبريطانيا، مما ساهم في تعزيز الفجوات الاقتصادية والاجتماعية بين مختلف الفئات في المجتمع.

في الهند، هناك دائما صراعات بين الهندوس والمسلمين، لكن مثل هذه النزاعات والقتل فشت فقط في الهند البريطانية، ومن المدهش جدا أنه لا يوجد أي أثر لمثل هذه الصراعات والحروب والصراعات في الدول المستقلة. يقول غاندي: "في كل من هذه الصراعات الدينية، نرى عملاء الدولة يشاركون وراء الكواليس من خلال تأجيج نيران الصراع وسفك الدماء. كتب رمزي مكدونالد: "الآن نشأت الشكوك ويعتقد أن الحكومة تمارس نفوذا لتطوير هذه الانقسامات. بعض المسؤولين والزعماء البريطانيين يستفزون ويغرون القادة باستمرار ويخططون لصراعنا وذبنا بين الهندوس والمسلمين".^١

كان من المتوقع أن تقدم الحكومة البريطانية في الهند دعما كبيرا لتنفيذ الإصلاحات الاجتماعية، إلا أنها أثارت الدهشة والإعجاب بمعارضتها لهذه الإصلاحات بشدة. والقوانين الحكومية كانت مصاغة بحيث تفضل الخرافات فعلا، فقد كانت الحكومة تؤيد دائما الامتيازات الطبقية لأسباب منها كسب محبة عناصر عشيرة براهمين وتسهيل الاستعمار الهندي عبر مبدأ "فرق تسد".

بطبيعة الحال، يُعتقد أن الحكومة البريطانية في الهند قدمت الكثير من المساعدة لتنفيذ الإصلاحات الاجتماعية. ومع ذلك، من المدهش والمثير للإعجاب أنها عارضت هذه الإصلاحات بشدة. في الجمعية التشريعية، عندما تم تقديم مشاريع قوانين التعديل، دعمت حكومة الهند دائما المعارضة وتوافقت معها من خلال الوسائل المباشرة وغير المباشرة. كانت الحكومة الإمبراطورية البريطانية دائما تؤيد الامتيازات الطبقية لسببين: أولاً، لكسب محبة عناصر عشيرة براهمين، وثانياً، لتسهيل عمل الحكومة الإمبراطورية البريطانية في استعمار الهند بموجب مبدأ "فرق تسد" غير القابل للتصرف. يلخص القس س. ف. أندرو الأمر لنا: "لقد توصلت كل يوم إلى الحقيقة المرة المتمثلة في أن حكم حكومة أجنبية في هذه الأرض قد خلق عقبة قوية أمام الإصلاح الاجتماعي. الملاحظات الرسمية في المجلس التشريعي تثير رد فعل قوي. إذا تم إلغاء الإمبراطورية البريطانية غدا، فستؤخذ الحاجة إلى تحسين ظروف الطبقات الدنيا في الاعتبار وستشكل العنوان الرئيسي لبرنامج الإصلاح الوطني والاجتماعي".^٢

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٤٣.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٢٣٨.

يدعي البعض أن الحكومة البريطانية قد أعطت الوحدة للهند وأنها قامت بنشر الثقافة الواحدة واللغة الواحدة في الهند وهي اللغة الإنجليزية، وأنها هي التي استطاعت أن تثبت الاستقرار في الهند وتنتهي الصراعات الطويلة بين المسلمين والهنود على مدى القرون العديدة، لكن بعد التفحص يتضح أن هذه الادعاءات لا أساس لها في الواقع وأن الحكومة البريطانية اجتهدت في توسيع الفجوة بين الجماعات المختلفة.

يقال: إن إنجلترا أعطت الوحدة للهند. على العكس من ذلك ، منعت إنجلترا توحيد الهند من خلال الدعوة داخليا وغير مباشر إلى الاختلافات الطبقية ، وبمساعدة ٧٠٠ أمير في ٧٠٠ دولة مستقلة ، وجميعهم دمي (لعبة) للحكومة البريطانية وبالتالي مسؤولون عن حماية المصالح البريطانية، الذين بمساعدتهم يمكنها تنفيذ غرضها. الهند لديها مائتي لهجة مختلفة. في روسيا ، هناك العديد من اللغات واللهجات المختلفة. كندا ، التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة عشر من سكان الهند ، تتحدث ١٧٨ لغة مختلفة. في حين أنه من بين ٣٢٠ مليون شخص في الهند ، ٢٠٠ مليون منهم يتحدثون اللغة الهندوستانية ، لقرون عديدة كانت هناك وحدة في الهند ، أعمق وأقوى بكثير من وحدة اللغة والحكومة ، نفس الوحدة الفكرية والأخلاقية التي حولت في جزء من العصور الوسطى ، أوروبا بأكملها إلى بلد واحد. ولكن مع فجر أمة العصر الجديد ، اهتز أساسها^١.

هذا الذي مر هي الحقائق المرة التي ذاق الهنود طعمها عبر سنين مختلفة، كيف يمكن أن تكون هذه الأمور جزافا والبريطانيون أنفسهم يعترفون بهذه الحقائق؟

قبل أن تفصل الحكومة البريطانية الهند عن الشركة، أصدر جاك كوك الأمر التالي: "يجب أن تُركّز جهودنا على تعزيز وتوسيع الفجوة والعداوة بين الأجناس والأديان المختلفة. ولا يجب أن نحاول توحيدهم أو ربطهم بأي شكل من الأشكال.. ولا ينبغي لنا بأي حال من الأحوال أن نحاول توحيدهم وربطهم. يجب أن تستند مبادئ برنامج الحكومة في الهند على مبدأ

"فرق تسد". في عام ١٨٥٩ ، نصح الحاكم البريطاني في بومباي حكومته بأن التقسيم والحكم هو أساس سياسة حكومة الإمبراطورية الرومانية القديمة، وعلينا أن نعزز سياستنا الحالية على هذا الأساس^٢. فأساس سياستهم هي التفرقة بين الشعوب وتعزيز الخلافات والصراعات الدينية والعرقية.

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٢٤٢.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ١٧٥.

هذه هي الآثار المرتبة وفقا للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أنه عمل المغول على توحيد الهند تحت راية واحدة، مما ساهم في خلق مجتمع مستقر ومتنوع ثقافيا. سياساتهم في التسامح الديني والاجتماعي ساعدت في تقليل التوترات الطائفية.

المطلب الثامن: النوايا السيئة

لا أحد ينكر أهمية النية والهدف في الحياة، فقيمة الأعمال إنما هي بالنيات، والمقاصد، فالأعمال بالنيات، والأمور بمقاصدها وأهدافها.

النوايا الحسنة تلعب دورا كبيرا في بناء الثقة والتعاون بين الأفراد. فهي تساهم في خلق بيئة من الاحترام والتفاهم المتبادل، مما يعزز العلاقات الإيجابية والسلام الداخلي. على النقيض، النوايا السيئة تزرع بذور الشك والعداوة بين الأفراد. فهي تقود إلى النزاعات والصراعات، وتدمر العلاقات الشخصية والمهنية. وبالتالي تخلق بيئة سلبية تؤثر على المجتمع ككل.

وبالرجوع إلى المصادر يتضح أن الحكومة البريطانية وإن قامت ببعض الإنجازات في الهند، كما هو مشروح في الباب الثاني من هذا الكتاب، لكن المشكلة تكمن في نيتها الفاسدة من وراء القيام بتلك الأعمال.

لماذا صرفت الحكومة البريطانية بعض الاهتمام بالزراعة في أرض الهند؟ هل كان هدفها تعزيز اقتصاد الهند، واستقلالها زراعيا، أم كانت هناك أهداف أخرى؟

كانت الحرف اليدوية الهندية مشهورة عالميا منذ العصور القديمة، وكانت المصنوعات اليدوية تُباع بسرعة في الأسواق الغربية عبر التجار الأوروبيين. مع مرور الزمن، بدأ البريطانيون المقيمون في الهند بمنافسة هذه المنتجات باستخدام الآلات الصناعية. مما أدى إلى تقويض الحرف اليدوية التقليدية. بهدف توفير سوق للسلع الإنجليزية المصنعة بالآلات، قرر البريطانيون تحويل الهند إلى دولة زراعية بحتة.^١

وأيا لم يكن الداعي الرئيسي للدفاع عن الحقوق، لا سيما حقوق المنبوذين والمرأة والأيتام والأرامل، والأطفال، هو القيم الإنسانية والأخلاقية، بل الداعي الرئيسي هو شهوة المال والقدرة والجاه. وإلا فكيف يرضى من لا يتحمل زواج الأطفال، بقتل الملايين من الأطفال جوعا؟

ففي الواقع، تكمن السياسة السيئة للإنجليز في الهند في استغلالهم للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لتحقيق مصالحهم الخاصة. بالرغم من اتخاذهم بعض القرارات التي بدت إنسانية، مثل منع حرق الأرامل

^١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٦٣.

الهندوكيات ومنع ترحيل العبيد، إلا أن هذه القرارات كانت ذات دوافع اقتصادية بحتة، مثل شراء العبيد لاستخدامهم في السفن. اعتمد الإنجليز على سياسة "فرق تسد" لتحقيق السيطرة، حيث بدأوا تحت ستار التجارة ثم استغلوا الفرصة للسيطرة وفرض قوانينهم وأفكارهم.

"أحدث حكام القلاع تغيرات اجتماعية واقتصادية هائلة في المنطقة ليس من مجال لبحثها هنا. يكفي أن نشير، حاكم مدارس أمر في عام ١٦٨٠م بعدم حرق الأرامل الهندوكيات، كما منع الحاكم في مجلسه بقرار صادر في يوم الاثنين ١٨ سبتمبر ١٦٨٣ ترحيل العبيد من مدارس إلى أي منطقة أخرى، ولم يضع هذا القرار بالطبع لخدمة أهداف إنسانية إنما اقتصادية بحتة؛ إذ قام نفس الحاكم في مجلسه بإصدار قرار في يوم الخميس ٢٩ سبتمبر ١٦٨٧ بشراء أربعين عبدا لتستعملهم الشركة على سفنها وقواربها. كذلك أصدر حاكم مدارس في ١٣ نوفمبر ١٦٨٣ قرارا ينظم هجرة السكان من وإلى المدينة... لقد بدأ الإنجليز عملهم في الهند خضعا متملقين تحت ستار التجارة، حتى إذا حانت لهم الفرصة للعمل عملوا واعتمدوا على مبدئهم المعروف "فرق تسد"^١.

ثم إن البريطانيين يتفخرون بالاهتمام بالتعليم، ونشر المعرفة وقمع الأمية في بلاد الهند، فهل هم صادقون في قولهم؟ نعم، الإنجليز اجتهدوا في سبيل تدريس المقررات باللغة الإنجليزية، ونشر الثقافة الغربية، وتعزيز أخلاقهم وقيمهم الوافدة في نفوسهم.

ولم تتمكن الحكومة من توفير المدارس اللازمة. ولكن بدلا من إنفاق ٨ بالمائة من الميزانية المخصصة لهذا الغرض على المدارس الابتدائية، أنشأت عدة مدارس ثانوية ودار الفنون، حيث يتم تدريس المقررات باللغة الإنجليزية، مما يعزز الأخلاق ويغرس الأخلاق والعادات الإنجليزية في عقول الطلاب^٢.

كان يركز منهج الحكومة البريطانية في التعليم على خدمة الاستعمار، والمستعمرين، لم يكن الهدف تقدم الهنود وترقيتهم في العلوم المعاصرة، فبدلا من اهتمامهم بالتعليم صودرت الأوقاف التي كانت تمول المدارس والجامعات والمؤسسات التعليمية، وهذه الأراضي الوقفية التي كانت خير مستند لكثير من المدارس، ردت إلى الأراضي الحكومية، بحجج واهية، فتوقف الكثير من المدارس عن نشاطها، بتجمد مساعداتها.

^١ - د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص: ٤٦٣.

^٢ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٧٧.

"في المجال التعليمي، كانت السياسة الإنجليزية هي السماح لدرجة من التعليم يكون في خدمة المستعمرين، ولا يرتقي بالهنود إلى التقدم العلمي والتقني وخلال أعوام طويلة من سيطرة الشركة لم يبذل أي اهتمام للمجال التعليمي، بل قضي على التعليم القديم أيضا، وصودرت الأوقاف التي كانت تمويل المدارس وبعض المؤسسات التعليمية، وكانت الشركة تبحث عن جمع الأموال بكل وسيلة حتى ترضى أصحاب الأسهم، وفي هذا الإطار أخذوا يصادرون الأراضي الوقفية، وكان يطلب من مسؤولي هذه الأراضي أن يثبتوا وضعها، ولما كانت المستندات ضائعة أو قديمة متأكلة، اتخذت الإنجليزية ذريعة لإنهاء وقفيتها وإدخالها تحت تصرفهم، وطرد القائمين على شئونها، وبذلك كانت المدارس والمؤسسات التعليمية تتوقف عن العمل بعد أن كانت تفقد الإعانات التي كانت تحصل عليها من تلك الأراضي الوقفية، كما كان مجموعات كبيرة من المدرسين والموظفين في تلك المدارس يفقدون أعمالهم وينضمون إلى سائر الذين منحهم الإنجليزية حياة البؤس والشقاء"^١.

فكان التعليم زمن الراج البريطاني محصورا على خدمة الاستعمار، لأجل توفير المتطلبات الإدارية للمراكز والمؤسسات الإنجليزية، حيث كانوا يحتاجون إلى الموظفين من الهنود يعتمدون عليهم في ممارسة الأعمال الإدارية، فلم يكونوا يسمحون أن تتكون لدى الهنود المساكين ملكة الاختراع والابتكار، بل أرادوا من المجتمع الهندي أن يكون عبدا للإنجليزية، ومجتمعاً استهلاكياً لا يستطيع إنتاج شيء، بل يظل محتاجاً وفقيراً إلى سيدهم.

"لم يكن الغرض من تأسيس الإنجليزية المدارس والجامعات في الهند، هو القضاء على الجهل والأمية والتخلف، ورفق البلاد إلى أعلى المستويات في مختلف المجالات، بل الغرض منه هو توفير المتطلبات الإدارية للمؤسسات الإنجليزية الاستعمارية المتنامية، وخارج هذا الإطار لم تكن السلطات الاستعمارية تسمح بأن تتكون لدى الهنود ملكة البحث العلمي وقدرة الاختراع والاتجاه إلى التقدم العملي والتقني والارتقاء بالهند من مجتمع استهلاكى إلى مجتمع إنتاجي، والدليل على ذلك أنهم في الوقت الذي قرروا فتح المدارس وتعليم الإنجليزية، لم يكونوا يسمحون باستيراد مكائن (أجهزة) الطباعة وتداولها بين الهنود، وكانوا يتخوفون من أن يملك الهنود أي نوع من أنواع المكائن ويعتبرونه تهديدا لمستقبل الإنجليزية الصناعي الاستعماري"^٢.

^١ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٣٩٩.

^٢ - المرجع السابق، ص: ٤٠٥.

ومن الأعمال التي تتشدد بها الحكومة البريطانية وتتغنى بإنجازه إنشاء السكك الحديدية في أرض الهند، فهل أرادت الحكومة بهذا العمل إنقاذ الشعب المسكين من شق الأنفس، وتسهيل الطريق لأجل إيصال الطعام للمناطق البعيدة، أم كان لها هدفا آخر لا تصرح بها؟

ربما كان يُفترض في البداية أن بناء سكة حديد بطول ٣٠,٠٠٠ ميل في الهند سيوفر بعض وسائل الراحة للسكان، لكن للأسف هذه السكك الحديدية تمّ بناؤها لصالح البريطانيين، وليس للهنود. لم تستفد الهند نفسها من إنشاء السكك الحديدية، وفوائدها ذهبت بالكامل إلى جيوب البريطانيين، وجيشهم، وتجارهم^١.

وقد كانت السكك الحديدية عاملا مهما في تمكين الشركة من نهب الثروات وخيرات البلاد، حيث استطاع الإنجليز نقل الأموال من المدن والقرى البعيدة إلى الشركة، وتكديسها في ذخائرهم.

"في نفس الفترة، شرعت شركة الهند الشرقية الإنجليزية في إنشاء الخطوط الملاحية البخارية في أنهار الهند الكبرى، بعد أن حلت محل السفن الشراعية في العمل بين الجزر البريطانية وبين إنجلترا وأوروبا وأثبتت نجاحها، وكان هذا التطور في مجال المواصلات في الهند عاملا مهما آخر في تمكن الشركة من تنظيم ابتزاز ثروات شبه القارة الهندية، وإحكام سيطرتها على أراضي الهند المترامية الأطراف"^٢.

ومن الأعمال التي قامت بها البريطانيون في الهند هي إنشاء التلغراف ووسائل نقل الأخبار والرسائل، فهل كانوا يبنون مكاتب التلغراف من أجل تطوير البلاد؟ أم هل صنعوها إشفافا لهم ورحمة بهم؟

"كذلك أخذت الخدمة البرقية في الهند في الانتشار منذ عام ١٨٣٩م حيث وضع لأول مرة سلك على ضفتي نهر هوجلي^٣ بين شطري كلكتا بركيا، واستمرت هذه الوسيلة الاتصالية في الانتشار لربط بعض المدن الهندية ببعضها، ولم يحل عام ١٨٥٦م حتى كانت هذه الخطوط البرقية تغطي ٤٥٠٠ ميلا،

^١ - انظر: ويل دورانت، اختناق هندوستان، ص: ٦٦.

^٢ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٣٨٤.

^٣ - نهر هوجلي، نهر في ولاية البنغال الغربية، شمال شرق الهند. وهو فرع من نهر الغانج (الغانغا)، ويتيح الوصول إلى كلكتا (كالكتا) من خليج البنغال. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia

Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/place/Hugli-River>)

وذلك في إطار السياسة الإنجليزية الرامية إلى التحكم التام في مصير الهند وتلقي الأخبار والتقارير عن مجريات الأحداث أولاً بأول^١.

هذه هي الآثار المرتبة وفقاً للقيم البريطانية، ولكن آثار القيم الإسلامية على العكس منها، ولذلك مر في الباب الأول أنه تميز المغول بروح الرحمة والنوايا الحسنة تجاه شعبهم. السلطان بابر، على سبيل المثال، كان يعرف بتواضعه وحسن معاملته للناس، مما أكسبه احترام الجميع.

ومن خلال هذا العرض الوجيز للمقارنة بين القيم الإسلامية المبنية على الوحي الإلهي وبين القيم البريطانية الغربية المبنية على شهوة المال والقدرة والسلطة نصل إلى هذه النتائج المهمة:

١. الهدف: القيم الإسلامية تسعى لتحقيق العدالة والإحسان والمساواة بين الناس، ويركز على الخير العام والمصلحة العامة. والقيم الغربية المادية تسعى لتحقيق المنافع الشخصية والاعتراف بالسلطة والجاه، وقد يؤدي إلى الظلم والاستغلال لتحقيق هذه الأهداف.

٢. الأخلاق: القيم الإسلامية تحث على الأخلاق الفاضلة مثل الصدق والأمانة والتواضع والرحمة. والقيم الغربية المادية تدفع الأفراد إلى التصرف بطرق غير أخلاقية مثل الكذب والخداع والأنانية والفساد.

٣. العدالة: القيم الإسلامية تؤكد على أهمية تحقيق العدالة والمساواة بين الناس وتجنب الظلم والتمييز. والقيم الغربية المادية تؤدي إلى التمييز والظلم واستخدام القوة والنفوذ لتحقيق المصالح الشخصية.

٤. القيمة الذاتية: القيم الإسلامية تعتبر أن قيمة الإنسان تكمن في تقواه وأخلاقه وأعماله الصالحة. والقيم الغربية المادية تعتبر أن قيمة الإنسان تتحدد بما يملكه من مال ونفوذ وقدرة على التأثير.

٥. الاستدامة: القيم الإسلامية تسعى لتحقيق التنمية المستدامة وحفظ الموارد للأجيال القادمة. والقيم الغربية المادية تدفع الأفراد إلى استغلال الموارد بشكل غير مستدام لتحقيق الأرباح الفورية.

٦. النهاية: القيم الإسلامية تعتبر أن الحياة الدنيا مرحلة مؤقتة وأن الحساب والجزاء يكون في الآخرة. والقيم الغربية المادية تركز على تحقيق المكاسب في الحياة الدنيا دون النظر إلى النتائج البعيدة والآخرة.

١ - نصير أحمد نور أحمد، شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، ص: ٣٨٤.

الفصل الثاني

تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية
ودفع الشبهات

المبحث الأول: تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية

المبحث الثاني: دفع الشبهات عن قيم الإمبراطورية المغولية

المبحث الأول

تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية

إن التراث الذي يتركه الشخص أو تتركه الحكومة وراءه يعد من العلامات التي يمكن من خلالها معرفة محاسنها وقبائحها.

فعلى هذا الأساس يجب دراسة الآثار والتراث الذي تتركه الحكومة بعدها، ففي هذا المبحث سيتعرض الباحث للآثار التي تركتها الحكومة البريطانية والحكومة المغولية خلفها.

المطلب الأول: تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية

بالرجوع إلى المصادر في هذه القضية تتبين أن الإمبراطورية المغولية تركت وراءها تراثاً ضخماً مليئاً بالابتكارات والإبداعات، وهذا التراث يشمل جوانب عديدة من ثقافة الهند. هذه الآثار تشمل الآثار التي بقيت حتى الآن وأيضاً الآثار التي بقيت لعقود ثم انمحت شيئاً فشيئاً. ثم إن هذه الآثار كثيرة ومتشعبة، لكن يمكن أن نلخصها في هذه الأمور:

أولاً: الثقافة الإسلامية

كان الهنود يعتقدون بآلهة متعددة ومختلفة، حيث اختلقوا لأنفسهم آلهة لا حصر لها، ومن الآثار الطيبة التي تركت الإمبراطورية المغولية الإسلامية خلفها، نشر وحدانية الله تعالى وتقوية أساس هذه العقيدة.

لقد تعدت الأصنام وأوثان الهنود الحصر، اتخذوا الهنود آلهة من الجبال، ومن الناس، ومن الحيوانات، والأجرام الفلكية، فقاموا بتقديس الأشياء التي يحبونها.

"فقد كان عدد الآلهة في "ويد" ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون. وقد أصبح كل شيء رائع وكل شيء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد.. وهكذا جاوزت الأصنام والتمائيل والآلهة والإلاهات الحصر وأربت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله- زعموا- في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الجانج الذي خرج من رأس "مهاديو" الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجاً

من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان".^١

ففي فترة المغول دخلت الثقافة الإسلامية في الهند عن طريق اللغة الفارسية والعربية، وهذا الأمر أدى إلى النمو التدريجي للاعتقاد بوحدانية الله تعالى وخلق لغة جديدة هي الأوردية. حيث صارت اللغة الأوردية أكثر اللغات انتشارا في البلاد.

"لقد كان أكبر أثر لفكرة الإسلام الأخلاقية على المثقفين من الهندوس في تلك الحقبة هو عن طريق الفارسية، كواسطة تفاهم تأثرت هي الأخرى بدورها إلى حد كبير بالعربية، وعن طريق كتب التعاليم المقدسة التي ظهرت في عهد الإسلام، والنتيجة العظمى لهذا الأثر هو النمو التدريجي للاعتقاد المتسع في وحدانية الله، ونمو العقائد التوحيدية المحلية، والنتيجة الثانية هو خلق لغة جديد هي الأوردية التي أصبحت أكثر اللغات شيوعا في الهند".^٢

ثانيا: الفنون المختلفة

كما أنه من بين الآثار التي تركتها حكومة المغول في الهند، آثار فنية كان للمغول فيها مبادرة كبيرة. وقد تحدثنا في الفصل الأول بالتفصيل عن ابتكاراته واختراعاته وصناعاته وفنونه المختلفة.

على الرغم من تدمير الحكومة البريطانية للآثار المتبقية من حكم المغول في الهند، إلا أن العديد من المباني التي كانوا يسكنونها لا تزال تحتفظ ببقاياها، مما يدل على ضوء معرفتهم وصدقتهم وفنيتهم. ذكر شارما أن البريطانيين عندما تولوا الحكم واجهوا "مجموعة كبيرة من التراث المبني ذي الأصل ما قبل البريطاني". لم يستمر تراث إمبراطورية المغول لفترة طويلة، حيث بعد الانتفاضة الهندية عام ١٨٥٧ ضد الحكم البريطاني، بدأت القوة الاستعمارية في تدمير الكثير من إرث المغول البيئي من نهر يامونا^٣، كوسيلة لـ "الحفاظ على خط عسكري واضح في الأفق". وبالتالي، تم محو إرث إمبراطورية يعود إلى عصر بابر^٤.

^١ - الندوي، ماذا خسر العالم بالخطاط المسلمين، ص: ٤٩.

^٢ - د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص: ٣٩٩.

^٣ - نهر يامونا، نهر رئيسي في شمال الهند، يمتد بشكل رئيسي في ولايتي أوتاراخند وأوتار براديش. يعد واحدًا من الأنهار المقدسة في البلاد.

(Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ٢٩, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Yamuna-River>)

^٤ - From the Archive: Britain's Civilisation of India and The Legacy of Colonial Mentality, Authored by Nishah Malik, Published on ٢٠th April, ٢٠٢٣ · ٤٤ min read,

لقد كانوا هم الذين طوروا العديد من الآداب، وأوصلوا الحرف اليدوية والهندسة المعمارية إلى مجدها وحولوا الهند من المرحلة القديمة إلى المرحلة الحديثة.

هل يمكننا أن نتجاهل كل هذه الآثار التي تركوها أو نتجاهل أهميتها التاريخية وقيمتها القديمة؟ وإذا كانت هذه الآثار التي تركوها تدل على أمر، فإنها تدل على كرمهم وإحسانهم وعلمهم. وفي هذا الوضع كانت الحكومة البريطانية تبحث باستمرار عن محو آثار حكم المغول من أرض الهند وحتى لا يفكر الهندوس أبداً في إعادة مجدهم وعظمتهم لأنفسهم وكانوا تحت حكمهم الاستعماري. "وهناك آثار أخرى أكثر من أن تسرد بالتفصيل، إذ أنها تشمل دائرة بالغة الاتساع، فأنت تراها في طراز المباني والبيوت والموسيقى والرسم والحرف والفنون وفي الهندام^١. والألقاب والرياضة، وبالاختصار في حياة البلاد بأسرها"^٢.

فمن الآثار التي خلفت الإمبراطورية المغولية الإسلامية في مجال فن البناء هو الاهتمام ببناء المساجد والمقابر والقصور الجميلة، فخلفت تلك المباني والآثار النبوغ الفني والمهارة في رسم الأشكال وتشديد القصور الفاخرة.

"أما فن البناء فكان أكثر فروع الفن اجتذاباً لاهتمام المسلمين، فكان بناء المساجد والمقابر والقصور من أعظم مميزات عهود الحكام المسلمين الأوائل، وتمثل النبوغ الفني للعمال في رسم الأشكال البديعة على الجدران، وتنمية التناسق والتناسب في الأبنية"^٣.

لقد قامت أباطرة المغولة بتطوير الفنون المختلفة الموجودة في الهند، وإدخال بعض الفنون التي لم تكن موجودة فيها. فقد كان لبعض أباطرة المغول ذوقاً رفيعاً، وشغفاً بالغاً بالفنون المختلفة، حيث أتوا ببعض تلك الفنون من الأراضي البعيدة إلى الهند.

وهذا الأمر كان انقلاباً كبيراً في حضارة الهند، حيث تعرفت الهند على أمور لا عهد لها بتلك الأمور عبر القرون الماضية.

<https://britishonlinearchives.com/posts/category/articles/٥٤٨/from-the-archive-britains-civilisation-of-india-and-the-legacy-of-colonial-mentality>

١ - ه ن د م: هندام [مفرد]: حُسن القَدِّ واعتداله وتنظيم الملابس "فلان حسن الهندام: أنيق- أصلح هندامه- حُسن الهندام يفتح جميع الأبواب [مثل أجنبي]" (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة الرقم: ٥٤٧٣، (٣/٢٣٧١).

٢ - د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص: ٤٠٠.

٣ - نفس المرجع السابق.

"وقد عرض بابر ذوقا رفيعا في الرسم ويقال: إنه أحضر إلى الهند معه تحفا مختارة من الرسوم التي استطاع جمعها من مكتبة أجداده من سلالة تيمورلنك، وقد نقل بعضها إلى إيران نادرشاه بعد غزوة الهند، ولكنها طيلة بقائها في الهند تركت أثرا عظيما وخلقت دافعا جديدا لفن الرسم في الهند"^١.

ومن الآثار الجميلة التي خلفتها الإمبراطورية المغولية الإسلامية هي المصانع المشيدة للفنون والحرف، حيث كان بعض السلاطين يشيدون الأستديوهات والغرب الخاصة لتطوير فن الرسم والتصوير وصنع الأقمشة والسجادات وغيره من الفنون.

"وقد برهن أكبر حفيد بابر على أنه راعية عظيم للفن من كل فروعها، وكان له أكثر من مائة مصنع للفنون والحرف ملحقة بالقصور الملكية، وكل منها كمدينة. وقد بنى مصنعا قرب القصر حيث كانت الأستديوهات والغرف الخاصة بالفنون الأرفع والأكثر شهرة، مثل الرسم والصياغة وصناعات الأقمشة والسجاجيد والستائر والأسلحة، وكان أكبر يتردد عليها كثيرا ويراقب أعمال الذين يمارسون تلك الفنون"^٢.

وقد بقيت بعض الآثار والنماذج الفنية الهندية المغولية حتى الآن، ففي بعض المكاتب بلندن توجد تحف رائعة، تبرز مدى اهتمام الأباطرة المغولية بالفنون.

يوجد عدد كبير من النماذج الهندية البديعة في مختلف المتاحف الأوروبية، ففي المكتب الهندي بلندن والمتحف البريطاني وبودليان^٣ في أكسفورد تحف بديعة نادرة للفن، يصعب على العالم الغربي إعطاؤها حقها من التقدير البالغ الروعة^٤.

وأياضا مما خلفت الإمبراطورية المغولية الإسلامية فن تزيين الكتب الدينية والأدبية، حيث أحضر أباطرة المغولية الورق للهند من أماكن أخرى.

١ - نفس المرجع السابق.

٢ - نفس المرجع السابق.

٣ - مكتبة بودليان، مكتبة جامعة أكسفورد، هي واحدة من أقدم وأهم مكتبات المرجعية غير المعارة في بريطانيا العظمى. هي مكتبة إبداع قانونية يحق لها الحصول على نسخ مجانية من جميع الكتب المطبوعة في بريطانيا العظمى، وتتميز بشكل خاص بترائها في المخطوطات الشرقية ومجموعات الأدب الإنجليزي، والتاريخ المحلي، والطباعة المبكرة. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ٦, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/topic/Bodleian-Library>)

٤ - انظر: د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص: ٤٠١.

"ويتصل بهذا الفن فن تزيين المسلمين للكتب الدينية والأدبية القديمة بحواش ذهبية مزخرفة، مما جعل الهندوس يقتبسونه أيضاً، وكان المسلمون هم الذين أحضروا الورق للهند".^١

ومن الفنون التي أدخلها الغول في الهند، وكان لذلك الفن أثر عظيم على حضارة تلك البلاد، فن تنسيق الحدائق والاهتمام بتنظيم البساتين وترتيب الأشجار والبقول. حيث كان المغول ولعون بالتمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة^٢، وجمالها الباهرة.

"وكذلك أدخل المغول فن تنسيق الحدائق والعناية بها، مما لا يزال نرى أثره في لاهور وسريناغار^٣ في كشمير، وقد كان لهم ولع بجمال الطبيعة، حيث كانوا يسافرون المسافات الطويلة إلى بنجاب وكشمير للتمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة، ولذلك كانوا يجتهدون دائماً في إيجاد هذه المناظر في قصورهم وبساتينهم الخاصة والحدائق العامة"^٤.

وحيث امتلك المغول ثروة ضخمة وسلطة قوية تمكنوا من تغيير وجه الهند حضارياً وفنياً. فقاموا ببناء البساتين والحدائق على طول الأنهار بعد أن لم يعجبوا بغبار البلاد وحرها، وهذا الحدائق قد تركت خلفها أثراً بالغاً، واشتهرت بعض المناطق بأسماء تلك الحدائق.

امتلك المغول ثروة وسلطة هائلة واشتهروا بـ "تغيير وجه" الهند دينياً وفنياً. كان حب المغول للحدائق، وخاصة حدائق جهارباغ الفارسية، سمة مميزة لحكمهم. عندما وصل بابر، مؤسس إمبراطورية المغول، إلى أغرا، لم يعجبه الحر والغبار في شمال الهند. لذلك بدأ في بناء الحدائق على طول نهر يامونا في أغرا. أكد أكشاي بادوي أن نهر يامونا في أغرا تطور كعنصر هام في حكم المغول. كانت هذه الحدائق تعتبر ملاذاً آمناً بعيداً عن فوضى المدينة. بدأ بابر في إنشاء بصمة^٥ إمبراطورية مغولية تتألف من العديد

^١ - نفس المرجع السابق.

^٢ - صيغة مبالغة من خَلَبَ : رائع، جذاب، فاتن، ساحر الجمال "رأيت منظرًا خلّابًا - موسيقى خلّابة". (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة ، (٦٧٥/١).

^٣ - سريناغار، مدينة، العاصمة الصيفية لإقليم جامو وكشمير الاتحادي (جامو هي العاصمة الشتوية)، شمال الهند، تقع في منطقة كشمير في شبه القارة الهندية. تقع المدينة على ضفاف نهر جيهلم على ارتفاع ٥٢٠٠ قدم (١٦٠٠ متر) في وادي كشمير. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ٢٩, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/place/Srinagar>)

^٤ - د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص: ٤٠١.

^٥ - ب ص م: بَصْمَةٌ [مفرد]: ج بَصَمَات وبَصَمَات:

١ - أثر الإصبع في شيء ما، أثر الختم بالإصبع "نُطلب من الأُميين بَصَمَاتهم على العقود وغيرها- طابق البَصَمَات" ° تركَّ بَصَمَاتِه: كان له أثر. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة ، الرقم: ٦٤٧، (٢١٤/١).

من حدائق چهارباغ المستوحاة من الفارسية ، والمباني على طول نهر يامونا الذي يبلغ طوله أربعين كيلومترًا. كل إمبراطور بعد بابر بنى مباني مع حديقة چهارباغ الجميلة على ضفاف النهر، والأكثر شهرة هو تاج محل. أدى هذا فيما بعد إلى تسمية أغرا بـ "مدينة حدائق النهر" وأصبحت هذه سمة رئيسية لإمبراطورية المغول. كانت هذه الحدائق والمباني لها معاني ثقافية ودينية قوية خلفها وأصبحت جانبًا هامًا من الحياة النبيلة في القرن السابع عشر^١. فاستطاعت أباطرة المغول بهذا العمل الجليل أن يغيروا وجه بعض المدن، ويحولوها إلى أماكن خلابة، وملاذات آمنة من ضوضاء المدن.

ففي بعض الجوانب من الحضارة والرقي بلغت الآثار التي تركتها الحكومة المغولية حدا اضطر الإنجليز أن يبقوها ولا يقدموا على تدميرها، حيث لم يجدوا أفضل ولا أعلى منها. ومن تلك الأمور تنظيم الإدارة وترتيب الأمور السياسية، وضبط أداة الحكم.

"بلغ الرقي في تنظيم الإدارة وضبط أداة الحكم حدا بقي الكثير منه معمولًا به إلى عهد الإنجليز. أما المكتبات وتنظيمها والعناية بها فقد كان للمسلمين شغف خاص بذلك، وعلى رأسهم ملوكهم وحكامهم، ولقد مات همايون على إثر إصابة حدثت له على السلم وهو نازل من مكتبته التي كان يحب أن يقضي فيها كثيرًا من وقته، كلما خلا من مشاغل الحروب وتنظيم الدولة. وهكذا كان للمسلمين أثر على رقي الحياة في الهند في جميع مظاهرها خلال القرون التي تولوا الحكم فيها"^٢.

المطلب الثاني: تراث قيم الإمبراطورية البريطانية

كما تركت إمبراطورية المغول في الهند بعض الآثار التي تم تناولها في الموضوع السابق بشكل مختصر، فإن حكومة بريطانيا في الهند كذلك تركت آثارها التي سنناقشها في هذا الموضوع بشكل مجمل وقصير. وبمنظرة عامة، ندرك أن آثار المغول في الهند مختلفة عن آثار الإمبراطورية البريطانية. في الغالب، آثار المغول هي آثار ثمينة وعظيمة، على العكس من آثار القيم البريطانية التي كانت آثارًا مدمرة وضعيفة وبدون أساس.

^١ - From the Archive: Britain's Civilisation of India and The Legacy of Colonial Mentality, Authored by Nishah Malik, Published on ٢٠th April, ٢٠٢٣، ٤٤ min read, <https://britishonlinearchives.com/posts/category/articles/٥٤٨/from-the-archive-britains-civilisation-of-india-and-the-legacy-of-colonial-mentality>

^٢ - د. عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص: ٤٠٢.

هذه المعادلة هي النتيجة الحتمية للمطالب التي تم تناولها في البابين الأول والثاني. عندما تكون قيم الإمبراطوريتين مختلفتين، حيث تشكل الشريعة الإسلامية والقانون الإلهي أساساً لإحدهما، بينما تكون الشهوات والرغبات البشرية أساساً للآخرى، يجب أن تكون النتائج مختلفة وتعكس الأساسات الخاصة بكل منهما. والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه.

لا ينبغي أن ننسى أن آثار معظم الأعمال والممارسات الاستعمارية للحكومة البريطانية المستبدة بقيت لعقود عديدة وتستمر في التسبب في معاناة الناس المضطهدين في الهند.

لا توجد أي أفعال استعمارية بلا ضحايا، كل ما فعله البريطانيون يتردد صده عبر العصور^١. فقد حدث تفاعل طويل وعميق بين الثقافتين الهندية والبريطانية، وقامت الحكومة البريطانية بإدخال بعض التغييرات في حياة الهنود وحضارتهم لتقوية مصالحها، وكانت هناك تغييرات ثانوية وعفوية^٢ حديث في ضمن التفاعل الثقافي الهندية والغربية. ولا شك أن في هذا التفاعل ستكون الثقافة الهندية أكثر انفعالا وتأثراً بالنسبة إلى الثقافة الغربية، وهذه هي لغة الغالب مع المغلوب.

لا أحد ينكر ارتباط الحاضر بالماضي القريب، فالحياة الحالية غالباً تشكل بفضل الماضي القريب، وفي تلك الفترة قد أحكمت الحكومة البريطانية في الهند سيطرتها، وأصبحت عاملاً مهماً تؤثر في حياة الناس وثقافتهم وتفكيرهم. فهل يمكن أن تكون العادات والرسومات التي رسخت في الهند تحت وطأة المستعمر في فترة طويلة تنهار عقب الاستعمار، ففي الأغلب تبقى الآثار لفترات طويلة ولا يمكن القضاء عليها إلا بعد جهد طويل وعمل دؤوب.

بعض تلك الآثار ملموسة الآن في الهند، فلا تزال توجد في الهند آثار حضارية وثقافية ملموسة من المباني والرسوم الاجتماعية، والعادات اليومية والفكرية، هي إرث الحكم البريطاني، فإذا نظرت إلى أطرافك بدقة يتضح أن العديد من المواد الغذائية والأزياء الشائعة في الهند، نتيجة لحكم البريطاني، وصارت اللغة الإنجليزية رسمية في البلاد بعد أن كانت اللغة الفارسية في الهند لغة رسمية وإدارية لقرون مختلفة، وسنوات عديدة.

^١ - Shashi Tharoor, *Inglorious Empire, what the British did to India*, Published by Scribe ٢٠١٧, ٢٠١٦, page: ٦٩.

^٢ - عفوية؛ سرعة الخاطر وإصابة القول ارتجالاً، عن غير إعمال فكر "بداهة جواب" ° بداهة/ بالبداهة: تلقائياً. (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة ، (١٧٥/١).

"يجب أن نفهم أيضاً أن حياتنا الحالية تتشكل إلى حد كبير بفضل ماضينا القريب. في هذا الماضي القريب، يصبح السيطرة البريطانية على جزء كبير من البلاد عاملاً مهماً مؤثراً. بعض التغييرات الثقافية والقانونية التي حدثت نتيجة للحكم البريطاني لا تزال تؤثر على حياتنا حتى اليوم. السكك الحديدية، حياة النادي، المباني الإمبراطورية، والبرلمان تذكرنا بالحكم البريطاني في الهند. العديد من المواد الغذائية مثل الخبز والشاي والكمك التي نستهلكها اليوم هي نتيجة مباشرة لتفاعلنا مع الأوروبيين خلال الحكم البريطاني. إذا نظرت حولك، ستفاجأ بمعرفة أن عددًا كبيراً من الأزياء الشائعة في المدن الهندية تم تبنيها خلال الحكم البريطاني، على سبيل المثال، السراويل والمعاطف والربطات العنقية. بدأت فكرة تقديم الخدمة المدنية الهندية خلال هذه الفترة. لا تزال القوات المسلحة الهندية تحتفظ بالعديد من جوانب التدريب والثقافة الأوروبية. وسائل التعليم لدينا هي بشكل أساسي باللغة الإنجليزية. تصدر المحكمة العليا والمحكمة العليا أحكامها باللغة الإنجليزية. هذه اللغة نفسها هي إرث الحكم البريطاني ولا تزال اللغة المشتركة للهنديين الباحثين عن العمل في بلدهم".^١

في هذا المطلب سنتناول أهم آثار الحكم البريطاني في الهند، حتى نستطيع من خلال هذه الآثار التمييز بين الحق والباطل، والفرقة بين الخير والشر.

من بين الآثار السلبية التي تركها الحكم البريطاني، كان النظام الاجتماعي والسياسي المخادع الذي جلبته بريطانيا إلى الأراضي الهندية. فالحكومة البريطانية لتثبيت نفوذها وسلطتها في شبه القارة الهندية، قامت بإلغاء الحكومات المحلية السابقة وحاولت من خلال إدارة غير مباشرة أن تختزع شخصيات وأفراد خياليين، ومن خلال هذه الفئة كانت تحكم الناس.

ولذلك قامت بإنشاء العديد من الألقاب الفخرية لبعض الأفراد وأجبرت هؤلاء الأشخاص غير المؤهلين على قبول أوامرهم وقراراتهم. ونتيجة لذلك، تحولت المجتمع التجاري الهندي إلى مجتمع زراعي ومجتمع قائم على الربا، حيث كان المزارعون يعملون كعبيد وخدم لدى أسيادهم، وتركزت الثروات في أيدي قلة من الناس، بينما كان غالبية الناس يعملون كأجراء، مما أدى في العقود التالية إلى انخفاض كبير في إنتاج هذه المناطق مقارنة بالمناطق التي كانت حقوق المزارعين فيها تُراعى.

^١ - IMPACT OF BRITISH RULE ON INDIA: ECONOMIC, SOCIAL AND CULTURAL (١٧٥٧-١٨٥٧), page: ١٢٣.

البريطانيون وجدوا أن الهياكل الاجتماعية الهندية غير مألوفة لهم وفرضوا على الهند هياكل اجتماعية وسياسية مشابهة لإنجلترا، بهدف تمديد نفوذهم. سعوا لإنشاء نظام اجتماعي قائم على السيطرة البريطانية المحلية، فألغوا الحكومات القروية الهندية واستبدلوها بحكم "الإدارة غير المباشرة"، حيث حكم اللوردات (سادات) التقليديون. البريطانيون اخترعوا ألقاباً لأفراد معينين لفرض سيطرتهم بشكل غير مكلف. هذا النظام تسبب في أضرار طويلة الأمد، إذ أدى إلى تدمير الصناعة الهندية وتحول المجتمع إلى مجتمع زراعي يعتمد على الفلاحين والمربين (أكلة الربا)، مما أسفر عن خلق مشاكل اجتماعية واقتصادية عميقة. الأبحاث تظهر أن السياسات البريطانية أدت إلى انخفاض الاستثمارات والإنتاجية الزراعية في الهند، وأن تأثيراتها ما زالت مستمرة حتى اليوم^١.

وقد مر في المبحث السابق ما قامت به الحكومة البريطانية من نهب ثروات الهند وخيراتها، فخرّبوا صنائع الهند، وزادوا الضرائب عليها، فانقطع بذلك الروابط التجارية المستقلة الموجودة قبل زمن الحكومة البريطانية في بلاد الهند. ذهبت الحكومة البريطانية بالمواد إلى بريطانيا بأثمان رخيصة، وبعد تركيبها في مصانع البخار الجديدة في بريطانيا تم تصديرها مرة أخرى إلى الهند.

وكانت لهذه الأمور أثر عميق في اقتصاد الهند حيث انخفضت حصة الهند من الناتج المحلي بشكل كبير، ولم تستطع أن تتخلص من تبعاتها إلا بعد عقود طويلة.

كانت الهند تتمتع بحصة تبلغ ٢٣٪ من التجارة العالمية في المنسوجات في أوائل القرن الثامن عشر. لكن هذا تم تدميره. كتب مدير الشركة القوي اللورد ويليام بينتينك أن "عظام نساغي القطن كانت تبيض سهول الهند"^٢.

ولأجل ذلك طالب الوزير الهندي السابق وعضو البرلمان، شاشي ثارور^٣، في كتابه عصر الظلام بأن تدفع بريطانيا تعويضات للهند والمستعمرات السابقة الأخرى عن عقود من الحكم الإمبراطوري. أشار ثارور إلى أن "حصة الهند من الاقتصاد العالمي عندما وصلت بريطانيا إلى شواطئها كانت ٢٣ في المائة.

^١ - Shashi Tharoor, *Inglorious Empire, what the British did to India*, Published by Scribe ٢٠١٧, ٢٠١٦, page: ٦٩.

^٢ - المرجع السابق، ص: ٣١٠-٣٣.

^٣ - شاشي ثارور (مواليد ٩ مارس ١٩٥٦، لندن، إنجلترا) هو دبلوماسي وسياسي هندي بارز، وبعد خدمته الطويلة في السلك الدبلوماسي الدولي، أصبح مسؤولاً في حكومة الهند. كما أنه مؤلف مشهور للكتب غير الروائية والروائية. (Britannica, Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/biography/Shashi-Tharoor>)

بحلول الوقت الذي غادرت فيه بريطانيا، كانت قد انخفضت إلى أقل من ٤ في المائة. لماذا؟ ببساطة لأن الهند كانت تدار لمصلحة بريطانيا. تم تمويل صعود بريطانيا على مدار ٢٠٠ عام بفضل استغلالها للهند. يمكن للمرء بالتأكيد مناقشة مقدار الثروة التي نُقلت إلى المراكز الإمبراطورية من المستعمرات ولكن تعليقاته تستحق النظر.

وقد كان من آثار هذا الاستعمار الخبيث تدمير الصناعات اليدوية، وتحويل الهند من الصناعة والتجارة إلى الزراعة المعيشية، ولا شك أن هذا يؤدي إلى انخفاض مستوى المعيشة، وازدياد نسبة البطالة. تم تسليط الضوء على تدمير صناعة النسيج المزدهرة في الهند، حيث تم تفكيك الصناعات اليدوية التقليدية لصالح المنتجات البريطانية الصنع. هذا أدى إلى بطالة جماعية وانتقال إلى الزراعة المعيشية^١. ثم إن من الآثار البارزة التي تركت بريطانيا في الهند بعد أن خرجت منها هي الانقسامات الطائفية، حيث أدت هذه الانقسامات إلى زيادة التوتر، وتقوية الصراعات بين أهل الأديان المختلفة. وكانت من نتائج هذه الصراعات انقسام الهند إلى بلدين مختلفين، كانت الهند قبل هذا الانقسام تحت إمارة المسلمين وحكمهم.

كانت الحكومة البريطانية تؤيد انقسام الهند إلى بلدين مختلفين؛ لأن هذا الانقسام سيترك أثراً عميقاً عقب الاستعمار يبقى لسنوات طويلة وقرون متتالية.

"عاضد المستعمر فكرة باكستان سرا، وبهذه المعاضدة اشتد ساعد المسلمين في المطالبة، فثارت ثائرة الهندوس، وعرضوا فكرة التقسيم، لثلاثة أسباب خطيرة: أولها أن فكرة باكستان تحطم وحدة الهند، وثانيها أن المناطق الإسلامية غنية بالغلة والمعادن، فلو انفصلت عاش الهندوس إلى الأبد تحت رحمة ما يوجد به المسلمون عليه. والسبب الثالث، وهو أخطرهما قيام دولة إسلامية في تلك المناطق، يجعلها متاخمة^٢ لأفغانستان وإيران، فبلاد العرب جمعاء، ومثل هذه المتاخمة تقرب بين مسلمي الهند وإخوانهم في البلاد الأخرى، مما يجعلهم قوة تهدد الهندوس"^٣.

هذه الاختلافات السياسية على أساس العرق لم تظهر إلا في ظل الحكم البريطاني. قبل الحكم البريطاني لم تحدث حرب بين الجيوش المختلفة على السلطة على أن يكون المسلمون كلهم في جانب

^١ - Shashi Tharoor, *Inglorious Empire*, page: ٣٣-٣٦.

^٢ - ت خ م: تاخَمَ يُتَاخَمُ، مُتَاخِمَةٌ، فهو مُتَاخِمٌ، والمفعول مُتَاخَمٌ، تاخَمَ البلدُ البلدَ: جاورَه ولاصقَه "كان بيته مُتَاخِمًا لبيتي". (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الرقم: ٩٠٨، (١/٢٨٦).

^٣ - أمينة السعيد، مشاهدات في الهند، ١٤٢.

وجميع الهندوس في جانب آخر. عندما غزت الحكومة البريطانية بلاد الهند، عززت الهويات المختلفة، وأشعلت نيران العدواة والبغضاء بين الطوائف المختلفة، حتى إنها أثارت الخلافات بين المذاهب الموجودة في ملة واحدة. وهذه الآثار بقيت بعد خروج الاستعمار المباشر من بلاد الهند. ولم يكن الغرض من هذه الأمور خدمة الهندوس أو المسلمين بتمييز هويتهم وتحديد ثقافتهم، بل كان الهدف هو إضعاف النسيج الاجتماعي والاستمرار في السلطة والهيمنة على المغلوبين.

قبل الحكم البريطاني، لم يكن الدين سبباً لأي تحرك ضد هوية أخرى في الهند. لم يكن يمكن تصور الفرقة السياسية على أساس ديني. لم تحدث أبداً حرب بين جيوش أو صراع على السلطة حيث كان جميع المسلمين في جانب وجميع الهندوس في جانب آخر. كانت الحياة الجماعية تقوم على المجتمع والطبقة. عززت الحكومة البريطانية هذه الهويات المختلفة بعمق. أوجدوا نزاعات بين الهندوس والمسلمين. في بعض المناطق، أثاروا التفرقة بين الشيعة والسنة. حتى بين الإخوة والأخوات الوطن، أشعلوا الفتنة. أضعفوا النسيج الاجتماعي المحلي المستمر منذ قرون ليخلقوا مساحة لحكمهم. هذه الأساليب التفرقة لم تساهم فقط في تسهيل السيطرة البريطانية ولكنها تركت أيضاً تأثيراً دائماً على المشهد الاجتماعي والسياسي للهند، مما أدى إلى زيادة التوترات الطائفية والكراهية التي ما زالت مستمرة. حتى اليوم، تدفع البلاد ثمناً باهظاً لهذه الكراهية^١.

ومن جهة أخرى إن من الآثار التي تركت الحكومة البريطانية عقبتها هو التمييز اللوني. فهذه الفكرة وهي أن اللون الفاتح أكثر جمالا من اللون الداكن^٢، كانت من نتائج الاستعمار الغربي لبلاد الهند. فلم تكن البشرة الداكنة أو اللون الأسود عيباً في الإنسان الذي كان يعيش في الهند، لكن بعد أن عثّش الاستعمار في الهند وباض اجتهد في ترسيخ هذا التمييز اللوني. فالسود يجب أن يكونوا مماليك وعبيداً، والذي يتمتع بالجلد الأبيض هو من الطبقة الحاكمة، حتى إن البريطانيين كانوا يفضلون البيض عند استخدامهم للوظائف الحكومية على السود.

^١ - هندوستان میں ریلوے کا نظام عوام کے فائدے کیلئے نہیں بلکہ برٹش فوجوں کی نقل وحرکت کیلئے قائم کیا گیا تھا، غلام عارف، ٢٠٢٣، ٣١، December، <https://www.inquilab.com/features/articles/the-railway-system-in-india-was-established-not-for-the-benefit-of-the-people-but-for-the-transportation-and-movement-of-british-troops-53445>

^٢ - دکن لوئہ: صار بین الحُمْرَة والسَّوَاد، مال إلى السَّوَاد "عباءة دكناء" - ثوب أدكن". (د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (٧٦٠/١).

كانت الفكرة الرئيسية داخل ثقافة جنوب آسيا هي أن البشرة الأفتح هي أكثر جمالاً والبشرة الداكنة أقل جاذبية. يُنظر إلى البشرة الداكنة على أنها مشكلة كبيرة قد تؤثر على فرص الزواج والعمل. كان للاستعمار البريطاني تأثير كبير في خلق هذه الوصمة. قبل الاستعمار، كانت النصوص الهندية القديمة، مثل ريجفيدا^١ وماهاباراتا^٢، غالباً ما تمدح الشخصيات ذات البشرة الداكنة. في الواقع، تم تأصيل فكرة أن ألوان البشرة الأفتح أكثر تفوقاً خلال الحكم البريطاني. ذكرت ورقة كتبها الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع كيف أصبحت "البياض مرتبطاً بكل ما هو متحضر، فاضل وجميل". فضل البريطانيون الهنود ذوي البشرة الفاتحة وأعطوهم تفضيلاً أكبر في قطاع العمل. على سبيل المثال، كان يتم توظيف الهنود ذوي البشرة الفاتحة بشكل متكرر في الوظائف الحكومية، بينما كان يتم إعطاء الهنود ذوي البشرة الداكنة أعمالاً أكثر شاقة^٣.

هذه الفكرة لا تزال متجذرة بعمق في الثقافة الهندية، حتى في القرن الحادي والعشرين لم تزل هذه الفكرة معياراً للكثير، ولكن هذا التمييز على أساس اللون والعرق يعرقل تطور البلاد، ويشل عجلة السير في طريق الحضارة والتقدم والنهضة.

حتى بعد سنوات من الاستقلال عن البريطانيين، تقسيم الهند واستقلال بنغلاديش عن باكستان، لا تزال فكرة التمييز اللوني متجذرة بعمق في ثقافتنا في جميع أنحاء شبه القارة. حتى في القرن الحادي

^١ - ريجفيدا، أقدم الكتب المقدسة للهندوسية، تم تأليفها في شكل قديم من السنسكريتية حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد، في ما يعرف الآن بمنطقة البنجاب في الهند وباكستان. تتكون من مجموعة من ١٠٢٨ قصيدة مجمعة في ١٠ "دوائر" (ماندالا). يُتفق بشكل عام على أن الكتب الأولى والأخيرة تم إنشاؤها في وقت لاحق من الكتب الوسطى. تم الحفاظ على ريجفيدا شفويًا قبل أن تُكتب حوالي ٣٠٠ قبل الميلاد. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia

Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/topic/Rigveda>)

^٢ - المهاباراتا، واحدة من الملحميتين السنسكريتيتين القديمة في الهند القديمة (الأخرى هي الرامايانا). تعد المهاباراتا مصدرًا مهمًا للمعلومات حول تطور الهندوسية بين عامي ٤٠٠ قبل الميلاد و ٢٠٠ ميلادي ويعتبرها الهندوس نصًا عن الدارما (القانون الأخلاقي الهندوسي) وتاريخًا (إيتيهاسا، حرفيًا "هذا ما حدث"). (Britannica, Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia

Britannica, Last Updated: Dec ٢١, ٢٠٢٤, Article History, <https://www.britannica.com/topic/Mahabharata>)

^٣ - From the Archive: Britain's Civilisation of India and The Legacy of Colonial Mentality, Authored by Nishah Malik, Published on ٢٠th April, ٢٠٢٣ · ٤٤ min read, <https://britishonlinearchives.com/posts/category/articles/٥٤٨/from-the-archive-britains-civilisation-of-india-and-the-legacy-of-colonial-mentality>

والعشرين، لا تزال القيم الغربية تُعتبر المعيار للجميع. بينما لم تعد الإمبراطورية البريطانية موجودة، لا تزال الآراء القديمة التي تقول إن الشرق يحتاج إلى الغرب للتقدم^١. فلا بد من إزالة هذه الرسوبات الجاهلية حتى تكون لنا إنجاز وفاعلية.

ومن الآثار التي تركت الحكومة البريطانية عقبتها هي آثار سن القوانين المختلفة، حيث إن بعض تلك القوانين لا تتوافق مع العقل ولا مع النقل، فقانون العقوبات الهندي تجرم المادة ٤٩٧، الزنا، وتعاقب العلاقات خارج الزواج التي تشمل النساء المتزوجات ولكن ليس الرجال المتزوجين. يمكن للزوج مقاضاة زوجته بتهمة الزنا، ولكن لا يمكن للمرأة مقاضاة زوجها لإقامة علاقة خارج الزواج، بشرط أن تكون شريكته ليست قاصرة أو متزوجة. هذا المعيار المزدوج، الذي تم كشفه في سلسلة من القضايا الحديثة، يعكس مرة أخرى القيم الفيكتورية. واحدة من أسوأ إرث الاستعمار هو أن آثاره السلبية استمرت بعد انتهاء الإمبراطورية^٢. ففكرة الهيمنة والتفوق صارت عرقلة أمام تغيير هذه القوانين الغاشمة، وإن عدلت هذه القوانين مرات عديدة في بريطانيا نفسها.

ثم إنه لا شك أن أخطر الآثار التي تركت الحكومة البريطانية عقبتها هي الاستعمار النفسي الثقافي، فقد ذاب بعض الهنود في الثقافة الغربية المادية، وصاروا منظري الاستعمار، وتجاوز الاستعمار الأرض، والأقطار إلى العقول والأفكار.

وهذا النوع من الاستعمار لا يمكن إزالته والقضاء عليه إلا بعد سنوات عديدة من بذل الجهد والمشقة والعبقرية. فالاستعمار الظاهري يزول بانسحاب العدو من البلد، ولكن الاستعمار المعنوي والباطني يبقى حيناً من الدهر.

يشير بوضوح إلى أن البنغاليين المثقفين والإنجليز قد قاموا بتقييم مماثل لتمرد السيوي^٣. والمثير للدهشة أن المحكومين تبنا موقف الحكام وتحدثوا نفس اللغة. وقد تم تحديد هذا الوضع الغريب باعتباره

^١ - From the Archive: Britain's Civilisation of India and The Legacy of Colonial Mentality, Authored by Nishah Malik, Published on ٢٠th April, ٢٠٢٣٠٤٤ min read, <https://britishonlinearchives.com/posts/category/articles/٥٤٨/from-the-archive-britains-civilisation-of-india-and-the-legacy-of-colonial-mentality>

^٢ - Shashi Tharoor, Inglorious Empire, page: ٦٩.

^٣ - تمرد الهند عام ١٨٥٧، تمرد واسع النطاق لكنه غير ناجح ضد الحكم البريطاني في الهند في الفترة من ١٨٥٧ إلى ١٨٥٩. بدأ في ميروت من قبل الجنود الهنود (السيوي) في خدمة شركة الهند الشرقية البريطانية، وانتشر إلى دلهي، أغراء، كانبور وكنوا. لطالما وصفه المؤرخون الغربيون بـ "التمرد الهندي" أو "تمرد السيوي". وفي الهند، يطلق عليه أيضاً "حرب الاستقلال الأولى" وأسماء أخرى مشاهة.

استعمارًا نفسيًا وثقافيًا يتجاوز احتلال الموارد الاقتصادية والمادية. وقد أظهر منظر الاستعمار، ثيونغو^١، العلاقة بين وجهي الاستعمار – الاقتصادي والنفسي الثقافي^٢.

ففي الواقع لا بد من استعمار الشعوب فكريا وعقليًا لأجل الاستمرار في استعمار أراضيهم وبلادهم، وهذا الاستعمار يؤدي إلى تدمير الثقافة المحلية القديمة، واستبدالها بالثقافة الوافدة الحديثة، ومن خلاله يتم تحريف القيم القديمة ودفنها في أوراق الكتب، وإيداعها فيها، بواسطة تعزيز القيم الغربية غير المعتادة.

وفي ظل هذا الواقع المشهود، يكره المغلوب ثقافته وعاداته وينقص من شأنها، ويفتخر بثقافة الغالب، حيث إن الطبيعة الحيوانية تدعن بأن الحق مع الغالب، والخير مع المنتصر.

"بنى الشباب الجدد المتخرجين من كلية الهندوس تلمذة مكولاي^٣. ورددوا قائلين: «إن المعرفة الموجودة في رف واحد من الكتب الإنجليزية تفوق بكثير ما هو متاح في الأدب الهندي والعربي

(Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Dec ٢٠, ٢٠٢٤, Article History, <https://www.britannica.com/event/Indian-Rebellion-of-١٨٥٧>)

^١ - نجوجي وا ثيونغو (مواليد ٥ يناير ١٩٣٨، ليمورو، كينيا) هو كاتب كيني يُعتبر الروائي الرائد في شرق إفريقيا. روايته الشهيرة "لا تبتك، طفلي" (١٩٦٤) كانت أول رواية رئيسية بالإنجليزية من شرق إفريقيا. عندما أصبح حساسًا لتأثيرات الاستعمار في إفريقيا، اعتمد نجوجي اسمه التقليدي وكتب بلغة بانتو لشعب الكيكويو في كينيا. (Britannica, fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/biography/Ngugi-wa-Thiongo>)

^٢ - see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume ٠٧, Issue ٠١ & ٠٢, December-٢٠٢١, page: ٢٥.

^٣ - توماس بابينغتون مكولاي، بارون مكولاي، وُلد في ٢٥ أكتوبر ١٨٠٠ في روثلي تيمبل، ليسترشاير، إنجلترا، وتوفي في ٢٨ ديسمبر ١٨٥٩ في كامبدن هيل، لندن، كان سياسيًا من حزب الويغ، وكاتب مقالات، وشاعر، ومؤرخًا، واشتهر بعمله "تاريخ إنجلترا" الذي يتألف من ٥ مجلدات (١٨٤٩-١٨٦١). يغطي هذا العمل الفترة من ١٦٨٨ إلى ١٧٠٢، وقد ضمن له مكانة كواحد من مؤسسي ما يسمى بتفسير الويغ للتاريخ. تم رفعه إلى طبقة النبلاء في عام ١٨٥٧. (Written by Michael David Knowles Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Dec ٢٤, ٢٠٢٤ <https://www.britannica.com/biography/Thomas-Babington-Macaulay-Baron-Macaulay>)

بأكمله». منذ ذلك الحين اختفى كاليداس من فريقهم، وتم تنصيب شكسبير^١ مكانه؛ تم تحقير التعليم الأخلاقي لماها باراتا وراماينا^٢ ثم تم استبداله بخصص إيدجورث^٣، لم يستطع الفيدا والجيتا مقاومة الكتاب المقدس^٤.

وبعد أن يذوب المغلوب في بوتة استعمار الغالب، سيرضى بالاستعمار طوعاً، وسيفتخر به، حيث إنه لا يجد حكماً أحسن، ولا نموذجاً أعلى مما ذاب فيه. فهل يتصور من هذا العاجر المسكين أن يقوم في وجه الاستعمار ويدحض خطته؟

"الآن وقد علمنا على وجه اليقين أننا غير قادرين على الحكم الذاتي، يجب علينا أن نكون تحت الحكم الأجنبي لفترة طويلة من الزمن. قد يفسح سيد المجال لسيد آخر لكن السيد الجديد قد لا يكون مفيداً مثل السيد الحالي. لهذا السبب، دعاؤنا من القلب والروح هو أن يستمر الحكم الإنجليزي بشكل دائم في بلادنا"^٥.

^١ - وليام شكسبير (تم تسميته في ٢٦ أبريل ١٥٦٤، ستراتفورد أبون آفون، وارويكشاير، إنجلترا - توفي في ٢٣ أبريل ١٦١٦، ستراتفورد أبون آفون) كان شاعراً، وكاتباً مسرحياً، وممثلاً، وغالباً ما يُطلق عليه الشاعر الوطني الإنجليزي. يعتبره الكثيرون أعظم كاتب مسرحي في كل العصور. (Britannica, Written by David Bevington, Terence John Bew Spencer, Last Updated: Feb ٧, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/biography/William-Shakespeare>)

^٢ - الراماينا، وهي الأقصر من بين الملحميتين الكبيرتين في الهند، والملحمة الأخرى هي المهابارتا ("الملحمة الكبرى لسلالة بهاراتا"). تم تأليف الراماينا باللغة السنسكريتية، وربما ليس قبل ٣٠٠ قبل الميلاد، بواسطة الشاعر فالميكي، وفقاً للتقاليد الهندوسية المعترف بها على نطاق واسع. (Britannica, fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ١, ٢٠٢٥, Article History <https://www.britannica.com/topic/Ramayana-Indian-epic>)

^٣ - ماريا إيدجورث (مواليد ١ يناير ١٧٦٧، بلاك بورتون، أوكسفوردشاير، إنجلترا - توفيت في ٢٢ مايو ١٨٤٩، إيدجورثستاون، أيرلندا) كانت كاتبة أنجلو-إيرلندية معروفة بخصصها للأطفال ورواياتها عن الحياة الأيرلندية. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Jan ١, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Maria-Edgeworth>)

^٤ - see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume ٠٧, Issue ٠١ & ٠٢, December-٢٠٢١, page: ٢٥.

^٥ - see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume ٠٧, Issue ٠١ & ٠٢, December-٢٠٢١, page: ٢٦.

فبعد تجذر الغزو الفكري في بلد وترسيخ مفاهيم الثقافة الغالبة في أذهان المهزومين، تنعكس المعايير، وتقلب الموازين، تصير هذه الطائفة المغلوبة، والجماعة منهزمة مدافعين بشدة عن تلك الثقافة الوافدة، ويبيتون أسلحة في يد العدو ضد الجماهير، حيث يرتبط بقاءها ببقاء الاستعمار، فلهيمنة الأجنبية تصير شرطاً لوجودهم.

كان عقدة النقص متجذرة في ذهن النخبة البنغالية لدرجة أن السيطرة الأجنبية كانت شرطاً لا غنى عنه لوجودهم ذاته. انعكست هذه الحالة في الكتابات والأنشطة لجميع البنغاليين المتعلمين تقريباً. على سبيل المثال، كتب راموهون الطموح: "من بين الأشياء الأخرى، في عبادتنا الجليلة، نقدم شكرنا المتواضع لله على نعم الحكم البريطاني في الهند ونصلي بصدق أن يستمر في عملياته المفيدة لقرون قادمة".

صارت الجماعة المغلوبة جنودا للبريطانيين بدلا من الوقوف أمام العدو المحتل الغاشم، فكانت تثني على الإنجليز وعلى ثقافتهم وحضارتهم، وتجتهد في بحس قيم أباطرة المغول.

في عام ١٨٣١، قدم براسانا كومار^٢ تأكيداً متفاحراً: "إذا طُلب منا تحديد الحكومة التي نفضلها، الإنجليزية أو أي حكومة أخرى، سنحجب جميعاً بلا تردد، الإنجليزية بكل تأكيد، حتى بالنسبة للحكومة الهندوسية".

وأظهر دواركاناث تاغور حماسه العاطفي في غناء إعجابه بالإنجليز بشكل عفوي: كان إنجلترا هي التي أرسلت كليف وكورنواليس للاستفادة من الهند بمشورتهم وأسلحتهم. كانت إنجلترا هي التي أرسلت إلى تلك الأمة البعيدة ، الرجل العظيم الذي نجح في تحقيق السلام في العالم، وكان الأول الذي قدم نظاماً مناسباً ودائماً للأمور في الشرق^٣.

¹ – see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume .۷, Issue .۰۱ & .۰۲, December-۲۰۲۱, page: ۲۶.

٢ - براسانا کومار.ب هو مرشح من کارناتاكا يمثل حزب کارناتاكا براجا (راڤا بارجا) في انتخابات لوك ساڤها المقبلة لعام ٢٠٢٤. [karnataka -elections-٢٠٢٤/ -sabha elections/lok www.indiatvnews.com/ https:// \(-kumar-b-lok-sabha-candidate /prasanna candidate-list / constituency /chamarajanagar](https://www.indiatvnews.com/sabha-elections/lok-karnataka-elections-2024/-kumar-b-lok-sabha-candidate/prasanna-candidate-list/constituency/chamarajanagar)

r – see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume .۷, Issue .۱ & .۲, December-۲۰۲۱, page: ۲۶.

وبهذه الطريقة استطاعت الحكومة البريطانية تدمير الثقافة الهندية المتجذرة في أعماق التاريخ، وفرض ثقافة غربية غريبة لا عهد للهندوس بها.

حتى كارل ماركس^١ يتحدث بشكل غير مباشر عن التأثيرات المفيدة للسيطرة البريطانية على الهند: «على إنجلترا أن تحقق مهمتين مزدوجتين في الهند: واحدة تدميرية، والأخرى تجديدية - تدمير المجتمع الآسيوي، ووضع الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا»^٢.

فبعد انتهاء وجود الاستعمار في البلاد بقي تأثير النظام الاستعماري قائماً، حيث يرى بعض المتغربين أن وجود النخبة المتأثرة من الثقافة الإنجليزية ضروري وحتمي عقب الاستعمار حتى يطوروا البلد ويساهموا في إنعاش البلد حضارياً وفكرياً ومادياً وفقاً للمعايير والموازن المواكبة لمقتضى العصر.

"نظرية الترشيع الهابط وضعت استراتيجية سياسية-ثقافية وسعت تأثير النظام الاستعماري حتى بعد انتهاء وجود المستعمر في أراضي المستعمرة. ماركولي، مبتكر النظرية، كان يعتقد أن النخبة المتعلمة بالإنجليزية ستكون مؤثرة بما يكفي لتكريس الدوام لجميع التغييرات التي أحدثها التعليم والإدارة في الهند، مما يساهم فعلياً في سلامة وأمان واستمرار النظام الاستعماري. الهنود المتعلمون بالإنجليزية سيكونون مميزين بشخصية جديدة"^٣.

من بين وسائل التغريب والغزو الفكري المستخدمة في بلاد الهند، فقد لعبت اللغة الإنجليزية دوراً بارزاً، حيث إن اللغة لم تكن فارغة عن محتوى الثقافة، بل كانت تتضمن الرموز التي سيشارك فيها كلا الطرفين الغالب والمغلوب، الحاكم والمحكوم، وبهذا الأمر ستعد الهند نفسها جزءاً من بريطانيا، وينشئ التآلف بين الهندوس والإنجليز.

^١ - كارل ماركس (مواليد ٥ مايو ١٨١٨، ترير، مقاطعة الراين، بروسيا [ألمانيا] - توفي ١٤ مارس ١٨٨٣، لندن، إنجلترا) كان ثورياً، وعالم اجتماع، ومؤرخاً، واقتصادياً. نشر (مع فريدريك إنجلز) "بيان الحزب الشيوعي" (١٨٤٨)، المعروف عمومًا باسم "البيان الشيوعي"، وهو الكتيب الأكثر شهرة في تاريخ الحركة الاشتراكية. كان أيضًا مؤلفًا للكتاب الأهم للحركة، "رأس المال". (Britannica, Written by Lewis S. Feuer, David T. McLellan, Last Updated: Feb ٦, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Karl-Marx>)

^٢ - see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume ٠٧, Issue ٠١ & ٠٢, December-٢٠٢١, page: ٣٠.

^٣ - see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume ٠٧, Issue ٠١ & ٠٢, December-٢٠٢١, page: ٣٢.

لعبت اللغة دوراً قوياً في خلق الحالة الثقافية لقبول السيطرة الأجنبية. اللغة هنا تعني ليس فقط لغة البنغالي أو الإنجليزية أو الفرنسية أو أي لغة أخرى من هذا القبيل. اللغة هنا تعني المحتويات الثقافية. تتضمن هذه اللغة الرموز التي يمكن أن يتشاركها كل من الحكام والمحكومين. هذا يؤدي إلى نسيان الثقافة القائمة مع بدء الهيمنة الاستعمارية. الآن صاروا بالفعل بمظهر جديد ويتحدثون الإنجليزية بشكل أفضل من أسيادهم البريطانيين. اللغة الإنجليزية المشبعة بالثقافة الإنجليزية تغلغت بشكل واسع في حياة النخبة الهندية لدرجة أنهم قبلوها كطريقة عادية للحياة^١. أو استعملوا في لغتهم كلمات واصطلاحات كثيرة من اللغة الإنجليزية.

وفقاً لما مر آنفاً يتبين مدى خطور الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية، ولا سيما في جانبه الثقافي، والفكري، فقد أثر هذا الاستعمار هذه الهيمنة على كثير من سلوكيات الهنود وعاداتهم، تغلغل فيهم شهوة المادة ولذات الدنيا، وتأثروا بشكل خطير بالثقافة الغربية بجوانبها المختلفة. في المجتمع المستعمر، وخاصة في الهند، كانت عناصر الرضا والأغراء تعملان بالتعاون. شعور التفوق والسيطرة لدى المستعمرين وشعور التبعية والدونية لدى المستعمرين أدى إلى تكريس الهيمنة التي أنتجت لغة نفسية وثقافية مستعمرة. تجد هذه اللغة الثقافية تجليها في أزياء الناس وذوقهم، الملابس واللباس، الكلام والتواصل، العادات والسلوكيات^٢.

^١ – see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume ٠٧, Issue ٠١ & ٠٢, December-٢٠٢١, page: ٣٢.

^٢ – see: The Adverse Effects of British Colonialism on the Culture and Psychology of the Indians: A Postcolonial Study, Dr. Mohammad Arshad Ali, Green University Review of Social Sciences, Volume ٠٧, Issue ٠١ & ٠٢, December-٢٠٢١, page: ٣٣.

المبحث الثاني

دفع الشبهات عن قيم الإمبراطورية المغولية

إذا ما قمنا بتصفح صفحات التاريخ، نجد أن جميع الشخصيات لم تخلُ من الطعن والانتقاد، وأن جميع الأفراد والدول قد تعرضوا للنقد والعيوب، سواء كانت لهم عيوب أم لا.

الأشخاص المعصومون والبريئون مثل الأنبياء لم يكونوا بمعزل عن الأقاويل الباطلة والظلم الذي صدر من الظالمين والمعتدين، حيث قيلت في حقهم كلمات غير لائقة وتمت حياكة المؤامرات ضدهم. وبناءً على ذلك، فإن المغول في الهند لم يكونوا بمعزل عن الطعنات والانتقادات، حيث أثارت بعض الأطراف من الهنود والإنجليز العديد من الشكوك حول حكومتهم.

في هذا المبحث، يسعى الباحث إلى معالجة أهم هذه الشكوك وتقديم إجابات مرضية قدر الإمكان، على الرغم من صعوبة تعداد جميع الشكوك التي أثارت حول حكومتهم مع تقديم إجابات عليها، حيث أن هذا الأمر يتجاوز حدود هذا المبحث المختصر.

قبل الخوض في الشكوك المتعلقة بحكومة المغول أو حياتهم الخاصة، من المهم الإشارة إلى أنه لا أحد يدعي عصمة وبراءة المغول ولم تُثبت حتى الآن ولم تكن قابلة للإثبات.

كان المغول كبقية البشر، يمتلكون الغرائز الفطرية والطبيعة البشرية. كانوا بشرًا ولديهم فضائل، ولكنهم ارتكبوا أيضًا الذنوب والمعاصي.

لا ينبغي أن نعتبر جميع ملوك المغول متشابهين ونضعهم في صف واحد. إذا كان بعضهم قد ارتكب الأخطاء والظلم على أنفسهم وعلى الآخرين، فإنه لا يمكن معاقبة الجميع بسبب خطأ واحد منهم، ولا ينبغي أن ننسى تصوير تاريخهم بالكامل.

بعض الناس يتوقعون أن تكون نفس الصفات والخصائص التي كان لدى خلفاء الراشدين وحكومات العصور الذهبية للإسلام، مثبتة أيضًا للمغول الهنود. ينظرون إليهم من هذا المنظور. المغول الهنود كانوا مسلمين، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن إيمانهم لم يصل إلى إيمان الصحابة. لم يلتقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم يعيشوا في العصور الذهبية للإسلام، بل عاشوا في عصور ضعف الإسلام وفي عهدهم كانت الدول الإسلامية ممزقة ومجزأة، وهذا كان تنبؤ النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال:

«خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم... إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن»^١.

إذا كانت الطعون والانتقادات الموجهة إلى حكومة المغول صحيحة وحقيقية، فيجب القول: مع وجود كل هذه العيوب والنواقص التي كانت لديهم، فإنهم تركوا آثارًا كبيرة وإشارات رائعة. فما رأيك لو كانوا أكثر التزامًا بالدين وتعاليم الإسلام وأمسكوا بها بقوة؟

المطلب الأول: الإمبراطورية المغولة وقيمها الدينية

هناك بعض الطعون والشبهات حول القيم الدينية لدى أباطرة المغول، ومن أبرز تلك الطعون والانتقادات التي تُوجّه إلى مغول الهند هو انحراف جلال الدين أكبر عن الدين المقدس الإسلام وإنشاء دين جديد يُدعى الدين الإلهي، بدلا عن الإسلام.

لا بد أن نعلم أن حياة السلطان أكبر تنقسم إلى فترتين، حيث قد أجمع المؤرخون للهند -ولعهد الملك أكبر بصفة خاصة- على أن «أكبر» بدأ حكمه ومباشرة للإدارة، وهو ملتزم بالعقيدة الإسلامية، فقد كان مسلما ساذجا على طريقة سلفه الملوك من آل تيمور، وكان -لعدم تلقي الدراسة، وتأثير البيئة المحيطة، وتقاليده عصره الذي عمت فيه البدع والمغلاة في تعظيم المشايخ، واعتقاد مكائهم من الله، وشفاعتهم للناس، وزيارة الضرائح والمشاهد- يشد الرحال لزيارة قبور الصالحين من المشايخ المعروفين، وكان يعاقب الناس على مخالفة عقائد الجمهور، وقلة التدين، وضعف الاعتقاد، وكان يقدم النذور إلى ضرائح الأولياء والصالحين، ويشغل بالأذكار والأوراد في شغف واستغراق، ويصاحب العلماء والصالحين، ويحضر مجالس «السماع»^٢.

وقد صرح العلامة عبد الحي أيضا في كتابه القيم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزاهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، عن تدين الملك أكبر، ومغالاته في العقيدة والدين.

أما الفترة الثانية من حياة الملك أكبر، هي الفترة التي قام فيها بنشر نظرية «الدين الإلهي» والدعوة إلى عقيدة وحدة الأديان، والنفور من الإسلام والتسامح البالغ مع غيره من الديانات، والموقف المعادي المعاند^٣، فصار منحرفًا عن العقيدة محاربًا للإسلام، وقد ابتكر دينًا جديدًا سماه (الدين الإلهي) يعتمد

١ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٢٦٥١، (٣/ ١٧١).

٢ - انظر: الندوي، علي الحسني، رجال الفكر والدعوة، الجزء الثالث، (٦٣).

٣ - انظر: المرجع السابق، (٦٤).

على المجوسية وعلى أديان الهند^١. ففي هذه الفترة ترك أكبر ما كان يعتقد قبل ذلك، واعتنق ما أملاه عليه المنحرفون من أهل الضلال والغوى.

هناك دلائل مختلفة لأجل انحراف جلال الدين أكبر، تلخص فيما يلي:

أولاً: الأمية

إن من دلائل انحراف جلال الدين أكبر حرمانه من القراءة والكتابة، فلم يتجاوز خط الأمية بعد، فكان يتلقى المعارف والمعلومات من أفواه الآخرين، لا من المصادر والمراجع المعتمدة.

"برغم أن أكبر ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها. فقد أدى اضطراب حياة أبيه في الغالب إلى حرمانه من قدر وافر من التعليم في الصغر، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة. فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلي؛ إذ كان قوي الملاحظة كلها بالمعرفة، فتعلم عن طريق التلقين مكتفياً بالإصغاء والتأمل"^٢.

فانحراف الإنسان عن الدين لا يحدث بسبب نقص في المعلومات الدينية أو الثقافة فحسب، بل يمكن أن يكون نتيجة لعوامل اجتماعية وعائلية أيضاً. فقد ينحرف الإنسان في الدين بسبب التأثير السلبي للبيئة المحيطة به أو نقص الدعم والتوجيه المناسب. هذه المعلومات تبرز أهمية الأسرة المستقرة والدعم العاطفي والتعليم الجيد في تنمية الإيمان الديني والحفاظ عليه.

ثانياً: الأسرة

لا شك أن للأسرة أثراً بالغاً في حياة الإنسان الديني والاجتماعي، فالإنسان في أغلب الأحيان لا يستطيع أن يفكر بصورة مستقلة، بل هو تابع لمنهج أسرته في التفكير.

ولولا هذه الحقائق لما انحرف إنسان عن سواء الصراط، ولما اختار الضلالة على الهدى، حيث إن الإنسان مجبول على الهداية والتقوى والفضيلة السليمة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»^٣.

١ - انظر: العسيري، أحمد معمر، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر، (٤١٣).

٢ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٢٨/٢).

٣ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ١٣٥٨، (٢/٩٥).

ولقد ولد أكبر عن أب سني المذهب وأم شيعية، وبني ببضع أميرات من الهنادكة^١. وكما مر في الباب الأول لقد رسخ قدم الشيعة في بلاد الهند في عهد السلطان همايون، حيث استعان بالصفويين لأجل إنشاء حكومة المغول في الهند مرة ثانية بعد أن أضعها مدة مديدة. وكانت للشيعة بعد السلطان همايون وجلال الدين أكبر أيضا دور كبير في عقيدة أباطرة المغول، وسلوكهم تجاه رعاياهم.

ثالثا: مجالسة علماء السوء

من المعلوم أن المجالسة مع علماء السوء تحمل العديد من الأخطار التي تؤدي إلى تبني أفكار ومعتقدات خاطئة أو منحرفة، مما يبعد الإنسان عن الطريق الصحيح ويؤدي إلى الفهم الخاطئ للدين. وهذه المجالسة أيضا من أسباب انتشار الفتن والبدع بين الناس، حيث يقوم علماء السوء بنشر أفكارهم المغلوطة بين أتباعهم، مما يؤدي إلى تفرق الأمة وضعفها حضاريا ودينيا وثقافيا.

والذي يجلس مع هؤلاء السفهاء يتلى بتدهور الأخلاق والقيم، حيث يتبنى الناس سلوكيات غير صحيحة بناءً على توجيهات علماء السوء، مما يؤدي إلى فساد المجتمع وانحرافه عن القيم الدينية والأخلاقية. لذلك، من الضروري الابتعاد عن علماء السوء والبحث عن العلماء الصادقين الذين ينشرون العلم الصحيح والقيم النبيلة.

كان أكبر يشتغل في بداية عمره بعلوم أهل السنة والجماعة، ويتلقى تلك العلوم من الشخصيات البارزة والعلماء العاملين لكن حين التقى ببعض علماء السوء، والذي روجوا له علم الفلسفة والحكمة وأبعدوه عن علوم القرآن والسنة والعقيدة الصحيحة، انحرف وسقط في هوية الضلال.

"طفق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناكورى وولديه فيضي وإبي الفضل، وكان ثلاثهم من المشتغلين بعلوم الحكمة، ففتحت عيناه على كثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية، ودفعوه معهم في طريقهم، طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق المجرد. وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى إقامة دار للعبادة "عبادته" بمدينة فاتحجور حاضرتة الجديدة تم بناؤها عام ١٥٧٥م لتكون منتدى للفقهاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة"^٢.

١ - الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٢٨/٢).

٢ - المرجع السابق، (١٢٨، ١٢٩/٢).

لقد تأثر أكبر بعلوم الفلسفة والحكمة بعد لقائه بالشيخ مبارك ناكوري^١ وولديه فيضي^٢ وأبي الفضل، مما دفعه لاستكشاف المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية. نتيجة لهذا الشغف، أنشأ داراً للعبادة في فاتحبور عام ١٥٧٥م، ليكون منتدى للعلماء ورجال الدين يتدارسون فيه الكتاب الكريم وعلوم التفسير والحديث والفقه والتصوف والفلسفة.

ظهرت ملامح تأثير الفلسفة الهندية على ملوك المغول في عصر الملك "جلال الدين أكبر" الذي خضع وهو ابن ثلاثة عشر سنة لنفوذ الأمير "بيرم خان الشيعي" الفارسي حيث كان وصياً على عرش المغول، الذي بقي يدير دفة العرش المغولي وقتاً طويلاً إلى أن بلغ من تأثيره على ملك المغول مرحلة انقلب فيها على الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة، بل وراح ينادي إلى دمج الأديان وخلق دين جديد يتمشى مع طبيعة الشعب الهندي، كما كان لزواج الملك "أكبر" من الأميرات الراجبوتيات الهندوسيات كبير أثر على أخلاقه وسلوكه الاجتماعي والديني^٣.

وبهذه العبارة تظهر أن الدعوة إلى وحدة الأديان، وخلق دين جديد لم تكن من بنات أفكار أكبر بل قد أملى عليه ذلك الوصي الخبيث، الذي نحى العقيدة الصحيحة الصافية، وبدأت التأويلات والتفسيرات الفاسدة، تطرق هذا الباب بسمومها القاتلة.

رابعا: تحقيق الوحدة

إن من الأمور التي جرت به جلال الدين أكبر إلى اعتناق دين جديد وعقيدة مختلطة، إنشاء وحدة سياسية في الهند، حيث أراد أن يجمع تحت راية واحدة، الطوائف المختلفة، وتأسيس دولة شاملة تنطوي على عقائد مختلفة وآراء عديدة. لما كانت بلاد الهند تتضمن مناطق شاسعة، وأراضي متباعد الأطراف، وسكان تلك الأراضي كانت تشكل خمس سكان العالم، ولهذا كثرت فيهم الاضطرابات وعدم الاستقرار السياسي، فلأجل ذلك شعر بأن توحيد الناس ونبد الخلافات الدينية ضرورية لأجل إنشاء اتحاد سياسي شامل ومستقر.

^١ - الشيخ الفاضل العلامة مبارك بن خضر الناكوري، أحد العلماء المشهورين بأرض الهند، ولد سنة ٩١١ هـ، بمدينة ناكور وتوفي سنة: ١٠٠١ هـ. بلاهور فدفن بها. نزعة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٥/ ٦٠٨).

^٢ - فيض الله (المعروف بفيضي) بن مبارك، الأكبر آبادي، أبو الفضل: مفسر، عارف بالأدبين العربي والفارسي، من أهل الهند. مولده ووفاته بأكبر آباد (أكره). كان على طريقة الحكماء. توفي: ١٠٠٤ هـ. الأعلام للزركلي (٥/ ١٦٨).

^٣ - (أئين أكبري، ٢، ١٥٩).

ركز الإمبراطور المغولي أكبر على تحقيق الوحدة بين شعوب الهند المختلفة، بما في ذلك المسلمين والهندوس، من خلال دمجهم ثقافيًا وسياسيًا. فتح أبواب بلاطه للهندوس، مما مكّن الكثيرين منهم من الوصول إلى مناصب عليا في الحكومة. هذا النهج قوبل ببعض الانتقادات من قبل رجال الدين المسلمين، لكنه أسفر عن ولاء العديد من الأمراء الهندوس، الذين دعموه في حملاته العسكرية. أدرك أكبر أهمية التعايش بين مختلف الطوائف لتحقيق الاستقرار في بلاده. لذلك، شجع التبادل الثقافي والفكري، وطلب ترجمة الكتب الهندية القديمة إلى الفارسية. كما استضاف في قصره شيوخ العقائد المختلفة لتعزيز الفهم المتبادل والإعجاب بالجوانب الإنسانية في دياناتهم^١.

فالاختلافات التي شهدتها أكبر في مناظرة علماء المذاهب والنحل المختلفة، أدت إلى أن وقف نفسه لرفع اختلافاتهم ونزاعاتهم في مذهب قد جمع من كل دين ونحلة ما يراه حقًا، ويسر الناظرين. فقرب إلى نفسه أصحاب الأديان المختلفة، من برهمية وبوذية وجينية^٢ وزردشتية^٣ ونصرانية، بلغ من تلاففه مع أصحاب هذه الملل وحده على استمالتهم إليه أن ارتدى مسوح الهنادكة وجرب معهم طقوسهم^٤. وبهذا الأمر استطاع أن يغلب على كثير من الخلافات الموجودة، ويوسع رقية بلاده.

"وبلغ أكبر بتسامحه الشديد على كل حال إلى كسب ولاء الهنادكة حتى أولئك الذين لم يعتنقوا مذهبه الجديد، واستطاع عموماً أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية التي كان يهدف إليها ويعمل في سبيلها"^٥.

ففي الواقع لم يكن أكبر يؤمن بدين واحد يكون حقاً وما عداه يكون باطلاً، بل كانت السياسة هي دينه، فكل شيء كان سبباً للوحدة السياسية، ويدعو إلى الالتئام والاتحاد فهو مذهب جلال الدين أكبر.

"لم يصرح أكبر في الواقع بتنكره للإسلام أو خروجه عليه، ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسكه بدينه، فقد كانت السياسة هي دينه، ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هي عقيدته. وما ذهب إليه السيد

١ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٣٠/٢، ١٢٩، ١٣٢).

٢ - الجينية: وهي ديانة منشقة عن الهندوسية وتدعو إلى التحرر من كل قيود الحياة، والعيش بعيداً عن الشعور بالقيم كالغيب والإثم والخير والشر. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (١٢/٢٧١٢).

٣ - الزردشتية: أولئك أصحاب زردشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب وكان مقامه بإصطخر. موسوعة الملل والأديان - الدرر السنية (١٧٤/٢)، بترقيم الشاملة (آيا).

٤ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (١٣٢/٢).

٥ - نفس المرجع السابق.

أمير علي، العلامة الهندي، من أن أكبر "لم يغفل في حياته تعاليم الرسول والأئمة" إنما كان لاستمساكه حقيقة بفضائل الإسلام الكبرى، وإن لم ينف ذلك عنه ورهطه الخوض في بعض مسائل الفروض والعبادات بما يخالف الشرع، فضلاً عن تأثره بفكرة التناسخ عند الهنود وإعجابه بما تدعوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التي تفرضها العرب وترسمها التقاليد الدينية واقتناعه بآراء الأوبنشاد^١ في القول بأن كل إنسان إنما يسمى الكائن الإسمي باسم يلائم وجهة نظره^٢.

هذه هي أبرز العوامل التي أدت إلى انحراف جلال الدين أكبر، واعتناقه نخلة جديدة غير مطروقة، وهذه الأعذار وإن لم تكن أعذاراً صحيحة ودلائل لتبرأة أكبر من الانحراف، لكن تخفف من شدة جرمه، وثقل حمله.

قال العلامة الأستاذ السيد أبو الحسن علي الندوي: يقال: إن ما سجله جهانجير في «توزك» الصغير من أحوال الملك أكبر عند وفاته، يدل على أنه شعر عند دنو الأجل بأنه على خطأ وضلال، فجدد إيمانه بتلفظه بكلمة التوحيد، وأسلم روحه لبارئها في هالة من القراء الذين كانوا يقرؤون سورة يس، ويدعون له، وليس لنا أن نحكم على ما كان بينه وبين الله وهل أدركه اللطف الإلهي أم لا؟^٣.

المطلب الثاني: الإمبراطورية المغولية وقيمها الاجتماعية

هناك بعض الشبهات التي تتعلق بالسلطان أورنجزيب حول القيم الاجتماعية من قبل بعض الهندوس والإنجليز. إنهم يدعون أن هذا السلطان كان متعصباً ومتحجراً، لم يراع مصالح الهندوس وعاداتهم الاجتماعية، بل جاوز خط الاعتدال، حيث فرض الجزية على الهندوس وأهل الديانات الأخرى وقد كان أكبر رفع الجزية عنهم، وقام بخدم المعابد الهندوكية، والظلم تجاه السيخ والراجبوت، وبدأ يخطط الأهالي بعضاً عسفه ويفحش في الجبايات والمكوس، وقضى على المملكتين الإسلاميتين: فيجابورا وغولكوندا^٤.

^١ - الأوبنشاد، واحدة من أربعة أنواع من النصوص التي تشكل كل واحدة من الفيدات، الكتب المقدسة في معظم التقاليد الهندوسية. كل من الفيدات الأربعة - الريجفيدا، اليجورفيدا، السامافيدا، والأثارففيدا - (Britannica, Written by Patrick Olivelle - Fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Last Updated: Feb ١, ٢٠٢٥, Article History, <https://www.britannica.com/topic/Upanishad>)

^٢ - انظر: الساداتي، أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، (٢/ ١٤٢).

^٣ - انظر: الندوي، علي الحسني، حاشية رجال الفكر والدعوة، الجزء الثالث، الإمام السرهندي حياته وأعماله، (٦٩).

^٤ - غولكوندا، حصن تاريخي ومدينة مدمرة تقع على بعد ٥ أميال (٨ كيلومترات) غرب حيدر أباد في ولاية تيلانغانا الغربية، جنوب الهند. من عام ١٥١٨ إلى ١٥٩١ كانت عاصمة مملكة قُطب شاه (١٥١٨-١٦٨٧)، وهي واحدة من خمس سلطانات مسلمة في منطقة

وهذه الأشياء والموضوعات إن دلت على شيء فإنها تدل على أن في الإسلام ليس هناك ما يسمى بالقيم الاجتماعية أو أن هذا السلطان لم يكن يراعي تلك القيم، وإلا فكيف يجوز الإنسان لنفسه أن يظلم الآخرين، ويحطم العدالة الاجتماعية، ويغصب حقوق الآخرين ويعمل بشدة وعنف وينسى التسامح والتعايش، وهو ملتزم بالقيم الاجتماعية؟

وقد انتقد بعض الكتاب غير المسلمين أورنك زيب لما ادعوا عليه من تعصب ضد الهندوك بسبب إعادته فرض الضريبة عليهم وهدمه بعض المعابد الهندوكية، فكان لسياسات أورنك زيب الإصلاحية في الهند ردود فعل سلبية لدى المستشرقين والمؤرخين الهنود، بل ومنهم من وقف موقف العداء من تلك السياسة وشن عليها حربا شعواء، معتبرينها تعدي على حقوق المواطنين الهنود وبعيدا عن سياسة التسامح الديني التي عمل على تنفيذها أباطرة المغول السابقين لعصر أورنك زيب.

وقد تصدى بعض العلماء لدفع هذه الشبهات بصور مختلفة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا: إن الجزية ضريبة كانت تفرض على القادرين من أهل الذمة في كل دولة إسلامية مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية، والزكاة والعشر وغيرها من العبادات المالية وقد كان الإمبراطور «أكبر» ألغى هذه الضريبة؛ لأنه أخضع جميع المواطنين للتجنيد الإجباري بصرف النظر عن دياناتهم. أما أورنجزيب فقد اعتبر هذا الإجراء مخالفا للإسلام الذي لا يسمح بفرض الخدمة العسكرية على غير المسلمين بالقوة أو رغم إرادتهم، ولهذا أعاد أورنجزيب فرض الجزية كما كانت. ومع هذا فقد كانت هذه الضريبة ضئيلة القيمة محددة التطبيق، فكان يعفى منها موظفو الدولة، وكل النساء والأطفال وكل العاجزين عن الكسب وكل الفلاحين ومن يقل دخلهم السنوي عن (٥٢) روبية^١.

ثانيا: لم يكن الملك أورنجزيب متعصبا ضد غير المسلمين وقد أوضح هو سياسته في كثير من رسائله حيث أعلن رفضه لاضطهاد موظفيه بسبب دينهم، ولم يكن لأحد من هؤلاء الموظفين أن يخشى بأسه مادام على ولائه للدولة. نعم لا شك أنه قد أمر بهدم بعض المعابد الهندوكية، ولكن الدافع الحقيقي لهذا الأمر يتضح في فرمان الذي أصدره بهذه المناسبة، ففيه ينص على هدم المعابد التي بنيت بغير إذن

الدكن. (Also known as: Golkonda, Golkunda Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica Last Updated: Feb ١, ٢٠٢٥ • Article History <https://www.britannica.com/place/Golconda-historical-city-India>)

^١ - انظر: الشيال، دكتور جمال الدين، تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، (١٥٠/١).

رسمي، ومع هذا فقد نص فيه أيضا على تقديم منح من الأرض لعدد من الهياكل وأماكن العبادة الهندوكية^١.

ثالثا: ويبدو أن موقف الملك المغولي تجاه الأديان الأخرى كان موقفا تحدد المصالح العامة للدولة، ولم يتأكد لنا في المصادر التاريخية أن أورنك زيب أشهر سيف العنف والترهيب في وجه الهندوس وغيرهم لكي يعتنقوا الإسلام، بل كان يعترف بهم دينا ثانيا في الدولة إلى جانب بقية الأديان الأخرى، وإنما كان يسعى إلى فرض هيمنة الإسلام على مرافق الدولة لكي يخلق للدين هيبة ومكانة في النفوس، لا سيما وأن الهند كانت مرتعا للخرافات والخزعبلات الدينية المنحرفة الكثيرة، وإن من أسلم من الهندوس لم يكن كما يدعي المؤرخون من أنهم آمنوا بفعل القوة والعنف.

رابعا: أصدر الملك المغولي أورانك زيب مرسوما آخر بعث إلى والي فارناسي السيد أبو الحسن ، جاء فيه : " غايتنا في حكم هذه البلاد المحافظة على حقوق المواطنين وحمايتهم ونشر الوعي في صفوفهم، وتنمية مواردهم الاقتصادية والتجارية، لكي يعم الخير والمنفعة عموم الناس، وبناء على ذلك قررنا حفظ وصيانة المعابد القديمة وحمايتها من أن يطالها يد التخريب والتدمير والبعث، بينما لا تسمح الدولة ببناء معابد جديدة للهندوس أو غيرهم، وقد طرق مسامعنا أن مجموع من المسلمين يضايقون الهندوس ويعتدون عليهم، وعليه فقد قررنا منع المسلمين من الاعتداء على أهل الذمة من الهندوس، وعليك يا أبا الحسن أخذ ذلك بالاعتبار، حرر بتاريخ ١٥، جمادي الثاني ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م^٢.

خامسا: أما مقاومته للشيخ والراجبوت فلم يكن الدافع لها دينيا بل سياسيا، فكما أنه عنف في معاملته للقبائل الإسلامية في شمال غربي الهند، فإنه لم يستطع كذلك أن يقف مكتوف الأيدي أمام عصيان رعاياه غير المسلمين أو الفوضى التي أشاعها المراثا في إقليم الدكن.

سادسا: أما الجبايات والمكوس، فقد كان في سابق عهده يؤخذ كثير من المحاصيل التي لا أصل لها في الدين فأبطلها، وجعل أساس التحصيل متمشيا مع تعليم الشريعة، ولم تخسر الدولة بذلك شيئا. فقج أبطل ثمانين نوعا من المكوس^٣.

^١ - انظر: السابق ، (١٦٢/١).

^٢ - انظر: الجوارنة ، أ. د. أحمد محمد ، عالمكير الأول "أورنك زيب" إمبراطور الهند الكبير ، (٥٥).

^٣ - انظر: النمر، تاريخ الاسلام في الهند، ص: ٣٦٢.

سابعاً: وأما القضاء على فيجابورا وغولكوندا، فلقد اشتركتا مع الهندوس المراثا^١ في الهجوم على أراضيه، وقد كانت قبل هاتين الدولتين دول إسلامية ضمت إلى المغول، ففي عهد أكبر نفسه ضمت بعض الدولة الإسلامية إلى أراضيه، فلم نسمع صوتاً من المعجبين بأكبر^٢.

فاتضح مما ذكرنا من التفاصيل أن الملك أونجيزب كان يتعامل مع رعاياه بالرفق والتسامح من غير أن يفرق بين المسلم وغيره، وأما ما ذكر من هدمه بعض المعابد أو إعادته لفرض ضريبة الجزية على الهندوس، فكانت لها دوافع وأسباب وظروف خاصة تحدده المصالح العامة للدولة والرعية، قد ذكرناها بالتفصيل.

ثم لا بد وأن نلاحظ أمراً آخر، وهو أن ما نقل عن أباطرة المغول من الظلم وتعذيب الناس وغير ذلك، ليس للكثير منها سند قوي وأساس في صميم الواقع. وما صح يرجع إلى دليلين رئيسيين، فالأول هو التمرد والعصيان والثاني هو الطبيعة والصفات الوراثية.

بسبب أن مناطق الهند أرض شاسعة وواسعة وتسكنها ديانات مختلفة وسكانها كثيرون، فمن المؤكد أن المغول سيشهدون تمردات وثورات من سكانها. عندما نتصفح تاريخ الهند في زمن المغول نجد أن جماعات من الهندوس كانت تقوم بشن ثورات من حين لآخر، مما يجعل المناطق والطرق غير آمنة. من الواضح أن هذه الأوضاع السيئة والضغوط المتعددة ستجبر الأمراء والقادة على استخدام العنف والقسوة.

يمكننا أن نلاحظ مثل هذه الثورات بوضوح في حملات أحمد شاه أبادي^٣ إلى الهند. فقد شن أكثر من عشر حملات إلى الهند لقمع التمردات والثورات من بعض المجموعات. "أحمد شاه بابا خلال حياته السياسية والعسكرية زار الهند ... أكثر من عشر مرات"^٤.

^١ - مراثا، مجموعة رئيسية من الناس في الهند، اشتهروا في التاريخ كجنود محاربين ودعاة للهندوسية. وطنهم هو ولاية ماهاراشترا الحالية، المنطقة الناطقة بمراثية التي تمتد من مومباي (بومباي) إلى غوا على الساحل الغربي للهند وداخل البلاد على بعد حوالي ١٠٠ ميل (١٦٠ كيلومتراً) شرق ناجبور. (Britannica, Jan. ٢٨, ٢٠٢٥, <https://www.britannica.com/topic/Maratha>)

^٢ - انظر: النمر، تاريخ الاسلام في الهند، ص: ٣٦٣.

^٣ - أحمد شاه دوراني (ولد حوالي ١٧٢٢، مولتان، البنجاب [الآن في باكستان] أو هرات [الآن في أفغانستان؛ انظر ملاحظة الباحث]) - توفي في ١٧/١٦ أكتوبر ١٧٧٢، طوبة معروف، أفغانستان) كان مؤسس دولة أفغانستان وحاكم إمبراطورية امتدت من نهر آمو داريا (نهر أكسوس القديم) إلى المحيط الهندي ومن خراسان إلى كشمير، البنجاب، والسند. (Britannica, Written and fact- .)

checked by The Editors of Encyclopaedia Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/biography/Ahmad-Shah-Durrani>

السبب الثاني هو طبيعة وسجية المغول؛ فهم من نسل جنكيز خان وتيمورلنك. حول جرائم وظلم جنكيز وتيمورلنك، كُتبت كتب ولا حاجة لإقامة الحجج والبراهين عليها. لو لم تكن القيم الإسلامية مع المغول في الهند، ربما كان التاريخ قد شهد ظلمًا فظيماً وعدواناً وحشيًا من هذه المجموعة في الهند. ولكن بفضل القيم الإسلامية تغيرت تلك المعايير وبدلاً من الظلم والطغيان شهدنا آثاراً حضارية مذهلة منهم. ومن جهة أخرى، إن من الانتقادات التي تُوجه إلى المغول في الهند هي فرض ضرائب باهظة على الناس، ونهب أموالهم بالظلم والعدوان.

في الرد على ذلك يجب أن يُقال: أولاً، ليس كل المغول في الهند كانوا يجمعون الضرائب، بل كان البعض منهم يكفي بأخذ الموارد الشرعية التي تقع على عاتق المسلمين وأهل الذمة، وثانياً، إذا كانوا قد أخذوا ضرائب، فإن تلك الضرائب لم تكن باهظة وكانت تعتمد على الأغنياء وبقدر وسعهم، وأخيراً إذا اعترفنا بفرض ضرائب باهظة من قبل المغول في الهند، فلا يجب أن ننسى أن تلك الضرائب لم تكن تُجمع من الناس لنهبها ولكن لاستهلاكها من أجل رفاهية وراحة الناس، ونموهم الثقافي والحضاري، وتطوير تلك المناطق.

عندما استقر المغول في الهند، لم يعودوا يتطلعون إلى وادي فرغانة كوطنهم، رغم جذورهم فيه. تزوجوا مع الهنود، وذابت أصولهم الأجنبية في دمائهم حتى اختفت معالمها بعد أجيال قليلة. فكان جهانجير نصفه راجبوت، وابنه شاه جيهان من أم هندية. الوحيد الذي لم يكن له جذور هندية كان أورنجزيب. بالرغم من ارتباطهم العاطفي بفرغانة، وعلى عكس المغول، حافظ البريطانيون على تفردهم العنصري، مارسوا التمييز ورفضوا الاندماج. كان المغول يفرضون ضرائب على رعاياهم ويطالبون بالجزية من الأمراء التابعين، لكنهم استثمروا هذه الأموال في تنمية الهند، فشجعوا الصناعة والحرف اليدوية، وجلبوا الفنانين والمعماريين ليزينوا الهند بتراث فني وثقافي معجب. بينما لم يفعل البريطانيون شيئاً يذكر للهند، بل أرسلوا ما أخذوه من عرق جبهة العمال الهنود إلى إنجلترا. وفي نهاية حكمهم، عاد البريطانيون إلى وطنهم، ليمنعوا بتقاعد مريح على حساب دافعي الضرائب الهنود، في أكواخ تحمل أسماء هندية، كأنهم يسخرون من الأرض التي نهبوها^١.

^١ - پوهنمل زلمی هوتک، تاریخ صنف دوازدہم، نصاب درسی مکاتب افغانستان، سال چاپ: ۱۳۹۰ هـ ش، ص: ۱۶.

^٢ - Shashi Tharoor, Inglorious Empire, what the British did to India, Published by Scribe ۲۰۱۶, ۲۰۱۷, page ۲۷۰.

هنا يعترضنا سؤال وهو أن الباحث لما أجاب عن أهم الشبهات التي تختلق ضد أباطرة مغول الهند، فلماذا لا يجيب عن الانتقادات التي تتعلق بالحكومة البريطانية، وهل هذا يعني انحياز الباحث للحكومة المغولية، وتعصبه ضد الحكومة البريطانية؟

لدفع هذا الاعتراض يجب أن نقول: إن الإجابة عن الانتقادات التي تتعلق بالقيم البريطانية في الهند، هو من قبيل توجيه قول القائل بما لا يرضى به قائله، حيث إن كثيرا من الغربيين أنفسهم قد اعترفوا بأعمال الحكومة البريطانية السيئة، والمبادئ الفاسدة، فبعد ذلك كيف لا يكون الاشتغال بهذه الأمور اشتغالا بما لا طائل تحته.

هل يقوم الباحث بالدفاع عن قيم البريطانية التعليمية؟ والحال أن مستر لدلو يقول: "في العصور الماضية كانت المدارس الكثيرة في كل قرية، وأبنائها كانوا يتعلمون فيها، ولكن بعد ما سيطرنا عليها أغلقنا المدارس فأصبحوا جهالا".

وكتبت إندين ريفورم سوسايتي سنة ١٨٥٣م في رسالة لها: "كانت المدارس في كل موضع بالهند، لكننا حرمانهم من التعليم بعد أن ألغينا اللجان القروية التي كانت تقوم به، وما أقمنا بدلها شيئا".^١

فقد أقر البريطانيون أنفسهم بأن القرارات السياسية التي لم تأخذ في الاعتبار أهمية التعليم أدت إلى جهل السكان، وتركهم بدون وسائل للمعرفة أو التنمية. هل هناك مجال في الدفاع؟

أو هل يقوم الباحث بالدفاع عن تنمية بلاد الهند اقتصاديا وازدهارها حضاريا وثقافيا في عهد الحكومة البريطانية، والحال أن هناك شهادات صادقة من بني جلدتهم تدل على خلاف هذا الأمر؟

يقول جوستاف لوبون ما معناه: الهند ظلت لآلاف السنين واحدة من أغنى بلاد العالم، حتى يمكن القول أن الهند استنزفت ثروات الدنيا على مر العصور. رغم التغيرات السياسية، ظلت الثروات داخل الهند تُستخدم لتشجيع الفنون وبناء القصور. ولكن اليوم، أصبحت الهند من أفقر الدول بسبب الاستعمار الذي استنزف ثرواتها خلال القرن الماضي، وبدأت الفنون فيها بالتلاشي منذ وصول الإنجليز.^٢

ويقول لورد ماكولي: "إن أنهار الثروة في الهند كانت تنساب إلى إنجلترا". ويقول مستر بروكس إيدسن: "إن المال الذي جمعه الملايين من الهنود في عدة قرون أخذناه نحن إلى إنجلترا". يقول مستر

١ - النمر، تاريخ الاسلام في الهند، ص: ٤٨٠.

٢ - انظر: نفس المرجع السابق.

هنتز: "لقد أوجب أعضاء الدولة على الزراع خراجا أكثر مما يستطيعون، وربما لا يبقى لهم ولأولادهم من الزرع ما يقتاتون به". ويقول كارل ماركس: "لقد محت الحملة الأوروبية آثار المنازل، وما أبقّت لها عينا ولا أثرا، ولم يصبح للصناعة الهندية من أسواقها نصيب، وأخذت أوروبا ترسل خيوطها إلى تلك البلاد بقدر ما يمكنها، حتى انعدمت الخيوط الأهلية، ولم يبق فيها شيء". وقال ميجر وينجت ما معناه: في القرن التاسع عشر، قدمت الهند لإنجلترا مبالغ طائلة تجاوزت الألف مليون، وصرفت بلادنا ١٣٠ مليون روبية على التجارة الهندية. كانت التجارة الهندية تعتبر الأهم، وكانت تضمن وظائف ومعيشة لكثير من شبابنا وفقرائنا، مما عزز من قوة ومنعة دولتنا بفضل سيطرتها على الهند^١.

فهذه النصوص اعترافات من قبل الغربيين بتأثير الاستعمار الإنجليزي على الهند في القرن التاسع عشر. وقد أوضح مستر بروكس إيدسن كيف أن الثروة الهندية انسيبت إلى إنجلترا، بينما أكد مستر هنتز أن الضرائب الثقيلة المفروضة على الزراع حرمتهم من قوتهم. كذلك، أشار كارل ماركس إلى كيفية تدمير الحملة الأوروبية لصناعة الهند والأسواق المحلية، وأوضح ميجر وينجت أن الهند قدمت مبالغ طائلة لإنجلترا وصرفت كثيراً من الأموال على التجارة الهندية، ما أدى إلى تعزيز قوة إنجلترا وضعف الهند اقتصادياً.

وأيضا يقول لورد ماكولي ما معناه: كانت كميات ضخمة من الذهب والفضة تتدفق على الشركة وعملها بكثافة، حيث وصلت ثمانية ملايين روبية إلى كلكتا من مرشد آباد^٢ عبر البحر، وسط أسطول يزيد عن مائة مركب مزينة بالأعلام والمزامير، بينما كانت كلكتا لا تزال خرابة غير متطورة. ويقول لورد كلايف^٣ مدير الشركة: جمعنا الثروة العظيمة بالنهب من سكان بنكال البالغ عددهم في ذلك الوقت

^١ - انظر: النمر، تاريخ الاسلام في الهند، ص: ٤٩٢، ٤٩١، ٤٨٩، ٤٨٥.

^٢ - مرشد آباد، بلدة في وسط ولاية البنغال الغربية، شمال شرق الهند. تقع البلدة شرق نهر باجيراثي، وتعتبر مركزاً للتجارة الزراعية وحياسة الحرير. (Britannica, Written and fact-checked by The Editors of Encyclopaedia

Britannica, Article History, <https://www.britannica.com/place/Murshidabad>)

^٣ - كان روبرت كلايف (ولد في ٢٩ سبتمبر ١٧٢٥ في ستيشي، شرويشاير، إنجلترا - وتوفي في ٢٢ نوفمبر ١٧٧٤ في لندن) جندياً وأول مسؤول بريطاني عن البنغال، وكان أحد مؤسسي القوة البريطانية في الهند. في ولايته الأولى (١٧٥٥-١٧٦٠) فاز بمعركة بلاسي وأصبح سيد البنغال. وفي ولايته الثانية (١٧٦٤-١٧٦٧) أعاد تنظيم المستعمرة البريطانية. (Also known as: Robert Clive, 1st Baron Clive of Plassey Written by T.G. Percival Spear Fact-checked by The Editors of <https://www.britannica.com/biography/Robert-Clive> Encyclopaedia Britannica Article History Clive

ثلاثين مليوناً. ويقول بروكس إيدسن ما معناه: أرسل الإنجليز ثروات هائلة من الهند إلى لندن، على غرار ما فعل الرومان بنقل خزائن اليونان إلى روما. كانت هذه الثروات الهندية تفوق قيمة جميع الأموال الموجودة في أوروبا في ذلك الوقت. ويقول فرنسيس براون ما معناه: أعلن أن مالابار قد انهارت وتدهور حالها، وتلاشى سكانها بسبب الظلم والعقوبات التي فرضتها عليها بريطانيا، مما جعلها وأهلها يعيشون في ذل وفقر. ويضيف ولسن: "إن جلب المال من الهند لإنجلترا جعل الهند جسماً بلا روح، فإن استنزاف الدم من رجل مريض بفقر الدم يقضي عليه".^١

فهل هذه العبارات يكفي لتوضيح الاستغلال الذي قامت به بريطانيا تجاه الهند خلال فترة الاستعمار. فهذه الشهادات الصادقة توضح أن كميات ضخمة من الذهب والفضة تم نقلها إلى بريطانيا، مما أدى إلى فقر الهند وتدهورها. تصريحات لورد كلايف، بروكس إيدسن، فرنسيس براون، وولسن جميعها تؤكد على أن الثروات الهندية الهائلة تم نهبها ونقلها إلى إنجلترا، مما تسبب في تدمير الاقتصاد الهندي وإفقار شعبه. فهل بعد تلك التصريحات يبقى المجال للدفاع عن القيم الحضارية والاقتصادية والثقافية؟

أو هل يقوم الباحث بالدفاع عن الانتقادات المتعلقة بالقيم البريطانية الاجتماعية، والحال أن هناك شهادات صادقة من بني جلدتهم تدل على خلاف هذا الأمر؟

يقول مستر توماس منرو في تقريره عن القوانين التي وضعوها للهند: "لاحظ ولا نصيب لأهل الهند، ولا دخل لهم في الحكومة، ولا يوجد أحد منهم في قيادة الجيش، ولا في الضباط، ولكن في بعض الأعمال الحقة، وفي كل مكان يحتقرون، ظناً أنهم من أراذل الأمم، وجميع الأمور المهمة في الجيش وفي الدواوين في يد الإنجليز، ولذلك تذهب الأموال من الهند إلى أوروبا".^٢

سيطرة الإنجليز على الأمور المهمة في الجيش والدواوين يعكس هيمنة القوة الاستعمارية، والتي أدت إلى تحويل الأموال من الهند إلى أوروبا، ما أدى إلى تفاقم الوضع الاقتصادي والاجتماعي للهنديين. هذا الاعتراف يكشف عن نظام من التمييز والظلم الاجتماعي يعزز الفقر والتهميش في المجتمع الهندي.

كتب مستر ميكلم لويتس: أحد القضاة الإنجليز في مدارس يقول: "نحن أذلنا الذوات من أهل الهند، ومسحنا قانون وراثتهم، وغيرنا قواعد الأعياد وعقود النكاح، وما قرنا شعائر مذاهبهم، بل كنا

١ - انظر: النمر، تاريخ الاسلام في الهند، ص: ٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩٤، ٤٩٣.

٢ - المرجع السابق، ص: ٥٠٠.

نضحك عليهم، ونجعل شعائرهم سخرية، وأخذنا أوقاف المساجد، وزورنا في الدفاتر، وأخذنا جميع ولاياتهم، و خربنا جميع البلاد بالسلب والنهب والقتل، وأذيناهم. وفرضنا عليهم الضرائب الباهظة، وجعلنا أعزة أهل الهند أذلة يتيهون في الأرض"^١.

وهذا الاعتراف يعكس مجموعة من الممارسات القمعية والظالمة التي تعرض لها أهل الهند. يتحدث عن إذلال الهنديين وتغيير قوانينهم وعاداتهم، بما في ذلك قوانين الوراثة والأعياد وعقود النكاح. كما يشير إلى السخرية من شعائرهم الدينية وأخذ أوقاف المساجد وتزوير السجلات. الاعتراف يوضح أيضاً الاستيلاء على ولاياتهم وتدمير البلاد من خلال السلب والنهب والقتل، وفرض الضرائب الباهظة عليهم. في النهاية، يعترف بجعل أعزة أهل الهند أذلة يتجولون في الأرض بلا مأوى. هذه الممارسات تعكس نظاماً استعماريًا قاسياً يهدف إلى تدمير الهوية والثقافة الهندية.

يقول: لورد ماكولي في رسالته إلى الحاكم العام، لورد هستنجر، بصدد القوانين التي سنوها في الهند ما معناه: نحن نجبرهم على القسم في الأمور الصغيرة، وهو ما لم يعتادوا عليه، ويعتبره شرفاً لهم إهانة لشرفهم. بالإضافة إلى ذلك، يعتبرون الحجاب أهم شيء، وإذا دخل أحد بيوتهم ورأى النساء، فإن ذلك يعد عاراً لا يُغسل إلا بالدم. ومع ذلك، كان أهل بنكال وأوريسا وبيهار أهدافاً لهذه الأخطاء. اجتمع حول الإنجليز أسوأ أهل الهند من الكذابين والنهايين، بينما قبضنا على الشرفاء وملأنا بهم السجون. ثم دخلت الجنود الإنجليزية والموظفون بيوتهم، يفعلون بنسائهم ما يريدون، ورأينا الأشراف يقتلون على أبواب بيوتهم دفاعاً عن حرمتهم، ولم يجزعوا من السلب والنهب الذي وقع من المراثا مثلما جزعوا من فعل الإنجليز وهاكهم للأعراض^٢.

ففي هذه العبارة اعتراف بسلسلة من الممارسات والجرائم التي ارتكبتها الإنجليز في الهند، فالإنجليز كانوا يجبرون الهنود على القسم في الأمور الصغيرة، مما كان يعد إهانة لشرفهم. كما تتطرق العبارة إلى الانتهاكات التي تعرض لها الهنود من قبل الإنجليز، بما في ذلك اعتقال الشرفاء وملء السجون بهم، وانتهاك حرمة البيوت والنساء، مما أثار غضب الهنود ودفعهم للدفاع عن حرمتهم بقتل الجنود الإنجليز على أبواب بيوتهم.

^١ - المرجع السابق، ص: ٤٨٤.

^٢ - انظر: المرجع السابق، ص: ٤٨٥.

وقد كتب أحد القسيسين الإنجليز في مدارس إلى مديري الشركة: "إنكم تسيئون إلى إلهكم وإلى دينكم بأعمال موظفيكم ولو تعلمون ما يعملون لجرت دموعكم أنهاراً. ويقول هستنجز الذي كان حاكماً عاماً للشركة عدة مرات: "الإنجليزي بعد ما يجيء إلى الهند يصبح إنساناً آخر يرتكب الجرائم، متحامياً في كلمة إنجليزي ولا يخطر بباله أنه يعاقب على جريمته"^١.

النقاط المستخلصة

من هذه الاعترافات، يمكن استخلاص هذه النقاط.

أولاً: هناك اعتراف بأن الإنجليز كانوا يسيئون إلى إلههم ودينهم من خلال أفعال موظفيهم، مما يشير إلى الفساد الأخلاقي الذي كان سائداً بينهم.

ثانياً: هناك إشارة إلى أن الإنجليز كانوا يحتقرون الهنود ويعتبرونهم من أراذل الأمم، مما يعكس التمييز العنصري والاجتماعي الذي كان يمارس ضدهم.

ثالثاً: هناك اعتراف بأن الإنجليز كانوا يسيطرون على جميع الأمور المهمة في الجيش والدواوين، مما أدى إلى تحويل الأموال من الهند إلى أوروبا وتفاقم الوضع الاقتصادي والاجتماعي للهنديين.

رابعاً: هناك إشارة إلى أن الإنجليز كانوا يذلون الهنديين ويغيرون قوانينهم وعاداتهم، بما في ذلك قوانين الوراثة والأعياد وعقود النكاح، ويسخرون من شعائهم الدينية.

وأخيراً: هناك اعتراف بأن الإنجليز كانوا يفرضون الضرائب الباهظة على الهنديين ويجعلون أعزة أهل الهند أذلة يتجولون في الأرض بلا مأوى، مما يعكس القمع والظلم الاجتماعي الذي كان يمارس ضدهم. فهل بقي هناك مجال للدفاع عن قيم الحكومة البريطانية الاجتماعية؟ أو هل يقوم الباحث بالدفاع عن الانتقادات المتعلقة بقيم حكومة البريطانية، والحال أن هناك شهادات صادقة من بني جلدتهم تدل على خلاف هذا الأمر؟

ويقول بولتس: "كان يصب على أبدان الصانعين البائسين من المظالم والعقوبات ما لا يتصوره العقل، كأنهم جعلوا عبيداً للشركة، فإن الغرامة والحبس والتعهد الجبري والضرب بالعصا، كل ذلك أبادهم، وقطع حبلهم، وأتى على حرثهم ونسلهم"^٢.

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٤٨٧، ٤٨٦.

٢ - المرجع السابق، ص: ٤٩٠.

يقول لورد كلايف نفسه: كفى أن أقول في مظالم بنكال بأنني ما سمعت وما شاهدت مثل هذه المظالم والأعمال السيئة والفساد وأخذ الرشوة. ويقول سر فريدرك ترويس في سنة ١٨٢٠م ما معناه: الهند تعاني من الفقر الشديد، مما يجعل منظرها محزنًا ويؤثر على الناظر إليها. أهلها يعيشون في ظروف صعبة، حيث تبدو عليهم علامات الفقر والضعف، ويرتدون ملابس رثة. كل همهم هو الحصول على لقمة العيش، ويعانون كثيرًا من أجل ذلك، مما يجعل أجسامهم هزيلة ووجوههم مصفرة^١.

تكشف هذه العبارات عن مظالم وفساد شديد في بنكال والهند عامة، حيث يقر لورد كلايف بوجود مظالم لم يسبق له مشاهدتها. كما يصف سر فريدرك ترويس في عام ١٨٢٠ الفقر المدقع الذي يعاني منه أهل الهند، مشيرًا إلى أنهم يعيشون في ظروف صعبة، ويرتدون ملابس رثة، وتظهر عليهم علامات الفقر والضعف. كل همهم هو الحصول على لقمة العيش، ويعانون كثيرًا من أجل ذلك، مما يجعل أجسامهم هزيلة ووجوههم مصفرة.

ويكتب مستر كنزي في مذكراته: "هذا العمل محير جدا، إن شرفاء الإنجليز ورحماتهم يحتقرون أهل الهند، ويعملون على إذلالهم وتحقيرهم، وفي الحقيقة أنهم لا يستحقون ذلك؛ لأنهم شرفاء"^٢. وهكذا تجمع أقوال الإنجليز أنفسهم على شناعة ما فعلوا بالهند وما آل إليه أمرها على أيديهم، وهم لا يزالون يزحفون في عهد الشركة.

من خلال هذا المبحث، يمكن استنتاج هذه النقاط الرئيسية:

١. أسهمت الإمبراطورية المغولية الإسلامية في نشر الحضارة في شبه القارة الهندية بصور مختلفة، بقيت كثير من آثارها بعد أن سيطرت الحكومة البريطانية، حتى إن بعض آثارهم قد بقيت حتى الآن.
٢. الآثار التي بقيت من الحكومة البريطانية أكثرها آثار سلبية، أدت إلى تدهور أوضاع البلاد، وانحيار الازدهار الحضاري الذي كان يتمتع به الشعب.
٣. إذا كانت هناك بعض الانتقادات حول قيم الحكومة المغولية، فقد تصدى العلماء للإجابة عنها ودحض تلك المزاعم والإشاعات.
٤. اعترف كثير من الغربيين بظلم الإنجليز في الهند، وكشف ما مكرت بالشعب الهندي الضعيف، وهذه الاعترافات لا تدع مجالاً للدفاع عن قيم الحكومة البريطانية في تلك البلاد.

١ - انظر: المرجع السابق، ص: ٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩٠.

٢ - المرجع السابق، ص: ٤٩٩، ٥٠٠.

الخاتمة

وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها:

١. القيم التي سادت بلاد الهند فترة سلطنة الإمبراطورية المغولية الإسلامية تنقسم إلى قيم فردية مثل: القيم الإنسانية، والفكرية والاجتماعية، وقيم اجتماعية، مثل: القيم الأخلاقية والسياسية والحضارية.
٢. القيم التي سادت بلاد الهند فترة استعمار بريطانيا الهند تنقسم إلى قيم ديمقراطية مثل: مراعات حقوق الأقليات، والمساهمة في الحكم وقيم تنمية، مثل: تحسين الاقتصاد، والاهتمام بالتعليم ورعاية الصحة.
٣. تتفوق القيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية على القيم البريطانية بثلاثة محاور رئيسية، وهي الأسس، والغايات، والآثار. فباعتبار هذه المحاور يبين الفرق الواضح الجلي بين قيمهما.
٤. القيم الإسلامية في الإمبراطورية المغولية الإسلامية بالتركيز على الشريعة الإسلامية مصدرا، وتوسيع العدالة، وتطوير البلاد ماديا ومعنويا، وتضمن الحقوق هدفا، حققت إنجازات باهرة، ومكاسب عالية، بقيت آثارها حتى الآن.
٥. القيم الغربية في الإمبراطورية البريطانية بالتركيز على العقل البشري مصدرا، وتلبية الحاجات المادية، وتوسيع سيطرة على البلاد هدفا، دمرت حضارة الهند، وتسببت في قتل الملايين من البشر، وأفقرت البلاد الغنية، وخلفت ورائها آثارا سلبية تعاني منها الشعب الهندي حتى الآن.
٦. تراث القيم الإسلامية الجلي للشعب الهندي هي التوحيد، والفنون المختلفة، والعلوم النافعة، وتطور البلاد، وأما تراث القيم البريطانية البارزة هي الجوع، والضعف الاقتصادي، والطائفية، والتبعية الفكرية، وأنواع التمييز العنصري.
٧. للفهم الصحيح لمكانة قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية في الهند، لا بد من إجراء مقارنة بين الفوائد والأضرار التي تسببت فيها هاتان الإمبراطوريتان بشكل منفصل. والذي ينتج من إجراء هذه المقارنة - كما يتضح لمن يراجع هذا البحث المختصر - أن قيم الإمبراطورية البريطانية لا تساوي عُشر قيم الإمبراطورية المغولية.

٨. ما شيدته الحكومة البريطانية في الهند من حضارة وبناء إنما كان معظمه لخدمة الاستعمار ومصالحه، لا للشفقة على الشعب العزل، بخلاف الحكومة المغولية.
٩. سادت بلاد الهند فترة حكم المغولي قيم فردية واجتماعية، والحال أن كثيرا من تلك الحكام لم يكونوا ملتزمين بالإسلام وقيمه الرفيعة، فما بالك لو كانوا ملتزمين به؟
١٠. يتصدى بعض من ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة للدفاع عن فترة حكم الإمبراطورية البريطانية في الهند، ولا شيء أبرز لسخافته من اعتراف البريطانيين أنفسهم بالظلم والعدوان.

التوصيات

- بعد عرض هذا البحث ونتائجه يقترح الباحث جملة من التوصيات على النحو الآتي:
- ١ - مواصلة البحث في هذا الموضوع؛ لأن استيعاب هذا البحث الرائع يحتاج إلى جهد كبير.
 - ٢ - إقامة المؤتمرات والندوات العلمية حول فقه القيم عموما ومقارنة القيم الإسلامية والغربية خصوصا، وحبذا لو أخذت في هذا المجال أمثلة واقعية في التاريخ.
 - ٣ - السعى في إعداد الدعاة في العصر الحاضر عقيدة ومهارة للحيلولة دون القيم الغربية وخطة الغربيين.
- وفي ختام هذا البحث أحمد الله تعالى الذي منَّ عليَّ بجمع هذه الرسالة وإتمامها.
- الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلوة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله و صحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الآيات القرآنية حسب ترتيب السور

الآية	الرقم	السورة	الصفحة
لَا أُكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ	٢٥٦	البقرة	١٠٧
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ	٦٤	آل عمران	١٠٧
كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ	١١٠	آل عمران	٦٦ , ٤
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا	٥٨	النساء	١٥
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ	٨	النساء	١٥
أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ	٥٠	المائدة	٦٢
وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ	١٠٨	الأنعام	١٠٨
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا	٩٩	يونس	١٠٧
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ	٣٦	النحل	٦٢
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى	٩٠	النحل	٩٤
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ	٧٠	الإسراء	٥٦
وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ	٤٦	العنكبوت	١٠٨
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا	٣٠	الروم	١٧
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا	٧	الشمس	٢٢

فهرس أطراف الحديث والأثر على الترتيب الهجائي

الصفحة	طرف الحديث
١٦	بعثت لأتمم صالح الأخلاق
٣٣	عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار
١٨	كل سلامي من الناس عليه صدقة
١١٢	من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة
٣٣	وعدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوة الهند
١٥	يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي

فهرس الأماكن والبلدان

المكان	الصفحة
حرف الهمزة (أ)	
أجمير	٤٥
أحمد آباد	٢٣٨ ، ١١٧ ، ٩٦
أزيسه	٥٠
أغرا	٢٦٣ ، ٢١٩ ، ١١٤ ، ٤٩ ، ٤٥ ، ٤٣
أفريقيا	٢٤٨ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١٠١ ، ٨٤
إله آباد	١٨٢
أمركوت	٤٤
أمريكا الجنوبية	٣٠
أمريكا الشمالية	٣٠
أورانجاباد	٥٢
إيران	١٦٨ ، ١٦١ ، ١٠١
حرف الباء (ب)	
باريد	٣٦
باكستان	٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩
بحر البلطيق	٢٧
بخارا	٥٠
برهم بوترا	٣٠
بريطانيا	٣٠
بلاد الشام	٢٧
البنجاب	١٨٨ ، ١٥١ ، ٣٨

٢٧٠ ، ٢٩	بنغلاديش
٢٩	بوتان
٢٧٠	بورما
٣١ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٨٢ ، ٢٥١	بومباي
٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤١	بيروت
١٠٠ ، ١٢٦ ، ٢١٧ ، ٢٩١ ، ٢١٨	بيهار
حرف التاء (ت)	
٢٩	التبت
حرف الجيم (ج)	
٢٧	الجزر البريطانية
٢٥٥	الجزر اليابانية
١٩٨	جزيرة
٢٧	جزيرة العربية
حرف الحاء (ح)	
٥٠ ، ٧٤ ، ٩١	الحرمين الشريفين
حرف الخاء (خ)	
٣٠	خليج بنكاله
٥٠	خيوه
حرف الراء (ر)	
٢٧ ، ٢٥١	روسيا
٧٢	رهانبور
حرف الدال (د)	
٣٥	الديبل
٥٢ ، ١٠٠ ، ١٢٦ ، ٢٣٨	دكن

٤٩	دوهاب
حرف السين (س)	
٤٥	سكندر آباد
١٨٨ ، ١٠٠ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ٣٠ ، ٢٩	السند
١٩٩	سورات
٨١ ، ٧٧ ، ٤٨	سيالكوت
٢٧	سيريا
حرف الشين (ش)	
١١٩	شاهجهان آباد
حرف الصاد (ص)	
٢١٠ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٢٧ ، ٢٦	الصين
حرف العين (ع)	
٩٠	عراق
حرف الغين (غ)	
٣٧	غزنة
٢٣٨ ، ١٠٠ ، ٧٣	غوجرات
حرف الفاء (ف)	
٢٨٧ ، ١٢٦	فرغانة
٢٧	فلسطين
٢٨٦ ، ٢٨٣ ، ١١٧ ، ٨٤	فيجاورا
حرف القاف (ق)	
٢٧	القارة الأوربية
٢٧	القوقاز
١٠٠ ، ٤٤	قندهار

حرف الكاف (ك)

٢٤٠ ، ١٢٦ ، ١٠٠ ، ٤٣ ، ٤٢	كابل
٢٨٩ ، ٢٥٥ ، ٢٠٠ ، ١٨٢ ، ١٨٠ ، ١٦٣	كلكتا
٢٧	كالميكيا
٤٨ ، ٣٠	كشمير
٣١	كانشينجونجا
٣٦	الكيرج
١٠٠ ، ٤٤	قندهار

حرف اللام (ل)

٢٦٢ ، ١٨٦ ، ١٨٢ ، ١٠٤ ، ١٠٠ ، ٨١ ، ٤٨ ، ٤٧	لاهور
٧٥	لكناو
٢٩٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٢٧ ، ٢١٤ ، ٢٠٩	لندن

حرف الميم (م)

٢٧	المحيط الهادي
١٠١ ، ٩١ ، ٧٣ ، ٤٢	مكة
٢٧ ، ٢٦	منغوليا

حرف النون (ن)

٢٩	نيبال
----	-------

حرف الواو (و)

٢٦	وسط آسيا
٣٠	الولايات المتحدة

حرف الهاء (هـ)

٢٦	الهضبة المنغولية
٢٩	همالية

حرف الياء (ي)

٢٩

يشرب

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. محمود طرزي نصير سهام، الناشر: مطبعة دولتي -١٣٦٧هـ.
٣. آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد القزويني، الناشر: دار صادر - بيروت.
٤. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني، الناشر: دار القلم - دمشق - ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٥. أحاديث صريحة في أمريكا، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، الناشر: مؤسسة الرسالة - ١٩٨١م.
٦. الاحتلال البريطاني في شبه القارة الهندية، سماح سلام، الناشر: مجلة المقتطف المصري التاريخية - ٢٠١٠م.
٧. اختناق هندوستان، ويل دورانت، مترجم رحيم نامور، الناشر: گام - ١٣٥٦هـ ش.
٨. الأخلاق النظرية، عبد الرحمن بدوي، الناشر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.
٩. الأخلاق وأسسها، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الناشر: دار القلم - ١٩٩٩م.
١٠. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله القرطبي، الناشر: دار الجيل - بيروت - ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١١. الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٢. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ.
١٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - ١٤٢٣هـ.
١٤. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة الخواطر)، عبد الحي بن فخر الدين الطالبي الحسيني، الناشر: دار ابن حزم - بيروت - ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
١٥. الأعلام، خير الدين الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين - ٢٠٠٢م.
١٦. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

١٧. آفاق القيمة — دراسة نقدية للحضارة الإنسانية، راف بارتن ييري، الناشر: مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦٨م.
١٨. أفغانستان قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه، محمود شيث خطاب، الناشر: دار قتيبة — ١٩٩٠م.
١٩. أفغانستان، محمود شاكر، الناشر: المكتب الإسلامي — ١٩٨٠م.
٢٠. الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: وزارة الأوقاف السعودية
٢١. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان — ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٢٢. تاريخ الإسلام في العصور الوسطى، جمال الكيلاني، الناشر: مكتبة المصطفى — القاهرة — ٢٠١١م.
٢٣. تاريخ الإسلام في الهند، عبد المنعم النمر، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع — ١٩٨١م.
٢٤. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد الذهبي، الناشر: دار الكتاب العربي — بيروت — ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٢٥. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، أحمد محمود السادتي، الناشر: مكتبة الآداب — القاهرة.
٢٦. تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، جمال الدين الشيال، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية — ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٢٧. تاريخ قرن هيجدهم و انقلاب كبير فرانس، آلبرماله و ژول ايزاك، الناشر: چاپخانه سپهر — تهران — ١٣٦٣هـ ش.
٢٨. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية — تونس — ١٩٨٤م.
٢٩. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، الناشر: عالم الكتب — بيروت — ١٤٠٣هـ.

٣٠. التصوير الإسلامي المغولي في الهند، ثروت عكاشة، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٩٥م.
٣١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٩٠م.
٣٢. تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، الناشر: دار الرشيد — سوريا — ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٣٣. التنصير: مفهومه وأهدافه وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم النملة، الناشر: مؤسسة الرسالة — ١٤١٩هـ.
٣٤. الثقافة الإسلامية: تخصصًا — ومادة — وقسمًا علميًا، عبد الله بن إبراهيم الطريقي، الناشر: — ١٤١٧هـ.
٣٥. الجامع المسند الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار طوق النجاة — ١٤٢٢هـ.
٣٦. جاهلية القرن العشرين، محمد بن قطب بن إبراهيم، الناشر: دار الشروق — ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٣٧. چرخه ومبانی سیستمی سیاست گذاری امور زمان در افغانستان، خدیجه نجفی، الناشر: فصل نامه کاتب — ١٣٩٨هـ ش.
٣٨. الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية — بيروت — ١٩٩٢م.
٣٩. حضارات الهند، غوستاف لوبون، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة — ٢٠١٢م.
٤٠. حقوق زن در گذر تاریخ، شیرین نظیری، الناشر: انتشارات سعید — ١٣٩٢هـ ش.
٤١. حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي، عبد العزيز عبد الغني، الناشر: دار المريخ — ١٩٨١م.
٤٢. دراسة النقوش العربية في الدولة المغولية في بلاد الهند وأثرها الحضاري، محمد يوسف صديق، الناشر: — ١٤٠٦هـ.
٤٣. دروس من التاريخ، ويل وأريل ديورانت، الناشر: عصير الكتب — ٢٠٢٠م.
٤٤. الديمقراطية في المنظومتين الفكريتين العربية والإسلامية، مصطفى أسعيد، الناشر: — ٢٠١٠م.
٤٥. ذكريات، علي بن مصطفى الطنطاوي، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع — ١٤٢٧هـ.

٤٦. رجال الفكر والدعوة: الجزء الثالث - الإمام السرهندي حياته وأعماله، علي الحسيني الندوي، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع - الكويت - ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٤٧. رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، الناشر: دار المنارة - جدة - ١٤١١هـ.
٤٨. رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر ابن عابدين، الناشر: دار الفكر - بيروت - ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٤٩. روض الأخيار، محمد بن قاسم، الناشر: دار القلم العربي - ١٤٢٣هـ.
٥٠. روضه های ششم و هفتم از خلدبرين (تاريخ تيموريان و تركمانان)، محمد يوسف واله اصفهانی قزوینی، الناشر: ميراث مكتوب ايران - ١٣٧٩هـ ش.
٥١. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (أبو داود)، الناشر: دار الرسالة العالمية - ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٥٢. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، الناشر: مؤسسة الرسالة - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٥٣. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري، الناشر: دار ابن كثير - ١٤٠٦هـ.
٥٤. الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط، محمد نجاح شبيب، الناشر: دار الفكر المعاصر - ١٩٩٦م.
٥٥. شركة الهند الشرقية الإنجليزية منذ تأسيسها حتى سقوط دولة المغول الإسلامية في الهند، نصير أحمد نور أحمد، الناشر: ١٩٩١م.
٥٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، الناشر: دار الجيل - بيروت - بدون طبع ١٣٣٤هـ.
٥٧. صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، حسين بن محمد المهدي، الناشر: دار الكتاب - ٢٠٠٩م.
٥٨. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البغدادي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٥٩. عالمكير الأول «أورنك زيب» إمبراطور الهند الكبير - دراسات تاريخية، أحمد محمد الجوارنة، الناشر: جامعة اليرموك - ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

٦٠. علم النفس الاجتماعي، حامد عبد السلام زهران، الناشر: عالم الكتب ، ١٩٨٤م.
٦١. غاندي والحركة الهندية، سلامة موسى، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة - ٢٠١٢م.
٦٢. فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، الناشر: مؤسسة الريان ، ١٩٩٨م.
٦٣. فلسفة القيم، رمون رويه، الناشر: مطبعة جامعة دمشق - دمشق - ١٩٦٠م.
٦٤. قادة فتح السند وأفغانستان، محمود شيت خطاب، الناشر: دار الأندلس الخضراء / دار ابن حزم - بيروت - ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
٦٥. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٦٦. قصة الحضارة: الهند وجيرانها، ول وايريل ديورانت، الناشر: دار الجيل - بيروت - ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٦٧. القيم بين الإسلام والغرب، مانع بن محمد المانع، الناشر: دار الفضيلة - الرياض - ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٦٨. الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٦٩. كواشف زیوف، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني، الناشر: دار القلم - دمشق - ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٧٠. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، الناشر: دار صادر - بيروت - ١٤١٤هـ.
٧١. للوحي معان أخرى، محمد عثمان الخشت، الناشر: دار روابط للنشر ، ٢٠١٨م.
٧٢. لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي الحنفي، الناشر: دار النوادر - دمشق - ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
٧٣. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، علي بن عبد الحي الندوي، الناشر: مكتبة الإيمان.
٧٤. المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، أحمد بن شعيب النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٧٥. المحيط البرهاني في الفقه النعماني، محمود بن أحمد البخاري الحنفي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٧٦. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، الناشر: المكتبة العصرية/الدار النموذجية - بيروت/صيدا - ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٧٧. المدخل إلى علم الأخلاق، وليام ليلي، ترجمة وتقديم وتعليق علي عبد المعطي محمد، الناشر: دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩١م.
٧٨. المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، غالب بن علي عواجي، الناشر: المكتبة العصرية الذهبية - جدة - ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٧٩. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، الناشر: الحلبي ، ١٩٥٤م.
٨٠. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، الناشر: دار التأصيل ، ١٤٣٥هـ.
٨١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، الناشر: مؤسسة الرسالة - ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٨٢. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج القشيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي.
٨٣. مشاهدات في الهند، أمينة السعيد، الناشر: دار المعارف للطباعة والنشر - مصر - ١٩٤٦م.
٨٤. مشروع الشرق الأوسط الكبير، عبد القادر رزيق المخادمي، الناشر: ديوان المطبوعات الجامعية - ٢٠٠٥م.
٨٥. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر: دار صادر - بيروت - ١٩٩٥م.
٨٦. معجم الغني الزاهر، عبد الغني أبو العزم، الناشر: مؤسسة الغني للنشر - ٢٠١٣م.
٨٧. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، الناشر: عالم الكتب ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٨٨. المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار، علي محمد الصَّلَائي، الناشر: الأندلس الجديدة - مصر - ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٨٩. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد الأصفهاني (الراغب الأصفهاني)، الناشر: دار القلم - دمشق/بيروت - ١٤١٢هـ.

٩٠. من نهر كابل إلى نهر اليرموك، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، الناشر: دار الهلال - ١٩٧٤م.
٩١. موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، أحمد معمور العسيري، الناشر: - ١٩٩٦م.
٩٢. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٤٢٠هـ.
٩٣. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مانع بن حماد الجهني (إشراف وتخطيط ومراجعة الندوة العالمية للشباب الإسلامي)، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٤٢٠هـ.
٩٤. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، صالح بن حميد وآخرون، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع - جدة.
٩٥. النظام السياسي الإسلامي والفكر الليبرالي، محمود الجوهري، الناشر: دار الفكر - القاهرة - ١٩٩٣م.
٩٦. الهند في العهد الإسلامي، عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، الناشر: دار عرفات ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٩٧. الهند في العهد الإسلامي، عبد الحي بن فخر الدين الدينوي/اللكنوي، الناشر: دار عرفات - ٢٠٠١م.
٩٨. الهند في ظل السيادة الإسلامية، أحمد محمد الجوارنة، الناشر: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع. -
٩٩. الهند والغرب، علي أدهم، الناشر: دار المعارف - مصر. -

المراجع الإنجليزية:

١. Katherine Mayo, Mother India, Published by Harcourt, Brace and company, INC, ١٩٢٧, page: ٧٣.
٢. IMPACT OF BRITISH RULE ON INDIA: ECONOMIC, SOCIAL AND CULTURAL (١٨٥٧-١٧٥٧).

३. Shashi Tharoor, *Inglorious Empire, what the British did to India*, Published by Scribe २०१५, २०१६.

فهرس الموضوعات العامة

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التعريف بالموضوع	٥
أهمية الموضوع	٦
أسباب اختيار الموضوع	٦
الدراسات السابقة	٧
مشكلة البحث	٨
أهداف البحث	٨
منهج البحث	٩
خطوات البحث	٩
خطة البحث	١٠

التمهيد

الأمر الأول: القيم، تعريفها وخصائصها	١٤
الأمر الثاني: التعريف بـ «الإمبراطورية»	٢٥
الأمر الثالث: التعريف بالمغول	٢٧
الأمر الرابع: جغرافية الهند وموقعها في العالم	٣٠
الأمر الخامس: نبذة عن تاريخ دخول الإسلام بلاد الهند	٣٤
الأمر السادس: التعريف المختصر لأبرز السلاطين المغولية	٤١

الباب الأول

الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها

الفصل الأول: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الفردية	٥٥
المبحث الأول: القيم الإنسانية	٥٦
المبحث الثاني: القيم الفكرية	٦٢

٦٩	المبحث الثالث: القيم العلمية
٨٤	الفصل الثاني: الإمبراطورية المغولية الإسلامية وقيمها الفردية
٨٤	المبحث الأول: القيم الأخلاقية
٩٣	المبحث الثاني: القيم السياسية
١٠٥	المبحث الثالث: القيم الحضارية

الباب الثاني

الإمبراطورية البريطانية وقيهم

١٢٩	الفصل الأول: الإمبراطورية البريطانية وقيهم الديمقراطية
١٣٥	المبحث الأول: الحرية
١٤٢	المبحث الثاني: مراعاة حقوق الأقليات والطبقات الضعيفة
١٦١	المبحث الثالث: المساهمة في الحكم والأمن
١٦٧	الفصل الثاني: الإمبراطورية البريطانية وقيهم التنمية
١٦٨	المبحث الأول: تحسين الاقتصاد
١٧٣	المبحث الثاني: الاهتمام بالتعليم
١٨٠	المبحث الثالث: العناية بالصحة

الباب الثالث

المقارنة بين قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية

وتراثهما في الأجيال اللاحقة

١٩١	الفصل الأول: المقارنة بين قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية
١٩٣	المبحث الأول: تلبية شهوة المال وآثارها السيئة
٢١٨	المبحث الثاني: تلبية شهوة الجاه والسلطة وآثارها السيئة
	الفصل الثاني: تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية ودفع الشبهات

٢٥٣	المبحث الأول: تراث قيم الإمبراطورية المغولية الإسلامية والإمبراطورية البريطانية
-----	---

٢٧١	المبحث الثاني: دفع الشبهات عن قيم الإمبرطورية المغولية
٢٨٨	الخاتمة
٢٩٠	فهرس الآيات القرآنية
٢٩١	فهرس أطراف الحديث والأثر
٢٩٢	فهرس الأماكن والبلدان
٢٩٧	فهرس المصادر والمراجع
٣٠٦	فهرس الموضوعات